

رباعية كفر عسكر

حكايات المدندش
سيرة العمدة الشلبي

الجزء الثالث والرابع

أحمد الشيخ



المجلس الأعلى للثقافة



رباعية كفر عسكر

الجزء الثالث والرابع

حكايات المدندش

سيرة العمدة شلبى

أحمد الشيخ

الطبعة الثانية ، ٢٠٠٣

المجلس الأعلى للثقافة

١ شارع الجبلاية، دار الأوبرا، القاهرة

الرقم البريدي: ١١٢١١

تليفون: ٧٣٥٢٣٩٦

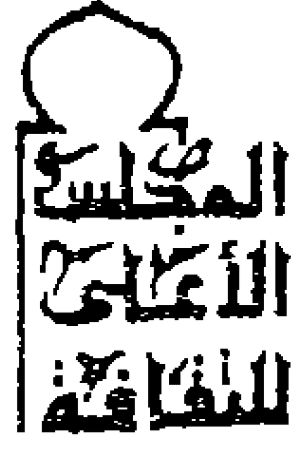
فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤

بريد إلكتروني:
egypt council @ yahoo. com

رقم الإيداع: ٢٠٠٣/٢٤٥٧

التصميم والإخراج للفنان

عـدلي رزق اللـه



إبـداعـات التفـرغ
[١١]

رباعية كفر عسكر

حكايات المدندش

سيرة العمدة الشلبى

الجزء الثالث والرابع

أحمـد الشيخ

رباعية كفر عسكر
[٣]

حكايـات المدنـدش

النسافة وزمانها

سوف أحكى لكم حكاية الست النسّافة وعيالها قبل أن يحـين الأجـل المحتوم وينتهى العمر فينساها الناس أو يغيروا ترتيب أحداثها أو يصـبح عاليها واطيها شأن كل شىء يفوت عليه الزمن الدوّار أسرع من الساقية، والناس فى كفرنا وكل الكفور المجاورة يولّدون البغلة ويعملون من الحبـة قبة، صحيح أننى منهم، من نفس ناس الكفر «الأزرق» لكننى أختلف عنهم، عشت وسطهم صحيح لكن لكى أتفرج عليهم قبل أن أفرّجهم على أرواحهم، أقلّد أصواتهم أو خطواتهم فيضحكون، حتى حضرة جناب العمـدة الجديـد يضحك عندما أقلد مشيته أو أتنحنح مثلما يفعل شيخ البلـد العجـوز فـى أنصاف الليالى، وربما أقلّد لهم صوت الثور الهـائج أو الجحشـة طالبـة العُشر، أو أنادى مثلما يفعل رجب الأعور عندما يسرح فـى دروب الكفـر بحثًا عن فردة حلق مسلوتة من أذن طفلة أو بطة شردت فوق أسطح الدور وتاهت أو حتى صديرى طيرته الريح، ينادى ويمنى الخلق بالمكافأة الحلال، أنا حسنين المدندش، حلاق حمير الكفر ومداوى جراحهـا، طبـال الكفـر وزماره، رداح الكفر ونداب الموتى والمغدورين وكاتم أسـرار النسـوان، لا خلفة ولا عيل وأنا الذى ولّدت المواشى. تنفتح الأبـواب إذا قصـدتها، أتعشى وأشرب الشاى ولى من كل ذبيحة نصيب معلوم، ولسـانى حصـانى المفلوت يوشك أن يرمينى فى الهلاك لولا لجام العقل، فى طفولتى وصباى حفظت نصف كتاب الله وحملته على صدرى، لكننـى فـى صـدر شـبابى استدرت وانحرفت وسافرت ورجعت وقرأت كتب الأفندية وتلامذة المدارس، كنت أشحذها شحاذة أو أسرقها سرقة، أقرؤها وأداريها دون غرض معلوم، كتب عن الجن والناس والبلدان البعيدة وتواريخها، عن البحـار والجبـال وأنساب القبائل القديمة وسلالات الغجر، سافرت ورجعت، ومن حدود بلاد النوبة قبل التهجير حتى شطوط البحر المالح عرفت ناسًا وعرفنى نـاس،

ورَغم الفقر وقلة الحيلة معدود فى الكفر ومحسوب حسابى، وأنا غرضى أن أحكى لكم حكاية النسافة، وأعرِّفها لمن لم يحضر أو يشهد أو يعايش مثلما فعلت، وأنا لالى فى الثور ولا فى الطحين، غاية ما هنالك أننى ضحكت فى عبِّى مرة، كانت ضحكة عاقلة فى الأول، وكان من الممكن أن تفوت مثل آلاف الضحكات التى فاتت، لكنها كبرت وزادت عن حدودها، مطّها شيطان ومطّها حتى جلجلت فى أركان الدار وخرجت للشارع، سرحت فى دروب الكفر مثلما كان رجب الأعور نفسه يسرح فى دروب الكفر، قال الناس للناس أن حسنين المدندش قد انخبط فى عقله وأنه على جناب العمدة مسئولية طلب السراية الصفراء التى هى فى العباسية أو التى هى فى الخانكة، أنا نفسى قلت لنفسى أن العقل الموزون الساكت قد أصابته بالفعل لطشة غير معمول حسابها، كنت أقف فى أمان الله أمام جثة المرحوم رجب الأعور مشرفا على الولد ابن بحر الذى يغسِّله وبعينه الحولاء ينظر إلى الكفن المفتخر من الحرير اليابانى سبع طاقات، لعلنى فكرت أن الولد ابن بحر سوف «يسلته» من فوق جثة رجب الأعور بعد أن يدفنه، لعلنى فكرت أن رجب الأعور الذى عاش عريانًا وجوعانًا أو هفتانًا وفى بعض الأحيان مضروبًا على قفاه أو مزغودًا فى صدره هو نفسه رجب الأعور الذى تجمَّع كل أكابر الكفر والكفور المجاورة بما فى ذلك حضرات العمد، مسكينًا عاش ومستورًا من حيث لا يحتسب يموت، لو رأى نفسه لدقيقة واحدة وهو محاط بكل هذا الاهتمام لتخلص من فقر الدم والبلهارسيا ودود البطن وتلك الأمراض الأخرى المخفية التى كان يحملها ولا يعرفها أحد، لعلنى فكرت فى كل هذه الأشياء فى لحظة واحدة فأنفلتت الضحكة، ولعلنى قرأت فى عيون الناس خوفهم، أراهن بكل ما تبقى من عمرى أنهم جميعا كانوا يرغبون فى الضحك ويكتمون الرغبة، ناس كفرنا «البرتقالى» تنقصهم الجرأة يا ناس، نقصت قدرتهم على أن يقولوا للأعور: أنت أعور، نقصت فيهم الرغبة فى الضحك والفرح ونسيان الهم الراكز على القلوب، ولأننى ضحكت وحدى وفى حضرة كل أكابر الناحية فقد أبعدونى بالقوة الجبرية وأنا أضحك وأضحك، أتمثَّل وجه ابن النسافة وقد زاغت عيناه وانحنى قفاه، وأراه وقد

ارتمى على الأرض بحثًا عن مداس حضرة العمدة ابن العمدة: «وأنا في عرضك وطولك، وأنا وقعت من السماء وأنت ياجناب حضرة العمدة تلقيتني، مالي في الكفر غيرك. أنت أهلي وناسي وعزوتي إن كانت لي في الكفر عزوة».

وكلام مثل هذا كثير سمعته والعمدة جامد في مكانه لا يرد بخير ولابشر، لا يعد ولا يرفض وكأنه يشجع الولد على الاستمرار، كل هذا رأيته مثلما رآه غيري لكنني ركّبته على بعضه وزودت عليه ما كنت أعرفه عن النسافة وابن النسافة ولا يعرفه الناس فكبرت الضحكة والموت حاضر يحوم معلنًا عن نفسه بالارتكاز على جثة رجب الأعور، وفي كفرنا وكل الكفور ينكتم الكل في حضور الموت، أشقى الأشقياء وأضعف الضعفاء، أغنى الأغنياء وأفقر الفقراء يتساوون مثلما يتساوى الأتقياء والمفسدون في الأرض، كلهم كلهم يحصلون على الرحمة ودمعة الإشفاق، الغريب والقريب، العدو والحبيب. لكنني نسيت وضحكت، أضحكني ابن النسافة فأنساني الأصول، ويلزم أن أبين لكم أن موت رجب الأعور في هذا الوقت بالذات كان بكل الحسابات نكبة لعصام ابن النسافة، وقد علا نجمه في السنوات الأخيرة اكثر من كل من علا نجمهم، وكأنه الوحيد المسموح له بالامتلاك من بعد انعدام الملك، ثم تزويد حيِّز الامتلاك ومعاودة تزويده في الأرض والتجارة وشرك المواشي، قال البعض إنه جن مصوّر طالع من تحت الأرض وعارف سر الزمن، يلاعب الكل ويكسب دائمـا، وإن أمه النسافة دعت له في ليلة قدر واستجابت السماء، وقال البعض الآخر إنه مجرد «هلفوت» بلا مبدأ باع كل شيء وفرط في كل شيء من أجل القرش وأنه لف ودار حول نفسه وحول الناس مثل حجر طاحونة مشروخ في أساسه وإن لم يلحظ الشرخ غير القلة القليلة التي قال بعضهم للبعض الآخر إن الحجر المشروخ الدائر لابد من لطشه أو كسره، وهاهي لطشة لا كانت معمول حسابها عنده ولا خطرت على بال أمه، تلك التي عاندت وعاندت وعاندت، ركبت رأسها ولم تستجب لرجاء الكبار والصغار، والعند في كفرنا «الزهري» يورث الكفر كما يقولون، العند يعمي المعاند فلا يلحظ ما هو

أبعد من ظل قدمه، وليس فى كل مرة تسلم الجرة كما تعرفون، يوم طلاق بنت زهيرة كان يوم، خرجت بقميص النوم، ولولا أن سترتها أمها بثوبها وشالها لشافها الناس وهى خارجة من دار النسافة نصف عريانة ويا مولاى كما خلقتنى، تنازلت عن كل حقوقها، ذهبها وعزالها ومؤخر صداقها وحضانة الولدين، بل إنها قالت لرجال المجلس الملموم من ذوى الشوارب إنها على استعداد لأن تقص شعرها الذهبى الناعم وأن تهديه للنسافة أم الولد عصام إذا طلبته، وحقى برقبتى يا ناس، ولعل المجلس الملموم والذى جاء ليشهد شعر بالحرج فأعفاها وإن كان لا يؤيد جرأتها فى اتهام المرأة وابنها بالبخل ودناءة النفس، لكنها على كل حال وبحسابات أكثرية ناس كفرنا ضيعت حقوقها بكلام فارغ نطق به لسانها المفلوت ساعة غضب، وربما كان هذا الكلام الفارغ نفسه سببًا فى إسراع النسافة بإعادة تزويج الولد، اختارت بنت نفيسة وضحت بالكثير، استجابت لكل الطلبات وكأنها تنفى بما تدفعه عن نفسها تهمتى البخل ودناءة النفس، صحيح أن بنت نفيسة كانت فى الإعدادية لكن ما قيمة الإعدادية إذا ظهر العريس المستور فى كفرنا؟ قلت لكم فى الأول إن الزمان دار واستدار، وإنه فى كفرنا «الوردى» ارتفع نجم ناس وانطفأ سراج ناس، انكشف من كان فى الأصل مستورًا، وتغطى فى غفلة منا من عاش عريانًا خلال تلك السنوات الأخيرة التى تعد على أصابع اليد الواحدة، لكن الأمر لا يثبت على حال أبدًا، وسبحانه علاَّم الغيوب فمن كان يعلم أن زواج ابن النسافة من بنت نفيسة سوف ينتهى تلك النهاية التى ذكرتنى «بدحديرة» الواطية أيام زمان، أيامها كان أشجع ولد فينا يحاول النزول على مهل فيجد نفسه يتدحرج غصبًا حتى يصل إلى فراغ الواطية وأرضها التى غطاها النشع، ينعاص جلبابه ويجلس فى شمسها حتى يجف ويفرك الثوب دون أن يفلح فى إزالة كل الأثر مهما حاول، ربما لأن طين الواطية كان لا يخلو من عطن أخضر يلبد فى نسيج أقمشة جلابيب العيال ولا يزول أبدًا.

- يوم وصول العبدة البربرية وعيالها زمام الكفر

كان حر «بئونة الحجر» يشويني، وكان حجر جلبابى المملوء بثمار الخيار يرطب قلبى ويشفينى، كان شيطانى قد أغرانى فى الظهر الأحمر فطاوعته وأعطانى، ساعدنى على جمع خط الخيار من «مدادة» الحاج مصطفى، وكانت الدنيا من حولى ساكتة إلا من طنين الذباب السارح من ناحية المدافن، ومن وسط الشرد سمعت صوتها ينادى:

- اد لعدى ياللى فايت.

قلت لروحى «صوت غريب» قبل أن ألتفت وأراها بعودها النحيل وسمرة ملامحها التى تميل إلى السواد أكثر، أسنانها منتظمة ومشرقة البياض، شيء مختلف يؤجل المشاوير المستعجلة. قلت وأنا أفرغ حجر جلبابى عند جذع الجميزة العجوز:

- نعمين

وكنت أشرب من زير إبراهيم السقا المحطوط سبيلا لله والذى لا يساويه أى زير فى كل الناحية فى تبريد الماء أو الجوف وأسمعها تكلمنى:

- يسترها معاك تدلنى على دار شبل المنسى ياخويا.

نظرت فرأيت إلى جوارها طفلتين جميلتين، بياض بحمرة وشعر أسود مدهون بزبدة والعيون شاردة لغزالتين فى الثانية والثالثة من العمر فقلت يا سبحان الله. وكان هناك فى الناحية الأخرى بالقرب من كوم الخيار ولد فى الخامسة بعينين مدورتين تنظران بجرأة بينما يقضم الفم من خيارة وفى القبضة الأخرى خيارة، امتلكها وتأكد من امتلاكها والعبدة البربرية تقول بصوتها الخافت الذى يؤيد أكثر مما يحتج:

- يا وله...
- سيبيه.

قلت لها وأنا أتناول خيارتين وأمسحهما فى ذيل جلبابى وأناولهما للبنتين المترددتين فى الأخذ لولا التشجيع:

- غريبة يا ست؟
- غريبة وقريبة... يستر عرضك ويقويك.

أقول لكم الحق، تعاطفت معها، كانت تبتسم ببشاشة وضعف فتبرق أسنانها القوية المنورة، وقلت لنفسى إنه من الممكن أن يعشق الرجل امرأة بسبب انتظام أسنانها وينسى أنها بربرية ثم أستعذت بالله من شياطين الظهيرة، قلت وأنا ألمح العربجى حسن عمارة بسوق البغلة المعاندة:

- لمّى الخيار ويايا لجل ما نركب مع العربجى اللى جاى دهه.

شاورت لحسن عمارة فأوقف البغلة «الحرنانة» بعسر حتى ركبنا، وعندما ساقها سألنى:

- على فين يا مدندش بالضيوف اللى وياك؟
- دار شبل المنسى، وصلنا انت بس لحد البوابة.
- امال الخيار ده كله منين؟ بتاعك؟ دا لسه صابح بنواره.
- بتاعى وشاريه م البندر، ح اتاجر فيه يا جلانب البلاوى.
- وماله... بتاعك بتاعك.

عند بوابة أولاد عوف كانوا فى الأركان يحتمون من سخونة الشمس ببعض الظلال التى تكسو واجهات الدكاكين ومداخل الدور، نزلت وساعدت البربرية وعيالها على النزول بينما كان حسن عمارة يشير إلى الخلق وكوم الخيار يكيدنى ويدعوهم لمكايدتى:

- خيار المدندش، جايبه لكم مخصوص تبلوا ريقكم وتدعوا لـه، يعنى هو شاريه بصدق؟ مد ايدك منك له وخد.

كنت أنظر إلى كوم الخيار الذى يتناقص بسرعة، والبغلة المعاندة وقد طاوعت بالوقوف ثابتة، والبربرية وقد حملت الولد على كتفها وسحبت البنتين إلى ركن ظليل تنتظرنى، قلت لحسن عمارة وأنا أشير للبربرية لتتبعنى:

- اللى يتفضل م الرجالة توديه الدار ياللى ينحش أجلك.

سمعتهم يضحكون وسمعت تعليقاتهم التى تكشف سر خيارى

وشيطانى الذى أغرانى وأعطانى ولكنه تخلى عنى ومـا حمـانى، جاملـت البربرية بكلام لا أذكره حتى وصلنا إلى باب الـدار المـوارب والغطسـان مسافة درجتين سلم تحت مستوى الدرب، خبطت بالسقاطة الحديد فرأيـت وجه أم المحمدى تنظر ناحيتى والبربرية والعيال وتسأل من خلال ما تبقى فى فمها من أسنان مكسرة غير منتظمة:

- عاوز إيه مننا يا مدندش؟
- غريبة وبتسأل ع الدار يا أم المحمدى.. خبر إيه؟
- عاوزه إيه ياختى؟. أنا لا أعرفك ولا شفتك قبل كده.
- أنا مرات المرحوم فرج الله اللى مات فى السَّد، ودول عياله.

بذلك ردت البربرية على أم المحمدى، وعلى غير توقع انسك البـاب الكبير وسمعنا صوت «الضبة» وهى تسكن فى المشقبية الخشبية، تبادلـت مع البربرية نظرة استنكار وقبل أن أقول لها رأيى فى أم المحمـدى وقلـة أدبها قالت هى وكأنها تفتح أمامى طاقة مسكوكة:

- ودينى لحضرة العمدة يا مدندش، ينصرك على مين يعاديك.

قالتها برجاء وصدق وعشم جعلنى أشعر بأننى علـى اسـتعداد لأن اسلمها روحى إذا طلبت، أنا الغلبان الحاوى فاعل الأفاعيل الذى لم ينتصـر على من يعاديه مرة فى كل عمره، أنا القوال الذى يحتال كـل يـوم لكـى تستمر الحياة ولكى أحمى نفسى من اكتمال الهزيمـة، بـلا سـند حقيقـى يسندنى، لا عزوة ولا أرض ولا دار عليها القيمة، وتأتى تلك الغريبة لتدعو لى بالنصر، كأنها عرفت جرح عمرى وحاولت بدعوتها أن تداويه، يعادينى فى الكفر فقرى وقلة بختى والجهل الحاكم المتحكم فى مصائر الواعين، هى القسمة غير العادلة التى وثناها دون أى اعتبار للقدرة، كنت أفكر وأنا فـى اتجاه دوَّار العمدة البعيد، وكانت تحمل الولد راكبا على كتفها وأحمل البنت الأصغر، ومن درب عوف لدرب شلبى يا قلبى لا تحزن، كانت أخبار الخيار قد سبقتنى لكل الناحية وكانوا يشاكسونى على عادتهم لكننى لا أرد، وعندما وصلنا الدوَّار طلبت مقابلة العمدة، لعله كان قد صحا من تغفيلـة القيلولـة

لحسن الحظ لأنهم سمحوا لنا بالدخول دون انتظار طويل، عرفته على البربرية وقلت له كلامًا فى صالحها وكأنها من لحمى ودمى لدرجة أدهشت جناب العمدة. لكن المرأة أدهشتنى وهى تقول للعمدة بدون مواربة:

- عندى كلام ما يتقالش غير لحضرتك، بينى وبينك يعنى، ما تزعلش يا مدندش.

وكأن العمدة كان ينتظر منها أن تقول ما قالته، أشار ناحيتى بإصبع يده فخرجت وأنا أسمع صوته الآمر:

- استنى فى السلاحليك لحد ما أبعت لك يا وله.

وطال انتظارى واحتمالى لسخافات الخفراء يسخرون منى وهم ينظفون السلاح ويشربون الشاى المصبوب قبل دخولى ويتوعدوننى بالحبس فى السلاحليك شأن اللصوص ومن تجوز عليهم «الجرسة» متناسين أننى من أتباع العمدة نفسه، لكن خفراء كفرنا لهم طبع واحد، يتباهون بالسلاح الميرى فى الدوَّار وقد يرتجف الواحد منهم وهو يحمل نفس السلاح فى «الدرك» إذا سمع بدخول شقى إلى زمام الكفر أو عبور جماعة من أولاد الليل من سكة الكفر الزراعية، وعندما يحصل الواحد منهم على كوب شاى فإنه لا يتركه إلا خاويا، يلوك رشفاته بتلذذ وكأنه يعاير الدنيا بأسرها لأنه يشرب الشاى، هل أغفيت فى جلستى المركونة إلى الجدار أم أنها كانت إغماضة عين صحوت منها على نداء البسطامى يطلبنى للدخول إلى مضيفة جناب العمدة، كانت البربرية تجلس على الدكة المفروشة والعيال إلى جانبها، قال العمدة شاخطًا:

- شوف يا مدندش، ح تأخد وياك اتنين غفر، البسطامى ومرعى، تدخلوا دار شبل المنسى، وسيان برضاهم أو غصب عنهم ح تسكنوا أم العيال دهه قاعة ستك «عالية»، ومن أى ناحية تدبروا لها فرشة وغطا تكفيها هى والعيال، واللى يعترض جرجروه ع الدوَّار.

كنا مثل جيش محمد على الطالع لفتح عكا، البسطامى ومرعى فى

الأمام وعلى كتفيهما البندقيتان، و أنا والعبدة البربرية حاملة الولد الراكب «حمارى» على كتفها الأيمن وانا احمل البنت الأكبر هذه المرة بينما تحمل البربرية البنت الأصغر على صدرها والناس تطل ولا تفهم، يتبادلون الهمس بعدما نعبر، وعند البوابة وجدنا عشرات الرجال من أولاد عوف يتقدمهم شبل المنسى نفسه الذى اقترب من البربرية واختطف الولد بشوق ولهفة يشبعه تقبيلاً وضمًا ثم يفعل نفس الشىء مع البنتين وكلنا فى دهشة، لكنه يتباكى ويفسر لمن يطلب التفسير:

- ولاد ابن عمى فرج الله، ولاد الغالى اللى راح ولا رجعش، اللى غطس ياولداه ماقبش وهو ف عز شبابه، ماعتروش على أتره، زمايله قالوا انه إندفن ف جسم السد العالى نفسه، أهم دول اللى فضلوا لنا من ريحته، بس اللى خلف ما ماتش يا ناس، اللى خلف ما ماتش.

مصمصوا الشفاه ترحمًا وإشفاقا وتعجبا واندهاشا ومجاملة، وسبقنا شبل المنسى وقد احتفظ بالبنت الأصغر يحملها ويضمها ويقبلها، وكان الباب المسكوك قد انفتح على مصراعيه باختيار سكان الدار الكثار، ربما شعر الباب نفسه بقوتنا فأنفتح، وكانت أم المحمدى هى التى استقبلتنا بالترحيب، وفى حضنها أخذت البربرية وعيالها بالتتابع وأشبعتهم تقبيلا حتى شعرنا بالملل، بعدها شالت المساند إلى الحصير ووضعتها مسنودة إلى الحيطان فى قاعة الست عالية المكنوسة، كانت تتودد للبربرية وتعتذر عن جهلها والأخرى تسمع ولا تصدق وتبدو لنا من النوع الذى إذا قدر فهو لايعفى، لكنها سكنت بعيالها فى زحمة الدار وخرجنا كل واحد فى اتجاه، الخفيران المسلحان لناحية دوَّار العمدة لتقديم التمام، وأنا فى اتجاه دارى أفكر إن كان العمدة قد قدم للبربرية خدمة أو أنه عمل فيها فصلاً بتسكينها تلك الدار وهو العارف لحالتها وطباع سكانها، وقلت لروحى إنه سوف يكون من الصعب أن تحتمل الدار سكانا أكثر وهى التى تضيق بمن فيها، شبل المنسى وأم المحمدى وأولادهما، ورجب الأعور فى المقعد العلوى وسطح الدار، وأم شبل فوق الفرن ووسط الدار تخدم نفسها بنفسها رغم

العمى وثقل الحركة، ثم نعمة الله بعيالها الخمسة الصبيان منذ طلقها مصطفى الجزار وأقسم بأنها بهيمة اسكندرانى لحمها أبيض بحمرة لكن مخها جملى، يرمى لها وللعيال «سقط» ذبيحة من كل أربع ذبائح يذبحها مدعيًا أنه الشرع بحساباته بإفتراض أنه زوج لأربع أومن الممكن أن يكون زوجًا لأربع، تسكن قاعة الست «زين»، وحجرة الواجهة محجوزة ومسكوكة على أشياء تخص الأستاذ فهيم كاتب الشهر العقارى فى البندر، كبير الدار بكل الحسابات وإن لم يسكنها لربع قرن بعد أن حصل على الابتدائية وعينوه كاتبًا يسكن البندر ويطل على الكفر فى الأعياد والمناسبات ثم يرحل محاطا بكل سكان الدار حتى يركب بعد أن يدس فى كف رجب الأعور ما تجود به نفسه لأقرب الأقربين وهو العارف كما يعرف كل ناس الكفر أن دخل الدار منعدم لا قيراط ملك ولا قيراط إيجار ولا بهيمة تحلب، ولولا مواسم الحصاد وزكاة المال والأعياد ما دخلت الدار حفنة حب ولا انخبز فى فرنها رغيف.

- نسافة الكفر: نسافة الناحية

أول شىء اشترته البربرية من البندر كان مجموعة غرابيل، كل غربال شكل وحجم وعمق، مجموعة غرابيل مختلفة فى كل شىء لدرجة تجعل الإنسان يراجع نفسه ويسأل الأخرين الذين لم ينتبهوا مثله إلى وجود كل هذه الأنواع من الغرابيل، وفى كفرنا «النعناعى» تسرح الأسئلة وتبحث عن الجواب الكافى الشافى، سألونى باعتبارى مسئولا فسألتها وجاوبتنى، أراحتهم وأراحتنى:

- مش كل حبة ولها كيال؟، طيب، يبقى كل حبة ولها غربال، خبر ايه يا مدندش؟ بقى غربال السمسم ينسف الشعير؟ ولا غربال حبة البركة ينفع مع القمح؟ طيب الذرة كام نوع؟ والرز والحلبة وتقاوى البرسيم و..يوه نسيت أولع ع الشاى.

قالتها وقامت، شفطت أكواب الشاى المشطوفة، وحطت براد الشاى فوق الراكية مصقولا ورائقا يفتح النفس، وكانت أسنانها تلمع فيرفرف

القلب مثل يمامة وحيدة ولا أجرؤ على الكلام، أسمعها وأحفظ منها، اكتشف أنه من الممكن أن يكون فى هذه الدنيا غرابيل بعدد أنواع الحبوب التى تطرحها الأرض، كل أنواع الأراضى فى كل بلاد الدنيا المسكونة، وهى تمد يدها بكوب الشاى رجعت لقاعة الست عالية وسمعت البربرية:

- ح أشتغل نسافة يا مدندش، تساعدنى؟
- تحت أمرك.

وكان على أن أفى بالوعد، عرفتها بالأجران فى كفرنا فى كل مواسم الحصاد، ثم ذاعت شهرتها وذاع صيتها فوصل إلى كل بلدان الناحية، يطلبونها بالاسم «العبدة البربرية أو البربرية النسافة أو» أم الولد الأسمر «والبنتين البيض» واتفق كل الناس أنها أبرع من أمسك بالغربال لينسف الحب وينظفه من كل الشوائب، واختصرنا اسمها وصار الكل يناديها «النسافة» ويتحدثون عنها «النسافة» وكأنها الوحيدة التى تستحق الاسم وكأنه قبل أن تجىء لم تكن هناك نسافات ولا نسف.

قالوا إن العمدة عمل كل الممكن والمستحيل ليحصل لها على معاش باعتبارها أرملة المرحوم فرج الله واعترض البعض لأن فرج الله اختفى ولم تطلع له من الحكومة شهادة وفاة، وأنه لا بد قبل الموافقة على صرف أى معاش رسمى من شهادة وفاة رسمية مختومة بالنسر، لكن العمدة تبع الحكومة ولن يغلب فى استخراج شهادة وفاة، وقالوا إنه ساعدها فى امتلاك الدار من كل الورثة غير المقيمين فيها، أولاد حبيبة وأولاد زاهية وأولاد الست عالية وورثة الحاج مرسى، والحقيقة التى أعرفها أن المرأة أرادت أن تؤمن وجودها فدارت على بيوت الورثة وهى تسحب عيالها تستدر العطف وتطلب التنازل عن حصص هزيلة من ميراث هزيل فى دار هزيلة هى فى واقع الأمر أوطى دار فى الدرب، وكثار كان الورثة وكثيرة كانت مشاويرها لكنها أثمرت على كل حال حق الولد فى امتلاك أربعة أخماس الدار، بل أن الأستاذ فهيم كاتب الشهر العقارى أخلى لها حجرة الواجهة التى ظلت طوال السنوات مسكوكة ومسكونة بالفئران وعناكب الجدران.

أى واحدة مكان أم المحمدى كانت تشيط مثلما شاطت وأكثر، ولأن أم المحمدى معروفة فى الكفر أكثر، ولأنها تدخل بيوت الخلق أكثر، تساعد فى خبيز أو عجين أو تطحن حبا أو تبنى صومعة للغلال فوق سطح دار أو تساعد فى غسيل أو طبيخ أو أى شىء. أى شىء يحتاج لجهد مبذول بمقابل أو بغير مقابل إلا الود والسماح لها بأن تفك نفسها بكلام عن النسافة وأفعال النسافة وكيد النسافة وبحرها الغويط الغويط الذى لا يعرف الناس «قراره»، كانت النسوان فى كفرنا تسمع وتهمس فى الآذان بما تسمع، حتى تلك الحكايات التى يصعب تصديقها عن عشق رجب الأعور للنسافة ورغبته فى الزواج منها وتضحيته بشقاء عمره طوال السنوات لكى يرضيها، وكيف أنها وعدته ولم تصدق أبدا، واربت له باب الرجاء ولم تفتحه أو تقفله فصار خاتمًا فى إصبعها تسيرّه بحسب ما تشاء وقتما تشاء لكنها فى الآخر قالتها له بعد أن فاته كل قطار وما عادت فكرة الزواج منها أو من غيرها تشغله بحق مثلما كان فى السابق، قالتها له:

- دإحنا اخوات يا رجب، ومن غير جواز إنت سندى وراجلى طول السنين اللى فاتت، يرضيك يا خويا معاش العيال ينقطع؟، ما هى اللى بتتجوز معاشها ومعاش عيالها بينقطع.

ورد عليها بشهامة وهو الأبيض وهى البربرية:

- لأ.. ما يرضينيش.. بلاش جواز يا أم الولد.

تقول أم المحمدى لنسوان الكفر أن رجب الأعور كان يسرح فى الغيطان أو يشتغل فى دور الخلق ويرجع للبربرية يفرغ أمامها ما حصل عليه من ثمار، خضروات أو فاكهة، أو قروش نقصت أو زادت، يرميها على الحصير فى متناول يدها ويقول عبارته التى لا تتغير:

- رزق العيال.

وأى واحد مكانه كان من الواجب أن يعمل ما عمله رجب الأعور، أولا لأنه ابن عم المرحوم فرج الله، ملزوم بالصرف على الأولاد، وثانيًا وهو الأهم أنه لم يجد فى الدار أو الدرب صدرًا حنونًا أو قلبًا طيبًا يريحه

وهو العطلان اكثر منه الباحث سعيًا عن رزقه، رزقه فى كل الحالات يأتيه لباب داره، وفى كفرنا لم يمت واحد بالجوع كما تعرفون، وهو وإن جار الزمان واحد من أولاد عوف، أصل البلد رغم كيد الكيادين.

- تزويج البنت الأكبر

دخلت كفرنا سيارة ملاكى أكبر وأفخم من سيارة المأمور ومن سيارة ابن الباشا الكبير ساكن «سرايته» فى وسط البندر، أنا لا أعرف فى أنواع السيارات ولا أسعارها لكننى آخذها بالشبه، والسيارة التى دخلت كفرنا فى ذلك الصباح الصيفى الرائق كانت أفخم سيارة رأيتها فى حياتى، رمحنا نتأكد من دخولها ناحية البوابة فرأيناها، كان السائق البربرى يحاول أن ينفذ بها داخلاً الدرب ولا يفلح، حتى عندما تدخلت متطوعًا لأكون دليله لم ينجح فى أن يفلتها ويدخل، ولم يكن ذلك بسبب نقص براعة فى القيادة كما قال البعض، كان السبب الحقيقى هو طول السيارة وعرضها وضيق مدخل الدرب وزاوية البوابة، ما غاظنى وجعلنى أفعل ما فعلت «أن الزجاج المسكوك كان معتمًا لا يكشف من يركب بداخلها، قلت للسائق البربرى الذى نزل وجعل ينظر إلى المسافات الخالية من الأركان الأربعة إننا نستطيع لو أراد أن نحملها بعون الله فأستمهلنى وفتح الباب الأمامى وتحدث إلى الراكب الوحيد فى المقعد الخلفى شارحًا له فكرتى، فهز رأسه لابس العقال موافقًا، اغتظت وقلت لروحى انه لو كان الملك فؤاد أو الوالى محمد على نفسه نزل كفرنا فى الحلم راكبًا مثل هذه السيارة لفضل النزول والمشى حتى يصل إلى دار من يقصده، سألت السائق البربرى عن قصد الراكب لابس العقال فقال بأدب:

- دار الست هانم أم عصام فرج الله.

كدت أضحك من بلاهة البربرى لأن الدار كانت على بعد خطوات قليلة ولأنه قال على البربرية النسافة ست هانم، لكننى لم أضحك، قلت أعمل مايشفينى وناديت على الرجال ثم هتفت:

- هيلا هوب، بأيدينا يا رجاله وشباب الزمن الوردى فى الكفر

الوردى، هيلا هوب ارفع، وانزل بشويش.

كانت السيارة قد أصبحت خلف خلاف، مقدمتها اليسرى مدفوسة فى جدار المدخل الأيسر ومؤخرتها اليمنى فى تجويف جدار «الملقف» شىء مسخرة معمول بفعل القوة الغشيمة عندما تطاوع دون أن تفكر فى غرض من يقودها ولو أنكسر فانوس أو أنعوج رفرف مثلما حدث بالفعل وقد انحشرت السيارة «بورب» بحيث أوقفت الحركة من الناحيتين، وفات وقت قصير لكنه كان كافيًا لأن تتحول البوابة إلى سامر حقيقى من الناس والدواب تتوسطه السيارة، يطالبوننى دون خلق الله بتخليص مدخل البوابة من الخازوق المعدنى المحطوط بميل فى مؤخرة البوابة، قلت لهم نوسع حيزًا من زاوية جدار المدخل الأيسر المبنى بالطوب الأخضر والطالع من طين أرض كفرنا «الأخضر» فزاموا بين رافض ومؤيد وساخر يرغب فى إطالة الزمن الضائع، فبدا لى كفرنا «أخضر بزرقة» تلمه زمارة ولا تفرقة عصا ولا شمروخ ولا سلاح فى أغلب الأوقات، قلت لنفسى أتصرف، وبإشارة منى فتح السائق باب السيارة الخلفى لأدخل وأجدنى إلى جوار الرجل لابس العقال والجلباب الأبيض وقد احتفظ بربع لحيته مهذبًا بإتقان وبراعة، قلت أستعجله:

- ح تتفضل تنزل وتمشى خطوتين، العربية مش ح تدخل.
- إيش لون؟

كررت كلامى بأكثر من طريقة وبدا لى أن الرجل يفهم ويتظاهر بعدم الفهم، نوع من العناد الحصاوى الذى يركب البنى أدم لأسباب لا نعرفها أو بدون أسباب فى الزمن «الأخرانى»، لكن الرجل كان يبدو كالملسوع وهو يهدر بما لا أفهمه مع أنه عربى، وللحظة انحطت نظرتى على العكازين المعدنيين المركونين فى الناحية الأخرى مسنودين على الباب الآخر، لعلنى كنت أراهما ولا أعرفهما، لعلنى فكرت أنهما لا يخصانه هو رغم أنه أشار إليهما عدة مرات، شعرت بالوجع يمسك كل بطنى وأحشائى، بل أننى شعرت بالقرف من نفسى، وبعسر أمسكت روحى، ثم ارتميت ناحية الرجل

اقبل رأسه وكتفية والجزء العلوى من صدره ربما كنت أهذر بالبكاء وأنــا أعتذر:

- سامحنى يا خويا.. المسامح كريم.. سامحنى مــاكنتش أعـــرف.

والرجل فى حيرته يهدئنى بعبارته المكررة:

- لا تشغل بالك.. لا تشغل بالك.

كان بطنى ممسوكًا لا يزال وهم يطلــون مــن الأبــواب المفتوحــة باندهاش وحيرة، يضربون الكفوف ويفسر البعض أمرنا للبعض الآخر على أنه قرابة كبيرة وغياب طال ومفاجأة لقاء غير محسوب:

- يمكن واحد من ولاد عمه.. ولا أخوه اللى من أبوه اللــى كــان بيحكى عنه، كانوا بيقولوا مات تحت قطر، خبر إيه يا مدنــدش، ما تحمد ربنا اللى لقيته بعد غيبة، وحد الله.. والله وتطلع لك أهل يا مدندش على آخر الزمن.

وكلام كثير سمعته. ولابد أن كثرة الكلام، أعــادتنى للمــأزق الــذى صنعته عندما طاوعت شيطانى الذى أغوانى وما أعطانى غير وجع البطن، قلت لروحى أتوب وأعمل الطيب وقررت أن أحمل الرجل على كتفــى لحــد باب الدار، ومن دون كلام شعرت أن الرجل فهم غرضى فسـلمنى روحــه أحمله بالطريقة الأفضل، وكان السائق ينظر ناحيتنا بعينين مطفأتين لا بريق فيهما ولا وهج ولا فهم، نظرة تليق بعبد بربرى ينتظر الأمر وينفــذه وقــد أمرته باحضار العكازين المعدنيين وأن يتبعنا فننفذ أمرى، والعبد يا ســادة نوعان، عبد بربرى وعبد غير بربرى تماما مثل الحر، حر بربــرى وحــر غير بربرى، لكنه شاع فى بعض مجالس الجهلاء أن العبد لابد أن يكــون بربريًا أسود، لكننى عرفت على امتداد العمر الذى عشــته والنــاس التــى عرفتها والبلدان التى زرتها والبيوت التى دخلتها عبيــدا ببشــرة ناصــعة البياض، عبيدا بمعنى كلمة عبيد فى مراكــز محترمــة وجلــدهم أبــيض، نفوسهم تقبل الضيم وعلى استعداد لتقبيل الأيادى، كل الأيادى، ربما يقبلون يد العبد الأعلى منزلة وهم يعرفون أن نفس العبد يقبل فى الخفاء يد العبــد

الأعلى أو السيد الأدنى، وسبحانه موزع الأرزاق على عباده والقادر وحده على تخليص العبيد من وضاعة أفعالهم وانحطاط نفوسهم، تبارك جل شأنه أعطانى حس الفقراء الذى لا يخيب وزرع فى قلبى الجسـارة فعرفـت أن الدنيا «برطوشة» قديمة يسكنها التـراب ويغطيهـا، وأن الأكـابر منـاظر والسواقى تدورها المواشى وأن الشمس رغم قوتها وشدتها لا تقتـل دود الأرض، وأن العصا السابقة سابقة، ولأن الموت نهاية كل حى كما تعرفون فأنا أشهدكم على غيظى من هؤلاء العبيد الذين قبلوا أن يعيشوا أعمـارهم عبيدا مع أنه فى إمكانهم أن يعيشوا أحرارًا، حتى لو كانوا أفقر الفقراء أو أعجز العجزة أو أضعف المحكومين فكل ذلك لا يمـنعهم مـن أن يعيشـوا أعمارهم أحرارا، على هذا النحو كنت أفكر يا سادة وأنا أحمل على ظهرى الرجل الخفيف الخفيف مثل «شمال» برسيم محشوش سرقة من غيط عدو.

كانت «بحراية» الدار غويطة لكن واحدة من البنتـين كانـت تضـع كرسى حمَّام يساعد على النزول وكأنها كانت تعرف غرضى قبل أن أصـل، وبسلامة الله نزلت وقادتنى نفس البنت فى اتجاه حجرة المدخل المحطـوط تحت شباكها كنبة وتحت الكنبة حصير مفروش، أنزلـت الرجـل بحـرص وأجلسته على الكنبة ثم جاورته، وكانت البنت مازالت تنظر ناحية الرجـل وتنتظر، كأنها حسبته لعبة من ألعابى أحركها بمفاتيح مثل «الشـيكوبيكو» فى مولد البدوى، لكن الرجل نطق وهو ينهج من التعب:

- يعطيك العافية.. ويعطيها.

قال الكلمة الأخيرة وهو ينظر ناحية البنت التى اكتشفت فجـأة خطـأ وجودها فى المكان فغطست فى بطن الدار التى بدت لى على غيـر العـادة ساكتة «هس»، ومرة أخرى سمعته يقول لى وهو يبتسم فتظهـر أسـنانه المنتظمة المشرقة وراء ابتسامته الودودة وهو يمدد يده ناحيتى بالورقـة الخضراء:

- يعطيك العافية.

ترددت قدسَّها فى كفى مطوية وكأنه يتعجلنى قبـل أن يرانـا أحـد،

أخذتها ودسستها فى جيبى فبانت على تقاطيعه المتسامحة علامات انشراح، وعندما دخلت النسافة أم الولد والبنتين تبتسم وترحب بالحاج زايد الذى نور المكان والبلد وكل الناحية تأكد لى أنها تعرفه منذ زمن طويل، كانت ترطن معه بنفس اللهجة، تفهم عنه ويفهم عنها، وكنت أنا مثل الأطرش فى الزفة لا أفهم، لكنها اكتشفت وجودى فجأة وتذكرت فجأة أو تظاهرت بأنها تذكرت.

يقطعنى، مش عارفه مين اللى كان عيزاك ع البوابة يا مدندش. قلت اسلم وأقوم، فكرت وأنا أتلكأ على البوابة وقد خلت من السيارة التى تركتها محشورة فى مدخلها خلف خلاف ولا أدرى كيف ولا متى أبعدوها، وقلت لنفسى وأنا سرحان فى اتجاه السكة الزراعية إن البربرية طردتنى من دارها بلطف وأدب بعد أن أديت دورى وأخذت الثمن. تذكرت الورقة فأخرجتها، تأملتها، كنت قد سمعت عنها ورأيتها من بعيد، لكننى لم أمتلكها أو أحلم بامتلاكها، من غيرها يمكن أن يعيش أمثالى، ومن أجلها خرج شباب الكفر ورجاله، ساحوا فى أركان الدنيا، يسافرون ويرجعون ويتحدثون عن الورق الأخضر وأسعاره بدلا من سعيهم السابق من أجل تغطية أرض الكفر بالنبت الأخضر، عادوا ولونوا الكفر باللون الأحمر، بالطوب الأحمر بنوا الدور الجديدة على جانبى السكة الزراعية وعلى امتداد البصر ثم دخلوا وهدموا الدور القديمة المبنية بالطوب الأخضر وأقاموا مكانها دورا جديدة بالطوب الأحمر، صار كفرنا الأخضر كفرًا أحمر بفضل الورق الأخضر، يتباهون علينا بالقرش البّرانى ويؤكدون أنه قادر على تبديل الناس وأسعار الناس، زمن برّانى فتح السادات للخلق بابه فتبدلوا ورطنوا بلهجات غريبة، وفى الزمن الفائت كنا نقول عن القرش المغشوش والشلن المغشوش ونصف الريال المغشوش والريال المغشوش «برّانى»، كان أصحاب الدكاكين يدقونه بمسمار على باب الدكان أو جداره أو حتى الفاصل الخشبى الذى يفصل التاجر عن زبائنه.

كنت فى الخلاء أدعو الله بصوت ويسمعنى:

- «يارب الأقوياء امنحنا القوة حتى لا نضعف مثلما ضعف كل

شيء من حولنا، الزرع والضرع وفحولة الثيران والتيوس والكباش، خلصنا من الوهن الذى طال مجرى الريّاح الذى هو تفريعة من نهر نيلك، ساعدنا على الصد والرد ومقاومة الزمن البرانيّ والقرش البرانى، أجرنا لأننا قبلهم عرفناك وقبلهم عبدناك ولا مجير سواك».

تحت شجرة السنط شحيحة الظلال قعدت، لا تراجعت ولا استخسرت، كانت الورقة الخضراء مفرودة فى يدى وكان عود الثقاب الذى أشعلته يقترب من طرفها باللهب، يشعلها وتسرح فيها النار حتى تحولها إلى رماد يميل إلى السواد عدا تلك المساحة التى كانت ممسوكة بالإصبعين الملسوعين يتخلصان منها بالرمى فى الوقت المناسب فتظل النار حتى تحول الجزء إلى نفس الرماد الأسود المتماسك فى البداية لكنه الهش القابل للتفتت عند أقل ضغط.

جهلى فى الكفر اكرم لى من معرفتى، جهلى أو ما يبدو لهم أنه جهلى يعيشنى بينهم، وإذا ظهرت لهم معرفتى بالأشياء جرجرونى إلى سكة المشاكل وعاصونى بالهباب، جربت نفسى عشرات المرات وما انعظت، ظللت على حالى مفلوت اللسان إذا لزم الأمر وزادت عن حدها المساخر، مكتومًا وساكتًا إذا هانت ولانت وفاتت على خير، لكن يا سادة هل كان يجوز لرجل مثلى ضرب الدنيا برطوشة أن يسكت وقد شاع فى الكفر أن الرجل الخفيف مثل «شمال» برسيم محشوش من غيط عدو قد عقد قرانه بالفعل على البنت الأكبر من عيال النساقة فى نفس عصر هذا اليوم بينما كنت أدعو الله فى الخلاء أو بعدها بقليل، هل كنت أسكت؟

قلت ما قلت وردحت ما طاب لى الردح للنساقة والمأذون وشاهدى عقد الزواج، قلت إنها باعتها وأخذت الثمن ورقًا أخضر، لكن كلامى ذاب فى زحمة الأصوات التى تلعننى والاخرى التى تحذرنى لكننى لم أتوقف حتى حملونى حملا ووضعونى فى حجرة «السلاحليك» ربطونى بالحبل وضربونى بالشوم فانهدت قوتى وانشرخ حلقى من كثرة الصراخ، فتشونى وسألونى

عن الورقة فما صدقونى بأننى حرقتها، لكن العمدة صدقنى وأمـرهم بحـل الحبل، أخجلنى يا سادة لأننى كنت قد عرفت أنه أول الشاهدين على عقـد القران، شهد العمدة لصالحى ياسادة:

- المدندش ده بركة ما حدش ياخد على كلامه، دا درويش وزاهد فى الدنيا ولا حدش عارف قيمته، على النعمة نهار ما يموت لأبنى له مقام على حسابى.

قلت لنفسى أسايره، أبين لـه ولهم علامات جهلى وقلـة معرفتـى، جهلى يعيشنى ومعرفتى تهيننى وتقلل قيمتى، تعوضنى بالهبـاب وسـخام النيلة، هل كنت بارعا وأنا أحول أكابر الكفر إلى سامر يتفرج على ملاعيبى ويضحك، أو أنهم هم الذين كانوا يرغبون مثل العمدة أن اكتفى بدور الطبال الزمار النداب الحاوى، أفرجهم على أرواحهم ولا أتجاوز حـدودى؟ وهـل عقدنا فى تلك الليلة صلحا مثل صلح الذئب على الغنم؟ ربما نكون قد اتفقنا والصلح خير كما تقولون ونادرا ما تصدقون.

• تزويج البنت الثانية

إذا كان العجوز العاجز ساكن البلاد البعيدة قد استطاع خلال سـاعات أن يأخذ بنت النسافة الأكبر ويسافر بها ويتسبب فى كسر واحدة من أسنانى بسبب قلة عقلى وانفلات لسانى، فهل كان من الحكمة أن أفتح حنكى بكلمة مع أو ضد حضرة الصول عسران ابن الأصول ساكن الدرب المؤمن الـذى لا يتخلف عن صلاة فى موعدها؟ لا يحب الكيد ولا النميمة وله من الحاجة أمينة بنت عمه خمس بنات. زواج مرتاح، له أرضه وماله ولهـا أرضـها ومالها، عاقلة وراضية بنصيبها لكنها تشاركه القلق وحلمه فى أن يخلـف ولدا ليرثه ويحجب مطامع أولاد العم والاخوة وأولادهم، ولأنه رجـل تقـى وعاقل فقد فوض الحاجة أمينة ذاتها لكى تحل المشكلة بما هو لائق.

قال الناس للناس إن الصول عسران رجل أصيل، صبر وطال صـبره ولم يطلب من الحاجة أمينة إلا بعد أن انقطع عنها الدم وصارت مثل البئـر القديمة لا تعطى أو حتى تعد بقطرة ماء، وقالوا إنها فكرت واهتـدت إلـى

أنسب الحلول، بنت النسافة، صبية حلوة تغوى العابد وهى من نفس العائلة مهما قيل أنها من الفرع المائل، مقدور عليها ومقدور على أمها النسافة وعلى الولد أبنها وأقل شيء يرضيهم، هكذا قال الناس للناس قبل زواج الصول عسران من البنت بأيام، وقبل أن تذهب الحاجة أمينة بنفسها إلى دار النسافة وهى التى لم تخرج من دارها أبدا أبدا لتدخل أى دار فى الكفر، كانت تخرج طبعا فى المناسبات الضرورية، زيارة المأمور فى البندر أو الذهاب إلى الطبيب لعمل فحوص يصعب أن تتم فى الدار، زيارة الحسين أو السيد البدوى أو السفر لابن عم الصول عسران ساكن القاهرة قبل موعد الطائرة الذاهبة إلى بلاد الحجاز أيام الحج، وفى كل الحالات كانت السيارة المخصوص تقف أمام الباب فى انتظارها وهى تخطو من باب الدار إلى باب السيارة وقد غطاها الملس وغطى وجهها طرف الطرحة «الشيفون» السمراء بحيث يحق لكل ناس الكفر أن يقولوا إن أحدًا لم ير ذيل جلبابها أو كعب قدمها أو كفها على امتداد السنوات التى عاشتها فى دار الصول عسران قبل أن يصل إلى رتبة الصول، قالوا إن النسافة لم تعترض على شيء ولم تطلب أى شيء اكثر من مجيء الحاجة أمينة بنفسها إلى دارها تشرفها وتطلب بلسانها البنت لحضرة الصول عالى المقام ابن الأصول الطيب، مالنا إذا كانت الحاجة أمينة قد اعترضت على الزيارة أو لم تعترض؟ مالنا إذا كانت النسافة تقصد أن تقول لأهالى الكفر إن رأسها برأس الحاجة أمينة سواء بسواء، ما لنا نحن لكى نفتى بما لا نعرف؟ الذى حدث هو أن الحاجة أمينة راحت بنفسها لدار النسافة وأن حضرة جناب العمدة حضر الاتفاق، وأن البنت راحت بزفّة إلى دار الصول عسران، لكن ناس الكفر قالت لناس الكفر بعد مرور الأيام والشهور والأيام والشهور أو بعض السنوات إن الصول عسران راحت أيامه، وأنه لم يعد بقادر على سقاية الأرض العفية العطشانة، وكلام يولده الغل والشماتة فى الرجل الطيب، يقابله كلام ناس أخرين للناس بأن البنت رغم الصبا والجمال كانت أرضا بورا مالحة وعاجزة عن رعاية البذرة الصالحة أو إخراج النبت المأمول.

وقال ناس الكفر إن الحاجة أمينة عملت بأصلها، غضبت على روحها وراحت لدار النسافة ماشية وطلبت بلسانها أن تأخذ بنت النسافة الأصغر «ضرّة» لها، وتعهدت بأن تحميها وترعاها كواحدة من بناتها، وإن الصول عسران لم يستطع أن يدارى عشقه للبنت الصبية الحلوة الكيَّادة التى ظلت تعده بالولد، وكم من أمسيات احترق فيها قلب الحاجة أمينة بنار الغيرة والبنت الصبية الحلوة تزداد حلاوة وتحمل بدل الجنين لحما طريا يرتج إذا قامت أو قعدت أو سارت أو نامت، حتى ادعاءات الحمل والتظاهر بالوحم وتأكيدات كل الحكماء الذين زاروها فى الدار بأنها أرض مالحة وعاجزة عن رعاية الثمرة لم يمنعها أو يمنع النسافة من إشاعة أخبار الحمل الكاذب المتكرر ومؤامرات الضرَّة العاقر أم البنات الأكبر منها التى تسحر وتكتب وتكيد لها حتى لا يكبر الجنين، الغريب إن الصول عسران صدق وعاش على الوهم فى صف النسافة وبنتها، وقال الناس إن موت الحاجة أمينة المفاجئ كانت وراءه حكاية كبيرة شاركت فيها النسافة وبنتها والصول عسران للخلاص منها بالسم بدلا من الانتظار والاحتمال حتى يجىء أجلها المحتوم، وقالوا أن خلو الدار لبنت النسافة سيِّدها وزود دلالها على الصول عسران، تطلب فيلبى وتشير فيطاوع، نسى خلفة الولد وأنشغل بالبنت، وقالوا إن البنت كانت وراء ما بدا للناس من حماية الصول لابن النسافة، تلك الحماية التى جعلته يتاجر فى الورق الاخضر الذى كان يأتيه بشيكات أو تحويلات أو عملة منقولة من البلد البعيد بعلم الغريب العاجز أو بغير علمه، لكن الولد كان يتاجر فى الورق الأخضر مثلما كان يتاجر فى حديد التسليح والطوب الأحمر والأسمنت وزيت التموين وعلف المواشى والسماد، الممنوع قبل المسموح والكل يفوِّت له اكرامًا لحضرة الصول من أول المأمور حتى عمدة الكفر مرورا بمفتشى التموين والزراعة والصحة والضرائب وكل مصالح الحكومة حتى امتلك وزود حيز امتلاكه ثم امتلك وزود حيز امتلاكه وهو الجاهل الذى لا يفك الخط لأنه ببساطة لم يدخل مدارس مثل البنتين، ذلك أن أمهم النسافة قالت بعد وصولها زمام الكفر بأيام إنها فقدت شهادات ميلاد العيال فى مشوارها الطويل الذى قطعته كما

كانت تدعى مشيًا على الأقدام من جنــوب أســوان وحتــى دروب كفرنـــا المنقوشة كفوفه بالحنة الحجازى تماما مثل كفى النسافة وقـدميها، وفـــى كفرنا المنقوش بألف لون لا يسأل الناس عن علو نجم النفر أو دخوله فـــى برج سعده مادام مسنودا ومحميًا بالحق أو بالباطل.

- كبار صغار: صغار كبار

يوزن النفر فى كفرنا بما يملك، المسألة بسيطة ولا تحتاج إلى دليل، يكبر الصغار فى غفلة منا ونراهم وقد زاد طولهم وكبروا ولا يحق لنـــا أن نعترض على ولد زاد طوله أو عرضه مثلما قال الصـــول عســـران للولـــد عصام فى محاولة خفية لكى يذكره بحاله قبل أن تبدلـــه الأيـــام بمســـاعدة الصول نفسه، ربما كان يحلم بشىء من العدل المفقــود فـــى عقـــد البيـــع الأخير، وإذا كان للبيع والشراء أصول فى رأى البعض فهو فى رأى البعض الآخر صيد فى الماء العكر، البيع والشراء شطارة كما قال الولد عصام وهو ينظر ناحية أمة النسافة وأخته السمينة التى سحرت الصول ولعبت بعقلـــه حتى فرط فى كل ما كانت تملكه يداه وما ورثه عن المرحومـــة أم البنـــات بأبخس الأثمان ولنفس الولد عصام إبن النسافة، ربما كان اعتراضه الأخير على هيئة الولد البخيل النحيل – الذى وضع على كتفيـــه عبـــاءة عربيـــة «مشغولة» بخيوط الذهب – مجرد رفرفة ذبيحة فات علـــى عنقهـــا نصـــل السكين الحامى بأسرع مما كانت تتوقـــع، بغربـــة عـــن روحـــه والنـــاس الملمومين فى قاعة داره الجوانية ليشهدوا على عقد البيع وكلهم مســـدودة أفواههم ببقايا العشاء الدسم الذى أعدته البنت بمساعدة أمها النسافة، لكن شيخ البلد قالها ضحك فى جد:

– مالكم مستعجلين ع الراجل كده ليه؟ براحته، ما هى بيعة تهريبة؟ وما هو موافق ع السعر، وقدروا انه رخيص، يعنى هو ح يـــروح فين؟ مش أخو مراته اللى باسطاه ومريحاه، أهو أولى من إخواته وعيال إخواته اللى عايزين يورثوه ع الحيا.. ولا إيه يا عمدة؟

– مظبوط يا شيخ البلد.

قالها ودارى ضحكته فدارى كل واحد فى المجلس ضحكته حتى وقّع الصول على عقد البيع، نزل مقامه بمساحة الأرض التى باعها، لكــن هــل كبر مقام الولد بمساحة الأرض التى أمتلكها؟ انطفأ سراج وكان من الواجب أن ينور فى القاعة سراج. فهل نوّر ابن النسافة مكانه وملأه؟

كنا قد اتفقنا على أن يوزن النفر في كفرنا بما يملك فهل لعبت بعقلى عقول الناس؟ نفس الناس من أهل الولد هم الذين انكروه وتندروا عليــه، قالوا أنه لو ملك البسيطة فسوف يباركون له، انما هل تدخل فى دماغ أحد مثلا أن يتصدرهم فى المآتم والأفراح أو أن يرجعوا إليه فى أمور زواجهم وطلاقهم وبيع دورهم وغيطانهم ومواشيهم مثلما كانوا ومازالوا يفعلون مع كبراء الدرب؟ ربما تكون النسافة قد تعجلت وبعثت الولد فى المناسبات التى تصادف أن مرت على كفرنا «الملاوع»، موت بنت خال الصول وطهور ابن مهران المنسى عوف ثم سفر عدنان المنسى ابن عم فرج الله نفسه، وفــى كل هذه المناسبات وقف الرجال الكبار للولد بغير ود، يزيحونه إلى الخلــف ويتقدمونه وقد يمتنعون عن مصافحته أمام الناس وهو من لحمهم ودمهم، ولابد أن يكون الولد قد شكا لأمه من أفعالهم، وربما يكون قد بكى من قلة حيلته وعجزه عن حماية روحه من غمزاتهم وهمساتهم، ذلك أن النســافة لبست جلبابها الأسمر وراحت بنفسها إلى دار عــدنان المنســى، وجهــت كلامها للصول عسران وهو يتوسط الأكابر أولاد عمه، تقصــدهم وترمــى كلامها عليهم وإن اتخذت من الصول عسران سلمًا تستند عليه:

- هو الصغير بيفضل صغير يا جوز بنتي؟ دى الدنيا دوّراة، شــايلين عصام ابن المرحوم فرج الله وزاعقين ليه يا كبار؟ دا ما يجيش قد عيل من عيالكم، خدوه فى وسطكم وكبروه.

وإذا كانت حيطان المندرة اهتزت أو نطقت يكون الكبــار اهتــزوا أو نطقوا، استكبروا أن يردوا على حرمة بربرية أم ولد باهت لا لون ولا طعم شاعت أن تحشره حشرًا فى وسط الكبراء، شفاها الله ونولها مرادهــا فــى زمن غير زماننا ووسط ناس غيرنا، وشفانا وشفاكم من ســكوتنا الطويــل

عن الحق لمصلحة الباطل.

- أصل النسافة

حسنين صار حرامي، اسرق فلوس أنا يسامح، اسرق هدوم أنا يسامح، أسرق أكل شرب أنا مش يزعل أو يتكلم، لكن اسرق أموات بلد عشان دهب أنا موش يسامح، بيع جدود أموات عشان فلوس أنا أسلم بوليس، إنت روح سجن.

كنت مجرد صبى سفرجي، وكان السفرجى نوبى فى خدمة «الخواجة» من سنوات، شغلونى قبل السفر بأيام، وركبت «الذهبية» من ساحل روض الفرج ونزلنا بحر النيل، كانت أول مرة وأخر مرة أركب فيها بحر النيل، نزلنا شطوط وشفنا بلاد وكلمنا ناس لا كنت أعرفهم ولا حلمت بأن أراهم، وعرفت من عم دهبين هدف مشوارنا وشاركته الفرحة لأنه راجع لبلده وناسه فى بلد اسمها «أبريم» بين الشلال الأول والثانى، كان الخواجة إنجليزى دفعت له الحكومة آلاف الجنيهات ليكشف بلاد النوبة من أول شلال لحد الشلال الرابع، وعرفت بلاد النوبة وناسها سمر الوجود ذوى القلوب الطيبة، ظللت فى خدمة «الخواجة» أساعد عم دهبين ثلاث سنوات، أراهم يحفرون مدافن الملوك ويأخذون الكنوز، ذهب وجواهر وأشياء، ويقولون إن تعلية خزان أسوان تغرق كل هذه الأماكن بالمياه، وعرفت من عم دهبين وغيره أسرار المدافن، مدافن فيها ذهب وكنوز ومدافن نهبها ناس من أهل البلاد أو من الغرباء، مدافن لا لها عد ولا حصر وكلها مبنى بالطوب الأخضر، ووسوس لى شيطانى فأغرانى، قلت أعمل للزمن الآتى حسابا، ووسوست أنا فى أذن ولد من سكان البلد عارف مداخل مدافن، كان يعرف ويدارى، يتفرج عليهم وهم يحفرون فى عكس المداخل ولا يدلهم على الحقيقة. ومرة سمعته يتحدث إلى عم دهبين بسخط وغيظ من «الخواجة» سارق الكنوز بموافقة الحكومة وفلوس الحكومة أيضا، حاول عم دهبين أن يغير فكرته لكن الولد كان يظن أن كنوز المدافن هى ملك لأهل البلد التى سوف تغرق بعد تعلية الخزان، كان البلد اسمه «بلانه»

وكان الولد اسمه ونيس، قلت لـه يا ونيس لا تعتمد على عم دهبين، دهبين شغال مع الخواجة من سنين، وقلت له شاركنى وأنا أفيدك، أنا غريب عن بلادكم فساعدنى وساعد روحك، واتفقنا ونزلنا بليل، وحفرنا أنا وونيس وسط السكون وضوء القمر يرشدنا حتى طلع الفجر وبانت لنا بوابة المدفن، جمعنا من فوق عظام الموتى خلاخيل وعقود وأساور وحلقان ومكاحل وأشياء أخرى لم أر مثلها أو أعرف لها اسمًا لكنها كانت من الذهب الخالص أو الفضة، وأخذنا كنزنا وأخفيناه فى حفرة، ثم نقلناه فى اليوم التالى فى حفرة أكبر، وبعد أيام اقتسمناه وأخذت نصيبى وأخذ الولد نصيبه وما عدت أراه، ولا أعرف من رآنى وعرف سرى وباح به للخواجة الإنجليزى، ورأيتهم يرمحون فى كل اتجاه، يطلبنى عم دهبين ويسألنى عن الكنز المخبوء فلا أبوح، يأخذنى إلى الإنجليزى فيسألنى ولا أبوح، يأتى ضابط وأفندى ناعم البشرة هادئ الملامح يسألنى ويعدنى بالسماح فلا أبوح، يحبسوننى فى قاع الذهبية أيامًا لا أبوح فيها بشىء، ثم أفاجأ بالولد ونيس وقد جاءوا به لا أدرى من أين، ينكشف كل شىء وتظهر الأشياء المدفونة فى حفرتين، صار ما كنا نحسبه ملكا خالصا لنا فى حوزتهم. غضب الخواجة منى أكثر من غضبه من الولد ونيس، وحبسونى فترة ثم رحلونى إلى مركز كفرنا وأمرونى بألا أفارقه إلا بإذن مكتوب ومختوم من مأمور المركز نفسه، كنت أشعر أيامها بالغضب والسخط، لكننى اكتشفت بمرور الأيام أننى كنت أعمى القلب لأننى وأنا واحد من أولاد البلد المسلوب كنت أسلبها وأحسبنى من الشطار، لم اكتشف إلا بعد أن قرأت وقرأت ولم أبح بما فعلته لأى إنسان على وجه الأرض. دفنت كل شىء فى مقبرة من صنعى ونسيت كل شىء، ربما من بعدها هان عندى أى شىء، وعشت على هواى أن كان لى هوى، محبوسًا باختيارى فى حدود الكفر بعد أن انتهت سنوات الإقامة الجبرية فى حدود الكفر والمركز، أعيش بجرأة من يملك أى شىء مطلوب يملأ خواء البطن، كل شىء يسد الجوع مسموح لأمثالى أخذه، وكلام الخواجة الإنجليزى فى ذاكرتى محفوظ، أتذكره وأعيده لنفسى بنفسى وبصوت كأننى عيل فى كتاب فرح لأنه حفظ الواجب واطمأن إلى

قدرته على تسميعه فى أى وقت، لكننى كنت الولد والفقى فى نفس الوقت، أنا حسنين المندهش الذى صدق الغريب ذا الوجه الأحمر عارف حرمة الأموات والغاضب من أجل آثارهم أصدق غضب، عالم وأنا جاهل بأغراض الغرباء.

ذات مساء وأنا عند النسافة قالت لأم المحمدى تسكتها:

- وأنتِ تسألينى ليه عن أصلى وفصلى؛ أنا من بلاد النوبة أحسن وأشرف ناس فى البر كله.
- نوبة أية؛ قال نوبة قال.. بلدك إيه وأهلك فين؟
- مش ح أرد عليكى..

لكنها ردت على سؤالى عندما سألتها لأى البلاد فى النوبة يرجع أصلها، ذكرت اسم بلد ونيس عارف مدافن «بلانه»، تذكرته ساعتها وحدثتها عن سفرجى اسمه عم دهبين من بلد أسمها إبريم فقالت بلهفة:

- خالى دهبين الله يرحمه، أنت شفته فين؟

ولم أرد، خفت أن أحكى أى شىء مما جرى لى أيام السفر فى الذهبية، لكنها كانت تسألنى على فترات متباعدة أن كنت قد ذهبت إلى بلاد النوبة أو صاحبت واحدا من أهلها فأنفى ذلك وأسألها بدورى عن بلدها فتذكر فى كل مرة اسمًا آخر وبلدا آخر حتى بدا لى أنها ذكرت أسماء كل البلدان بين الشلال الأول والشلال الرابع، وبينى وبينكم لا يكفى أن يعرف الواحد منا أسماء البلدان ليكون من أهلها، ومهما قالت هى أو قلتم فأنا لا أصدق كل رواياتها عن طفولتها وصباها أو كيف عرفها فرج الله وأعطاها اسمه ونسله واسم الكفر الذى تلجأ إلى دروبه إذا غاب عنها أو أصابه ضرر، ويزيد شكى فى النسافة التى لا شفنا معها عقد زواج ولا شهادات ميلاد للعيال ولا صورة تجمعها مع فرج الله فأقول لنفسى لا هى أم العيال ولا تزوجها فرج الله ولا هى من بلاد النوبة ولا من شمال أسوان، أقول أنها مجرد عبدة بربرية من حدودنا مع السودان عثرت على العيال وعرفت أصلهم وفصلهم وكفرهم فجاءت لتدارى نفسها بيننا ربما هربا من عملة

عملتها أو حكم صادر ضدها، لكننى أراجع نفسى وأسأل عن الكيفية التى حصل بها العمدة للنسافة على معاش وهو المعروف بعدائه لأولاد عوف، وهل أكذب نفسى وأصدق أنه عملها خدمة لله بدون غرض غير خدمة امرأة غريبة أم أيتام غاب رجلها وما عاد، كنت أبحث عن سر اهتمامه بالنسافة وعيال النسافة ومعاش النسافة حتى سمعت الست فطوم تقول فى قعدة نسوان:

- ما هى من لحمنا ودمنا، أمها بربرية سودانية وأبوها شلبى، ساعدناها وكبرنا لها عيالها ولسه كمان ح نكبرهم.

كانت تنظر ناحيتى وكأنها اكتشفت وجودى فجأة فسألتنى:

- مدندش، احنا بنتكلم على مين؟

- لا بسمع يا ست ولا بشوف ولا بأنطق.

- عفارم عليك.

لكن قرب الأجل غيرنى، خلق فى عقلى دبورا زنانا، يلسعنى ويجبرنى على البوح بما كان، هو نفس الدبور الزنان الذى جعلنى أضحك على جثة رجب الأعور الملفوف فى الكفن الحرير اليابانى سبع «طاقات»، تذكرت يومها مدافن الملوك والملكات المنهوبة وقلت أن الولد ابن بحر لن يرقد أو يهنأ باله إلا بعد أن يسلت الكفن من فوق جثة رجب الأعور ليقابل رب كريم عريانا كما عاش بيننا.

- بنت نفيسة

طول بعرض وصحة وبنت خال العمدة من بعيد، أنتم تعرفون أن ابن عم الأم فى كفرنا هو أيضا خال ولكن من بعيد، طلبها الصول عسران لابن النسافة قبل مرضه الأخير بأيام، ولابد أن النسافة ضغطت على الصول عسران عن طريق البنت ليذهب ويطلب البنت للولد رغم علمها بعدم حب العمدة للرجل، لكنه راح ووافق العمدة على تزويج بنت نفيسة لابن النسافة بشروط أملاها وكتبها الصول عسران على مضض تنفيذا لرغبة العمدة، وعندما نقل الشروط للنسافة وافقت، وافقت أن تجهزها بجهاز جديد وأن

تكتب لها باسمها أرضًا كانت قد اشترتها من عم البنت بياع الأرض عرفان، وأن يكتب لها مؤخر صداق كبير، وأن تعمل لها فرحًا كبيرًا يدعى له الأكابر وتذبح ذبائح حددها تكفى لتغذية كفرنا «الهفتان» يومين أو ثلاثة، وأشياء أخرى مثل الذهب والنحاس والصينى، طلبات لتعجيز النسافة وابنها؛ هى فى حقيقتها رفض بأدب وإهانة فى نفس الوقت، نوع من التحدى أو التحكم فى الولد، لكن النسافة قبلت كل شىء وفى بالها أنها تخطو آخر خطوة فى سكة الطلوع لأعلى مكان فى الكفر، وكأنه كان هناك شرط سرى عرفناه يوم دخول الولد على البنت، ذلك أنه توافق وإن كان هو نفسه عصر يوم خروج الصول عسران من دنيانا ودفنه فى مشهد رجّ الكفر وكل الناحية فى الظهيرة الحامية الملتهبة فى الخامس من بئونة الحجر، سمعناهم يقولون إن النسافة نصبت الفرح وإن العمدة راح بنفسه عصرًا فكان من الواجب علينا أن نشارك رغم التعب والصّهد والغم والسؤال الخبيث الذى يتردد على الألسنة وكلنا نعرف أن كل شىء كان جاهزا ومركونًا ومؤجلاً بلا تحديد ثم جاء الأجل فاختطف الصول عسران ونقلوا البنت للولد، هى «دقة نقص» على كل حال شارك فيها كل من حضر الفرح وكنا كثارًا، نسينا الموت وتفرجنا على الغوازى وأكلنا اللحم قرب منتصف الليل مشويًا ومقليًا ومعمولاً على هيئة شرائح ومستطيلات ومربعات غسطانة فى أطباق الإدام و«الدمعة»، وكل أولاد عوف أهل الصول عسران حزانى على الميت وعلى الأصول التى ما عاد يصونها أحد، قاطعوا الفرح، حتى أطفالهم الصغار قاطعوه، وانشرخ كفرنا فوق شروخه القديمة شرخًا جديدًا، هو شرخ نافذ فى القلوب يصعب أن يداويه طب أو دواء.

لكن ربّك سلط أبدانًا على أبدان، سلط بنت نفيسة على النسافة أو سلط النسافة على بنت نفيسة فطارت فى الدار نار ولم تنطفئ أبدا، كل يومين عراك وردح وقلة قيمة، غضب وصلح ومجالس يحضرها العمدة أو يحضرها واحد من مشايخ البلد، ثم حمل وعراك جديد وولادة وعراك جديد وغضب ومجلس بلا عمدة ولا شيخ بلد ولا حتى خفير، وتطول ألسنة النسوان فتخوض فى السيرة مرة لصالح بنت نفيسة ومرات لصالح

النسافة، تلك التى احتملت واحتملت على عكس ما كان يظن كل الناس، وفسر الناس للناس حكاية احتمال السباب من زوجة الابن للحماة على أنه خوف من فقدان الأرض المكتوبة بإسم البنت أو دفع مؤخر الصداق أو خراب الدار عندما تأخذ جهازها المكتوب فى القائمة الشاهد عليها العمدة ومشايخ البلد، وقالوا إن النسافة جرؤت فى لحظة غضب أن تلعن العمدة الذى تحول إلى لبانة على لسان البنت تهددهم به وتخوفهم وتتحداهم لأنه ابن خالها ويخاف على مستقبلها، جرؤت النسافة ولعنت العمدة فى القاعة الجوانية التى ورثوها من الصول عسران، لكن حيطان القاعات رغم قدمها لها أذان تسمع وتسجل وتوصل فى الوقت المناسب، وعندما عرف العمدة بما جرى أقسم يمينًا بالطلاق من زوجاته الثلاث ألا يتدخل أو يسمح لواحد من أعوانه أو أصحابه بأن يتدخل فى النزاع بين البنت التى هى قريبته من بعيد والنسافة التى كان يحسبها مؤدبة وتحفظ الجميل لمن ساعدها بشهادة كل ناس الكفر أيام كانت حافية القدمين تكمل عشاءها والعيال نومًا، فلولاه ما حصلت على معاش الفقيد المفقود الجثة، ولولاه ما تزوجت البنت الأولى من الغريب الذى فتح لهم باب الرزق بلا حساب، ولولاه ما اشترى الولد فى زمام الكفر قيراطًا أو تاجر فى أى شيء، ولولاه أيضا ما تزوجت البنت الثانية أو انتقلت أملاك الصول عسران وأملاك الحاجة أمينة إلى الولد الذى لا يساوى فى نظر حضرة العمدة شعرة فى ذيل كلب، ولولاه ولولاه ولولاه، كلام كثير قاله حضرة العمدة لرجاله وأنا بينهم.

تغيرت نفوسنا من ناحية النسافة وفكرنا فى عمل كل شيء يطلبه العمدة لكن الرجل لم يطلب، ترك لنا مسئولية رد شرفه وشرف بنت خاله، وبين يوم وليلة كره أكابر الكفر من الناحيتين نسافة الكفر، ونادرا ما يكره أكابر كفرنا المقسوم نصفين نفس النفر، ولا أحد يدرى إن كان الكبار قد أثروا فى الصغار أو بعضهم على الأقل أو أن الصغار كرهوها لأسباب أخرى غير تلك التى تخص الكبار، لكن كفرنا المقسوم نصفين عاد وانقسم على روحه عدة أقسام اكثرها لا يحب النسافة ولا أبنها المتهوم بعدة تهم جديدة غير الشح وكونه مثل خيال المآتة لا يهش ولا ينش، قالوا إن

الصول مات مسموما بيد الولد أو لحسابه، وقالوا مات مغموما من طول لسان الولد الذى كان ينطح بالكلام مثل كبش مخصى أو تيس مطلوق وسط ثيران، وقلنا إن الحكاية من أساسها مشكوك فيها وتحتاج إلى أكثر من إثبات، إذ كيف تفد إلى الكفر امرأة غريبة ومعها ثلاثة عيال فتعيش فى ظل الأكابر والعمدة لسنوات ثم تطلع على السطح العالى وتجرؤ فتخاصم الكبار من الناحيتين بالفعل أو بالقول؟ ولو كان لها أهل فى الأماكن التى ذكرتها للناس فهل كانوا يتركونها هكذا تحارب وحدها وتعيش وحدها وتتصرف فى كل شىء من دماغها وهم اكثر الناس حرصا على صلة الرحم والدم، لا يفرطون فى إى إنسان عاش بينهم وشرب ماءهم أو أكل خبزهم مهما طال السفر أو الابتعاد.

ولدت بنت نفيسة ولدين توأمين فحسبنا أن العداوة بينها وبين النسافة سوف تزول أو حتى تنقص لكنها زادت، زادت وفاحت رائحتها عفنًا وتهمًا متبادلةً بالفسق والفجور وكل ما يشين الطرفين، الخطير أنه لم يعد هناك من يهتم بالتدخل لإطفاء النار، ربما تدخل ناس فى السر لتزويدها اشتعالا، ولم يعد هناك أى رجاء فى التعايش بين امرأتين أكلت كل واحدة من لحم الأخرى بحسب قدرتها على الأكل والهضم. وقال عقلاء لهم أغراض للولد:

– زى ما دخلتم بالمعروف، تسيبوا بعض بالمعروف.

ووافقت النسافة، لكن العقلاء نصحوها:

– بس خسارة اللى ح تأخده.

– ما هو إحنا ما فيش ف ايدنا غير كده.

– لا فيه..

أشار العقلاء بنقل ملكية كل شىء لشخص مأمون، شخص من اللحم والدم لا رجاء منه ولا خوف من اطماعه، شخص مضمون فى اليد اليمنى للنسافة وابن النسافة. وكان الشخص هناك فى نفس الدار يتحرك أمام العقلاء، عريانًا أو شبه عريان رغم تبدل أحوال أهلها، كان رجب الأعور

أمامهم وأمامها مثل كتاب مفتوح على صفحات بيضاء خالية من أى كتابة، لا يملك هو نفسه إلا براد الشاى المخصوص وعلبة الدخان وفيهما نفتصر البافرة «الملوكى» يلف الدخان فى أوراقها إذا رغب فى أن يعتدل مزاجه أكثر أو أن ينسجم اكثر فيدخن لفافة لقها بأطراف أصابعه ليوفر فى تكاليف التدخين أيضا مثلما يوفر اللقمة والهدمة لصالح ابن المرحوم فرج الله، اليتيم المحتاج إلى كل قرش ليسنده بحسب ما كان يقول لكل الناس صادقًا وهو يدافع عنه إذا اشتكى منه أحد:

– يا ناس حرام عليكم.. دا يتيم ومقطوع ووحدانى، اللى زيه تجوز عليه الصدقة وفلوس الزكا.

– أصل أنت نايم على ودانك يا رجب، عصام دخل ف ديوان الأعيان وأصحاب الملك الأكابر، أنت أهبل ولا بتستهبل؟

– ولو.. ولو.. برضه غلبان.

ولم يكن هناك أى جدوى من الاستمرار فى مجادلة رجب الأعور حول فكرته عن عصام ابن النسافة وابن فرج الله.. كانوا يريحون أدمغتهم ويكفون عن مجادلته مادام مصدقًا نفسه إلى هذا الحد وعاجزًا عن اكتشاف كل ما تغير فى حياة الولد وحياة أمه منذ زوجت البنت الكبرى للغريب لابس العقال وبعد أن زوجت الصغرى للمسؤل عسران وجرؤت مرة على سب حضرة جناب العمدة عندما بدا لها أنه انحاز إلى بنت نفيسة، ولأنها كانت بحسباتها عركة العمر كله فقد تعاملت مع كل الناس من أول وجديد بحسب مواقفهم معها أو مع بنت نفيسة. ولأنها عركة العمر كله رمت النسافة بكل ثقلها بأمل أن تنتصر، كأنما أعماها العراك عن رؤية ما كان يلزم أن تراه، كان العقلاء أو من فكرت هى أنهم عقلاء يأتون ويتكلمون بحسب هواها وبحسب ما تود هى أن تسمع، وفى كفرنا المنقوش بكل الألوان ينطق اللسان أحيانا بغير ماهو فى القلوب، وربما فى مثل هذه الحالات ينطق اللسان بحماس أكثر وببراعة اكثر، قال ابن الغباشى للست النسافة وهو ينظر إلى رجب الأعور فى ذلك المساء:

– على الحرام من دينى أطلعكم منها زى الشعرة م بتطلع م العجين،

هي حتة الأرض المكتوبة باسمها وبس اللى مش ح أقدر أتصرف فيها براحتي.

- حتة الأرض دى ما هى خلاص يابو الغباشى، دى معاها عيلين وح تاخد نفقة ومؤخر صداق وعده..
- بلاش طلاق يا ست أم عصام..
- لا ح يطلقها.. لما يكون أخر يوم ف عمرى وآخر حفان قمح ف دارى..
- نبقى نشوف كلام أبو الغباشى.. أهو شغال ف المحاكم طول عمره ويعرف سكة الخلوص يا ست أم عصام، احنا تهمنا مصلحتك.

على هذا النحو تحدث أقدم شيخ بلد فى الكفر، الحاج داود أبو راضى، فجهزت النسافة نفسها لسماع كلام ابن الغباشى، ذلك الذى اقترح نقل ملكية الدار والأرض وكافة ما تملك هى أو يملك عصام إلى رجب الأعور وساعتها لو لفت بنت نفيسة ومعها ألف عمدة مثل عمدة كفرنا على أبواب المحاكم فلن تحصل على شيء، لا مؤخر الصداق ولا نفقة لها قيمة لها أو للولدين التوأمين. واشترط أن تكون الكتابة والتسجيل قبل الطلاق، تهريبة يلجأ إليها الناس عندما يتكايدون ويتعاندون فيكفرون بالنعمة وينكرونها، كلام سمعناه قبل ذلك مئات المرات ورأيناه يتحقق بالفعل، لكن العبرة بالختام، ختام لحكاية النسافة وابن النسافة لم يكن يخطر على بال كما تعرفون، وأنا ذكرت أنه ولابد كان وراء تلك النهاية تدابير وترتيبات معمولة بوعى، وعى شياطين وأبالسة يستخدمون الناس لتحقيق أغراضهم، ومهما كان وعى النسافة فهو وعى امرأة غريبة جاءت من خارج حدود كفرنا «النقاحى» لتعيش وتصعد وتملك وتجعل اسمها على كل لسان، لكن خانها الوعى، خانها الوعى لأنها صدقت كل ما كان يقال لها بهدف إرضائها أو مجاملتها أو التظاهر بالوقوف إلى جانبها فى وجه خصومها، والعناد يورث الكفر كما تعلمون بالإضافة إلى قلة التمييز الواصل إلى حد العمى، كان شيخ البلد داود أبو راضى والذى هو ابن عم عمدة الكفر يذهب

إلى دار النسافة، يجبر خاطرها بكلمات طيبة، يطالبها بالسماح والصفح عن البنت التى قل أدبها وطال لسانها على أم رجلها وصاحبة الفضل فى تنصيبه نفرًا معدودًا وسط ناس الكفر، كلام لا شبهة فيه ولا شك، ورجل يقصد الخير والصلح ومعه فى مشوار الذهاب والرجوع ابن الغباشى الذى كان يحرث لها الأرض، أرض الخصام طبعا بلسانه المدرب على الكلام فى قضايا المحاكم وأقوال المحامين والقضاة وموظفى الشهر العقارى وغير ذلك من الجهات، يحرث أرض الخصام والبنت فى دار أمها غضبانة ولا مانع عندها من الرجوع لو تنازل عصام وتعطف بحسب ما كان يقول شيخ البلد، لكن الولد ركب دماغه وركبت امه دماغها، رأساهما وألف سيف أن لابد من رد الصاع صاعين، وقلة الأدب بانتقام لا كان ولا جرى، وأنا نبهت النسافة بأنه فى مثل هذه الحالات يكون الخروج بالمعروف أفضل، أو الاستمرار بالمعروف أرحم من أجل التوأمين، سمعت كلامى وتغيرت لهجتها فى الكلام، بدا لى أنها وضعتنى فى خانة أنصاف الخصوم وأنا الخائف عليها من التمادى فى كل هذا العناد، قلت لروحى لو جاءك الغضب يا مدندش فأعمله طوعًا ولا تخسرها، كنت دهشا ممَّا أصابها إلى حد الشك فى كلامى وهى التى كانت تعرف طوال الوقت أغراضها وتحققها غرضًا فى إثر غرض، وكانت تعرف كيف وإلى أى حد تخاصم ومتى تتساهل وتصالح أو تسامح أو حتى تسعى للحصول على عفو الخصوم أو تتشدد وترفض، لكنها فى هذه المرة كانت قد فقدت التمييز بين الصاحب والخصوم، اختلط عليها الأمر وبدا لى أنها تضرب دماغها فى جدار صلب ولا تحسب حسابها لاحتمالات الخسارة، على الأقل خسارة الناس الذين وقفوا إلى جانبها ومن بينهم العمدة، صدقت كل ما قاله ابن الغباشى عن إمكانيات تسليم الأرض المكتوبة باسم بنت نفيسة إلى من يزرعها ولو بعقد إيجار مزور، وأنا يا ناس جرَّبت ناس كفرنا المدفونة فى قلوبهم كلمة الحق والمنطوقة على بعض ألسنتهم الأكاذيب المزوقة بمعسول الكلام، قلت لروحى: أنصح صاحبك من الصبح لحد الضحى.. وامسك لسانك حتى لا ينفلت مثل جواد جامح بلا لجام ويقول الكلام الصريح، الكلام الصريح يا مدندش يكرَّه فيك

الأكابر ولا يحمى الفقراء أو الطالعين على السلم ينظرون إلى أعلى ولا يعملون حسابا للرماد والتراب ينزل فوق رءوسهم ويعفر حدقات العيون.

قال داود أبو راضى للنسافة:

- كانت غلطة يا ست أم عصام، البنت دى ماكنتش من قيمتكم، طيب على الحرام لو طلبتِ عيِّلة من عيالى كنت أجهزها وأوصلها لحد باب الدار..
- وهو حصل إيه يا شيخ البلد؟.. الغلط بيتصلح، وأنت أقل واحدة من بناتك ح تشرفنا وتطلع بينا العلالى، بس أنت توافق..
- يحلها ربنا..
- نقرأ الفاتحة..

وقرأنا الفاتحة.. وانفتح مشوار نقل الملكية باسم رجب، وبين يوم وليلة صار المالك الرسمى لكل الأرض وما تحتويه الدار، لكن رجب خدع الكل ومات، مات دون مقدمات، لا مرض ولا رقاد ولا شكوى من أى شيء.. الأعمار بيد الله طبعًا، لكن الله جعل لكل شيء فى هذه الدنيا سببًا، وأنا سألت نفسى عن أسباب موت رجب فى ذلك التوقيت الغريب فلم أجد عندى أو عند غيرى جوابًا للسؤال، كانت الأسئلة تدور فى مدارات أخرى، الورثة، ورثة المرحوم الذى لم يخلف للدنيا من صلبه وريثا شرعيا والذى تتشعب فروع ورثته الشرعيين وتتزاحم، تتداخل مثل فروع جميزة كبيرة فى كل اتجاه، أخوات وأولاد أخوة وأخوات وأصحاب ديون مكتوبة لم يكن يحسب حساباتها أحد.. ديون مكتوبة ومختومة بخاتم المرحوم وببصمة يمينه، وأنتم تعرفون ما يجرى فى مثل تلك الحالات، تتوزع التركة بحسابات لا فصال فيها ولا عواطف، الغريب الغريب أن كل الأوراق كانت لا تزال فى قبضة شيخ البلد وشيخ البلد تابع للعمدة، والعمدة فى مثل هذه الحالات حاكم بالعدل والشرع والأصول، والغريب الغريب يا ناس أنه فى عصر نفس اليوم كانت بنت نفيسة قد حصلت على كل محتويات الدار المسجلة فى قائمة المنقولات، أخذتها وتركت الدار على البلاط فعلا، وكما

يقولون فى كفرنا الليمونى «مال تجيبه الرياح تأخذه الزوابع، فهل كنست زوبعة العمدة كل ما حوّطت عليه النسافة وابن النسافة فـى غفلـة منـا. كنسته وأعادتهما إلى أيام البدايات الأولى التى تعرفونها، لكنه لم يكن قـد تبقى عند النسافة نفس القدرة على معاودة النسف فى الأجران، ولا كانـت قد حافظت على عطف الأكابر عليها أو استعدادهم لمساعدتها فى أن تصلب طولها وسط ناس الكفر أو تقيم للولد عوده الذى انحنى قبل الأوان.

لكنه لا شىء يبقى وأنتم تعرفون، حتى حضرة جناب العمدة الذى هو فى نهاية الأمر من بنى أدم مثلكم لم تطل فرحته، فلقد جاءت نهاية الأفندى المغدور لينشغل الناس بها زمنًا وتلهيهم عن المصير الذى صار إليه الكفر وناس الكفر وعمدة الكفر «المشمشى» فى الزمن «المشمشى».

المغدور وأيامه

سأحكى لكم عن أيام المغدور المعدودة والمحسوبة، تلك الأيام التــى يصعب نسيانها والتى شاعت أخبارها فى كل الناحية والنــواحى المجــاورة لكفركم «الحنبلى»، عن ابن البلد الذى قالوا وهو مرمى ينزف قطرات الــدم الساخن أنه غريب مضروب بعيار غريب آخر، أنا صدقت والناس صدقت أو كانت عندنا جميعا رغبة فى التصديق، ولناس كفرنا قدرات مشــهودة فــى التظاهر بعكس ما يعرفون والنطق بمعكوس ما يرغبون، كان المنظر غريبًا على العين محيرًا للعقول، بدن مرمى ومحاط بــذيول جلابيــب الخفــراء، والعمدة مسنود على حديد الكوبرى وسط رجاله يشيرون إلى كل خارج من حدود الكفر بالرجوع، اقتربت أنا من حضرة جناب العمدة وسألت وجاوبنى، نصحنى بتأجيل الخروج من دائرة الكفر لحين وصول النيابة وحكيم المركز للفحص والتحقيق، خوفنى من أن يطول ذيل جلبابى نقطة من دم الغريــب تجرنى غصبًا عنى للسؤال الصعب عن علاقتى بالغريــب، قلــت لروحــى ساعتها أنه لا شأن لى بمن يعبرون فيسقطون عند حدود كفرنا «السنجابى» والعمدة رغم حداثة عهده بعمادة الكفر عارف مصلحة الكفر وناسه، وأنــا كدت أرجع مثل كل الناس الصاحية فى تلك الساعة البدريــة بعــد الفجــر وصلاته وبزوغ ضوء النهار، لكنه حدث أن سمعت أنه مجرد أنه أعــادتنى وألقت بى فى سكة العناد الحصاوى فكان ما كان منى ومنهم فى ذلك النهار البعيد، كل هذا لا يهم الآن، لا يهمنى على الأقل لأننى سوف أبوح لكم بكل شىء فى الوقت المناسب، ما يشغلنى الآن هو سر انشغالى بالمغدور ابــن عوف، أنتم تعرفون أن كفرنا مفتوح من كل نواحيه على «البحرى»، ناس تدخل وناس تخرج والناس يا ناس أنواع، ناس تدخل وتخرج مثــل ريــح البطن لا وزن ولا معنى، ناس فاترة وعابرة مثل أى شىء فاتر وعــابر، لا تلفت الأنظار ولا تنبه العقول عكس سيد أفندى، سيد أفندى كان جمرة نــار

لهيبها يخطف العيون الغفلانة ويصحى النفوس «السهتانة»، وصوت الجمر يا ناس لا يسمعه إلا الموعود بالسمع والمكشوف عن قلبه الحجاب، وأنا بعد الذى جرى وكان فى أواخر الأيام زاد عشمى فى ناس الكفر من جديد. صحيح أننى كنت فى بعض الأوقات أيأس منهم، تركب خيبة أملى فيهم جمل الملامة والعتاب وتسرح فى الدروب، أقول لروحى «أنت يا مدندش تؤذن فى مالطة» تعدَّد مثل النسوان وتندب، وأنا أبوح لكم الآن بكل ما كان، حتى خوفى الذى أسكتنى أبوح به وأعترف لكم بأننى خواف بطبعى من لسانى المفلوت، لسانى اللتات العجان الفتان المعاند، واللسان المفلوت قادر أن يشد صاحبه وراءه إلى أجله المحتوم قبل الأوان بأوان، وأنا شفت بعينى رأسى موتى وموت المغدور، شفت دم الموت وهو يتقاطر نزيفًا يوحى بالصحو إلى الأرض فتشربه الأرض الخرساء التى لا تشبع أبدًا، أنتم تعرفون اكثر مما أعرف أمواتكم القدامى الذين غدرت بهم نبابيت وشماريخ وبنادق الخصوم، وأنا لم أشعل أيامها بالتعديد قلوبكم المردوم عليها بنعمة السكوت والنسيان، بينى وبينكم كانت عدودة أمل يا ناس، عدودة تحلم بإزاحة الهم الثقيل الراكز على القلوب، عدودة وجعت قلب عمدة الكفر أيامها اكثر مما وجعت قلوب الناس، وسوف أبين لكم ذلك فى وقت آخر، أنا نفسى كنت قد وعدت بأن أكف، وعدت العمدة مرة، لكن وعد اللسان شىء والقدرة على إسكاته شىء آخر، ثم أننى كنت أقولها لروحى، لكن عيال الكفر ملاعين سمعوها وداروا فى دروب الكفر ورددوها، سمعتها نسوان الكفر وقالتها العجائز بتحريفات غير ما قلتها فى المغدور الذى عرفته وجالسته وسمعته، عرفت أشواقه الساكنة فى حشا قلبه كل سنوات غيابه عن كفرنا «الدندراوى»، كلام لا يخص ندابة ولم تسمع على وزنه الآذان فى سيرة الأموات.

مين رجعك يا بنى	مين رجعك للموت؟
ازاى كده تسيبنى	للنطع والهلفوت؟
مش كنت جاى تبنى	وتوعى ناس البيوت؟
يطولوك نياب الديابه	وينهشوك وأنت ساكت؟

أنا قلت لكم إنها مجرد أنّة، أنّة واحدة سمعتها منه، هل جرب أحدكم أن يصحو من نومه العميق على صوت أنّة أو همسة لطفل أو طفلة تسبح فى بحر نومها؟ أنا لم أجرب ذلك أبدًا لأننى لم أخلف للدنيا أى خلفة من صلبى، نصيبى من الدنيا أن اكتفى بالنظر والسماع والقول، وفى هذا الصباح البعيد سمعت وقلت ونظرت ودخلت التجربة من أوسع الأبواب، كأنى كنت الأم والأب يصحوان معًا على أنّة الموجوع، كأننى عوضت حرمانى من الخلفة فى تلك اللحظات، سمعته فأحيانى من مواتى وأنا الغريب المقطوع من شجرة الأموات جربت، صحيح أننى عشت فى كفركم «الشلبى» وحدى، لا زوج ولا خلفة ولا حتى حلم فى مستقبل.

لكننى جربت وأنا أسمع الأنّة، أستعيدها على مسامع نفسى بنفسى، وكأنها شريط غنوة ترتاح لها غفلت عن سماعها لحظة واستعدتها لنفسك بنفسك، صحيح أن الأنّة كانت وحيدة ولم تتكرر لكننى استعدتها وأفقت لروحى فالتفتت، ولم أتردد فى الرمح ناحية البدن المرمى، ناحية سيد أفندى المغدور والمحروس بأبدان الخفراء وبنادقهم، أطل على الوجه المطلى بخيوط الدم وأرى العينين الصاحيتين تنطقان بكل اللوم وكل الرجاء وكل الوجع وكل العشم، تتحركان ناحيتى فتجعلنى حبلاً واصلا بين احتمالات الموت المدبر بخسة وإمكانيات الحياة، لو كان أى واحد منكم مكانى يا سادة هل كان يسكت؟ لو تأكد لأى بنى أدم أن المرمى عند مدخل الكفر هو فلان ابن فلان ابن فلان ولتاسع جد حسب ما تحفظ الذاكرة، لو تأكد النفر من الشبه وأشكال الملابس وخصوصية النظرة ونبرات الصوت بينما الخفراء يحرسونه ويحيطونه بأمر حضرة العمدة حديث الوعى والخبرة، الجاهل بالناس ومقامات الناس، القائل عن ابن أصل الكفر غريب مجهول، مجرد عابر سبيل مضروب ودمه الذى ينزف فى تلك الساعة البدرية من الصباح، لو حصل ما حصل وكشفت الكذبة العرجاء عن خسة التدبير فهل يملك الإنسان المقدرة على السكوت؟ هل يستطيع أن يطبطب على كتف العمدة ويقول له عفارم عليك يا سبع؟ هل كان يقول لروحه «وأنا مالى»؟ ويهرب بجلده، أن يحتاط ويلاوع ويتظاهر بأن المرمى على الأرض يستاهل

ما جرى له؟ لا أظن.. لا أظن، ومع ذلك ليته حصل، ليتنى فعلت، لكننى نسيت روحى ونسيت أننى فى زمام الكفر «الشلبى» ونطقت، كرهت ساعتها العمدة وأباه وجده، وطال لسانى أو حاولت، بكل عزمى حاولت أن أعمل لهم مقدمات جرسة، لكن كفوف الخفراء الخشنة وكعوب بنادقهم أسكتتنى، نزل على لسانى شلل وعلى أطرافى شلل، إنخرست، أبوح لكم بسر، أشعر أننى ساهمت فى قتله، فى تصفية دمه على التراب، صعب على حاله فأخطأت ونطقت فانضربت وانخرست وفهمت أن حركتى فى المكان تساوى موتى، لعلنى خفت على روحى فحافظت على حياتى بالانكماش فى المكان مشاركا فى الجريمة بالسكوت، لعلنى لو كنت حويطا لكنت تظاهرت بالتصديق وتباعدت فى اتجاه البندر ابلغ الحكومة أو الإسعاف، أو حتى أتراجع إلى الكفر أهمس بما جرى لأى واحد من أولاد عوف وهم كثار كثار مثل ذكور النحل الذى يسعى وراء الملكة، مجرد سعى ناتج عن الفراغ ودون أمل كثير فى أن ينالها، وحتى بوعى أن الذكر الذى سوف يصل إليها وينالها مقضى عليه وهالك بعدها، لم أفعل أى شىء، لا هربت ولا قمت ولاسكت ولا حتى تنفست بكلام له معنى، حتى بعد أن جاءت شمس الضحى وزادت الحركة وتبادل خلق الله الحكاية الحقيقية عن المغدور ابن عوف الذى تلقى رصاصة فى دماغه أودت بعمره والأعمار بيد الخالق طبعا، حتى عندما اكتشفوا الخدعة المدبرة لم ينطق أيهم بشىء فهل كنت أنطق؟ حتى عندما أيقنت أنه انتهى وما عاد فيه أى رجاء لم أنطق، رأينا صالح عوف يجرى فى اتجاهى بقدميه العاريتين، يرفع. عن البدن نبات الحلفا وحشائش الجسر، يتأكد أنه هو مثلما تأكدت أنا قبله، يلطم كما تفعل النسوان ويهدر مثل ثور هائج مطلوق ومسلوخ جلده حى فى نفس الوقت، كان يهدر ويرج الأرض وأنا أنظر ناحيته فقط، لعلنى كنت أنظر إليه مثلما فعل الأفندى معى قبل ساعة زمن وهو حى، يدعونى لأن أحاول، أكتم بيدى جرحه، أو أحمله على كتفى وأرمح فى سكة البندر، أطلب الإسعاف فلعل وعسى أن تكون الطلقة على السطح جارحة لكنها ليست بقاتلة، لعلنى كنت أنظر إلى صالح بنفس الطريقة ولعله لم يلتفت أو التفت التفاتة هيئة لانشغاله بما هو أهم

وأخطر، كنت أنازع بوهن وحذر.

أرغب فى البوح بشيء وأعترض على فكرة البوح فى ذات الوقت، كنت قد أسلمت روحى للموت والشلل فى ذات الوقت، مثل أرنب برى لا يملك القدرة على تخطى حاجز الهلع والخوف الكامن داخله من البنى آدم الذى كان فى ذلك النهار الأغبر مجرد عمدة مبتدىء فى كفرنا «العجورى»، وعندما جاء وكيل النيابة قلت لن أقول، هكذا فكرت، لو قلت، لو تجرأت ورحت وقلت هل كان يصدقنى، وإذا صدقنى فمن أدرانى بحقيقة الفاعل، قد لا تكون للعمدة الشلبى صلة من أصلة بمن ضرب، وربما كانت مجرد صلة تحريض ينحبس فيها عدة سنوات «وتبوش» القضية، وإذا لم يصدقنى وكيل النيابة فهل يسكت العمدة؟ أم أنه سوف يستف لى التهم ويأتى بشهود زور على جنونى وإجرامى وقلة أدبى، شهود من كل أكابر الناحية على سرقاتى من غيطان الخلق، وشهود على علاقاتى بأولاد الليل وقطاع الطرق، وتهم كثيرة تلبسنى مثل ثياب تفصيل وبالمقاس، دبرتها فى عقلى وباختيارى أطفأت نار قلبى بالخرس، وتواطأت مع العمدة الذى قالت عيناه بدلا من لسانه: تتوعدان باقتدار وقدرة، أنا لم أجرب أن أعرف من هو أكثر منه قدرة على الفجر فى كل من عرفتهم فى كل عمرى، كان قادرا فأجرأ بحق، لا خجل ولا حياء والعينان الضيقتان تتسعان غضبًا فى محاولة للتخويف، قلت لنفسى افوِّت عليه وعلّى الفرصة، ألعب دور الخواف، الأرنب البرى الغريب الذى تخطى حدود المسموح، كان الأمر قد انتهى وعمل الناس ما يلزم، أخذوا تصريح الدفن وحافظوا على كرامة الميت، وفى كفرنا «البقرى» يقولون إن كرامة الميت دفنه، دفنوه مثل العار فى الليل الساكت الذى يزود سواده اللطم والندب والصوات، وأنا قلت فى نفسى العدودة قبل أن ينطق بها اللسان بزمان، ومن كان له فى كفرنا ظهر يا ناس لا ينضرب على بطنه، فما بالكم بمن له فى الكفر ألف ظهر وظهر؟، وما بالكم بمن نزف الدم حيًا فى حراسة عمدة جاهل بحقيقة خلق الله فى الكفر «الترابى»، أنا لا قلت ولا بحت، سألونى من بعيد لبعيد عن أشياء، سألونى من بعيد لبعيد عن أيام المغدور وكلام المغدور فجاوبت من بعيد

لبعيد، وعندما اعترض حضرة جناب العمدة على آخر عـدودة قلتهـا فـى «الجدع» سألونى عن سر اعتراضه، قلت لهم قلبه خفيف وجلـده نـاعم، وعندما سألونى عن أسباب ابتعادى عن الدوار وقعودى عند بوابتهم قلـت لهم إننى أميل لهم، لدربهم، لناسهم، لشهامة رجالهم فهل فى هذا أى شىء غريب؟ لحم اكتافى من خير أولاد عوف يا ناس.

* * *

- «إن قلت ما تخاف وإن خفت ما تقول»

قالها صالح وهو يقيسنى بنظرة، كان معه حسان ابن طه وابنه طالب الحقوق، قلت له أن يتركنى فى حالى، وقلت له إن العين وإن كانت بصيرة فهى لا تعلو على الحاجب، دعانى حسان لشرب الشـاى فاعتـذرت بـأننى كرهت الشاى وضياع وقت الناس فى إعداد الشاى، قلت له أن أكره شـىء كرهنى فى شاى الغيطان هو انطفاء اللهب والجمر تحت بزبوز براد الشاى المغلى فى الراكية، وقلت:

- المرحوم كان جمرة نار.
- ولسه فى الحشا جمرة يا مدندش.
- خايف يكون كلام فى الخلا يا زين شباب الكفر، يـا عـم الشـباب وخالهم وأبوهم.
- اقعد يمكن تكون دليل التايه وينوبك م الحب جانب.
- يا ريتنى كنت شفت ولاَ سمعت، كنت اتكلمت يا سى حسان.
- ولا حتى شميت ريحة الريح؟
- يا ريت.

هربت من الجواب بالسكوت وهربت من كوب الشاى، لكننى نظـرت إلى صالح نظرة، ربما أكون قد تواعدت معه، نسج السكوت بيننـا خيطًـا نحيًلا نحيلا مثل خيط عنكبوت فى قاعة مهجورة، وكان للخيط النحيل بينى وبينه طرفان مثل كل الخيوط المنسوجة بينى وبينه، علاقتى به كـان لهـا طعم ولون غريب، كان كل واحد منا يعـرف أن الآخـر هنـاك، موجـود

وحاضر، سامع وفاهم حتى ولو كان الكلام موجها للغير، كان يبدو دائمًا أننى لا أهمه فى شىء، أو أننى أقل من أن يعترض على وجودى، صالح لم يعترض أبدا على وجودى فى المكان، لكننى كنت أشعر أنه يفهمنى ويقدرنى من غير اعتراف منطوق، ما جدوى البوح بالرضا عنى من واحد مثل صالح عوف، ومادامت علامات الرضا بالسكوت ظاهرة فماذا كان ينقصنى منه؟ وهو الغشيم المستعد أن يعارك الناموسة إذا زنت على مقربة من أذنه، كان فى بعض الأحيان يوجه الكلام لغيرى فأفهم أنه يقصدنى، تصلنى رسالته، وكنت أقلده، أقول الكلام لغيره فى حضوره وأشعر أن رسالتى وصلته وفهم قصدى، ربما كنا أولاد نجم واحد أو ندور فى فلك واحد ونخشى الاصطدام، نتحاشاه ونتباعد رغم القرب، وربما لم أوافقه فى عمادة الكفر التى تركها تطير من بين أصابعه وكأنه – استغفر الله – يرفس النعمة، لو كان احتفظ بها ولم يفلتها هل كان يحصل فى كفرنا «السنجابى» ما حصل يا ناس؟ لكنها على كل حال راحت عليه وعليهم.

نرجع لحكاية الخيط العنكبوتى الواصل بينى وبينه، شدنى الخيط فى تلك الليلة ومشانى من دارى لحد غيط صالح البعيد عند الترعة الكبيرة التى تفصل زمام كفركم عن زمام أرض سكان عزبة «الغرباوى» وكان صالح قد هجر الكفر والدار، سكن الغيط البعيد وصار ينام مثل وحش البرارى فى خلاء الغيطان أو فى زريبة المواشى، طلباته يقضيها له البعض من الكفر أو من دكاكين العزبة، لكنه حرَّم على نفسه السكن والحريم وغسل الثياب أو تبديلها بعد ما حصل الذى حصل للأفندى المغدور، لعله كان يشعر بالذنب لأنه لم يكن هناك ليحميه من العيار الطائش الذى طاله أو العيار المتربص الذى أودى بعمره، ولعله كان يلبس عاره ويتوارى به بعيدا عن عيون الخلق، لكنه كان هناك فى الطل رغم برد الشتاء يتغطى بحرام خفيف مثل الشاش، فيه من الحرام اسم الحرام ومن الصوف ملء قبضة يد فى برد «طوبة» وعراء الغيطان.

كان قد صام عن الكلام ونصف الزاد، يأكل الضرورى ليحافظ على عمره، يكثر من شرب الشاى وتدخين المعسل، يدخن حتى تركبه الكحة

ويحتقن وجهه بالدم، تحمر عيناه فتبدوان للناظر مثل عينى ذئب شارد وهربان من قطيع كلاب صيادة لا تكف عن النباح، كان خيط العنكبوت يسحبنى ناحيته وسط النهار أو بدايات الليل قبل ذلك، لكنه لم يسحبنى إليه مثلما فعل فى تلك الليلة بعد أن انتصفت وقبل أن يؤذن فجرها للصلاة، ووسط ناس الكفر كنت أتوه، أشاركهم جلسات القيلولة أو سهرات الصمت حول براد الشاى وجمرات اللهب وهى تحرق المعسل وكأنها تطفىء ما هو قابل للاحتراق، ووسط الناس كنت أتحاشاه ولا أتصادم معه، لكنه كان فى ذهابى إليه فى تلك الساعة وأنا العارف أنه ربما نام أو أحاطه القلق فارتكز نصف نائم نصف صاح وقد توحد مع روحه مثل نجم وحيد فى سماء شتوية ملبدة بالغيوم والسحب وإمكانيات الرعد، كان المشوار طويلا والتلفيحة التى أحطت بها رأسى وأذنى وعنقى عاجزة عن صد الريح، لكنها قدماى تتابعان السير، كأنه كان نذرا ويلزم أن أوفيه رغم الصعاب، وأنا من وفّى فى كل عمره كل نذر، هل كنت نذرت نفسى مرة من غير علم نفسى لريح الشتاء وعواصف الأيام؟.. هل كنت نذرت نفسى مرة من غير علم نفسى لريح الشتاء وعواصف الأيام؟.. هل كان يلزم أن أذهب إليه فى تلك الساعة لأشير إليه بطرف اصبعى فيفهم عنى رغم السكوت وعدم النطق؟ ربما كنا قد تواعدنا على المكان وحددنا الزمان فى غفلة منا، ذلك أننى وجدته على نفس الحال الذى تخيلته، مرتكزا على كفه المسنودة على ذراعة المسنودة على كوعه المسنود على «طوالة» المواشى الخالية وسط «الزريبة» عيناه تنظران إلى السماء المعبأة بالسواد والسحب المعتمة، لعله كان يجاهد أن يصطاد نجما بعيدا يتخفى وراء السواد، يجاهد بيأس كامل وأمل عنيد فى أن يراه.. وعندما دخلت لم يتحرك من مكانه ولم يلتفت ناحيتى أو حتى يهتز.. سمعت صوته الآمر يهمس بود:

- اقعد يا مدندش.

وقعدت، لعلنى نظرت فى اتجاه الفراغ الذى كان ينظر إليه أبحث بدورى عن النجم المستحيل أو الشهاب الغارق فى بحر السواد.. وكان

هناك فى الراكية بقايا جمرات توشك على الانطفاء تحت رمادها الهش، نفخت الرماد فبان ضوء اللهب الشحيح وكان هو مازال على حاله، ومن البعيد البعيد سمعت صوته رغم الاقتراب إلى حد التلامس:

- ولع الراكية.

كنت أعرف الركن الذى وضع فيه عيدان الحطب وقطع الخشب الجاهزة للاشتعال، فتحسست بكفى وحصلت على عيدان الحطب، لكننى لم أجد غير كتلة خشب مستطيلة، شريحة وحيدة أطول من طول ذراع، أخذتها وركنتها إلى جوارى بينما كسرت عيدان الحطب الجاف وألقيت بها فوق بقايا الجمرات الملتهبة، ونفخت فيها عدة مرات، ولابد أن رماد الجمرات غطّانى قبل أن يتناثر الشرر القليل ثم يتكاثر ويتزايد قبل أن ينـدلع لسان النار، أسمع طقطقات العيدان وهى تزغرد للسان النار أو تزغرد به، وأراه ومازال على حاله وإن التفت ناحيتى بنظرته نصف التفاتة، بطرف عينه يرانى وبطرف تلفيحتى أراه، ووضعت كتلة الخشب فوق الراكية فبدت لى مثل «معدية» عريضة فوق شاطئين لبحيرة مدّورة يطلع منها لسانان من لهب عنيد، يحوطانها وهى ساكنة على حافة الراكية رغم هوس النار ووعيدها المسموع، وبدأت فى ضوء اللهب أراه ويرانى، يعجز كل منا عن إنكار وجود الآخر، إما أن يسعى أحدنا وراء الآخر مسلمًا له بحق التقدم عليه أو أن نتعارك، نتقاتل مثل أى وحشين غريبين فى مثل هذا العراء وذلك الصقيع الذى يحيطهما رغم وجود النار وقد تمكنت من منتصف كتلة الخشب، أحاطتها مثل حزام عريض ونالت وسطها فاشتعل رغم سلامة الطرفين وابتعادهما عن النيران، وبكفه ولا أدرى لماذا فعل،رأيته يهوى على كتلة الخشب الملتهبة والساكنة فى وسط النار.. يهوى عليها فيقسمها نصفين. والغريب أن النصفين لم يكتفيا بالانقسام وإنما سمح أحدهما للآخريان بأن يركبه ركوبا كاملا.. وفى وسط الراكية صارت كتلة الخشب كلها محاطة بلهيب النار بعد الانقسام.

- قول..

قالها فشعرت بأننى قابل للانقسام إلى نصفين تماما مثل كتلة الخشب،

وفكرت أن الكتلتين من الخشب تطولهما نفس النار رغم ركوب الواحدة فوق الأخرى فى قلب الراكية. نظرت إليه وقلت باستسلام:

- كان جمرة نار.
- قول..
- أنا كنت ناوى على سوق الخميس منعونى.
- غنيها يا مدندش..

غنيت الغنوة وشعرت بالدفء. كان خيط العنكبوت قد تحول إلى حبل تيل مجدول قادر على جر فحل جاموس، ابتسم لى واتفقنا بالصمت الذى احاطنا على عدم الكلام فى أى موضوع، كان قد عرف ما يكفيه وكنت أعرف ما يكفيه ويعرف أننى عرفت أنه عرف ما يكفيه، كان الصَّهد يحوطنى ويزيح عنى رعشة البرد التى أوشكت أن تسكن بطنسى، وكانت السماء هناك مشحونة بالسحاب والرعد وربما بماء المطر أو كرات الثلج الصغير، وكان فراغ الغيطان يشهد أننى لم أبح بشىء ولا هو فكر فى أن يسألنى عن شىء على وجه التحديد، تمدَّدت على الأرض فغطانى بطرف حرامه الخفيف الذى كان يسمح لصهد النار بالدخول إلى أطرافى يدفئها، وقبل أن أغفل أو أنام سمعت صوت الأذان ينادى لصلاة الفجر من زاوية عزبة الغرباوى، ربما سمعته بصحيح وربما خيل إلىَّ أننى سمعته قبل أن أغطس فى النوم ولا أصحى لروحى إلا على هزة من كف صالح، وكانت هناك رغم سواد الليل شمس طالعه ونهار قلت فيه الريح وسرحت إلى الأفق البعيد منه سحاباته المعتمة التى كانت تملأ سماء الليل ولا تنزاح.

لا أذكر كيف رجعت إلى دارى فى الكفر ولا أعرف بماذا كنت أحس، لعلنى كنت أشعر بنشوة تحت الجلد وخجل فى الدماغ، شىء مختلط ونادر الحدوث، كنت أسحب نفس وأتسحب فى دروب الكفر وأنا ذاهب إلى دارى، لا أرغب فى النظر إلى أحد أو أن ينظر ناحيتى أحد، كأننى كنت عذراء فقدت عفتها باختيارها ورضاها لحبيب قلبها الذى رغبت فيه وتمنت وصاله، سعت إليه ووهبته روحها ثم أفاقت على ضرورة الرجوع إلى

دارها لتسكن وتتدبر أمرها فى مستقبل الأيام، كأننى كنت فارسا قطع الطريق الصعب إلى مخبأ الغول، وبالحربة وبالسيف مزق أطرافه وسيّح دمه على الأرض ثم عاد، وعندما كنت فى دارى شعرت أننى كنت أتشمم رائحة الريح وأرى على نحو خاطف ما سوف يجرى فى كفرنا «الغَّواف» من أمور فى مستقبل الأيام.

* * *

ليلتها كنت أقبع فى ركن المندرة المزحومة بالرجال، يحيطونه ويصبون عليه النظرات، وكان هو يتكلم بحماس لا يشوبه أى حذر، كأنما لم تكن للحيطان أذان فى دار صالح، حتى عندما حذره حسان ابن طه مداعبا:

- الكلام ده يودى ورا الشمس لو حد مننا قاله.. بس انت يا سى سيد باين عليك مسنود.
- مسنود بالناس.
- محدش فى الحاجات دى بيعمل حساب للناس.
- طيب نسأل المدندش.

قالها سيد أفندى وهو ينظر ناحيتى، وكأنه مد ناحيتى حبلاً وطلب منى أن أتعلق به وأخرج من أعماق الجب الذى كنت أتوارى فيه، أطلع إلى السطح وأبدى رأيا وسط أكابر ومدرسين وطلبة فى الجامعة والمدارس، قبلها قلت لروحى كن فى حالك يا مدندش، كل لقمتك بالسعى وأحمد ربك، مالك أنت بأيام الملك الذى طردوه أو أيام عبد الناصر التى جاءت بعد اللواء محمد نجيب، صحيح انك يا مدندش بنى أدم، لكنى هل كل بنى أدم منا مسموح له بأن يقول للخلق رأيه فى الحكام؟ والرأى شىء غير التعليق السريع أو النكتة العابرة، قلنا نكتًا كثيرة فى الملك واللواء وقلنا أكثر فى عبد الناصر ونقول فى السادات، لكن هل النكتة تقدم أو تؤخر يا ناس؟ ألف نكتة تفوت وألف ألف نكتة تتوالد وتموت لكن الحاكم يبقى حاكما والمحكوم محكوما، وهذه طبيعة الدنيا بأسرها، لكن يا مدندش الرأى شىء أخر، وما

يقوله سيد أفندى رأى فى الحاكم والناس ويلزم أن تقف معه أو ضده، كنت يائسا من الناس وسكوت الناس وكلام الناس، وكان هو يحلم بنـــاس غيـــر الناس، ناس تقول الرأى ولا تتردد، ناس تدافع عن حقها بلسانها وعقلهـــا وفعلها، وجادلته، قلت له إن ناس كفرنا وكل الكفـــور المجـــاورة اختـــارت السكوت لأن الكلام طنطنة حروف، ولأن أدوات الفعـــل معدومـــة والـــوعى القليل مزروع فى سكك السعى وراء اللقمة وقلت له ما كنت أعرفـــه عـــن هوجة عرابى وأيام سعد زغلول والحماية وبنادق الإنجليز، وسألته إن كان الدم الذى سال قد بنى فى الأرض قصرا للمكافحين أو حتى عشـــة؟ وقلـــت وقلت وقلت، كأننى كنت فى جرّة وخرجت للناس، كأننى كنت محبوسًا فـــى قمقم وفتح لى سيد أفندى الغطاء فتجاسرت ونطقت ونلت استحسان الكـــل بما فيهم سيد أفندى نفسه وختمت كلامـــى بالرأى الصريح:

- عبد الناصر كسر قلوبنا بالهزيمة وسلمنا للسادات، والسادات باع واشترى فينا وخد عمولته من دمنا!!

كنت جريحا وكانوا جرحى، وكان سيد أفندى مثل جرّاح محبوس فى غرفة مملوءة بالآهات والوجع، عاجزًا عن معالجة الكل فى نفـــس الوقـــت وعاجزًا فى ذات الوقت عن الاختيار، من أين يبدأ؟ إلى أى موجوع يمّد يده ويحاول أن يداوى ويخفف الآلام وبأى حق يترك الآخرين وهـــم ينزفـــون ويصرخون ويطالبون بتخفيف الوجع، وربما أشفقت عليه ســـاعتها وهـــو يتعرض لسخرياتهم فى حلمه المستحيل، يستشهدون بكلامى وكأنه نهايـــة المطاف، خلاصة الحكمة الساكنة فى القلوب وهى تواجـــه كـــلام الأفنديـــة المطلى بآراء العقلاء الذين قرأوا كلامهم فى كتـــب الجامعـــة ومطبوعـــات الحكومات، وأنا قرأت فى بعض هذه الكتب وكادت أن تبدلنى، تنـــزع عـــن جلدى جلدى وتغطينى بجلد غيره، لكننى كنت مزروعا فـــى طـــين الأرض، محميًا برائحة الغيطان ونسيم الفجر وخبث الناس وحيلتهم من غريب حتى ولو كان أفنديًا سرح فى أركان المدن البعيدة مع أب له فات الكفر برضـــاه فى رأى البعض وغصبًا عنه فى رأى البعض الآخر، وفى كفرنا يحق لـــك الخروج والدخول طبعا ولن يتغير شىء بشرط أن تكون على ذمة الكفـــر،

مربوطا معه بخيوط الود أو حتى العداوة، سيرتك موصولة ودائمة وكأنك تارك فيه ظلك أو بعض نفسك، أولادك أو دارك أو ميراثك أو زوجك أو حتى عملة عملتها فنلت بسببها الإعجاب أو الغضب، تخرج وأنت على ذمة الكفر وترجع فى أى وقت حتى ولو عدت فى أرذل العمر بعد تأبيدة قضيتها في اللومان مثل السعيد ابن نجاتي الذى قتل عمه وأمه ودافع عن شرفه فاستحق أن يبقى اسمه على السنة الناس رمزا للسكوت الطويل والانتظار الوقت المناسب، وعندما جاء الوقت فعلها وسلّم روحه لمأمور المركز أيامها كان ناس من الكفر تقول إنه شهم وناس تقول إنه خسيس لسابق معرفته بمسألة علاقة أمه مع عمه التى فاحت رائحتها وزكمت كل الأنوف، كان يبدو مثل عبيط مفتوح الشدقين بمناسبة وبدون مناسبة، يسمع الكلام الجارح ولا يرد، وكان بعض شباب الكفر يزغده فى صدره أو يلطشه بالكف على صدغه، لكن السر كان فى قفاه، ذلك أنه عندما تلقى أول صفعة على قفاه أفاق، عباس ابن بحر هو الذى صفعه على قفاه وقال له فى ساحة المولد:

- عمك راكب على جدار داركم حمَّارى ياتيس.

يومها تحسَّس قفاه وردَّد:

- تيس تيس، وكل وقت وله أدان يا عباس يابن بحر، يااللى بنت عمك فرشت تراكيب الغيطان بتوبها للى يسوى واللى ما يسواش.

وضحك الناس، وضحكت أنا مثلهم، لكن ضحكنا تحول إلى اندهاش فى فجر نفس الليلة ونحن نسمع ما جرى لأم السعيد ابن نجاتي وعمه، كان الرجل والمرأة هناك فى نفس الدار أشباه عرايا وفى وضع فاضح رغم حرصهما لحظة المفاجأة على التستر، وإن هناك إلى جوار الجسدين رأسان مفصولان على ما يبدو بضربة واحدة محكمة التصويب، ضربة قادرة ومغلولة ومفلوتة بعد طول السكوت، وكان السبب كما لاح لى ولكل الناس مجرد كف على القفا، لسعة غير محسوب حسابها جاءت من حيث لايحتسب، من راحة يد عباس ابن بحر، ذلك الذى اختفى هو أيضا فى نفس الوقت، كان السعيد قد أسلم نفسه لمأمور المركز، أقر واعترف بما فعل،

وفى المحكمة دافع عن شرفه بكلام قليل لكنه كان حريصا على إبلاغ من جاءوا من الكفر بأن يقولوا لعباس ابن بحر إنه مديون بدم بنت عمه لناس الكفر، طلب المحامى الذى عينته الحكومة للدفاع عنه قاضى الحكومة الرحمة وتخفيف الحكم على الجانى الذى نزع الله من قلبه الرحمة، فنطق القاضى بالمؤبد بدلا من الإعدام، من يومها ظل السعيد ابن نجاتى فى ذاكرة الناس، لكن ابن بحر الذى اختفى لم يختف من الذاكرة تماما، ظلوا يذكرونه ويذكرون المثل القائل بأنه هناك فى هذه الدنيا ناس بيوتها من زجاج لكنها لا تكف عن رمى الناس بالطوب، وأنا يا ناس كفرنا «المستكاوى» مندهش من ناس كفرنا «العندليبى» الذين يتصرفون فى بعض الأمور المتشابهة بطرق مختلفة، يتذكرون الجسور والرعديد، القاتل والمقتول، الجانى والضحية بشرط أن يكون ذلك فى زمام الكفر وعلى ذمته، أما من تباعد أو ابتعد فلا يخصهم فى شىء.. حتى لو كان ما يربطهم به هو الاسم والدم وتقاطيع الملامح وهيئة الأبدان.

نرجع لحكاية سيد أفندى:

هل كنت أنا أقرب إلى ناس كفرنا «العنَّابى» من سيد أفندى، هل كنت أنا الغريب الحقيقى المقطوع من شجرة الأموات أقرب لقلوبهم منه إلى هذا الحد؟ هل ظلمه الناس حيًا وقد جاء إليهم بعد طول الغياب إلى حد أنهم كانوا يودون لو كنت أستطيع أن أنتصر عليه أو أن يشهدوا هزيمته ولو كان ذلك عن طريق الغريب المدندش؟

أعرف أنه تربى فى الغربة لكنه مولود فى كفركم «القراقيشى»، عاش فى المدن البعيدة على غير إرادة منه، ومهما اختلفتم انتم فى مسألة حسن عوف مع عبد القادر فهو يا ناس منكم، رجع لكم بعد أن طاف ولف ودار فى المدن البعيدة، صحيح أنه راجع ليكون قريبا من قبر ابنه، لكنه رجع، ناس من عواجيز الكفر قالت إنه اخطأ عندما ترك الأرض والناس والأهل وأنقطع، وإنه أسلم روحه للمدن البعيدة جعل شوارعها تسكن ذاكرته وذاكرة ابنه بدل الغيطان والسواقى وريح الأرض، سلم واستسلم فى أول عراك فاستحق النسيان، بينه وبينكم مسافة يصعب اجتيازها، مثله مثل

الولد، ذلك الذى جاء بإرادته ليعرف ويتعرف ويكتشف، ربما لأن البعيد عن العين فى كفرنا «الكمونى» بعيد عن القلب، ما علينا، ناس أخرى من عجائز الكفر قالت كلاما آخر قالوا إن حسن كان أضعف من أن يقف فى وجه الأب القادر. وقالوا إنه اشترى عمره بالابتعاد.. وقالوا إن الولد مسكين على كل حال.. لكنهم جميعا، كل عجائز الكفر شعروا أنه لم يعد يخصهم، لا هو ولا ابنه الأفندى الراجع، كأن الكفر بكل ناسه رغم اختلافاتهم اتفقوا عليه، كأنهم لم يباركوا يوما دخوله حدود كفركم «البنفسجى» أو معاملته على أنه واحد منكم، أنا أثرثر مجرد ثرثرات، أعرف ذلك، لكننى أفكر معكم بصوت مثلما كان هو يقول.. أفكر بصوت فأسمعونى.

المسألة فى غاية البساطة، كان من الممكن أن يطلع منكم برضاكم أو غصبا عنكم، ويعود إليكم بالمثل، برضاكم أو غصبا عنكم، شىء مثل نقطة الدم التى تعصرها من إصبعك بعد شكة الدبوس أو الإبرة، بإرادتك أنت رغم الوجع تعتصرها وبرغبتك أيضا تمتصها، دون أى احتمال للشعور بالقرف، هى نقطة من دمك أنت تدخل فى فمك أنت باختيارك، ولو أجبرك الحكيم على ذلك ربما ترددت ألف مرة، ببساطة كان هناك حاجز غامض لا أعرفه يفصل بينكم وبينه، بينى وبينه لم يكن هناك أى حاجز أو مسافة ربما لأنه وسط الزحام كان يبدو لى وحيدا مثلما أنا وحيد، وحيدا وحزينا ويحاول أن يتصالب بعسر، أن يحدثكم عن تاريخ الفراعنة أو يحكى لكم تواريخ الثورات أو عادات القدامى، كان يجاهد أن يصل إليكم مثلما أجاهد أنا منذ نزلت ميدان كفركم وورثت صندوق الدنيا وطبلة المدندش الكبير وصاجاته، ثوبه وزعبوطه وطرطوره وطول لسانه، أنا حسنين المدندش ابن حسنين المدندش مولود وسط ناس الكفر ورغم الاغتراب والابتعاد كنت أعود، لم يعترض أى نفر منكم على سفرى أو رجوعى، ربما لأننى كنت أسافر وأنا على ذمة الكفر، ذاهب أو راجع، غائب أو مقيم وأنا على ذمة الكفر، أما هو.. فكان كما قال الجد طه فى إحدى السهرات:

– ابن البلاد البعيدة، مين يعرف إن كان هوهو اللى يخصنا ولا الخلق

فى المداين يذكّوه، لبسوه بدله وغيروا لهجته فصار منهم، يخصنا منه اسمه وجسمه، لكن بينا وبينه حدود..

كان بينه وبينكم حدود.. وكانت بينه وبين صالح مسافة باتساع الغيطان التى زرعها صالح وانزرع فيها، وكان يغنى فى الأمسيات أحيانا والخلاء يحوطنا وفى صوته أسى غويط غويط:

«أنا المصرى كريم العنصرين»

فأوشك أن أقاطعه واسأله إن كان بالفعل كذلك، لكننى كنت أخجل من نفسى، اوبّخ روحى لأننى نسيت أنه أول طرح مبروك ما بين أولاد عوف وأولاد شلبى، هؤلاء القدامى وهؤلاء الجدد على الكفر الذين أوشكوا على امتلاكه، وأحيانا كنت أرد عليه بحماس أكثر من حماسة:

«أنا المصرى كريم العنصرين»

فأينا يا ناس كان المصرى كريم العنصرين؟

بينى وبينه زالت كل الفصول والحدود، ارتحت له وارتاح لى، كان يكاشفنى وأكاشفه: يحكى عن سنوات اغترابه واحكى عن سنوات الرحيل، السعى المجنون وراء اللقمة وأيام العشق التى جرجرتنى وراء بنت العرب التى جاءت الكفر مرة تستجدى ما يجود به الأكابر فخطفت عقلى، أسرت قلبى وروحى، جعلتنى أسعى خلفها منشدا للسيرة النبوية والهلالية وسيرة عنترة، أغنى وترقص هى ومن كنت أحسبه شقيقها يلسم النقسوط، يكنز الجنيهات بدعوى أنه ينوى تجهيز البنت يوم يتقدم لها ابن الحلال الذى يستحقها، أيامها كنت أحسب أننى ابن الحلال الذى يعنيه حتى كان ما كان، حكايتى مع وهيبة قلتها له بكل ما كان فيها من تفاصيل، وكان يحسن السماع، يدعوك لأن تواصل الحكى دون حذر، تحكى وكأنك تقول لروحك فى الخفاء دون أى خجل أو تردد أو رهبة، وهيبة لحست عقلى وتوهت روحى وأفقدتنى كل أمل فى الدنيا وبعثت فى مشاعرى كل ألوان الرجاء والحلم، وهيبة التى لم أبح بكل سيرتها لأحد غيره غيرتنى وأعادتنى للكفر مندهشا أخر. وأنا قلت لكم بعض ما كان من وهيبة، لكننى لم أقل لكم كل

شيء، وقد لا أقول لكم كل شيء أبدًا، يكفي أن تعرفوا أنهـا كانـت وراء انفرادي بروحي كل هذا العمر دون زواج أو خلفة، من أجلها سرقت ولوثت كفوفي بدم البشر، وكانت هي السكين الذي سرق عمري، سكين مسموم النصل شديد النعومة إلى حد الذبح دون وجع كثير، ذبـح نـاعم كـالحرير وأنعم، ذبح يبقى الرأس مكانه ولا يظهر أثر النصل فوق ثنيات العنق، هـو نوع من الذبح المخصوص ذلك الذي جربته مع وهيبـة، ووهيبـة كانـت أعرابية، دخلت كفركم «السهران» تهز وسطها وتطلـب الـثمن فطـالتني بعينيها الحويطتين المكحولتين تحت جبينها الهلالي وصوتها مثـل كـروان يسبح في الفراغ بحمد الله على الصحة والجمال والستر، سرحت وراءهـا دون علمكم طبعًا، لكنها كانت وراء هجرتي وعودتي، غيـابي ورجـوعي، وراءها درت في كل بلدان البر، الريف والحضر، بحري وقبلـي، الجبلـي والصحراوي، وهبتني وهيبة من حسنها أقل القليل لكنها أشبعتني وروتني، توهتني وأعادتني لأصلي، ولولا كلامها ما رجعت إلى كفركم «المسـامح» أعيش وسطكم وأحصل على رزقي، ويبدو أنها حسبتها حسبة صحيحة لأنها كانت بارعة في الحساب، عرفت منتهى عزمي وأدركت أنني لا أقوى علـى الاستمرار معها وحولها وهي محط أنظار ناس تشبه الغيلان، رأتني مثـل عود قصب معصور وممصوص خيره فأوحت لي بأن أرجـع، وأنـا مـع البدوية كنت أطاوع دون مناقشة، كنت مثل خاتم في إصبعها، طيعًا مثل قط رومي ووفيا مثل كلب أرمنت، رجعت وصدقت أنها سوف تتخلص من كـل ما يعوقها عن الحياة معي وترجع إلى كفرنا «النعنـاعي» تعطينـي بقيـة عمرها وتاخد ما تبقى من عافيتي، قلت لكم إنني صدقت ورجعت، انتظـرت وانتظرت وانتظرت، لكنها لم تأت قط، لا جاءت كفرنا ولا أي كفر أو بلد في كل الناحية، من ناحيتي عملت بالوصية:

– اوعاك يا مدندش تبص لحد غيري.. أوعاك أرجع ألاقيك متجـوز واحدة من بنات الفلاحين.. استناني، مهما طال الغياب اسـتناني.. ح أرجع لك وأعيش وياك، وح أعوضك وأنسيك سنين الحرمـان والغلب.

بذلك قالت البدوية، وأنا من ناحيتى صدقت الوعد، وقلت أنتظر، وطال انتظارى ولم تظهر علامة الرجوع أبدًا، لكننى لم أيأس، كنت أستعيد عينيها الحويطتين وأسألها عن موعد الرجوع فتهرب منى مثل جنيه صغيرة، أسرح بالخيال فى أعقابها ولا أطولها، لكنه يبقى فى ركن القلب بعض الرجاء فى أن ألتقى بها فى العمر مرة، مرة واحدة، ظل حبل الرجاء ممدودا وموصلا بينى وبينها، سنوات وسنوات فاتت من عمرى، خرج السعيد ابن نجاتى من حكم المؤبد بعد أن قضى ثلاثة أرباع المدة، وأنا لم يصدر حكمها بالعفو عنى، قلت كل شىء لسيد أفندى، قلت كل شىء وكان يسمعنى، يدعونى للاستمرار فى الحكى، أراحنى، خفّف عنى وضاحكنى وأزاح عنى وهم الانتظار بلا جدوى، أكد لى أنها مادامت قد وعدتنى فسوف تفى بالوعد، وحكى لى شيئا عن وعد الحر، وعد العربى الحر، كان الأفندى يحب العرب، كل العرب والأعراب والبدو المتنقل، وكان يحب عبد الناصر ويكره السادات، وكان يحلم مثلما أحلم بالإعرابية، يحلم بوحدة العرب ويحلم بالزمن العربى ويبثنى أشواقه لذلك اليوم البعيد الذى تعود فيه وهيبة ويتوحد كل العرب، وكنت أشعر أنه مصاب بنوع نادر من أنواع الخبل، خبل العرب إن جاز لى أن أقول، كان يرى أنه من الحتمى أن يجىء اليوم الذى يتوحد فيه كل العرب، يتقابلون فى واحدة من عواصم العرب، يتعانقون ويختارون قائدا أو زعيما يتولى أمرهم فى مسائل الحرب والسلام، العجيب العجيب أنه كان يتخيل هذا القائد أو الزعيم ويصفه لى فأرى وجه عبد الناصر الطالع وقد تألق بالشباب وازداد وعيا بدوره الكبير، ما علينا، مالنا بعبد الناصر الذى اختلفت معه فى شأنه، ثم مالنا بالسادات الذى أوشكنا أن نتفق فى شأنه، ثم من أكون أنا ليكون لى رأى فى المسائل السياسية وهى وظيفة الأفندية؟ ربما يكون سر تباعد ناس الكفر عنه هو هذا الاهتمام الزائد عن حاجتهم بالسياسة، اهتمامه هو طبعا الذى يزيد عن مقدرتهم على الانشغال، السياسة فى كفرنا لقمة عيش وثوب ومسكن يريح النفر فيه جنبه ويقيه سخونة الحر فى الصيف ورعشة البرد فى الشتاء، السياسة فى كفرنا شاى وسكر وزيت ودقيق وسمن وقرش جار فى الجيوب وسداد

ديون، مالنا بالسياسة؟ وهل نفعتنا السياسة أبدا، راح الملك وصفقنا لمحمد نجيب، ذهب محمد نجيب وجاء عبد الناصر، صفقنا لعبد الناصر حتى أدمينا أكفنا من كثرة التصفيق وراح عبد الناصر فطلع لنا السادات، حكى لنا كل يوم حكاية شكل عن جدته وأخواته وناس كفره الأصغر من كفرنا وكأننا لم نذهب إليه أو نعاشر فيه ناس، هل أطعمنا السادات كما قال؟ وهل؟ وهل وهل؟ وما قيمة السياسة ومن يشتغلون بها إذا كان ما نتمناه لا نلقاه وما نحلم به لا يتحقق؟ الناس فى كفرنا وكل الكفور المجاورة تموت بالمرض الناتج عن الإهمال والجوع أو تموت بالغدر مثل سيد أفندى، وهناك دائما ذلك المجهول المعلوم لنا، مجهول لهم هم يحرصون على تأكيد وجوده وكأنه من مصلحة البعض أن يظل البعض مجهولا للبعض رغم كونه معروفا للناس، أرزاق هى تتوزع فى الخفاء والعلن لكن رائحتها تفوح حتى ولو كانت فى البعيد البعيد، ربما لأننا ورثنا فى خلايانا المقدرة على كشف الأسرار فصار كل شيء فى حياتنا واضحا وظاهرا مثل شعاع الشمس وكل المطارات السرية والحسابات السرية وشروط المعاهدات السرية مثلما قال لى ذات مساء صاحبى الذى خطفه المجهول المعروف، سيد أفندى المغدور قال لى وصحَّانى من غفلتى، أو قل إنه أكد لى صدق ظنونى، كان بالنسبة لى مثل كتاب مفتوح وكنت بالنسبة له معروفا ومقروءا، فهل مت أنا فى ذاكرته بينما مازال يحيا فى ذاكرتى؟ وإذا كانت ذاكرته التى أنطفأت مثل سراج وهاج انتشر ضوؤه قبل أن تعصف به الريح الصرصر العاتية فانطفأ وساد حولنا الظلام بينما هو باق، كأنما أخذنا نحن من منطقة النور إلى منطقة العتمة بعيداً عن أى ضوء أو شعاع فدعانى لأن أندب نفسى فيه وقد توحدت فيه زمنا لا يفصل بيننا فاصل، تصاحبنا وتساوينا وتبادلنا الكلام المفتوح بلا حواجز أو حدود، دعانى لأن أفتح مغاليق نفسى وأن أفسح للسانى حرية البوح والقول بلا تردد أو مخافة، دفعنى دفعا لأن أعلن خلافى معه ولا أكتمه، كنت أفعل أحيانا لكنه ليس دائما فلمن أبوح من بعد رحيله بسر المفاسد والأكاذيب؟ ولمن أشكو وقد شاخ القلب وشابت خلايا الدماغ من كثرة ما شفنا فى عمرنا من مرواغات؟ مرواغات الكبار.

قبل أن أعرف سيد أفندى كنت أتفنّن فى سرقة الكتب لأقرأها، وكنت أصدق نفسى بأن من يملكون الكتب نادرا ما يلتفتون إليها أو يضيعون الوقت المناسب فى القراءة، يقرأ الكتاب من لا يملكه، على الأقل يتمنى قراءته، وفى الكثير من بيوت الأكابر كنت أرى صفوف الكتب وقد غطاها الرماد الدقيق بما يؤكد أنهم لم يقلبوا صفحاتها مرة، كنت احتال وأسرق الكتب من أكابر هذا الزمان المقلوب إذن، أقول لروحى إنه حلال لأمثالى أن أعرف أى شىء آخر غير ما أعرف، بينى وبينكم تهت، الكتب متاهات ودهاليز ومسالك ملفوفة لكنها تدعوك لأن تتحسس السكة رغم السواد والعتمة، ما علينا، أخطر شىء، أخطر شىء فى هذه الدنيا أن تتبدّل، تتغير أفكارك عن الأشياء، باختيارك أحيانا ودون وعى فى حالات أخرى، وما جرى لى بعد أن قابلت سيد أفندى هو شىء من هذا، سرقت منه كتابا، كنت قد أوصلته إلى دار صالح فى ثالث زيارة أراه فيها، حملت عنه حقيبة.

- مالها ثقيله كده ولو أنها صغيرة.. معبيها زلط يا سى سيد؟

- أبدا.. فيها كتابين..

قلت لسيد أفندى بينى وبين نفسى «أنت الجانى على روحك»

تحمل كتب أفنديه البنادر إلى كفرنا «الفركوحى» وتظن روحك قادرا على الخروج بها وأنا موجود؟..

جاوبته على أسئلته فى السكة من دحديرة الكوبرى حتى دار صالح، ناولته الحقيبة عند الباب واستأذنت رغم دعوة أهل الدار لى بالدخول، وعدته بالمرور فى الليل، وفى الليل نصبوا فى المندرة سهراية شاركتهم فيها، وأنا خارج دفست الكتاب فى عبّى، كنت قد رأيته وأنا داخل فوق رخام الترابيزة المحطوطة أسفل دولاب الحائط فى قاعة صالح، قبلها كنت قد امتلأت، حصلت إلى «ورك» ذكر بط محمر لزوم إكرام الضيف وضيف الضيف، وفى دارى أخرجت الكتاب وفى ضوء المصباح الخافت عرفت بيرم مؤلف أهل الهوى يا ليل، بيرم شاعر دمه خفيف عارف للناس وطباع الناس، سهرت الليل بطوله حتى قرأت آخر صفحة من الكتاب، أقول لكم

حقيقة غابت عنّى بيرم حببنى فى سيد أفندى، ربط بينى وبينه برباط خفى، شىء غريب لم يحدث لى من قبل، أن يحببنى كتاب مسروق فى صاحب الكتاب المسروق لكنه حدث، كان النهار الطالع يملأ وسط دارى بشمس الله الدافئة، وعندما رحت أفتح الباب للطارق كان الكتاب فى يدى، كان وجه سيد أفندى قبالتى يبتسم، ربما يكون قد لمح الكتاب بنظرة خاطفة سارع بتفويتها، رحبت به وأنا مندهش أشد الاندهاش، دخل الدار ببساطة وجلس على الحصير الذى فرشته تحت شمس الضحى، قلب فى الكتاب وسألنى ببساطة:

- قريت فيه؟
- قريته كله ياسى سيد.. ده دنيا بحالها.
- غريبة.

كانت عندى تلقيمة شاى وعلبة سكر كاملة، فشربنا الشاى وأتفقنا أن أخذ منه الكتب لأقرأها وأعيدها إليه بعد القراءة، حدثته عن الكتب التى قرأتها وتلك التى سرقتها ولم أكملها فتخلصت منها بالبيع، وحدثته عن طعم الكتب المسروقة التى يقرؤها النفر ويخرج لسانه من بعيد لبعيد لأصحابها:

- أنا يا سيد أفندى لا دخلت مدارس ولا كتاب، بس اتحايلت واتعلمت، شغلت روحى بالحروف والكلام وقريت، ساعدنى العيال الصغار ف الأول، وعاندت روحى لحد ما صار كل الكلام المكتوب مقرى.. تصدق بأيه؟ لحد النهاردة ما عرفش أكتب اسمى، مكتوب عليك يا مدندش تقرا وتقرا وتعجز عن الكتابة، شفت واحد زيى كده يا سيد أفندى، يقرأ ما يكتبش..؟
- وشفت اللى بيكتب ولا يقراش..
- عجايب.. دى الدنيا على كده مدوره بصحيح.
- مدوره فعلا يا عم حسنين.

كانت أصدق عم حسنين سمعتها فى كل عمرى، ومن ساعتها بدأت علاقتى معه تأخذ شكلها المخصوص.

طلب منى علام أن أفوت على داره، أشوف طلبات أهل الدار، ذهبت فوجدت الست أم شاكر مشغولة بتجهيز زيارة، أول ما شافتنى وصفتنى بأننى ابن حلال.. طلبت منى أن أرافق شاكر إلى شقة سيد أفندى فى الحلمية الجديدة، دست فى يدى ما قالت عنه أجرة السفر لى ولشاكر، وأشارت إلى سلة الزيارة، المشوار لا بأس به لكن زمالة الطريق صعبة، شاكر لسانه مفلوت وغلاط وأنا لم أعد أحتمل سخافات الصغار ولا أوامر الكبار، كان سيد أفندى يتراءى لى ويمنعنى من الاعتذار عن المشوار، استعنت بالله وحملت السلة، طلبت من شاكر أن يلحقنى عند السكة الزراعية لكنه زام وبرطم قبل أن نبدأ المشوار:

- مستكبر تمشى ورايا بالسبت يا مدندش؟
- اختشى عيب يا شاكر.

قالتها أمه قبل أن تلتفت إلى لتطيب خاطرى وتزيح ترددى وقد وقفت عند الباب مبديا عدم ارتياحى لكلام الولد:

- عيل معهلش يا مدندش، عيل ومايدركش، عشان خاطر سيد، أنت مش عاوز تشوفه ولا إيه؟..

من أجل سيد احتملت شاكر حتى وصلنا إلى شقة سيد أفندى، كان فى الشقة مجموعة من الشباب فى مثل عمره، هللوا وهم يتشممون محتويات السلة، يتضاحكون وهو واقف مكانه يرحب بنا بينما هم جاهزون للترحيب بمحتويات السلة، كانت زيارة عمرها قصير، زيارة بنت ساعة زمن بفضل الأسنان المسنونة للأفواه النهمة، لكنها كانت أكلة فطير وأرز مدسوس ودجاج محمر تشبع، شبعوا وشبعنا ثم تسللوا مغادرين وتركونا، أنا وسيد أفندى مع شاكر، كان شاكر يبدى غضبه من أصحاب سيد افندى الذين بدوا له متطفلين لا يخجلون، وكان سيد أفندى يدافع عنهم يقول إنهم أصحاب عمره وأنهم لولا الحب ما فعلوا ذلك الذى فعلوه، كنت مشغولا بالكتب فوق رفوف المكتبة بطول الجدار، كتب كثيرة تصلح للسرقة لكنها تحتاج إلى جرار بمقطورة، تناولت كتابا لأقرأه فوجدت شاكر يسألنى:

- أنت جاى تقرأ هنا؟ ودينى عند بنت عمتى.

كأننى كنت عبده الذى اشتراه علام، كدت أغلط وأفرد لسانى لولا سيد أفندى الذى تدخل فى الوقت المناسب، هدأ شاكر ووعده بأن يوصله بنفسه إلى أى مكان، فى الليل جاءوا، نفس المجموعة ومعهم شيخ ضرير يحمل عودا ملفوفا فى ثوب قديم.. وبسرعة أخرجه وجلس يدندن ويختبر الأوتار.. غنى لنا الشيخ أغنيات جديدة لم نسمع بها أبدا، أغنيات عن الحرب والسلام والجرح الذى ينزف الدم ويجرح الكبرياء.. وكانوا يرددون وراء الكفيف أغنياته بحماس، أنا نفسى حفظت بعض الكلام بسرعة وجعلت أردد مثلهم أغنيات الشيخ الضرير المعاند ضد الحكومة والحكام، بينى وبين نفسى شعرت بالفرح، ها هو بعض ما نرغب فى البوح به يقال ويتغنى به أولاد المدن بينما لا نسمع غير نشرة الأخبار وبرامج تنظيم الأسرة والمسلسلات البلهاء، وكان الليل قد انتصف منذ ساعتين أو أكثر عندما فكروا فى الرحيل، تركونا بعد أن أشعلوا فى الذاكرة ما كنت أحسبنا نسيناه ونساه كل الناس.

كانت شقة الحلمية كشفا جديدا، فيها تعرفت على أفندية مثل سيد أفندى، أساتذة وشعراء وأولاد ليل حزانى من أجل البلد. عرفت فيها أن ما يملكه الواحد منهم هو ملك للآخر فى ذات الوقت، يتبادلون السجائر والقروش وبعض الثياب، يتحاورون حتى صباح اليوم التالى، يبحثون عن الحل المستحيل وليست فى متناول أياديهم أدوات الحل، كنا فى تلك الأيام نعيش الذكرى الثالثة لهزيمة جيشنا فى سيناء، جيشنا المحروس هزمته جيوش الأعداء، وكان على الناس أن تصير جيشا لكنه كان مستحيلا، وكانوا يشعرون أحيانا بالغضب واليأس، لكنهم أيضا لم يفقدوا كل الأمل، كانت مجرد أيام تلك التى عايشتهم خلالها كانت كافية لأن أعرفهم ويعرفوننى، أصير صاحبهم ويصبحون أصحابى، يستعيرون الكتب من سيد أفندى ويحملون إليه الكتب التى لا يملكها ويرغب فى قراءاتها، ها هى الكتب فى متناول اليد لكنها لا تدعوك للتفكير فى سرقتها يا مدندش ربما لأنها لا تستقر فى المكان، تتحرك، تتناقلها الأيدى وتطالعها العيون

الجسورة الباحثة بين سطورها عن الحل الكبير لهمنا الكبير بعد الإنكسار، الكتب لمن يقرؤها والسجائر لمن يدخنها والقروش لمن يقترضها والخبز القليل لكل الأفواه، دنيا غريبة لم أعتدها أبدًا، لكنها جديرة بالتأمل والتفكير فيها، وسيد أفندى مجرد واحد فى وسط ناس تقول كلاما غاضبا عن الحرب والهزيمة، تتجادل فى ترتيب المسئولين وتتفق فى العداء لصهاينة اليهود والأمريكان، كلام مثل كلام الراديو وكلام عبد الناصر لكن بشكل مختلف لأنه يدين الكل، الحكومة وعبد الناصر والاستعمار والأغنياء فى كل أطراف الدنيا.

كانت زيارتى لشقة الحلمية قد أصبحت عادة، كلما زهقت من صندوق الدنيا اذهب إلى هناك، أجالسهم وأشاركهم كل شىء السهر والكلام والغضب وبعض الفرح والتنكيت على الكبار، يسألوننى الرأى ويدفعوننى لأن أقول فأقول، يهلل فاروق افندى:

- سامعين الكلام يا أفندية يا بتوع المدارس.. الأمل فى الشعب.
- المسألة مش بالبساطة دى يا فاروق.
- لأ.. هى بالبساطة دى، لازم تنزلوا للناس، تسمعوا الناس، تتعلموا منهم، قول لنا موال ياعم حسنين.

كنت أستجيب لفاروق أفندى اكتر مما استجيب لأى واحد منهم، أشعر أنه يرتاح لوجودى وكلامى وصمتى، كأنه مسئول عنى وعن تفجير مشاعرى، أقول موالا فيهلل، تتداعى فى ذاكرتى مواويل الهم المدفون فى الأحشاء فأنطلق بها، أنسى روحى حتى اكتشف بدايات انشغالهم عنى، أسكت فى الوقت المناسب أو أتسحّب خارجا من المكان مدعيا حاجتى إلى الرقاد، أسمعهم يتحاورون وأسمع باب الشقة وهو ينفتح ليدخل صاحب جديد أو يخرج صاحب طالت قعدته، وكثيرا ما كان الصبح يطلع وهم على نفس الحال، ليلهم نهار ونهارهم ليل وأنا رغم السن مأخوذ بهم ومعهم، كأنهم بهية العربية التى جرجرتنى وراءها وسحرتنى وجعلتنى على الرغم منى مستعدا للسرقة والقتل لأرضيها، لكن بهية رغم كل فسادها لم تكن

تشعر بقلقهم وإحساسهم الدائم بالمطاردة، كانوا يتحدثون عن المباحث وأمن الدولة والمخابرات العامة التى لابد أنها تراقبهم والتى ربما تزرع فى وسطهم جاسوسا أو أكثر بهدف نقل أخبارهم، ولم أكن أنشغل بمثل هذا الكلام حتى سمعت فاروق أفندى الذى كنت أحبه يسأل سيد أفندى هامسا بينما كنت أرقد فى الحجرة المجاورة:

- أنت متأكد منه؟
- عادى.. دا راجل غلبان..
- المصيبة انهم ما بيشغلوش إلا الناس الغلبانة.
- معقول..؟ دى تبقى مصيبة.
- إحنا اتحمسنا له اكتر من اللازم.. لازم نحتاط منه..
- وطى صوتك ليسمع.

كنت قد سمعت، وبَخت نفسى بنفسى على التردد عليهم والإقامة المتواصلة بينهم، لاهم من سنى ولا مركزى يناسب مراكزهم، وأنا رغم كل شىء مجرد طبال ونداب ومنادى وحافظ كلام فارغ أضحك به على العيال وهم ينظرون من العدسات إلى الرسوم التى تظهر لهم فى صندوق الدنيا، مالى بالأفندية أصحاب الرأى من الشعراء والسياسيين ومن يكتبون للإذاعة والصحف ويغنون كلاما ساخنا عن الأحوال؟

كنت قد قررت أن أبتعد لكننى ابتعدت ببطء، انتظرت عدة أيام بعد أن سمعت ما سمعت حرصت خلالها على قلة المشاركة فى جلساتهم، أدَّعى قضاء مصلحة لى فى الحسين أو السيدة وأظل ألف وأدور حول الأماكن وحول نفسى حتى يهدنى التعب وأرجع، أعتذر لهم وأرقد فى أى مكان، أرى نظرات الدهشة فى عيونهم ولا أقدر على تفسير ابتعادى رغم ما قاله فاروق أفندى مرة:

- انت بتغطس تروح فين يا عم حسنين؟
- بزور أهل الله يا سى فاروق أفندى والمعارف.
- أهل الله؟ كويس إن لك معارف مش بقولكم؟

قال عبارته الأخيرة وهو يجول بنظراته فى كل الوجوه، كدت أبكى وأنا وحدى فى تلك الليلة، لكننى فى الصبح كنت راكبا أول قطار فى سكتى للكفر وكأننى مطرود من جنة الدنيا إلى جحيمها، يسألنى أهل الكفر عن مصر وناس مصر فلا أمد حبل الكلام على غير عادتى معهم، كنت أحاسب نفسى وأحذرها من أن تطلع منى كلمة زائدة عن سيد أفندى وأصحابه، ومادمت أنا قد تعرضت لمخاوفهم منى وشكوكهم فى أمرى فلا أمان لأحد، هكذا منعت نفسى من مشاوير السفر وجاهدت لأنسى شقة الحلمية وناسها وكلامهم، وبدا لى أن الأمر لم يعد يشغل أى واحد من ناس الكفر حتى كان ذلك المساء الذى استدعانى فيه عمدة الكفر وسألنى:

- إيه حكاية شقة الحلمية اللى كنت لابد فيها يا مدندش؟
- مفيش يا حضرة العمدة.
- لأ فيه.. أنت فاكرنى نايم على ودانى؟ أنا جايانى إشارة م المديرية بتسأل عن سيد عوف، أصله وفصله وأهله وناسه وأصحابه..
- وأنا يخصنى إيه بس ف كده يا حضرة العمدة.. أنا كنت باشيل له الحاجات اللى الست والدته بتبعتها له أو اللى سى صالح بيشيلهالى، موصلاتى يعنى.
- بقى ما تعرفش أنه كافر وشيوعى يا مدندش..؟
- شيوعى..؟ يعنى إيه يا حضرة العمدة؟ وكافر كمان؟
- أيوه ياخويا.. ومقبوض عليه من شهرين، أنا لولا باقى عليك كنت حطيت اسمك وسط الأسامى.
- أسامى مين يا حضرة العمدة يستر عرضك.؟
- اللى ح تروح ورا الشمس، هما فاكرين الحكومة نايمة على ودانها؟ الكلام ده إن دار فى دماغك يبقى بحش أجلك، روحك ف أيدى م النهاردة، أقدر أرميك فى سفا العفاريت وأقدر أداريك وأدارى عليك لو طاوعتنى.
- أنا خدام التراب اللى حضرتك بتدوس عليه يا عمدة.

- فز قوم بقى، على دارك عدل تلزمها لحد ما أبعت لك، إنما قولى الأول.. لما كنت بتروح هناك يا وله.. كنت بتشوف ايه، بتشوف مين؟ وكانوا بيقولوا إيه.
- ح أقول لحضرتك كل حاجة.. بس أعفينى دلوقت. أصلى شارب زيت خروج وحاسس إنى مكتوم.
- خطى اطلع برة جاتك القرف إللى يقرفك، وأنا أقول الريحة النتنة دى كلها جاية منين.

أسرعت بالخروج هربا ورهبة قاصدا دارى، الغريب الغريب أننى فى المسافة بين الدوار ودارى كنت أشعر بثقل شديد وليونة فى الطبيعة تصل إلى حد العجز عن احتمالها أو الإسراع بخطواتى إلى دارى لأدخل بيت الراحة وارتاح قبل أن ينفلت عيارى فى وضح النهار.

* * *

فى كفرنا «النورى» تعيش «البهاليل» أمثالى على طاعة الحكام، بإشارة من أصغر خفير أو شيخ خفراء ينقلب ميزان الدنيا من الأبيض المزهزه إلى الأسود «الغطيس» ومهما قلتم لى عن وسع الدنيا ورزقها المقسوم للبنى آدم يناله هنا وهناك، مهما قلتم لى عن إمكانيات الخروج والسعى فلن تتغير فكرتى بأن الدنيا هى حدود كفرنا «الشرشابى» وأنا أعرف أننى مقطوع فيه، لاسند لى من أهل معمول حسابهم أو أرض ملك فى الزمام تتطلب البقاء والرعاية أو حتى رزق مضمون أو ضمان، لا شىء، لاشىء من كل هذا يملكه البهلول الذى هو أنا ولا يفكر فى الرحيل، وحتى إذا رحل فعلى موعد متعجل للرجوع، وأنا خرجت من كفركم يا ناس وغبت، غبت ورجعت لأننى كنت على ذمة الكفر مثل امرأة مكسورة الجناح فى عصمة رجل جبار ومفترى وقادر لا تملك مثل هذه المرأة الجرأة على الفرار من دارها إلى أى دار، وإذا خرجت من بابها بدون رضاه أعادها ذليلة إلى بيت الطاعة بحكم الشرع وبحكم القوة والقانون، كفركم «البهلولى» يا سادة هو سكنى وموطنى وميراثى وبيت طاعتى من قديم

الأزل وحتى نهاية الأجل، وأنا لا أقول لكم ذلك بسبب خوفي من فكرة الخروج وكأنني قرموط سمك طالع من بطن الترعة ومرمى على شطها يتلوى في سخونة شمس «بئونة» الحجر، قرموط سمك يقاوم الموت بنفسه الطويل اكثر من كل الأسماك التى عرفناها، يطول الوقت أو يقصر لكن عمره مرهون بعودته إلى بطن الترعة، من هذه الناحية اعتبر نفسي قرموطا من سمك ساكن في قاع الترعة وقد جرب الشط وتاب عن الخروج، صحيح أن الرزق في القاع شحيح والعطن والعفن أكثر لكن ما هو البديل؟ الخروج للبهلول القرموط موت محتوم وفناء، يقول بعض الأكابر إنني كنت في صباى وشبابي خفيف الحركة والدم واليد والعقل واللسان وأنا لا أعترض، لكن خفة الحركة والدم واليد والعقل واللسان ضد الرحيل، صدقوني، أنا رحلت وجربت، حملت صندوق الدنيا وسرحت في البنادر البعيدة وكانت الدنيا براحا مفتوحا بلا حدود، لعبت مع ناس البنادر مثلما يلعب القط مع الفأر، شاغلتهم وشاغلوني، شغلوني في كل شيء من بواب إلى فران إلى صبى جزمجي أو قهوجي أو عتال نصف عطلان أو أشغال أخرى قمت بها برضاى أو غصبا عني لأدفع عن روحي تهمة العجز أو عدم القدرة على الاحتمال، لكن أى نوع من الاحتمال يا ناس؟ هل تنبت الحبة الصالحة في أرض غير أرضها؟ أنا عرفت مثلا أن ثمار البلاد الباردة لا تطيب في البلاد الساخنة. وزرع الصحارى غير زرع الجبال، وأنتم أهل الزراعة من قديم الزمان، هل جربتم مرة أن تغرسوا حبات القمح في طين الأرض أيام الحصاد؟لابد أنكم جربتم أو ان أجدادكم جربوا وتأكدوا بأنه لا يطيب الحب والثمر إلا في أوانه وأرضه، ومن هذه الناحية أيضا أراني مثل بذرة أو حبة مدفوسة في طين الكفر خروجها موت وفناء، طيب إذا كان الأمر على هذا النحو فكيف لا أستمر في الحياة وكل ما أرجوه لقمة تسد الجوع وهدمة تستر البدن بينما تتكفل جدران الدار بحمايتي من الشرد وعواصف الريح ووحل الأمطار؟

نرجع في الكلام إلى عمدة كفرنا «النورى» وما طلبه مني بسيط وسهل من ناحية وصعب مستحيل من ناحية أخرى، يتوقف الأمر على فكرة

البنى أدم عن نفسه وفكرته على الآخرين، يمكننى مثلا أن أكذب من كثـرة الخوف أو احتيالا للحصول على وجبة دسمة تسند قلبى، كذبى فـى هـذه الحالات مفهوم ومكشوف واضح وضوح الصدق، ويمكننـى أن أسـاير أى واحد من أهل الكفر فى كلامه عن غيره، كل واحد فى نفسه سلطان ويحق له أن يرى نفسه أفضل أو أقوى أو أضعف أو أذكى أو حتى أغنى من غيره أو أفقر، وعندما أسمع فلابد أن أساير وأدعم وأشجع وأهدىء وأحيانا أضع على شعلة النار مزيدا من «السبرتو» اشعللها نارا حاميـة وأنـا عـارف حدودها ومداها وإمكانيات ضررها، فى أوقات اخرى أعترض وأقوم بـدور عسكرى المطافىء حامل الخرطوم الكبير الطويل والماء يندفع بشدة لتخمد النيران فى أقصر وقت، أقوم بذلك أحيانا، كل وقت وله أذان كما يقولـون، وكل إناء ينضح بما فيه كما يؤكد الشيخ رجب خريج الأزهـر المعجبـانى ملفوف شال عمته الحرير الأبيض بطريقته الخاصـة جـدا والتـى حـاول العشرات وربما المئات تقليدها دون نجاح، ظلت عمامته فى الكفـر وكـل الكفور المجاورة وربما البنادر ملفوفة بشالها الحرير الأبيض علـى نحـو مختلف ومخصوص وصعب تقليده أو حتى وصفه، والناس كلهـا سـلمت للشيخ رجب بحق الإختلاف والإنفراد بهذه العمامة حتـى صـارت علامـة مسجلة يضعها فوق الكرسى فيعرف الناس أن الشيخ رجب موجـود فـى المكان، يظهر لهم فيتبادلون معه الضحك لأنهم عرفوا وجوده عندما وجدوا عمامته، العمامة والشيخ رجب شيئان لا ينفصلان، توأمان وعلامتان مـن علامات كفرنا «البرقوقى» الذى يحرص كل نفر فيه علـى أن تكـون لـه علامة أو سيرة أو صفة، فاسمحوا لى بأن أقول كما كنـت بيـنكم بصـفات مختلفة تدعوا إلى الضحك والسخرية أحيانا وتثير العطـف والشـفقة فـى بعض الأحيان، هذا من ناحيتكم أنتم، أما من ناحيتى أنا فالأمر يختلف لأننى ببساطة إنسان مختلف وجد نفسه بينكم وتعلق بهواكم على طريقته، تزعجه الأحداث فلا ينزاح وتطرده الإدارة فيحتال ليبقى، وكل ما هو مطلوب مـن البهلول أن يعرف متى وكيف، يميل ناحية الاتجاه المضـبوط فـى الوقـت المناسب، هى لعبة مثل المشى على الصـراط، شـغل بهلونـات وبهاليـل

وأراجوزات فى هامش الهامش على ما يظهر للإدارة وهم فى قلب القلب من نبض الحياة فى كفرنا وكل الكفور المجاورة يا ناس.

أحكى لكم إذن عن ضرورة الطاعة: طاعة المتخاصمين، لنفرض أن بهلولا مثلى تقابل مع عمدة الكفر مرة وسمع منه مثل ما سمعت من عمدة كفرنا حول ما كنت أسمعه أو أراه فى زيارتى للسيد أفندى عوف وقد وعدنى وتوّعدنى فى نفس الوقت، بينى وبينكم شعرت ساعتها بالرهبة، كنت أظن أنه ليس هناك غير واحد من اختيارين لا ثلاث لهما، أن أبوح بما قد يضر من فتح لى بيته وقلبه فأفوز برعاية العمدة وأنا فى الواقع أخون عيش صاحبى وملحه، كلامى عنه لحضرة العمدة من أولاد شلبى معناه أننى سوف أسلمه سلاحًا قادرا على الطعن فى ظهر واحد من أولاد الخصوم، واحد ممسوك فى قبضة الحكومة لأسباب لا أعرفها ولا يعرفها عمدة كفرنا نفسه، عمدة كفرنا كان يتودد للمركز وعساكر المركز، يتحدث عن المأمور وكأنه ملك نازل من السماء أو نبى مرسل وكان عمدة كفرنا كذابا يا ناس وكل ما يهمه هو البقاء فى مركزه، لا مانع عنده من رشوة المخبرين والعساكر وصغار الموظفين فى الشهر العقارى وتحقيق الشخصية وتفتيش الرى والزراعة والصحة وكل من يظن هو أنه له علاقة بالمأمور أو أعوانه وأنا أعرف كما تعرفون أن عمادة الكفر لم تنتقل من أولاد عوف إلى أولاد شلبى ببساطة ويسر، كانت وراء المسألة مصاعب ومشاحنات وثأرات ودماء مهدرة، كان الأمر عسيرا بحق، فيه سعى متواصل من ناحية وكسل متراخ بليد من الناحية الأخرى، وقد فكرت فى أن أجرؤ وأذهب بنفسى إلى حضرة المأمور أحدثه عن أفكارى ومخاوفى من إمكانيات أن أتعرّض للخطر إذا أبديت أى نوع من الاعتراض على أن أتحول إلى نمام فى موضوع لا أعرف قيمته ولا أهميته لأننى ببساطة لا أعرف أى شىء فى السياسة أو بحورها الغويطة، لكننى تراجعت لأننى قلت لروحى «كل مأمور فوق منه مأمور أكبر فلأى المأمورين تنجأ؟» وقلت لروحى أيضا «لابد من وجود الحل الثالث» على وزن العالم الثالث الذى يحكى لنا عنه الراديو والتليفزيون فى نشرات الأخبار، وأنا وصلت للحل

الثالث عن طريق الست شوق، قلت لروحي: شوق بنت عم حضرة جناب العمدة وهي في نفس الوقت أم سيد أفندي، ومهما طال ابتعاده عنها أو قل اقترابه منها فهو قطعة منها، بينها وبينه حبل سري ممتد على امتداد العمر كله، وفي ساعات الخطر تحمي الأمهات أبنائها بالأنياب والأظافر، هكذا علمتني الحياة.

في المندرة كنت وحدي مع الست شوق أحدثها عن كل ما دار بيني وبين حضرة جناب العمدة، أذكرها بما كان من أمر ذهابي إلى سيد أفندي بأمرها ولأجل خاطرها، وأنه لو أصابني ضرر أو أصاب ابنها مكروه من ناحية حضرة العمدة فسوف تكون هي السبب ولو بشكل غير مباشر.

- والحكاية يا ست شوق ف أيديك وأيد أبن عمك، واللي أعرفه أن الضوفر مابيطلعش من اللحم، وإن طلع يبقى بالدم.

كانت مثلا قطعة أصابها سعار أو وحش جريح محبوس في قفص حديد، عيناها زائغتان تبحثان عن سكة الحل، والحدقتان تتسعان وتضيقان وشرايين البياض تزداد حمرة فتلونه بلون الدم القاني، شعرت بالخوف منها أو عليها وندمت لأنني فاتحتها في الأمر، كنت حائرا إن كانت قد عرفت ما جرى لسيد أفندي قبل أن أعرف أو إنها فوجئت بأخبار حبسه مع أصحابه، كل ما فعلته إنها قامت مدت يداها لتأخذ «الملس» وتتغطى به تنظر ناحيتي وكأنها اكتشفت وجودي في المكان، تشير بسبابتها وتحذرني وكأنها في نفس الوقت تصرفني:

- اللي قولته يا مدندش ميتحكيش لحد، بأجلك لو فتحت حنكك.

وببطء تسحبّت من المكان خارجة وقد شاهدتها بهزة من رأسي تعني الموافقة، وفي سكتي للدار وقد خرجت من دارها بدا لي أنني سمعت خطواتها المتعجلة في اتجاه دوار السدة، ذلك أنني لم أجرؤ على الالتفات خلفي وقد كانت السماء ملبدة بالغيوم وسحابة كبيرة سوداء تداري ضوء القمر وتعتم السكة وتبعث في القلب المخاوف.

في الكفر قالوا أنهم سمعوا صوت السدة مجلجلا في منتصف الليل

الساكت، يتعارك مع أهل بيته ربما يردد نفس العبارة التى يقولها فى كل الحالات الصعبة لتبرير ما لا يعجب الخلق من أفعاله:

- أنا مالى.. أنا عبد المأمور.. بقولك عبد المأمور..

وربما لم يفسر الناس كلام العمدة أو يعرفوا إلى من كان يتوجه بالكلام بنفس طريقتى فى التفسير، وربما كنت قد أخطأت التقدير أو أخطاؤا لكننى على نحو غامض شعرت بنوع من الارتياح وإن لم أتخلص من أوجاع بطنى أو ليونه الطبيعة عندى، أو من ذلك الانتفاخ الذى أصابنى وفجر من الفتحتين رياح البطن تنطلق رغم الإرادة وتنشر فى المكان رائحة العفونة الخانقة.

* * *

مات عبد الناصر فبكيناه، بكاه الصغار والكبار، لكن رجالا من ناس الكفر لم تنشغل بالأمر أكثر من عدة أيام، وفكرت أنه لا يخصهم فى شىء من يتولى حكم البلاد، ما يخصهم هو الضيق أو الفرج، سهولة الحياة أو مصاعبها، لكننى كنت مخطئا، ذلك أنهم رغم ما يبدو فى الظاهر ينشغلون، لكنه إنشغال من لا يشارك إلا فى أيام الاستفتاء، يذهبون بتثاقل مخافة أن يدفعوا الغرامات إذا تخلفوا، يؤشرون فى خانة الموافقة رغم الاعتراض، أو هكذا يؤكد البعض منهم للبعض الآخر:

- مش وافقت برضه؟
- وافقت.. ما هو وافقت ولا ماوافقتش ح ينجح، هو فيه غيره؟ خليها على الله.
- واللى ماراحش العمدة سدد قصاده الممة الله يستره.. يعنى ما فيش غرامات النوبة دى..
- العمدة بيقول أنه قريب السادات.
- قريبة من أنهى ناحية؟
- أهو كلام.
- بس الراجل ده بئين عليه نبله.

- العمدة ولا السادات؟
- الاتنين يا أخى.. مش بتقول انهم قرايب؟

يقولون ويضحكون، يضحكون وكأن الأمر لا يشغل بالهم فى قليل أو كثير، الناس فى كفرنا مثل الآبار الغويطة يصعب الوصول إلى قرارها، ولا بد أنهم يختلفون عن ناس البنادر، ناس البنادر يطلقون النكسات ويقولون الرأى أحيانا دون لف ودوران وكأنهم يستندون على جدران صلبة تحميهم، أنا شفت وسمعت فى شقة سيد أفندى كلام يوصل لأبواب الليمان، كانوا يتبادلونه بجرأة وجسارة فى وجود من يعرفونهم لأول مرة، كانوا يقولون عن عبد الناصر ما قاله مالك فى الخمر على مسمع منى وبلا حذر، صحيح أن فاروق أفندى حذرهم منى لكنهم لم يخففوا من كلامهم أو يتبدل رأيهم، وصحيح أنهم أخذوهم وحبسوهم بحسب رواية العمدة التى لم أتشكك فى صدقها هذه المرة رغم شكوكى فى الكثير الكثير من أقواله، كانت الشواهد كلها تؤكد أنهم أخذوه وحبسوه مع كل أصحابه، ما كان يدهشنى أنهم كانوا يتكلمون بنفس الطريقة التى يتكلم بها الراديو والتليفزيون فى نشرات الأخبار، صحيح أنه كانت هناك بعض الفروق لكنها فروق بسيطة، وليس من الممكن أن يتكلم كل الناس مثلما يتكلمون فى نشرات الأخبار طبعا، كان سيد وأصحابه يتكلمون عن الاشتراكية والحل الاشتراكى والرأسمالية العالمية وتذويب الفوارق وبيان ٣٠ مارس وإزالة أثار العدوان والأمم المتحدة والاتحاد الاشتراكى والوحدة العربية والتصنيع والسد العالى وتأميم القناة. وكل هذا الكلام سمعناه بآذاننا، فكيف سمح عبد الناصر لعساكره وضباطه بحبس هؤلاء الذين كانوا فى الواقع يرددون أفكاره وكلام إذاعاته؟ كنت أسأل نفسى وأنا الواثق من أن سيد أفندى كان من أشد المتحمسين لعبد الناصر ومن كلامه مازلت أذكر بعض العبارات:

- كفاية يا مدندش إنه أول مصرى يحكمنا من آلاف السنين.
- عبد الناصر زعيم بيحب بلده.. بس يا خسارة.
- رفع راسنا فى كل بلاد الدنيا.
- عاوز يعمل وحدة عربية ويحرر الشعوب.

وكلام غير هذا كثير سمعته بأذنى ووافقته عليه، لكنه انحبس فى زمن عبد الناصر وخرج فى زمن السادات، فى أوائل زمن السادات، رأيته وهو ينزل من باب السيارة وبدا لى أن حركته كانت أبطأ وأن وزنه كان أزيد، اقتربت منه بلهفة لأساعده وأحمل عنه الحقيبة، ابتسم لى وهمس:

- إزيك يا عم حسنين؟
- الله يسترك، حمد الله على سلامتك، بقى هى مصر واخداك مننا على طول كده يا سى سيد؟ هى البلد دى ملهاش فيك نصيب؟.. دانت واحشنا خالص، طيب تآمن بابيه، كنت ح أجى ازورك فى شقتك الجديدة، أيوه، ما أنا عارف العنوان.. بس بعيد عنك رجليا تعبت م اللف والدوران.. زرجنت يعنى. وأهو زى ما أنت شايف كده حطيت مرة واحدة.

كان يسمع كلامى ويبدو هادئا وكنت حريصا على أن اسمع كل من يرانا صوتى، كنت أرغب فى إعلان وجوده دون أى إشارة إلى أسباب غيابه التى أعرفها وربما لا يعرفونها، وكان هو قد أحاط نفسه بالصمت الكامل فلم افرغ كل ما كان مخزونا فى قلبى وعقلى وعلى أطراف لسانى من أحاسيس ومشاعر وأسئلة، وبدا لى وأنا أسير إلى جواره عند شاطىء الترعة أنه تباطأ فى نفس المكان الذى أخرجته طفلا موشكا على الغرق فى مائه، تذكرته طفلا ولابد أنه تذكر لأنه كان ينظر ناحيتى متأملا وكأنما يتأكد اننى هو نفس الشخص الذى كانت نجاته من الموت على يديه، لكنه لم يتكلم، وزنت بالقرب من اذنى ذبابة ملحاحة فتذكرت ما قاله فاروق أفندى فى آخر مرة زرته فيها، وخفت أن يكون قد ظن هو الآخر أننى غير أمين على الأسرار، غطانى عرق مباغت لا علاقة له بشمس الظهيرة الطالعة، وعلى غير إرادة منى سألته:

- على أنهى ناحية يا سى سيد؟
- الوالدة

فرحت، أحسست أننى سوف أوصله لها وقد عاد بعد طول غياب

كابدت فيه الخوف والقلق، وأنها لابد سوف تتذكر تلك الليلة التى حدثتها فيها فى أمره وما كان عمدة الكفر قد قاله عنه وكيف حافظت على السر مكتوما لم أبح به حتى لنفسى فى وحدتى بين الجدران، لكن ما حدث خيب رجائى فعند الباب كان هناك علام يتناول منى الحقيبة ويرحب بسيد أفندى ويكاد يسد فراغ الباب الموارب ليمنعنى من الدخول، بل انه قال بجفاء وغلظة:

- كتر خيرك يا مدندش.. ابقى عدى على بعد المغرب فى الدكان، عاوزك..

كأنه ألقى على جردل ماء سكن بين ثيابى وجلد بدنى. رجعت من حيث أتيت وقد جف حلقى وزاغت نظراتى وانطفأ فى القلب شعاع الفرحة وكدت اتعثر فى خطواتى بينما تنبح كلاب الواطية على غير عادتها وكأننى غريب ترتاب الكلاب فى أغراضه وتوشك أن تمنعه من العبور.

فى الليل الساكت كنت وحدى، مقهورًا وعاجزًا عن احتمال وحدتى فى الدار أو القدرة على الخروج بحثا عن سهراية فى أى ركن من أركان الكفر، شىء يشبه الحبس الذى سمعت عنه ولم أجربه، والحبس ليس مجرد جدران وحارس يمنعك من الخروج والدخول بحريتك: الحبس أنواع، وأقساها ذلك النوع من الشعور بضيق الدنيا من حول النفر منا، ذلك الضيق الذى يسك كل السكك فى الوجه وينفى وجود الأماكن رغم وجودها وكثرتها، شىء مثل الشلل والسواد وكراهية الوجود نفسه، إنه حبس بغير حراسة ولا جدران، ليلتها كنت أدور حول نفسى فى دائرة صغيرة صغيرة، كأننى كنت نحلة تدور فى نفس المكان، ينوء عقلى الدوران فى المكان وامتداد الزمان، شىء يشبه الكوابيس التى تصيب المكبوس فتكتم أنفاسه وتمنعه من الصراخ أو الحركة، يتوقف الأمر على قدرة المكبوس على تحريك طرف أو إخراج صوت، علام كان فى تلك الليلة كابوسى الذى يحاصرنى فى مكانى ويحبسنى فى بدنى، يجعلنى أدور على كعبى ولا أملك القدرة على الخروج من مدارى، لكنه كان كابوس الصحو الذى يختلف عن

كابوس الرقاد، لعله شدنى لأن أستعيد كل ما جرى لى فى كل عمرى، كيف دوختنى الدنيا وحرمتنى من القدرة على الرد، كيف سلبتنى كل الحقوق ووضعتنى فى خانة الضعفاء والمحصورين، وعلى أى أساس أخذت منى وأعطت لمن هم أقل وعيا وإحساسا بالناس وتصاريف الأحوال؟ مطرود أنا من كل مكان وإن كنت موجودا فى كل الأماكن، لا حساب لى رغم ما يبدو لى فى لحظات الانبساط أننى محسوب ومرغوب ومطلوب، لكنه فى اللحظات الحاسمة أرانى فى هامش الهامش اكابد السكوت رغم امتلاء القلب برغبة الصراخ وقدرة اللسان على البوح والشرح والكلام، كأننى مقطوع اللسان بالفقر والعوز وعدم الاستناد الحقيقى إلى شىء أو أحد، وحدتى بعد كل هذا الزمان من السعى قاسية، ربما يصيبنى مرض فلا أجد من يرعانى أو يحوطنى بالعطف أو الاهتمام، لا زوج ولا أولاد ولا مال ولا عزوة، لكننى أيضا وفى نفس الوقت اكره السكوت، كأننى مسئول من غير تكليف بأن أتكلم فى كل شأن من شئون كفرنا الغفلان.

كنت أرانى طائرا فى منعطفات الكفر وأركانه والظلام يحيطنى، ولم اكن أملك أجنحة الطيور لأرتفع إلى أعلى البيوت فى مساحات الفراغ، كنت فقط أشعر بأننى أخطو فى الخطوة الواحدة مساحات ومساحات، أدفع باطراف أصابع القدم أرضية صلبة فأرتفع إلى ما فوق الأرض ذراعا أو باعا، مفتوح الساقين وشاعرا بمخاطر السقوط دون سقوط، وعندما أهبط والامس الأرض أدفعها بأطراف أصابع القدم الأخرى فأعاود الارتفاع لكننى أستشعر الخطر من إمكانيات الاصطدام بأى جدار أو باب مسكوك، معلق أنا ولا حيلة لى أو قدرة على التحليق عاليا للخلاص من كل السواد وكل العتمة أو حتى الوقوف فى المكان، وكنت أقول لنفسى إننى أحلم فقد عزت الأحلام، ولعلها كانت هى الريح التى حركتنى وهزهزتنى وأعادتنى إلى حالة الصحو لأعرف أنها كانت مجرد تغفيلة أفقت منها فى نفس اللحظة التى سمعت فيها صوت الشيخ رجب وهو يؤذن لصلاة الفجر وينادى بصوته المميز أن الصلاة خير من النوم، كنت أشعر بالوجع فى أطرافى وبدنى وكان النوم يغالبنى فتركت صحن الدار حيث كنت فى غفلتى وتمددت على طرف

الفرش، غطيت نفسي لأطرد رعشتي ولم أشعر بشيء حتى سمعت الخبطات على باب داري، قمت بكسل لأفتح الباب وأراه، كان واقفا والشمس ساقطة على رأسه من الخلف، أفسحت له فتحة الباب اكثر ودعوته للدخول:

- اتفضل يا سيد أفندي.. اتفضل، دي خطوة عزيزة، أتفضل، دانا زارني نبي، الدار مش قد المقام.. ما تآخذنيش يا سي سيد ع الفقر اللي محاوطني، دقيقة واحدة افرش الحصيرة ع المصطبة.

أسرعت لأرفع الهلاهيل من فوق المصطبة قبل أن أفرشها وأمسك الباب، جلس يتأملني ويتأمل المكان قبل أن يسألني:

- إزاي صحتك يا عم حسنين؟
- بخير يا سي سيد، بخير، المهم أنت، إزاي حالك، أجيب لك فطار ولا أعمل لك شاي..؟
- ماتشغلش نفسك.
- يا خبر.. دانا لو أملك أعمل لك اللي يليق بيك، بس الحال زي ما أنت شايف، الفقر يا سي سيد بيحرم البني آدم من حاجات كثير، حتى من القعاد مع اللي غاب، مجرد القعاد والطمان، لك وحشة..
- ما تزعلش يا عم حسنين.
- أنا اللي زعلني إني أتحرمت اقعد معاك وأسألك، أشوفك وأتأملك واسمع كلامك اللي اتحرمت منه، منهم لله اللي غيبوك عننا الوقت ده كله، بس أنت كويس، أيوه أنت كويس أهه. الست الوالدة قالت لي أكفي ع الخبر ماجور، وأنا لساني ما نطقش بحاجة لاسمح الله، الحاجات دي يلزمها الكتمان برضه. بس أنت كويس...

كنت حائرا ومشحونا بعشرات الأسئلة، وكنت خائفا أن أنطق بما لا يليق وكان يسمعني ويتابع حركاتي بينما أجهز له ولي براد الشاي، أصبّه وأناوله الكوب فيأخذه ويشرب ربما ليرضيني ولا يشعرني بالفارق بيني وبينه، لم أذكر له ما جرى من العمدة أو ما قاله عنه أو ما قلته أنا للست شوق، كنت أشعر بالارتباك وأخشى أن يفرغ كوب الشاي قبل أن أفرغ له

ما كنت أمتلئ به من الأشواق أو أعرف ما كان من أخباره، لكننى كنت فى نفس الوقت عاجزا عن السؤال المباشر، ولابد أنه أكتشف قلقى قبل أن يباغتنى:

- العمدة كان عايز منك إيه يا عم حسنين؟
- كان عايزنى أبعبع شوية، بس أنا خفت عليك، خفت أغلط فى الكلام، ما هو أنا أكيد كنت ح أغلط ف الكلام، أنا ماعرفش فى الحاجات دى اللى يفيد م اللى يضر.. بس قلة الكلام أحسن.. ولا أنا غلطان؟ هى طبعا الست الوالدة لابد إنها قالت لك، أنا ماكانش هاممنى نفسى، على رأى المثل، ايش ياخد الريح من البلاط؟
- فاكر فاروق يا عم حسنين؟
- إلا فاكره.. بس أنا واخد على خاطرى منه، أنا سمعته بودانى بيقول كلام مايصحش انه يتقال.. كتمت ف روحى ورجعت، اوعاك يا سى سيد تكون..
- وإحنا ف المعتقل يا عم حسنين اكتشفنا إن هو اللى كان بيكتب عننا تقارير...

شعرت أننى خرجت لتوى من قاع القاع إلى سطح الدنيا، ونورت الشمس بضوئها قلبى، كان هو يتكلم ويحكى عن أشياء لا أفهمها، عن الغدر وبيع الصحاب، عن البوح بما لا يجوز البوح به للحكام، عن الوشاية بالخلق والخداع، وعن الحبس والضرب والقهر والتعذيب وغلظة السجان، وكنت أشفق عليه وعلى أصحابه وأوشك على البكاء، لكننى فى ذات الوقت كنت أشعر بنوع من الارتياح، ربما لأنه كان فى هذه اللحظات ماثلا أمامى يتكلم بصوته، وربما لأننى رغم الجهل لم أخدع أو أنخدع أو أخون.

- يوم نشلته من بطن الترعة:

زاد البحر الكبير-وملأ الترع فامتلأت ترعة كفرنا بالماء والطمى، نزل الأولاد وعاموا بين الشطين، سحرهم البحر ونسّاهم «صندوق الدنيا»، كنت أراهم يرمحون عرايا كما ولدتهم أمهاتهم، يرمحون ويرتمون بقفزاتهم نحو

الماء، ينزل الصغار اكثر بحذر من جنب الشط ثم يتراجعــون، صــعب أن يحصى البنى آدم أطفال الشطآن أيام الفيضان، لكننى كنت أراهم وأنا أجلس فوق الدكة جنب صندوق الدنيا، حيلتى ووسيلتى لاكتساب الرزق فى تلــك الأيام، قمت أطرد ولدين يتراميان بحفنات الطين، يغترفانها من قاع الترعة ثم يرمح الواحد منهم وراء الآخر، يرمى «بجالوص» الطين الأحمــر فــى اتجاه الآخر ثم يفر منه ويغطس مرة أخرى فى ماء الترعة، أصابت حفنــة من طمى الترعة غطاء الصندوق فقمت أطردهما وألعنهما بغضب، وبدا لى وأنا أنظر ناحية البنت حميدة التى كانت تركب كتفى الولد عزوز «المنحنح» بدا لى أن فقاعات تطلع من جوف الترعة، فقاعات صغيرة لكنها مســتمرة، صرخت فى البنت فقفزت مبتعدة وقفز الولد عزوز أيضا وغير مكانه، وبدا لى أننى رأيت ظهر كف صغيرة تضرب السطح الغرينى ثم تختفى، وربمــا كانت نظرات الولد العبيط والبنت «الهبلة» هى التــى دلتنــى وأكــدت لــى ظنونى، كان سطح الماء مازال يأخذ الفقاعات الصغيرة، تصعد إلى الســطح قبل أن تتلاشى، وبالمداس دست على طرف شط الترعة، ومددت يدى، علق بكفى شىء، فتحسست وأنا أنزل اكثر وكأنى أصيد قرموطا بكلتــا الكفــين، أمسكت البدن الغارق فى بطن الترعة، وسحبته، كان ضئيلا ونحيلا وخفيف الوزن، وكان الطمى بقاع الترعة عالقا بنصفه الأسفل كلــه، كأنــه عــود مغروس فى الطمى، وبعسر خلصت نفسى وخلصت الولد، وفقدت مداســى، قلبت الولد وطبلت على بطنه فأفرغ من المنخارين والفم رشاشات المــاء، وأحاطنى الخلق لا أدرى كيف من كل اتجاه، سألونى إن كنت أعرف ابن من هذا الولد الذى كان فى الثالثة وله ثياب تشبه أطفال البنادر فلم أجــاوبهم، كنت مشغولا بإفراغ ما تبقى فى جوفه من ماء الترعة، وعندما أفرغ الولد الماء المخلوط ببقايا الطعام الذى لم يهضمه اطمأن قلبى، كان الولد يبكــى ويزيل خوفى من أن يكون قد اختنق بالغرق، وبدا لى رغم الخوف البــادى فى عينيه أنه ولد من جديد، فرت البنت الهبلة والولد العبيط من المكــان، وحملت الولد فى حضنى أدفئه وكان يرتعش حتى جاءت امــرأة مــن درب شلبى وأطلت إلى وجهه ثم خبطت صدرها بفزع:

- يادى اللهو يادى اللهو، يا خيبتك يا شوق يا بنت عبد الستار...

ساعتها عرفت أنه ابن شوق من حسن عوف، كانت المرأة بنت فضالى أمامى تندب وأنا أحمل الولد فى حضنى وأحاول إسكاتها دون فائدة - حتى وصلنا دار علام شلبى، وهناك جرى ما جرى، أم الولد أخذته فى حضنها لكن علام لطم خديه قبل أن يلطمنى بالكف ويسبنى بأوسخ الشتائم:

- وجايب لنا نصيبه لحد باب دارنا يا خنزير؟
- ما هو صحيح.. آخرة خدمة الغز.
- غز إيه يا ابن ستة وستين كلب؟

ومرة أخرى صفعنى، كنت فى داره، أسمع شتائمه ولا أعرف كيف أرد عليها، صعب على حالى «ومداسى» الضائع وعجزى عن الرد، وصعب على أننى عملت الخير فيمن لا يستحق أو يقدّر.. لكن أم بكرى سحبتنى من المكان، زغدتنى فى صدرى بخفة قبل أن توضح رأيها وكلانا فى وسط الدرب بعيدا عن دار علام:

- ما هو انت برضه غلطان يا مدندش، طلعت الولد م الترعة يبقى كان تكمل جميلك وتوديه لسته أم أبوه ف الناحية التانية، جايبه لجوز امه؟ داجوز امه.

وتنهدت، تذكرت، كلام المرأة بنت فضالى أعمانى وسحبنى لسكة الندامة، وكلام أم بكرى هدانى وذكرنى بما أوشك أن يغيب عن بالى، ونصحتنى ام بكرى بأن آخذ الولد وأسلمه لأهله هناك فى الناحية الأخرى، كنت مترددا وخائفا من زفارة لسان علام، لكننى تذكرت ما قاله عن الولد، وعدت وسخونة الأرض تلسعنى وقد انتصف النهار وزاد صهد الشمس فذكرتنى سخونة الأرض بمداسى الذى ضاع منى، وقبل أن أصل إلى باب الدار كنت أسمع الصراخ والأصوات تتداخل، وعلى الباب وقفت فساد صمت مؤقت وعاودوا الصراخ، لكننى كنت مازلت أقف مكانى كصاحب دين يرغب فى استرداده، سألت بنت فضالى وهى تلومنى هى الأخرى:

- عايز إيه تانى يا مدهول، عايز تخرب عليها ياللى ينحش أجلك؟

كانت تنظر ناحية الست شوق، تلك التى كنت تجلس على الأرض، مربوطة الرأس بطرف طرحتها وكأنها قاعدة فى «محزنة» نسوان، والآخر جالس يهز بدنه فى كل اتجاه، لليمين واليسار، للأمام والخلف، كأنه فقى من نوع غريب، ساكت غصبا، ربما لكى يحرمنى من معرفة أسباب غضبه بمزيد من الكلام، وعلى غير إرادة منى نطق لسانى دون تردد:

– هاتوا الولد...

تبادلوا النظرات، هل ترددوا أو أنهم كانوا يرغبون فى ذلك ولا يهتدون إلى الفكرة التائهة عن عقولهم؟ وبيطء حملته بنت فضالى من «حجر» شوق وناولته لى، أخذته فى حضننى وخرجت من دربهم بسرعة، ولم أشعر بسخونة الأرض وأنا أدخل الدرب الآخر حيث أهل الولد وناسه وجدته لأبيه التى قابلتنى واختطفته منى خطفا وهى تستدير فى اتجاه دارها، تنهج من أثر الرمح وتقول بصر:

– يسترها معاك يا مدندش، يسترها معاك ويخلّيك، الخلق قالت لى ما صدقتش.. عمر الولد ده على ايديك.. يسترها معاك..

وفى وسط الدار كنت أجلس وقد غيَّرت للولد ثيابه، وحطت لى على الطبلية ما كان حاضرا من خبز طرى وجبن ولبن وعسل أسود، وتعتذر لأن الدار ليس فيها طبيخ، تربت على ظهر الولد بحنو وتعدنى بمداس جديد.

* * *

فى كفرنا «النعناعى» لا ينضرب على بطنه إلا من ليس له ظهر، ولا ينضرب على ظهره إلا من ليس له سند أو عزوة أو نسب يحميه، والبهلول البهلول الناصح يحتال على الدنيا ويلاعب خلق الله، يهرب منهم ان كان الهرب ضرورة، ويداديهم إن أفلح، وإذا انقلبت أحوال الدنيا فلا مانع من أن ينقلب البهلول ويسبح فى التيار، لكن الليثى ابن الشحات – صبَّرد الله على ما بلاه – لم يكن بهلولا ناصحا، مجرد نفر «تملّى» بلا أهل لهم وزن أو قيمة ويجرؤ على نزول غيطان الأكابر، يجمع من جنينه الحاج مرسى ملء غبيط من العجور فيراد أنفار الحاج مرسى ويطاردونه

ويمسكون به ويتوجهون إلى دوَّار العمدة الجديد الذى جاءته عمادة الكفر بشقاء العمر وحفاء الأقدام بين البندر والمأمور وأكابر المديرية، مثل هذا العمدة لابد أن يثبت لناس الكفر أنه قادر وعادل ولا يحيد عن الحق شعرة، يزرع هيبته على حساب البسطاء وضدهم دون رحمة، الحرامى فى كفرنا بعملته حتى لو كانت السرقة خط عجور أصفر أو مدادة قثاء.

كنا فى أواخر الصيف والشرد كابس على الأنفاس عندما طلبنى شيخ البلد وطالبنى بأن أزفت الليثى ابن الشحات فى كل دروب الكفر، جرسة مخصوصة والقصد منها تخويف الناس من حضرة العمدة، وأنا طبال الكفر وزماره أعرف أصول مهنتى، أنسى صاحبى فى مثل هذه الحالات وأقوم بما هو مطلوب منى لأعيش فى منطقة الأمان، باختصار جرَّست الليثى ابن الشحات ودعوت الناس للحضور أمام العمدة ليشهدوا بأعينهم ويسمعوا بآذانهم ما سوف يكون بعد التجريس، انزلناه من على الحمار وأخذه الخفراء وربطوه بحبل قنَّب إلى شجرة البأس، ظهره للخارج وبطنه وكل حاله فى حضن الشجرة، وبالمقص قص أحدهم جلبابه من الناحيتين بحيث انكشف ظهره تماما لأن الجلباب كان ملبوسا على اللحم، نادى عمدة الكفر على البرقوقى الذى كانوا يخوفون به العيال أيام كان قاطعا للطريق وقبل أن يعينه حضرة العمدة خفيرا لا ندرى كيف، لكنه عينه وهو الوحيد صاحب الحق فى تعيين الخفراء على أيامنا، ناوله الفرقلة المعمولة من التيل الأبيض المجدول بإحكام وأمره بضرب المربوط على مهل ودون استعجال، برم البرقوقى شاربه المبروم وفرد ذراعه الطويلة ونزل على ظهر الليثى فاهتز جزع الشجرة واهتزت الأوراق، جعر الليثى بعزم صوته:

– أه.. أنا فى عرض حضرة جناب العمدة.. سماح يا عمدة، أحب على ايدك، أحب على رجلك..

لكن العمدة أشار للبرقوقى ليواصل فواصل، كانت العلامة الثانية أبعد من العلامة الأولى وأقرب من العلامة الثالثة والولد يجعر:

– وأحب على مداسك يا حضرة جناب العمدة.

لكن العمدة أشار للبرقوقى فواصل على مهل حتى لـم نعـد نتبـين الخطوط التى تدخلت وتقاربت ولونت ظهر الليثـى بـالأحمر المائـل إلـى الزرقة، وكان صوت الولد قد بح وأصبح خافتا والفرقلة تتلـون بـالاحمر القانى، كان ظهر الولد ينزف الدم وتيل الفرقلة يتشبع بالدم ثم يتلوى طرفها على الأرض فى حركة مقصودة فتسف التراب وتسود قبل أن تتجـه إلـى ظهر المربوط الذى انقطع صوته قبل أن يشـير العمـدة بطـرف إصـبعه للبرقوقى فيكف، قال الناس للناس:

- العمدة ده مفترى.. الليثى غلطان، دا انحـش أجلـه. لا.. دا كـده انقطع خلفه يا والداه، ملعون أبو الزمن الشلبى.

وأنا قلت لروحى إن الليثى انتهى، إن عاش يعيش مثل خيال المآتة، وإن مات فلحساب عمدة الكفر الجديد، ذلك أنه مثل زماننا لا يجرؤ أى واحد أن يقول إنه غلطان، حرامى ممسوك بسرقة، صحيح أنه لم يسرق البهـائم أو الدور، لكنه سرق الزرع فى زمان غير الزمان الفائت، سرقة الزرع فى السابق لم تكن تسمى سرقة. كان الأكابر يقولونها للأنفار:

- مادام يا ولد بتاخد م الغيط لجل أكلـك واكـل عيالـك تبقـى مـا بتسرقش، دا الغيط سبيل للسائل والمحروم.

على هذا فتحنا عيوننا وعقولنا، فهمناها مثل كل ما فهمناه من عادات وأحكام وحكم. لكنه جاء اليوم الذى يتمزق فيه ظهر من ليس له فى الكفـر عزوة أو أهل من أجل غبيط عجور، وأنا راجع سألت نفسى بينـى وبـين نفسى: هل لو كنت مكان الليثى كان العمدة يضربنى؟ واسـتبعدت الفكـرة تماما وفكرت أننى غير الليثى وغير كل «تملية» الكفر، أنا بهلول وطبـال. زمار ونداب، عمّال جرس وفضائح، رقاص ورداح ومعدد على الأمـوات، من غيرى لا يستقيم حال الكفر، أنا غير الأنفار، كـاتم أسـرار النسـوان وأشباه الرجال فهل ترعشنى وتخوفنى فرقلة فى يد البرقوقى مزقـت لحـم ظهر حرامى عبيط بوّاس أيادى ومداسات؟ أنا نفر غير كـل الأنفـار، أنـا البهلول الأوحد، ربما أكون قد فكرت بهذه الطريقة لأنه مثلما لسانى طويل

فيدى طويلة وخفيفة، بل إنه يصعب أن أتذكر يوما فات دون أن أمد يدى على زراعات ناس الكفر، الفقير قبل الغنى، حضن برسيم للأرانب، حزمة فجل أوسريس، سيالة مملوءة بقرون الفول أو ملء منديل جميز أو توت أو طبخة بطاطس أو قلقاس، طيب لو أننى لم أفعل فى أحد الأيام فكيف أعيش؟ آكل طوب؟ ملعون أبوك يا ليثى قلبت ميزان عقلى وشككتنى فى روحى.

مثل الوسواس الخناس ركبنى عفريت الليل، شيطانى الكافر الزانى، أخرج لى لسانه العقربى ولسعنى بالسؤال: هل تجرؤ بصحيح يا ولد أن تنزل أى غيط من غيطان الأكابر؟ وجاوبت الوسواس لخناس بأننى أقدر فسألنى إن كنت أجرؤ على نزول «الجناين» الملفوف على أشجار الكازولين التى تحيطها سلوك فيها أشواك؟ فقلت لشيطانى: أقدر، كنت أعرف أنه يقصد زراعات الأكابر من ناحية العمدة الجديد الشلبى، وكنت أرغب فى اسكاته وإنهاء الكلام، لكن لسانه الممدود كان يسكن لسانى وينطق بالكلام بصوت هو صوتى فأرد عليه بصوت هو صوتى، كأننى واحد ضد واحد يتجادلان فى أمر مهم، يتبادلان الاتهامات والسخريات ويتعاباشان، يتضاحكان ويتعاركان ويتشاتمان، هى عادة اعتدتها كلما اختليت بنفسى فى أوقات القلق التى تطرح فيها الاسئلة التى لا أعرف لها ردا، أو أوقات الرغبة التى لا أملك لها حلا، انقسم إلى قسمين، بنى آدم وشيطان، ملاك وإنسان، رجل وامرأة فاجرة، طفل وكهل، مملوك ومالك، حاكم ومحكوم. وعشرات أخرى من الأزواج المتضادة، الغريب الغريب أننى كنت افض الاشتباك وأصل إلى رد السؤال أو تحقيق الرغبة، أهمد وأرتاح وأسكن مكانى، وما كان يخيفنى فى مثل هذه الحالات إلا ظهور الشخص الثالث، العاقل الذى لا ينحاز إلى أى الطرفين والذى هو أنا أيضا ولكن فى منطقة الفرجة بعقل وعندما كنت ألمح ظله كنت اسارع باسكات النفسرين المتشاحنين اسكتهم لأنه لو لم اسكتهم لطاش ميزانى وفقدت توازنى وطار البرج الساكن دماغى وهذا هو ما تسمونه الجنون وما هو خارج حدود الوعى والبدن، نوع من الكفاية والقدرة على استمرار اكتشاف السراديب والمسالك لكى تستمر الحياة، استقلال أو اكتمال ولو بالوهم لأن الكمال لله وحده ولعبدد وسيد خلقه نبى الإسلام محمد شفيع المنكسرين والمنهوبين

المضروبين على بطونهم وظهورهم وأقفيتهم قبل يوم الدين.

قلت لكم إن الوسواس الخناس ركبنى حمّارى وسلّط نصف لسانى على نصف لسانى، حطنى أمام روحى فإما اننى مجرد نفر بلا قيمة ولا وزن ولا قدرة، نفر لا يحسب الأكابر له حسابهم وهو ما أميل إليه، أو أننى برغم كل هذه الصفات التى قد تبدو على السطح للجهلاء، أقول إننى شخص مهم وله قيمة ووزن وقدرة، محسوب حسابه وله امتيازه الخصوصى عند الأكابر والأصاغر، وعلى رأى المثل «الماء الجارى يكذب الغطاس» وأنا غطاس ركب دماغه شيطانه الكافر الزانى وسيّره على هواه، رماه فى جنينه الحاج مرسى فى وضح النهار، جعله يأخذ ملء حجر جلبابه عجورا أصفر رغم أنه لا يحتاج لأكثر من واحدة أو اثنتين، ومن تحت السلك خرجت كما دخلت. وفى السكة رآنى من رآنى، شاكسونى بمرح وذكرونى بما كان من أمر الليثى عند الدوار، لعل البعض منهم كان يرغب فى استنكار ما جرى للولد أو ينفيه من دماغه، لعل البعض منهم شاء أن يطمئن نفسه بأن العدل الذى ادعاه العمدة لم يكن عدلا، ولعل البعض أراد أن يوقعنى فى شر أعمالى فلكل نفر فى هذه الدنيا حسّادد وكارهو الخير له مهما كان هذا الخير قليلا لا يزيد عن حشو الجوف مجرد حشو الجوف وسترة البدن، وأنا لا أعرف حسادى بالاسم وان كنت أشم رائحتهم من بعيد البعيد، صحيح أن العبد وسيدد على باب الله وأن الأمر لا يستحق لكن نفوس الناس لا تتشابه، وخسة الطبع تنمو وتزداد كلما قفز الوضعاء بلا أسباب فملكوا ما لم يكونوا يتصورون أو يتصور الناس أنه من الممكن أن يئول إليهم أو يصير فى حوزتهم، تزداد خسة الطبع عند العبيد الفقراء أو الفقراء العبيد وهم عكس الفقراء الأحرار كما تعرفون. ويا ويل الفقراء الأحرار من الفقراء العبيد يا ناس.

يومها كنت أمسك ذيل جلبابى المرفوع عاملا من فراغه «حجرا» تظهر منه ثمار العجور، ولم أكن قد وصلت إلى الساقيات الثلاث عندما سمعت الصوت الطالع من قلب حوض أولاد عوف يحذرنى وينبهنى، لم أكن أعرف صاحب الصوت رغم أنه كان مألوفا وهو يخصنى بالاسم:

- أهرب يا مدندش، الغفر بترمح وراك.

كانت مجرد التفاته لمحت فيها وجه البرقوقى جنب فرحان الشوكى وهما يسرعان بخطواتهما ناحيتى، مشىٌ بهمة كأنه الجرى، مشىٌ يليق بالخفراء والعسكر فى البندر وهم يحملون البنادق على اكتافهم، كانت بينى وبينهما مسافة تسع ثورين أو بقرتين وحمار مسحوبين بحبل ساعة المرواح، فتحت قبضتى عن ذيل جلبابى فتساقطت ثمار العجور متدحرجة فى منحدر ترعة المروى وشعرت بأننى خفيف وقادر على الطيران، وفى وسط الزراعات وعلى مجارى التراكيب كنت أرمح والخفيران يتصايحان وينقسمان إلى فريقين يتناديان ويطلبان ممن يلقانى من الخلق اعتراضى أو الإمساك بتلابيبى، كأنهما عصابة من قطاع الطريق يحاصران ضحية فى وضح النهار ويهددان بضرب النار، وكنت مثل الريح الطيارة أفر وأرمح حتى وصلت إلى البناية المعمولة زريبة لمواشى عبد القادر عوف عند رأس غيطه، من لهفتى دخلت أحتمى بها وأطل من فتحاتها لأرى ان كنت على مرأى من أى واحد منهما أو إن كان قد اقترب، رأيته بشاربه الكثيف الذى اشتهر به وهو يقف فى منتصف فراغ مدخل الزريبة فضمنت النجاة، قلت أستجير به وأنا التقط أنفاسى:

- أنا ف عرضك يابا عبد القادر.
- بترمح من مين يا ولد؟
- م البرقوقى والشكوكى، عايزين يضربونى بالنار..
- نار.. نار إيه؟ انت قاتل قتيل ولا عامل عمله، تعالى الناحيادى.

وأنا أقترب منه خارجا من فتحة الزريبة متلصصًا بنظراتى بقلق أقل فكرت قبل أن أرد:

- ورحمة العمدة الكبير ما عملت حاجة تستاهل، طب أهو أنت يابا عبد القادر ابن عمدة، وكان ممكن إنك تبقى عمدة، بقى هو اللى ياخد عجورتين يا كلهم ينضرب بالنار؟
- كدهه.. عجورتين؟

- ورحمة أبويا عجورتين، ليه ما هم مقطعين جلد الليثى ابن الشحات عشان عجورتين، دول ناس مفتريين.
- طيب اقعد.

قعدت بينما ظل هو واقفا، كان البرقوقى قد ظهر لى دون أن يخيفنى كأن الأمر لم يكن يخصنى، وهل كان يحق لى أن ابدى أى انشغال وأنا فى حماية عبد القادر ومسنود على جدار زريبة مواشيه؟ كانت خطوات البرقوقى الذى اقترب تتباطأ وتصير تسكعا بلا هدف أو تردد، وفى الناحية الأخرى انطلق نباح الكلب الأبيض الكبير فنظرت لأراه يعترض فرحان الشوكى الواقف قرب مدار التابوت المهجور وقد أمسك بندقيته بكلتا يديه وكأنه عسكرى يهودى على الضفة الأخرى يحرس المكان، لكن الكلب كان ينبح بثقة مالك الزمام، ينبح ويهز ذيله ويتقدم ليستعيد مسافة والشوكى ساكن فى مكانه ويوشك أن يكون حائرا بسلاحه، وكلما تقدم الكلب اكثر هوَّس ناحية الكلب بطرف سلاحه فيزداد الكلب صخبا وعنادا وتقدما حتى أجبر الشوكى على التراجع، علق سلاحه على كتفه ولم يفلح فى أن يدارى خزيه، انسحب الشوكى واستدار فلم يتقدم الكلب اكثر، نبح نباحًا مطمئنا وأسرع ناحية أقدام عبد القادر ليقعى وهو يهز ذيله المنتصر مثل راية. كلب أبيض أصيل من سلالة كلاب أصيلة، كلب ناصح يشم رائحة الظالم والمفترى وابن الحرام، كلب ابن عمدة ابن كلب عمدة راحت من فرع أسرته عمادة الكفر فضيعها الفرع الآخر لحساب محدثى نعمة مفترين على الفقراء من خلق الله، كنت أتأمل الكلب بإعجاب ودهشة عندما سمعت صوت البرقوقى وقد وقف إلى جواره فرحان الشوكى الذى لف ودار ليحتمى بزميله:

- العواف عليك يابا عبد القادر.
- يعافيك يا برقوقى.. مالكم؟
- مفيش حاجة تستاهل يابا عبد القادر.. مفيش، بس أنت حقانى وما يخلصكش عمايل المدندش، بيبهدل ف زراعة الخلق ويدهوس فى الجناين. ومادام احتمى فيك مالناش عنده حق، لجل خاطرك أنت

مالناش عنده حق، وسماح يا مدندش بس تتعهد لنا قصاد أبـوك عبد القادر أنك تستقام، هو حد ف الكفر بيتأخر له ف طلـب يابـا عبد القادر؟ لزومه إيه بقى تقليع الزرع؟

نظر عبد القادر ناحيتى فأصابنى خجل، كان ينتظر جوابى ولا أجد ما أقوله غير ما قلته:

- اللى تؤمر بيه يابا عبد القادر ماشى على رقبتى.
- وأنا ضامنه يابرقوقى، بس إن غلط ترجعوا لـى وبـلاش حكايـة الرمح ف الغيطان، هو انتو فاضيين؟ اتفضلوا الشاى.

بذلك قال عبد القادر فأراحنى، طمأننى على ضمان حمايته لى ومـن ورائه كل أولاد عوف، شوكة العمدة وناسه الساكنة فـى حلـوقهم، ألقـى البرقوقى تحية السلام فرد عليه عبد القادر وهـو يجلـس إلـى جـوارى، يتابعهم فى صمت وهم يتباعدون بينما راحته تداعب رأس الكلب فى حنـو وكأنه طفل رضيع، قام وقد تذكر شيئا فطاف بنظراته فى أركان الغيطان ثم ثبت نظرته على مجموعة من الأطفال ترمح بين نخلات البلح فنادى.

- يا سيد.. سيد.. تعالى بسرعة، أوعى تقع.

كان سيد يرمح فى اتجاهه بفرح، ارتمى فى حضن جده وقـد مـال ليلتقطه ويحمله، كان الرجل يضحك بغبطة وسعادة وأنا أقترب منهما، أتأمل الولد الذى أنزله جده إلى الأرض قائلاً:

- لأ.. لأ.. احنا ح نتخاصم يا حسنين انا والولد ده، انت يا ولد مش متفق ما تبعدش عنى..؟
- قلت أشاركه الفرحة بسيد:
- بسم الله ما شاء الله.. بسم الله ما شاء.. معلش يابا عبد القـادر، ماعادش يبعد تانى..

أشار عبد القادر إلى شجرة التوت وهو يأخذ كف الولد الصغيرة فى يده
- نزل السبت المتعلق دهه وطلع لنا الغدا على ما اغسل للعكروت ده

ايديه.. شوف ايديك بقت عاملة ازاى يا سيد؟

كنت أسمعه رغم انشغالى بانزال السلة المعلقة على فرع الشجرة وإخراج الطعام لأضعه فوق الحصير المفروش تحت العنبة، أسمعه وهو يهدهده ويلاغيه ويغسل يديه من ماء القلة، يمسح عن وجهه بكفه المبلولة أثار اللعب والعرق ويجففه بطرف جلبابه الخفيف، يعود في اتجاهى ويجلسان، يتذكر:

- الولد ده كان عمره على ايديك يا حسنين، ومهما عملنا لك مش ح نقدر نكافئك.
- يا خير أبيض يابا عبد القادر، تكافئونى إيه وأنا لحم كتافى من خيركم؟ دانا عايش على حسكم ف كل الناحية، طيب دا كفاية وقفتك معايا النهارده، دى تسوى الدنيا بحالها، أصل أنت ما شفتش اللى عملوه فى الليثى.
- محدش منهم يستجرى يبص لك.
- بحسك برضه..
- وأصل دول ناس لمامه، شبع من بعد جوع، أنت إيه اللى كان ودّاك؟
- يمين بالله ما أنا عارف يابا عبد القادر. أنا حتى ما بحبش العجور.
- تبقى رزالة يا ولد.
- وماله يابا عبد القادر لما النفر يترازل ويلقح بلاه ع الناس دى؟ يستاهلوا ولا مايستهلوش؟ دول كلهم كده.. ولا على ايه؟ بلاش عشان سواد عيون سى سيد، إنما ماقلتليش ياسى سيد، بتحب جدك قد إيه؟

فتح ذراعية على اتساعهما فضحكنا، ربت عبد القادر على ظهره قبل أن يضع فى فمه لقمة صغيرة ويدعوه لمضغها وهو يمثل للولد كيفية مضغ الطعام بطريقة أضحكته، وساعتها صدقت المثل القائل إن أعز الأولاد هم أولاد الأولاد، لم تأت سيرة حسن ولم أشأ أن أسأل عنه حتى لا أقلب

المواجع لأن مثل هذه الجراح لا تطيب ولأنه ليس لهجر الأرض والأهل طب ولا دواء، وقلت إنه مغفل لأنه ترك الكفر وناسه، وأنه فشل في زواجه مرتين وجنى على الولدين، وأنه يوم يموت عبد القادر فسوف تكون تلك بداية خراب الدار.

- رحت لحد فين يا مدندش؟

أفقت على سؤاله وكاد لساني يبوح بما كان بما كان يدور في عقلي لكنني منعته، قلت للرجل وكأنني أرمح هاربا:

- ح أروح فين يابا عبد القادر؟ أنا وياك أهه.

لم يكن يصدقني لكنه تنهد، نظر إلى الولد وقال بينما يهز رأسه:

- أبوه ح يتجوز تاني اليومين دول.
- تاني؟

سألت باندهاش فتابع هو:

- خلصناه من بنت شلبي بطلوع الروح، كانت ح توصل للقتل، وأهي جابت عيل ملوش ذنب. يروح فين ده؟ أفرض أني مت ح يروح فين عيل زي ده؟ لجوز امه ولا مرات أبوه؟
- يديك طولة العمر يابا عبد القادر، يديك طولة العمر، حسك في الدنيا بحالها، وربنا يخليك لهم، أهم بيتدلعوا عليك.

ويبدو أنني طيبت خاطره ففتح لي في تلك الظهيرة قلبه فرأيته صندوقا مسكوكا على تل من الأحزان، ورأيته كتابا مفتوحا واضح الصفحات على عكس كل ما كان يقال عنه، أشفقت عليه وأنا المقطوع الضائع والمحروم، قلت لروحي إنه لا المال ولا الصحة ولا عزوة الرجال تقدر أن تداوي جرحا مثل جرحه، وقلت إن النعمة ثقيلة على بعض الناس، ثقيلة على واحد مثل حسن ذلك الذي لم يكتف بالفرار، وإنما رمى هموم خلفته على الرجل، وقلت لروحي إن الرجل بانت عليه علامات الشيخوخة فجأة وأنه مثلنا يشكو وقد كنت أحسبه ماردا لا تطوله الأحزان، لكنه كان حزينا في تلك الظهيرة ولم يكن يداري حزنه، كأنما اطمأن إلى قدرتي على

الكتمان أحيانا، حتى عندما جاء صالح وجلس إلى جوار سيد لم يتوقف الرجل عن البوح بأسباب حزنه وقهره في أواخر أيامه:

- اللى زيى كان يقعد يرتاح فى وسط عياله وعيال عياله، مش يفضل ناعى الهم على طول..

ويبدو أن صالح لم يكن يرضيه أن يسمع تلك النغمة من الرجل، ذلك أنه بجرأة قاطعة وملء فمه بقايا طعام:

- يا سيدى افتكر لنا حاجة حلوه تفتح النفس.. ما تقول حاجة يا سيد أفندى.. يا غالى يابن الغالى، هو يخلف وغيره يربى ويعلل ويشيل الهم.

قال عبارته الأخيرة وهو يربت ظهر الطفل الذى لم يكن قد أكمل عامه الخامس بعد والذى كان ينظر باندهاش وعجز عن الكلام، وزام عبد القادر معترضا على طريقة صالح الخشنة، وتقابلت نظرات الرجل مع الشاب المفتون بصباه والذى يتجاسر على المقاطعة على غير ما كنت أتوقع، لكن عبد القادر لم يفوتها له، قال وكان يعنى ما يقوله:

- قوم من قصادى دلوقت لحسن أقوم أدفس راسك فى الطين.

وبخفة قام صالح، تباعد وهو يبرطم بكلام غامض لكنه اعتراض الواثق من الفوز فى نهاية المطاف وربما المتأكد من تحقيق كل أغراضه فى الزمن الآتى.

* * *

سوق الخميس فى البندر تجار وسماسرة وشطّار ولصوص مواشى وجزارون وضحايا ونصابون، القرش فيه صياد واللسان سلاح مسنون وله حدين، ولأمثالى فى السوق رزق بسيط لكنه يرضينى، شىء مثل الحسنة المخفية أتناولها فى كفى بغمزة عين أو ضغطة كف، أدسها فى جيبى وأنصرف لحالى أو أبقى مع من أعطى إن كان يميل إلى مشاركتى سكة الرجوع، نثرثر فى سلامة البهيمة وسعرها المعقول إن كان شاريا أو نجاحنا فى الحصول على الثمن المناسب وإفلاتنا فى نصاحة التجار وحيل

السماسرة إن كان بائعًا. أتحول إلى شريك مرفوع فى سكة الرجوع وأستشعر الدفء إن دعانى للغداء احتفالا بالنجاة على هذا النحو إن كان وقوفى معه بالفعل قد نجاه، وأنا نوادرى فى السوق قليلة وخبرتى به أقل، غاية ما هنالك أننى فى العادة أذهب لأشعر بونس آخر غير ونس السهرات فى الليل الممدود، يسرقنى نهار السوق من هم النهار كما تسرقنى السهراية وحسن الصحبة من هم الليل، ولأننى لا أحب السمسرة لا يرتاح لوجودى السماسرة لأننى بحسب أقوال البعض منهم مثل قطاعين الأرزاق، لسانى مفلوت وقادر على تنبيه من يهمنى أمره فى الوقت المناسب، وقد حاولوا معى عشرات المرات فلم أتعلم أو بدا لهم أننى لم أتعلم، والحقيقة أن المسألة ليست سحرا ولا طلاسم ولا خبرة كما يقولون، المسألة قلة ضمير، السمسار الشاطر هو الذى تخلص من ذمته أو على الأقل تركها فى الظل عند باب السوق قبل الدخول، يتآمر مع الطرفين إن استطاع أو يتآمر مع طرف على الطرف الآخر، يبيع البائع للمشترى أو يبيع المشترى للبائع، لكنه فى كل الأحوال لا يترك الطرف الذى تآمر عليه قبل الحصول على أتعابه وبالحاح ثم يستدير ليأخذ ممَّن لعب لحسابه فى الخفاء ويأخذ، ورشاد الأعور ساكن الدار المجاورة لدارى يفعلها فى كل خميس ويعرف فى كل سوق كيف يفلت من ملامة المخدوعين، وفى ذلك الخميس كان رشاد الأعور هناك، وكنت أراه وأعرف من نظراته أنه باع ابن بلده الفقير للتاجر الجزار، كانت جاموسة ابن الشرشابى واقفة وإلى جوارها عجلها الرضيع، جاموسة تستحق بصحيح لكن رشاد الأعور الملعون غمز بعينه الوحيدة لمعارفه من السماسرة بما يعنى عدم الاقتراب، ومن بعيد كنت أراه يحوم حول التاجر الجزار ويتهامس معه مبديا على ما بدا لى أنه بارع فى توقيف الأحوال، باختصار وبدون الدخول فى تفاصيل صعب على حال ابن الشرشابى وهو واقف إلى جوار الجاموسة وعجلها تحت الشمس الحامية دون أن يقترب منه واحد يوحد الله، وعندما جلس على الأرض فى يأس جاءه رشاد الأعور وتحدث إليه بكلام،

اقتربت فأشار إلى رشاد طالبا منى الابتعاد:

- اسرح فى حتة تانية يا مدندش

- لهو كان سوق ابوك يارشاد؟

- لم لسانك لا حط البلغة فى حنك.

- بلغة مين يابوبلغة، على الحرام اقطعها على نافوخك.

كان ابن الشرشابى يبدو مثل غريق تعلق بقشة التى هى رشاد الأعور، لكن القشة تتعارك وربما تطيرها رياح العراك، قام ابن الشرشابى واتجه ناحيتى وأوصانى بأن اقصر لسانى من أجل خاطره، وبأن آخذ حقى من رشاد فى الكفر بدلا من الفضائح فى السوق وسط الغرباء، بينى وبين نفسى لم أكن مرتاحا لكلام ابن الشرشابى لكننى طاوعته وسكت، بل أننى تباعدت وأحتميت بظل شجرة توت فى ركن السوق، طلبت من البنت التى تصب الشاى من برادها أن تصب لى كوبًا وأوصيتها بتزويد السكر، وأنا أحب الشاى الزائد سكره، جلست وهدأت وأوشكت أن أنسى عراكى والنسيان نعمة، لكننى سمعت سمسارا من عزبة الشراقوة يتحدث مع سمسار آخر بصوت مسموع عن الجاموسة وعجلها التى سوف تباع بنصف الثمن، انتبهت ونظرت فرأيت التاجر الجزار ورشاد الأعور وسمسار عزبة الشراقوة يحيطون بابن الشرشابى، وزن فى دماغى دبور: «ربما يا ولد عاركك رشاد لكى يبعدك، وربما ضحك على ابن الشرشابى بأى كلام، ربما لو ظللت فى نفس مكانك يخسر ابن الشرشابى جاموسته وانت موجود لكنه وجود كالعدم، وقلت لروحى مالك أنت بابن الشرشابى يا مدندش؟ كن فى حالك يا مدندش، أنت تجر على نفسك البلاوى يا مدندش، لاهى جاموسة أمك ولا عمك ولا ابن الشرشابى من أهلك، قلت لروحى ولكن كلامى لروحى مردود عليه، هو كلام فارغ فى واقع الأمر، نوع من الهروب والخوف وتبرير السكوت على الغلط، المهم أن سمسار عزبة الشراقوة رجع وهمس فى اذن الآخر فتبعه بهمة، كنت أراهم يحيطون بابن بلدى مثل نصابين مولد البدوى، وقلت اننى ما لم أتدخل فسوف يبيع ابن الشرشابى بخسارة كبيرة ولن يرتاح فى تلك الليلة ضميرى، وقمت ولحسن حظ ابن

الشرشابى فى الوقت المناسب، عندما رأنى رأيت فى عينيه نظرة انكسار المغصوب المغلوب على أمره والذى أجبرته الحاجة على البيع بسعر بخس ربما ليسد دينا استدانه أو يقضى غرضا طارئا لم يعمل حسابه، قلت لاقطع كل الألسنة التى كانت تحاصره بكلام يكسر المجاديف السابحة مثل: خلص روحك، الفلوس جاهزة، توكل على الله.. السوق انفض.. بارك له يا جدع.. سلمه حبلها.. بكيفه.. طَلّع الفلوس وعدها له على البركة.. عصابة يا ناس فهل كنت أسكت؟ لم أسكت، أمسكت حبل الجاموسة فى يمينى وقلت للتاجر:

- مش ح نبيع.
- وانت داخلك ايه؟ إمشى انجر من قصادى..
- أمشى ازاى؟ دانا شريك فى الجاموسة دى.. ما تتكلم يا شرشابى..
- ايوه شريك.. شريك بالربع.
- بقى ده وش شركة ده؟
- مش وش شركة ليه، ناقص ايد ولا رجل؟

وطال الكلام ووقفت المركبة على شط الأمان قبل أن تنجرف فى منحدر الخسارة الظاهرة، ومن جديد بدأ الفصال، زاد السعر خمسين جنيها لأجل خاطرى كما قال التاجر وأعوانه وطلع ابن الشرشابى من الحفرة التى حفرها له رشاد الأعور، واحد غير رشاد الاعور كان يطق يموت، تصيبه حمرة الخجل وقد انكشف كل غطاء ساعة عد الفلوس، فالتاجر الجزار وقد بدا له أننى حويط وغويط وقادر على تسيير دفة المراكب أو توقيف المراكب التى تسير فكر بسرعة أن يشترينى لحسابه، ناولنى ما فيه النصيب فلم أمانع، أخذته وأضفته إلى الفلوس التى قبضها ابن الشرشابى لأؤكد للكل أننى شريكه بحق وأننى لم أتدخل رغبة فى التدخل أو الربح أو قطع الأرزاق، واحد غير رشاد الأعور كان ينكتم كتمة المدمس لكنه بعبع وهاج وطالب بأتعابه من الجزار التاجر، أتعابه وأتعاب أتباعه الذين عطلوا أشغالهم من أجل هذه البيعة فنظر إليه التاجر باستخفاف وقال:

- على الحرام من دينى أنت ما تنفع سمسار ولا تستاهل فى السوق خمسة أبيض.

- عيب يا معلم، أنت فى سوق بلدنا وما يصحش.
- أنت خليت فيها عيب يا أعور؟ بلدك إيه يا بو بلد، أنا مش دفعت الفلوس بزيادة يا اعور..؟ دفعت إنما مبسوط ع الأقل كسبت راجل، إمشى بقى غور منْ وشىً منك له له.

قالها وعيناه تقدحان شررا مشرورا قابلا لإشعال كل ما يعترضه، تسحَّب رشاد الأعور خطوات ثم فوجئت به يرجع وقد رفع فردة مداسه ونزل بها فى اتجاهى لولا أن سترها الستار فابعدت دماغى فى الوقت المناسب، وطارت فى السوق شرارة العراك واكتشفنا أن للتاجر الجزار فى أركان السوق أعوانا وصبيانا جاهزين للضرب بالسكاكين والعصى ويقدرون على الفرار فى أنسب الأوقات وقد فعلوها، تركوا فى أرض السوق قتيلا مجهولا وخمسة جرحى أو مصابين بكسور قطعية تنزف ومن بينهم رشاد الأعور نفسه وأنا كنت أفترش الأرض وابكى حالى مازلت بسبب ما فعله رشاد الذى رفع مداسه بغرض ضربى واهانتى فرماه الله بمن هو أقوى منه وأقدر. التاجر الجزار أسلم حبل الجاموسة لواحد من صبيانه وكأنه فص ملح ذاب فى فرع النيل، كان ابن الشرشابى إلى جانبى، يطيب خاطرى ويستشهد بما جرى للسماسرة على يد أتباع الجزارين، يطالبنى بأن أحمد الله واشكر فضله فاحمد الله واشكر فضله، عيبى بحسابات هذا الزمان اننى كنت دائما أحمد الله وأشكر فضله على الصحة والستر والرزق القليل، وعيبى أننى أحببت كل ناس الكفر وأحببت تراب الكفر فهل يستحق مثلى فى هذا الزمان ضرب المداس؟ يضربنى رشاد الأعور وقد كبرت وقلت قدرتى على الحركة المألوفة؟ وماذا لو لم يكن هناك ذلك النوع من الرجال الذى قال إنه كسبنى باعتبارى رجلا وليته ما قال لكى يعفينى من مشروع الضرب بالمداس الذى هو إهانة ما بعدها إهانة، أنا حسنين المدئدش الذى شفت فى عمرى كيف تغيرت الأحوال وتبدلت وكيف كانت مصائر الكبار والصغار تأتى مخالفة للبدايات، فاروق الملك نفسه بدأ تقيا ونقيا وأشاعوا أنه يصلى فروض اليوم فى أوقاتها، ملك مثل الحلم والأمل يخيب فيه الرجاء فى آخر المطاف، يطرد عساكره وضباطه بعد أن فاحت رائحة

مفاسده من كل ناحية، قمار وحريم وعربدة وسمسرة فى السلاح وخيانة بلد، ومحمد نجيب الذى حدثنا عن القناعة والسماحة ولقمة نرميها للقطة، أزاحته مطامح ضباطه وحددوا اقامته كما قال أصحاب سيد أفندى، كأنه مسجون فى المرج حتى يحين أجله المحتوم، وعبد الناصر الذى بشرنا بانتهاء عصر الاستعباد، طالبنا أن نرفع الرءوس، وأارفع رأسك يا أخى، وأيها الاخوة المواطنون، والنصر فى بورسعيد بعد تأميم القناة الذى لم اكن أفهم معناه واوافق عليه، حديد وصلب وجمعيات زراعية واشتراكية عربية واحساس بأن البلد بلد البسطاء أمثالى هؤلاء الذين استعادوا كرامتهم رغم ما كان يشاع عن اهدارها فى الخفاء خلف أسوار السجون والمعتقلات، أشياء سمعت عنها ولم أشهدها بنفسى لكننى تأكدت من حدوثها عندما أخذت عساكره سيد أفندى وأصحابه، والغريب الغريب أن من وشى بهم وكتب عنهم التقارير كان فاروق أفندى، كأنما تأتى للنفر الضربة من حيث لا يتوقع فتطحنه وتنوِّه وعيه وتفقده الثقة فى الدنيا والناس، وكيف انتهى عبد الناصر الذى كان مثل الشهاب الطالع، الزارع فى القلوب حلم المستقبل والقادر على تحريك مشاعرنا فى الاتجاه الذى يريده، كيف انتهى عبد الناصر وقد انكسرت شوكته وتحامل على عوده الفارغ الذى كان يدارى موته بحسرة قبل الموت بسنوات، بدايته غير نهايته، والسادات الذى انحنى لصورة عبد الناصر وعاهدنا أن يمشى على هدى خطاه، الوفى للذكرى والذى بدا للناس فى العباءة وبدلة التشريفة وياقات قمصانه البيضاء وكلامه عن حكايات جدته وناسه فى ميت أبو الكوم القريبة من كفرنا الموعود بأولاد شلبى، يتقافزون مثل القرود ويملكون، يصاحبون أولاد الليل ويدفعون لهم كى ينفذوا أغراضهم، يأخذون عمادة الكفر من الفرع الخائب فى أولاد عوف ويركبون على اكتاف الفقراء ويسلخون جلودهم إذا فكر الواحد منهم فى أن يرفع رأسه، الخطير الخطير أن أشكال الظلم وأنواعه تختلف من زمن إلى زمن لكنها أبدا لا تنتهى أو تزول، يظل الفقراء مطية لمن يملكون ويحكمون ويتحكمون،حتى من شارك الفقراء فقرهم زمنا يتناساه ويردم على ماضيه أن استطاع وينسى ذاكرة الناس أو يتوهم أن ما

فات مات رغم أن ما فات يبقى ولا ينتهى أثره بهذه البساطة، ما لنا بـزمن السادات الذى انتهى بضرب النار، لاشىء يأتى من فراغ كما يقول الأفندية وتقول الكتب المطبوعة، كان السادات يحكى لنا الحكايات، ويبدو أنه كـان يحلم فى الليل ويفسر لنا الأحلام كلاما يطير النوم من عيون البعض ويجلبه للبعض الآخر، لكنه حارب اليهود وكسب الحرب خلافا لكل مـا تصـورناه، وصالح اليهود أيضا خلافا لكل ما توقعناه، وأنا لا أفهم فى السياسة شـيئا، لكنه أفرج فى أوائل أيام حكمه عن المحبوسين فى مسائل السياسة إلى حد القول بأنه لم يكن فى المعتقلات مساجين ثم انتهـى أمـره بحـبس الآلاف والآلاف من أصحاب المناصب ومن كانوا بحساباتنا يعملون لحسابه، ولأننى لا أفهم التفاصيل فإننى اكتفى باستخلاص العبرة الظاهرة من تبدل الأحـوال واختلاف المصائر عن البدايات، كأنه مكتوب علينا أن ننتهى على عكس ما بدأنا، شىء خطير ذلك الذى يصيبنا يا ناس، فلماذا نحن دون سائر خلـق الله فى كل أركان الأرض يحصل فينا ما يحصل فينا؟ وهل نستحقه؟ وهـل أستحق أنا البهلول الحاوى والعارف كل مخازيهم والساكت على كل بلاويهم أن يرفع رشاد الأعور مداسه على مشهد ومرأى من كـل نـاس السـوق غرباء ومعارف، يرفع مداسه قاصدا رأسى أو دمـاغى أو عقلـى؟ رشـاد الأعور؟ النهاب السراق النصاب السمسار معدوم الذمة، وهل جـاء زمنـه وزمن أمثاله بحق وغربت شمس أمثالى من القانعين بالستر وعشاق الخير لكل الناس؟ صحيح أننى بحسابات البعض «ولا فى الكير ولا فـى النفيـر» لكننى أشارككم فى المكان والزمان، أنا بحسب كلام عبد الناصر مواطن ولى فى بلدكم ميراث، وليس من الضرورى أن يملك النفر فى زمام الكفر الـذى يعيش فيه أرضا ليحصل على حقوق المواطنة، يحصل عليها كل من عاش وتربى وشارك واحتمل وتحمس للمستقبل وحافظ علـى صـفحته بيضـاء وبشرف عاش، وهو مجرد كلام فى كلام فى كلام بحسابات من طلعوا على سلم الصعود فوق البسطاء فى غفلة فصاروا بشرا من نوع آخر جديد غير البشر الذين كنا نعرفهم فى الزمن القديم أو الذين كنا نتمنى أن نلقاهم فـى مستقبل الأيام.

وفى كفرنا وكل الكفور البعيدة يعيش البعض منا ليحافظ على النسل والبعض الآخر ليحافظ على الثروة وحيز الأمتلاك، لكنه هناك ناس تعيش لتحافظ على ما حفظناه عن الأجداد من أقوال وأمثال وسير وأفكار سواء كانت فى علاقة الرجل المخلوق بربه أو بغيره من عباد الله، ولأنه لا شىء يبقى على حاله تتبدل فى الظاهر أمور وتبقى فى الكامن أمور لا تقبل التبديل، وربما بسبب ذلك حبسوا ثم قتلوا سيد أفندى وأمثاله، هؤلاء الذين عاموا فى عكس إتجاه الريح، ولأن رياح التبديل فاتت على كفرنا فتسيد التجار والسماسرة وبياعوا الكلام الحلو من طرف اللسان فصعدوا فلابد أن دور أمثالى قد أنتهى وراح أو لابد أن ينتهى ويروح، لكنهم يعيشون فى غفلة إذا حسبوا أن الأمر سوف ينتهى بإهانة فى سوق الخميس يرتكبها سمسار خطاف لا يعرف الحياء معدوم الضمير، يدخل السوق وقد ترك على بابه ما تبقى من ذمته إن كان قد تبقى منها شىء، ينزع من قلبه كل أشكال الرحمة ويتاجر دون رأسمال فى مواشى الخلق ولا يتراجع إذا جاءته الفرصة لبيع الناس وشقاء الناس وعرق الناس، سوق الخميس والقرش الصياد والعمولات المستورة والمكشوفة وزمن من يتسيدون دون أن يصبحوا بالفعل سادة، ذلك أنهم يتبعون السادة الأكبر الذين ساعدوهم على أن يتسيدوا على من هم أكرم منهم وأوعى إلى حد أن يتخطى سمسار نصاب حدوده مع بهلول حر لم يبع روحه للسفهاء.

* * *

موت عبد القادر كان نهاية زمن وبداية زمن، على الأقل فى داره ونسله وأرضه، مشهده جمع البعيد والقريب، الذين خاصمهم وخاصموه والذين احتملهم واحتملوه، كان رغم العمى المفاجئ الذى أصابه فى أواخر أيامه حاضرا ومؤثرا، موجودا فى أذهان الناس وصاحيا، لكنه عندما مات تحول إلى مرحوم فات تركة يلزم أن يتسلمها وريث أو ورثة، ورغم وجود حسن كانت الناس تعزى صالح اكثر وكأنه الأصل والآخر فرع، حسن نفسه لم يكن واعيا بما يدور حوله، لقد رجع ومعه سيد الصبى وزوجه جديدة من أهالى البندر، والدار لم تكن خالية لتسعه مع الآخرين الذين توافدوا وأقاموا

كأنما عن قصد وبأهداف مبيتة دبرها أكابر الفرع، حسبوها وانتهوا إلى اختيار صالح وأولاده، سمعنا عن مشاحنات بين الحريم لم نعرها في البداية أي اهتمام، ورأينا سيد يرمح وراء الحمار ببنطلونه القصير وقميصه الأبيض وحذائه الأسود، لبس مدارس يخالف ثياب الفلاحين، وقلنا إنه لابد سوف يحول أوراقه إلى مدرسة البندر لكنه لم يفعل، كأنما كان حسن يعرف أو يحس أن وجوده في الكفر مؤقت، ومثلما جاء رحل، جاء بليل وتحدث الناس عن أوراق مكتوبة ومختومة تنقل ملكية الأرض والدار إلى صالح بالبيع مدفوع الثمن وبشهادة إبراهيم ابن إبراهيم وعطية ابن على وهما أقرب الأقارب، قلنا إنه من الممكن أن يكون عبد القادر قد وقعها بالفعل وختم عليها بخاتمة أو بصمها ببصمته كي يحافظ على ميراثه في يد من يحميه ولا يبدده، وقلنا إنه من الممكن أن يكون بريئا من مثل هذا التصرف الذى لا يرضى الشرع أو الأصول، ويمكن أن يكون العقلاء من فرعهم قد دبروها لحسابات حسبوها، فكروا أنه من الممكن أن يبعدوا الوريث الأصلى لينفردوا بصالح وهو قليل الخبرة ويمكن زحزحته أو حتى تسييره بحسب الهوى والمصلحة، ولكل واحد فى هذه الدنيا حساباته، فرع شوكته بارزة وقد لاحت الفرصة لكسرها حتى تتساوى الفروع فلماذا لا يفعلون؟ وقد فعلوا بتدبير أو بالتواطؤ أو بالسكوت، وهكذا تحول موت عبد القادر إلى نهاية زمن وبداية زمن، نهاية زمن الطيف السارح فى البلاد البعيدة والممكن رجوعه إذا تصالح مع عبد القادر لكنه عندما خرج كان الطيف الغائب قد اختار أن يبقى هناك، أن يتباعد عن ذاكرة الناس وتنمحي سيرته باعتباره من ناس الكفر، يغيب غيبته ويرجع عندما يحين الوقت، قلت لكم مرة إنه لم يكن على ذمة الكفر وهذا صحيح إنما بعد موت عبد القادر، قبلها كان على ذمة الكفر وكنا ننتظره، لكنه لم يرجع إلا ليشيع الجنازة مثله مثل أى غريب، وكانت الناس تتكلم قبل أن تعرف ما سوف يحدث، عن الميراث الشرعى الذى سوف يصل إليه رغم التباعد والابتعاد، فالشرع فى كفرنا هو الشرع، لكنه ليس بالشرع وحده يتعامل الناس فى مثل هذه الأمور.

كنت أتذكر جلستنا يوم العجوز الذى احتميت فيه بعبد القادر فحمانى،

أتذكر كيف كان يحنو على سيد الطفل ويداعبه بكل الحب وكل الأشواق كأى جد يتمنى إسعاد حفيده عندما يراه بعد طول غياب، كيف غضب من صالح وثار عليه وأمره بالابتعاد لمجرد أنه تحدث إليه بطريقة لا ترضيه، صحيح أننى فكرت يومها أن صالح سوف يكسب فى نهاية المشوار لكنه لم تخطر ببالى احتمالات أن يسكت أو يوافق مثل هذا الرجل على ظلم حفيده الأصغر لحساب حفيده الأكبر، وربما بسبب ذلك فكرت أن فى الأمر حيلة مدبرة لم يعرف عنها الرجل أى شىء أو يفكر فى تدبيرها فى حياته، والمسألة من أولها إلى أخرها مجرد اجتهاد، اجتهاد نفر بعيد عن الدار وأهلها، شىء أقل بكثير من اجتهاد المحاكم والقضاة الذين يحكمون فى قضايا المواريث وعندهم كل الأوراق وكل أمكانيات العدل، ومع ذلك لا يتحقق كل العدل، وهل تحقق فى كفرنا العدل أبدا؟ العدل كلمة منطوقة ومكتوبة ومقروءة كلمة لها وزن وقدرة على اراحة النفوس إذا تحققت مرة، وعلى ازهاقها عندما يعتم على نورها جدار الظلم القادر أن يحجب عنا شعاع الشمس، لكنه يحدث أن يعرف الناس أو يعرف القاضى حقيقة الأشياء وينطقون عن الهوى، يقول الناس معكوس الحقيقة لمصلحة محسوبة أو محتملة، ويحكم القاضى بعكس ما يشعره لأنه محكوم بأوراق وشهادات بشر وبراعات محامين فى الدفاع عمن دفعوا لهم الأتعاب، ولأن العدل لم يتحقق أبدا فقد كان من الممكن أن يحدث ما حدث عندما خسر صاحب الحق الشرعى قضيته أمام ابنه رغم اقتناع الناس وحسن نوايا من نطق بالحكم محكوما بما لايملك تجاهله مكتوبا فى الأوراق، وآه من الأوراق، تحكمنا وتتحكم فى مصائرنا، تخدعنا أو تنور طريقنا، تعلمنا الحقيقة أو تفسد أدمغتنا، تروى عطشنا أو توردنا فى صحراء الكذب ناحية السراب، تفيدنا أو تضرنا ولا نملك إذا عشقناها إمكانيات الخلاص من أثرها أو سحرها على مدى الأيام.

فى كفرنا «الخروبى» يذكر الناس محاسن موتاهم ويتناسون المعايب، ولأن الموت نهاية كل حى فهم يذكرون محاسن الأموات دائما وكأنهم يبادلون ما يفعلونه اليوم بما سوف يفعله الأحياء يوم أن ينتهى أجل الواحد

منهم فى الساعة المكتوبة، هو عمل طيب على كل حال وإن كنت أشك أحيانا فى أنه خالص لوجه الله وحقيقة الموت، ذلك أن البعض ينسى أو يتناسى تلك الحقيقة البسيطة المتكررة ويتعامل مع الدنيا وكأنها سوف تدوم، مع أنها لم تدم للنبى المرسل ولا دامت للملوك أو الأكابر أو حتى للفراعين الذين حكموا الدنيا بأسرها وتذكروا حقيقة الموت فحنطوا الأبدان وأبتنوا مدافن وأهرامات لحفظ تلك الأبدان وكأنما لنتعلم منهم تلك الحقيقة، ولقد حاولنا فى كفرنا أن نذكر محاسن حضرة جناب العمدة القتيل فعجزنا فى أول الأمر لأن سيرته خلت من المحاسن، وتذكرنا عباءاته وجلابيبه وشيلان عمامته وقفاطينه وطاقياته المشغولة بالإبرة وبغرزه رجل الغراب لا ندرى لماذا، وموت الأغنياء فى كفرنا «البطيخى» غير موت الفقراء مثلما هو موت الصبى غير موت العجوز وموت التقى غير موت الفسدان، كان المرحوم الذى لا تجوز عليه غير الرحمة «فلاتى» وكذابا وسكيرا ومقامرا ونهابا وظالما، حتى فى موته كان ظالما للفقراء، يرحمه الله فللأموات حرمة وللكفار نار جهنم وكل شىء بعلم الواحد القهار.

بينى وبينكم أنا مكتوم وأرغب فى البوح، بالأمس حضرنا ذكرى الأربعين فيحق لنا أن ينفلت اللسان ويشهد بما كان، انضرب العمدة برصاصة مجهولة المصدر عند باب الدوار ونزف الدم حتى جاءت الاسعاف، حملته السيارة مع أهله وناسه وبينهم الدكتور برهان ومن باب الاحتياط أخذوا الزناتى ابن الشحات، وتبادلنا الأسئلة عن السبب فالزناتى مجرد نفر «تمللى» يشتغل فى الغيط والدوار بلقمته وكسوته وخمس قراريط يزرعها خلافا لكل أنفار الكفر، النفر فى كفرنا يأخذ من القراريط عشرينا أو يأخذ فدانًا لحسابه مقابل كده وشقاء روحه، إنما الزناتى منكوب بالشغل سخره طرف حضرة جناب العمدة، مصَّ دمه حيًا وميتا، وهى المرة الأولى التى يمصّ فيها إنسان دم إنسان حتى ينهى أجله، كان الدكتور برهان يعرف ولا ندرى كيف أن فصيله دم الزناتى هى نفس فصيلة دم العمدة الذى انضرب بالنار، ولأنها فصيلة نادرة طلب الدكتور برهان من

الزناتي ابن الشحات أن يركب فركب في استسلام وطاعة ولم يكن يدري أنها آخر ركوبة، من دمه نقلوا للعمدة في المستشفى المخصوص بإشراف الدكتور برهان كل ما طالوه، وأنا أمرني شيخ البلد بأن ألف وأدور وانادي على من يتطوع للعمدة بدمه نظير وعد بمكافأة، أدور وانادي فلا يتحمس الناس، حتى أهله لم يتحمس منهم غير العارف أن فصيلة دمه مختلفة، ومن لا يعرفون في مسألة الفصائل لا يذهبون، وطالت ساعات السعي والانتظار حتى جاءت الإشارة بانتهاء أجله المحتوم فلا نفعه دم ابن الزناتي ولا دم شفيقة بنت المساح تلك التي اخذوها من بين من أخذوهم غصبًا عن أنوفهم وحيات عيونهم بالتخويف والتهديد فاستسلموا وأسلموا أنفسهم وركبوا عربيات أولاد شلبي المخصوص وراحوا للمستشفى المخصوص تكشف عليهم الممرضات فلا يجدن غير شفيقة بنت المساح التي ينفع دمها من بين كل من راح برضاه أو غصبا عن أهله وناسه، المهم أن العمدة الجديد راح في خبر كان وبعيار واحد مطلوق في الكبد حسب ما قال الدكتور برهان ابن عم القتيل، ذلك الذي لم يهدأ طوال الوقت أو يرحم الزناتي أو بنت المساح، فبعد ساعة واحدة من موت العمدة مات الزناتي بهبوط في القلب كما قالت الحكيمة ونهاية أجل وطبيعي كما قال الدكتور برهان للناس، المهم أنه في الصباح التالي اتجهت إلى مدافن كفرنا جنازتان، واحدة يتقدمها أكابر الناحية ورجال الإدارة ومأمور المركز وبعض أهالي العمدة بينما كل ناس الكفر تمشي في جنازة الزناتي ابن الشحات «ويا دايم أنت الدايم ولا دايم غير الله..» يرددونها مثلما رددوها في جنازات الشهداء، طال اليوم وطال وحل المساء فانفتحت مندرة العزاء المجاورة للدوار فلم يذهب من الأهالي إلا بضعة أنفار، ربما لأنهم كانوا في مندرة أولاد الشرقاوي التي انفتحت لأخذ العزاء في الزناتي ابن الشحات، وربما كانت هي المرة الأولى التي يتفوق فيها الفقراء على أصحاب السلطان في منادر العزاء، وخلافا لكل ما كان مألوفا انقلبت حسابات الأكابر في كفرنا الغويط الغويط مثل بئر يوسف عليه السلام.

امتلأ الكفر بالعسكر والمخبرين وعاد وكيل النيابة بعد أيام ليعاين

المكان مرة أخرى رغم أنه عاينه يوم ضرب العمدة، قلنا إنه لابد قد وصلت إليه معلومات جديدة حقيقية أو شكاوى كيدية تتصل بمـا جـرى، وكـان المأمور هناك فى الدوار، ودوار العمدة بناية جديدة من أيام الحاج مرسي، مخفية من الخارج وراء سورها من شجر الكازوزين والكافور الموصـولة جذوعه بالأسلاك الشائكة ما بين كل سلك وسلك قيراطان أو ثلاثة قـراريط بمقاس أصابع اليد وحتى ارتفاع قامة أطول رجـل فـى الكفـر، والـدوار محروس بالخفراء وكلاب المرحوم المشهورة بأكل اللحم والتى لا تكفّ عن النباح عمال على بطال وتوشك أن تقطع الطريق على العابرين، بناية فـى وسع على سكة مخصوص، وربما بسبب كل ذلك احتار حضرة وكيل النيابة وغضب المأمور، من شدة غضبه حلف بشرفه أنه لن يهدأ أو يهنأ له بـال قبل أن يعرف الفاعل المجهول، وربما بسبب اليمين الذى حلفه عاد وكيـل النيابة ليعاين المكان من جديد ويسأل الخفراء، ومن ناحيته عين المـأمور حضرة الصول عرفان لحفظ الأمن وحماية الضعفاء مـن الأقويـاء وإدارة شئون الكفر، أصبح كفرنا «المستقيم» بغير عمدة فترة من الـزمن طالـت وطالت خلافا لكل الظنون، صار الأمر في يد العساكر الذين يأمرهم حضـرة الصول عرفان، وصار كفرنا «البهلولى» اسمًا على مسمى، بينـى وبيـنكم ارتحنا من سخافات البرقـوقى والشـوكى والبهنسـاوى ومشـايخ البلـد الطماعين مفتوحى الحلوق والبطون بلا خجل ولا حياء، وغايـة مـا كـان يتكلفه ناس كفرنا الكرماء هو اللقمة اللائقة يقدمونها للعسـاكر ولحضـرة الصول، ناس فى مهمة حراسة كفر وقد تركوا بيوتهم وأولادهم فى البنـدر من أجل خاطرنا فهل يستخسر ناس الكفر فيهم اللقمة أو كوب الشـاى أو السيجارة أو أى شيء يحتاج إليه الغريب الساكن فى غير مسـكنه، أنـتم تعرفون أن الكلام فى مثل هذه الأمور عيب، لكن بعض ناس الكفـر كانـت تتكلم عن اتساع بطون العساكر واتساع ذمم المخبرين، وصل الأمـر إلـى مبالغات وتشنيعات لا يصدقها العقلاء حول دخول عسكرى إلى دار يطلـب الشاى أو الدخان أو يشارك فى وجبة عشاء فيأكل اللحم ويترك لأهل الـدار الجلد والشغت والعظام.

وصل الأمر إلى اتهام البعض بطلب الطيور الحيـة وعلـب القشـدة

والسمن المقدوح والجبن القريش، يطلبونها الواحد تلو الآخر قبل أن يسافر إلى بلده فى إجازة الأسبوع، سمعنا هذا الكلام واكثر منه مثلما سمعنا عن الصول عرفان الأكثر جرأة والذى كان يطمع فى الخروف الحى أو النعجة، يهدد بإمكانيات توجيه التهمة المعلقة فى دائرة المجهول مالم تنفذ له كل الطلبات، طلباته وطلبات حضرة المأمور، ولا مانع من ذكر وكيل النيابة والطبيب الشرعى وبعض أهل الحل والربط فى إدارة المركز، وصحيح أن مثل هذه الأمور يمكن أن تحدث مع الأكابر، لأن الأكابر يملكون وغالبا ما يدفعون ولا يتكلمون لأسباب لا يعرفها امثالى من الفقراء، يمكن مثلا أن الأكابر من أهل العمدة كانوا يسعون من ناحيتهم إلى معرفة الفاعل بكل الوسائل، ولابد أنه من بين الوسائل المشروعة إرضاء من يملكون أعطاء الموضوع اهتماما يزيد وينقص حسب الأحوال ودرجة رضاهم عن أصحاب الدم وضد من أراقوه على عتبة الدوار.. الغريب الغريب أن القتل تم على عتبة الدوار يا ناس، لا أحد رأى ولا كلب نبح ولا ظل نفر بان فهل جاءت الرصاصة من ناحية جن أزرق يتخفى عن عيون الناس أو طبَّت من السماء؟ ولأن المأمور من أنشط المأمورين فقد أمر بتفتيش كل البيوت المشكوك فى أمرها أو المحتمل أن لأصحابها دورا ولو من بعيد، عثروا بالطبع على بنادق ومقاريط وأسلحة أخرى بدون تراخيص فصادروها وأخذوا أصحابها رهائن لحين التأكد من استخدام أحد هذه الأسلحة فى الحادث، وطال الاحتجاز رغم ما قيل من أنه ولا سلاح من تلك التى صادرتها الحكومة له علاقة بالرصاصة المطلوقة.

عملوا قضايا حيازات بدون تراخيص طبعا قبل أن يخرج من أخذوهم ظلمًا، وربما بسبب ما جرى لهؤلاء بعد القبض العشوائى غضب اكثرية الناس فى كفرنا «الصالح» من المأمور ورجال الضبط ومن كل الحكومة، تلك التى تعرف ولابد أن القتيل له أعداء من الكفر ومن خارجه وأن سمعته سيئة وسيره أعوج فكيف انقلبت من أجله الدنيا ولم تحرك نفس الحكومة واحداً يسأل الناس رأيها فى تصفية دم الزناتى الشحات قطرة قطرة وحتى

آخر نقطة تفصل بين الموت والحياة من أجل سواد عيون العمدة الذى لم يكن فى كل عمره عادلا فى شىء، وهل للفقر والغنى فى نظر الحكومة كل هذا التأثير، ألم يلاحظ رجالهم ليلة العزاء انعدام المعزين من ناس الكفر عن الاتجاه إلى مندرة العمدة التى بناها الحاج مرسى بعد أن عينته الحكومة عمدة فكان يراعى الأصول أحيانا ولا يخلع برقع الحياء كما فعل ابنه من بعده، صحيح أن كليهما افترى لكن هناك فرق، وصحيح أنه بعد موت الليثى الشحات الذى مزق البرقوقى ظهره العريان بأمر الحاج مرسى، صحيح ان الحاج مرسى أخذ أصغر أولاد الشحات ورباه من خيره، لكنه ليكون عبدا مجانيا قليل التكاليف، يخدم ولا يحق له أم ينطق وهو فى قبضة العمدة وابنه الذى تولى من بعده، كأنه بهيمة لا يحق له الشكاية إذا تعرى أو جاع أو صفوا دمه بشهادة الجميع مدَّعين أنه تطوع باختياره لينقذ ولى نعمته، سيده وابن سيده.

لكنهم لم يعرفوا أن الناس فى كفرنا «الصالح» تتناسى بإراداتها زمنًا لكنها لا تنسى، آن أسباب الغضب كانت ساكنة فى قيعان القلوب وجاهزة لمن يطلقها بسهم آخر جديد فتظهر على السطح شتائم وتشنيعات وشائعات ونكات حزينة عن العمدة ونجاسة ذيل العمدة وأصل ناس العمدة، بداياتهم غير البعيدة وهم يفدون إلى كفرنا بالحيل والألاعيب واكتساب ثقة البسطاء أولا ثم الانقلاب عليهم وقد امتلكوهم، وربما التقط المخبرون والعسكر مثل هذا الكلام وأبلغوه لحضرة الصول عرفان فأبلغه إلى حضرة المأمور الذى أمره بالبقاء وزوده بقوة إضافية وأرجأ تعيين عمدة جديد إلى وقت آخر، ربما إلى أن تهدأ النفوس وينسى الناس ما جرى، ورتب العساكر أمرهم على مأمورية طويلة ورتب الناس أمورهم على احتمال المزيد من واجبات الضيافة الجبرية، يؤدونها غصبا وعلى مضض «واصبر على جار السوء» وبقدر ما استباح العساكر خبز البيوت بقدر ما سمح الناس لبعضهم فى استعادة سيرة العمدة وذكر بلاويه المخفية والظاهرة، كان المرحوم مصيبة وحطت على أدمغة الفقراء حيًا وميتًا، الكل خسر فى وجوده وبعد رحيله، وأنا خسرت الكثير الكثير ما بين موت سيد أفندى غدراً وموت العمدة قصاصا عادلا من رب السماء، ذلك أنه طوال هذه الأيام كان أتباعه من

النمّامين والخفراء والواشين الكذبة يضعوننى حيثما كنت تحت الملاحظة، ولابد أنهم كانوا يحسبون خطواتى ويسجلون أقوالى لينالوا عنده الحظوة وتزداد ثقته فيهم، قبلها أيضا لم يكن بينى وبينه عمار، مرة طلب منى أن اكون جاسوسه على سيد أفندى فدافعت الست شوق عن سيد أفندى وعنى، وفى زمنه تجاسر رشاد الأعور ورفع مداسه بهدف ضربى أمام الناس فى السوق لولا شهامة الغرباء، وفى زمن أبيه أيضا طاردونى لولا حماية المرحوم عبد القادر، كيلى منه طفح وفاض مثل بقية خلق الله من الفقراء، وإذا نسيت كل شىء فهل أقدر على نسيان وجه الزناتى وهو راقد وخرطوم مص الدم مثبت فى ذراعه وقطرات من دمه تتساقط بضعف فى الزجاجة بينما الزجاجة الأخرى المملوءة بدمه معلقة فى ذراع العمدة، امتصاص لآخر قطرة بأمر الطبيب الجاهل برهان ابن زاهر ابن هارون، ساعتها طردنى برهان لكنه لم يخدعنى لأبدل فكرتى بأن ما كنت أراه هو امتصاص دم الفقير العاجز لحساب الغنى المالك القادر الذى تجبر واستباح كل شىء حتى دم شفيقة بنت المساح التى أصابها شلل لكنها بالإشارة تبوح رغم الخرس إذا ذكرتها لما جرى فى ذلك النهار البعيد، يومها وأنا راجع من سكة البندر تمنيت أن يغور من الدنيا ليتأكد لى عدل السماء، ويومها طال السوس مخزون القمح فى دارى لأول مرة رغم أنه كان فى «الزالوع» فوجئت بالسوس يزحف خارجا من فتحة صغيرة، كنت أشعر بالحزن والوجع والخوف من ذل السؤال وقد فسد المخزون، لكننى أيضا خلعت طاقيتى ورفعت رأسى للسماء أطلب عدلها ومن الله رحمته فاستجابت السماء وجاءت الإشارة فى نفس الليلة بأنه مات وأنه لم ينفع معه طب ولا دواء ولا مد الدم المسلوب فى عمره يوما.

بانت لى الأمارة وتحقق الرجاء ففرحت بينى وبين نفسى ونسيت همى وقلت للسوس اشبع بقمح «الزالوع» فسوف يأتينى رزقى ولن أجوع، وليلتها رأيت فى المنام سيد أفندى المغدور ينهض من رقدته على الأرض، رأيت الدم الممزوج بالأرض يتطهر من كل الشوائب ويرجع إلى مكانه، وبيده شد على يدى مرحبا ثم ناولنى حقيبة خفيفة كما كان يفعل، وإلى

جوازه سرت فى المنعطفات حتى دخلنا دار صالح الذى أخذه فى حضنه وكأنما استعاده من قبضة الموت، فهل كان صالح هو الذى استعاده بالفعل، لا أدرى، لكننى عندما صحوت من نومى كنت أشعر بالراحة وكأننى بالفعل استعدت للحياة سيد أفندى المغدور.

* * *

حكم العساكر كفرنا بعد موت العمدة يوسف ابن مرسى، كان الصول عرفان ينام ويقوم ويجلس فى النقطة الثابتة والعساكر والخفراء والمخبرون وبرابرة الهجانة يتوجهون إليه ومنه يأخذون الأوامر، ورغم السعى وكثرة الأسئلة لم تتوصل الحكومة إلى بداية الخيط فى مسألة موت العمدة يوسف أو موت الزناتى فى المستشفى الأميرى، كانت الناس فى الكفر ساكتة على غير عادتها، ربما بسبب وجود العساكر الغرباء والصول الداهية لم يعد ناس الكفر يثرثرون، حتى الأطفال كانوا لا يتكلمون مع أى غريب، كأنهم اتفقوا فيما بينهم على الكتمان، وأنا كنت فى السابق أظن أن ناس الكفر مجرد فئران داخل مصيدة مفتاح بابها فى جيب المأمور أو من يتبع المأمور، لكن ما جرى اكد لى أن فكرتى كانت غلطا فى غلط، وعندما طال وجود العساكر والصول عرفان والمخبرين فى كفرنا رتب الناس حياتهم بشكل جديد، طلباتهم يدبرونها قبل غروب الشمس من الكفر أو من البندر إنما قبل غروب الشمس وبداية منع التجوال، كأنهم كانوا بذلك يريحون الصول من طلباتهم بأن يسمح لهم بقضاء الحاجات أو الحركة فى دروب الكفر ليلا بإشراف العساكر، أو كانوا يريحون أنفسهم، وهؤلاء الذين اعتادوا السهر فى المقاهى كانوا يسهرون فى البيوت، كل ليلة فى بيت، يتجمعون حول «راكية» النار ويدخنون المعسل السادة أو المغموس بالحشيش، والغريب أن بعض العساكر والمخبرين كانوا يأتون ويشاركونهم السهر، يتحدثون عن الجنازة الحارة والميت الكلب أو الذئب أو الحنش الذى تسبب فى اغترابهم وابتعادهم عن بيوتهم وعيالهم والذى حرمهم من الرقاد المرتاح، يقولون مثل هذا الكلام فى محاولات متكررة لفتح سيرة يوسف أو معرفة أسماء أعداء يوسف من أهالى الكفر، لكن الناس كانت

تتبادل النظرات ولا ترد، كانت دائرة المراقبة تضيق وتضيق حول الناس لكنهم لم يكشفوا سرًا أو يبح أى واحد منهم بشىء ولو كان مجرد ظنون أو شبهات يفكرون فيها، كأنهم آمنوا أن الحكومة حكومة وأن الأهالى أهالى وأن من وظائف الحكومة حماية الأمن والنظام ومعرفة أسباب الجرائم وأسماء من ارتكبوها، كأنه كان الناس فى كفرنا يعيشون فى واد والحكومة فى واد آخر، وصحيح أن الكثيرين كانوا يعرفون أو على الأقل يظنون لكنهم سكتوا، ورغم الكلام عن العدل وضرورة أن يبوح من يعرف بما يعرف ليتحقق فى الدنيا عدل الحكومة وحتى لا تسود فى دروب الكفر فوضى لا نهاية لها، وكلام كثير مثل هذا قاله الخفراء والعساكر والمخبرون لكن الناس ظلّت على حالها ساكتة، ربما كانوا يقولون لأنفسهم مثلما كنت أقول لنفسى.. وأين كانت الحكومة وعساكرها أيام مقتل سيد أفندى؟ واين كان رجالها ومخبروها عندما تمت تصفية دمه؟ أم أن الأمر من أوله لآخره مجرد غابة يتحكم فيها ويحكمها من يقدرون ضد من لا يقدرون؟ كانت المسألة بحساباتى وربما بحسابات الناس هى تحقيق العدل الربَّانى فى الوقت المناسب لأنه من قتل يقتل، ولأن الله مالك الملك يمهل ولا يهمل، عدله سبحانه أعدل من عدل كل حكومات الدنيا، لكن حكومتنا كانت عن هذه الحقيقة البسيطة غفلانة أو جاهلة، والوحيد الوحيد الذى استفاد من وجوده كل هذا الوقت فى النقطة الثابتة كان الصول عرفان، لعله كان يطلب من الله أن تظل هذه القضية منظورة ووجوده ممدوداً إلى أجل غير مسمى.

كان الأكابر من أولاد شلبى يذهبون إلى مكتب المأمور ومكاتب الإدارة لمتابعة آخر الأخبار، وشاعت إشاعات عن إكراميات قدمها البعض منهم لأتباع المأمور أو للمأمور نفسه لكى يرضى عنه ويزكيه لمنصب العمدة الخالى، وقال البعض إن المأمور لم يمانع فى إعطاء الوعود لأكثر من واحد منهم، ولابد أنهم تأخروا كثيرا قبل أن يكتشفوا الخدعة، فالمأمور نفسه صدر قرار بنقله إلى البدارى وهى مركز فى الصعيد الجوَّانى لا يذهب إليه غير المغضوب عليهم من رجال الإدارة، ضاعت الهدايا والإكراميات على الساعين فتمنينا أن تعود عمادة الكفر إلى أولاد عوف مرة آخر، لكن

الصول عرفان كان هناك لا يزال فى النقطة الثابتة يفتى ويتكلم عن استحالة عودة نظام العمادة إلى كفر مشاغب مثل كفرنا كل يوم يسقط منه قتيل وناسه مثل العميان الطرشان أو المخروسين الساكتين، يقول ويضحك ثم يمد قدميه ويخلع مداسه الثقيل فتفوح من قدميه تلك الرائحة النتنة التى تزكم الأنوف وتجبرنا على الالتفات إلى ناحية أخرى قبل أن نتباعد عن نقطته الثابتة أو نفكر فى مجالسته وقد دعانا للجلوس.

سلمان ودواره

سلمان ابن بنت هارون أعطاني عمري وأعطيته عمره وسبحان مسبب الأسباب، فقد كان كلانا منذورًا للموت أو هكذا قالوا، قالت أمي لنساء الكفر وقال أبي لرجاله وقال الناس للناس، سلمان تربى في حضني وتربيت أنا في حضنه وكان الناس يقولون لنا دائما.. أنتما أخوان شقيقان، ولابد أننا كنّا في ذلك الزمان البعيد مثل توأمين لا نتباعد عن بعضنا أبدا، كنت أحسبه شقيقي ابن أبي وأمي حتى تكشفت لي في طفولتي بعض الإمارات وبانت لي ونه بعض معاني الحكايات، لكنه لم يكن لمثل هذه الأمارات أو الحكايات في ذلك الوقت أي أثر محسوس، كان سلمان بحسب ما قالوا ابن بنت هارون التي ماتت بعد ولادته بساعات، وكانت أمي في نفس الليلة تلدني، ولقد ولدت أمي من قبلي تسعة عشر بطنًا خائبة بحسب ما كانت تقول، تلد وتدفن، تلد وتدفن بعد ساعات أو أيام وفي أحسن الحالات بعد ثلاثة أسابيع، وفي حالتي اختلف الأمر، حملوا إليها سلمان فأرضعته من لبن «المسمسار» مثلما أرضعتني، نيمتني إلى جواره فحماني من غضب الجن الساكن تحت الأرض.

كان أبي أيامها يطبّل لهارون ونسل هارون، وكان يقول إن خبز دارنا من خيرهم وأن إدامهم يملأ بطوننا مقابل رعاية سلمان الذى بقى معنا، كان أبي يتباهى بوجود سلمان في دارنا وكانت أمي هي الأخرى ترعانا بالعدل دون أن تميز أحدنا عن الآخر:

- والنبي يا ختي كنت أمد إيدي والدنيا مدغششة وارضع العيِّل منهم لحد ما يشبع أرجعه مطرحه وأخد التاني ما عرف أنهو منهم ابني وأنهو إبن بنت هارون، وربنا شاهد على كلامي.

كانت أمي وبقيت تملك ثديين مدرارين، أرضعت من قبلنا كل أطفال

الناس فى كفرنا أو على الأقل أكثرهم، ومن هذه الناحية فأنا شقيق للكل مثلما أنا شقيق سلمان، وكانت أمى النحيلة تؤكد للكل أن الجن الساكن سابع أرض يركبها وأنه يتجلى لها فى الظلام ويحذرها من أى تفرقة فى رعاية سلمان ورعايتى، كانوا يهددونها فتعدهم بالعدل الكامل، وكانت تنفذ وعدها بحذر ودقة، فمن نفس اللبن كنا نتغذى وعلى نفس الفراش كنا ننام، وبنفس الغذاء فطمتنا مثلما كانت تنظف جسدينا فى نفس الوقت، كانت تخشى، إن هى فرقت بيننا فى أى شىء من غضب الجن الساكن سابع أرض، ولها معهم تجارب مؤكدة، هو جن غضَّاب لا يرحم، فبضربة كف كان ينهى عمر كل مواليدها قبلى، كان يضرب المولود فى كل مرة ويترك آثار الكفوف ظاهرة لها وواضحة على أجزاء متفرقة من أجسام المواليد الذين فقدتهم قبل مولدى.

ظل سلمان فى دارنا حبلاً سريًا إلى دار هارون وبسببه كان خير دارهم يصل إلينا، فالزائر منهم يأتى بجلبابين أو بقميصين ولباسين، والمانح فى الأعياد يعطينى مثل سلمان القرش الأبيض فتفرح أمى أو أم سلمان أيضا التى هى أمى وأمه بخالص السماح والرضا والقدرة على التربية حتى كبرنا وصرنا نذهب معا إلى الكتّاب كل صباح ونحاول وسط العيال أن نحفظ دون أن نفهم معنى الآيات.

سأحدثكم عن يتم الفقراء، الفقراء يتامى يا ناس حتى فى وجود الأب والأم، كنت صغيرا عندما أخذوا سلمان إلى دار خاله عزت شلبى، عزت شلبى ابن هارون جاء فى المساء وجلس فى صحن دارنا، كانت أمى تبكى وكان أبى ينظر ناحيتى ولا يتكلم، لكن عزت كان يحتضن سلمان وحده ويبعدنى، وعندما قام حمله وحده وأزاحنى عن سكته،أمر أمى بأن تسكت وأن تسكتنى أيضا وأنا أصرخ وأطلب منه إعادة أخى سلمان، وأمسك بى أبى، حاول إسكاتى بالكلام فلم أسكت فحط كفه على فمى وحملنى وأنا أرفس الهواء وجلباب أبى وبطنه وعزت شلبى يخرج من دارنا ويخلو مكان سلمان فيصبح الفراش بارداً وأشعر بضياع نصفى، وفى الصباح أهرب وأذهب إلى دار عزت شلبى، أبحث عن سلمان ويسعى ناحيتى، نهرب معا

إلى خلاء الغيطان حتى يعثروا علينا، ومن جديد يأخذونه بعيدا عني ويأخذونني بعيدا عنه، ولابد أنني كنت في الرابعة أو الخامسة من عمري في تلك الأيام ولابد أنني لم أكن على استعداد لتصديق تلك الأكاذيب التي كرروها على مسامعي قائلين إن سلمان ليس أخي وأنه ابن بنت هارون التي ماتت بعد مولده وأن أمي أخذته لترضعه مثلما أرضعت العشرات قبله وبأجر، لم أكن أصدق الكلام المسبوق بكلام عكسه حول أننا أخوان شقيقان، سلمان نفسه كان يهرب من دار خاله ويأتي إلى دارنا. يلعب معي ويوسّخ ملابسه التي كانت تختلف عن ملابسي، وكانوا يأتون ويأخذونه بغضب وفي بعض المرات كانوا يوبّخون أمي أو أبي لأن ابنهم سوف يفسد الولد ابن الناس ويحرضه على الهروب من دار العز التي يملكها خاله عزت إلى دارنا الخربه، كانت أمي تبكي وأبي يسكت ونادرا ما كان يرد، لكنني وجدت الحل في الذهاب إلى سلمان، ألعب معه دون صوت واكتم أنفاسي، وساعة العشاء يضعون لي شيئا من طعام على سطح لقمة جافة فآكلها لأسد جوعي من كثرة اللعب والغياب عن دارنا، كنت أبقى هناك حتى يصرفونني بخشونة أو بسخرية غليظة فأنصرف، كان سلمان في دمي وكنت في دمه، وكنت كلما حصلت على شيء يقبل القسمة أرمح إليه وأقتسمه معه، برتقالة أو حفنة بلح تمر أو حتى «شرش» جزر، وكان هو من ناحيته يفعل نفس الشيء أو يحاول ولا يتمكن فيحدثني في اللقاء التالي عن عنقود العنب الذي حصل عليه ولم يستطع أن يشركني في حيّاته أو حفنة الزبيب البناتي التي احتفظ لي بنصيب منها، كان بيت عزت شلبي مثل الجدار الذي يسد حارتنا ويمنع وصول الشمس إلى واجهتها، ولابد أنني سئمت من كثرة المحاولات الفاشلة في عبوره بعد الصعود فوقه وركوبه كما أركب الحمار، ذلك أن النزول من فوقه كان يعني بحسب ما سمعت من الكبار «كسر رقبتي على صدري»، ولست أعرف كيف كنت أفكر هكذا وأنظر إلى الجدار ودار عزت شلبي بنفس الطريقة، لكنني قلّلت من الذهاب إلى هناك، وإذا ذهبت تحدثت إلى سلمان أو استمعت إلى حديثه قبل أن أتسحّب خارجا من الدار دون أن يهتم بدخولي أو خروجي أحد، كنت أشعر

بالمهانة وأنا وحدى، وكنت أبكى أحيانا عندما ينشغل سلمان عنى بأكل شىء دون أن يعطينى خلافا لما كان يحدث فى السابق، لكنها كانت أوامر الكبار التى بدأ ينفذها لينول رضاهم، كان سلمان يتبدل فى دار خاله، وكنت أنا أتبدل فى دروب الكفر ودور الخلق ومشاوير المدافن فى صباحات كل خميس للحصول على رحمة الأموات الجدد من الفواكه أو القرص والقراقيش، كنت أتبدل فى الغيطان الممتدة والتى تهب البنى آدم خيرها دون سخرية أو تأنيب أو طرد، وكنت أستطيع أن أدبر حالى من طلوع الشمس وحتى إلى ما بعد غروبها بساعات، آكل وأشرب ونادرًا ما كنت أجوع، لكن سلمان كان يتبدل بطريقة أخرى، لبس الجزمة والشراب مع القميص الإفرنجي والبنطلون القصير وحمل مخلاة الكتب والكراريس وصار من تلاميذ المدرسة فى البندر، أقابله بكل الشوق فيرد على بأدب، أدب أولاد الناس الذى يغيظ، أدب لا ينكر الحب لكنه لا يظهره، أدب الأفندية الغرباء وهم يأخذون الأنفار لخدمة الباشا والبك باللقمة التى تسمم البدن، على هذا النحو كان يتحدث أرى عنهم، عن الأفندية الغرباء وعن الأفندية الجدد من أولاد شلبى، وكنت أفهم مقاصده، ولابد أننى كنت فى السابعة أو الثامنة عندما كان أبى يحدثنى عن كل ما يخفيه فى عقله من أسرار، يستشيرنى فى كيفية الخروج من ورطة أو مشكلة وأرد عليه فيهز رأسه استحسانا فى بعض المرات أو يعترض بشدة فى مرات أخرى، ولم يكن يكتفى بالاعتراض، بل كان يوبخنى على عدم الفهم أو التفكير بشكل أهبل، كنت شريكه وكان شريكى نتبادل الكلام الفارغ والكلام المهم ونشعر بالونس عندما تخلو لنا دروب الكفر أو براح الغيطان.

كان حديثنا معا هو الذى هدانى إلى حقيقة يتم الفقراء، فسلمان ابن بنت هارون الذى كانت أمى تتباهى بأنها قامت بتربيته إلى أن زال همه هو سلمان الذى كانت تتسمى باسمه فى بعض الأحيان فيناديها البعض بأم سلمان وتجاوبهم بفرح، سلمان الذى قاسمنى فيها هو نفسه سلمان الذى أخذه عزت وعلّم قلبه النسيان إلى حد إنكارى فى بعض الحالات، وعندما كنت أسأل أبى عن الأسباب كان يجاوبنى بنفس الكلمات التى حفظتها عن

ظهر قلب:

- ما هو كده ياحسنين يا بنى، لا العين بتعلا عن الحاجب ولا الميه بتطلع العالى.
- ليه؟
- أهو كده وخلاص، وماعرفش ليه.

وكنت أشعر أنه يعرف ويدارى، يتأكد لى عجزه وهو الواعى بأحوال الناس وأغراض الناس وأصول الناس، كنت أقول لنفسى إنه يتيم وإن أمى يتيمة وإننى يتيم، يجمعنا كلنا يتم الفقراء، فلا خدمة الأكابر ولا التضحية من أجلهم تحمينا من غضبهم ساعة الغضب، ولا رضاهم عنا فى بعض الأوقات يشفع لنا عندهم أو يجعلهم لنا سندًا أو ظهرًا يحمينا من الضرب على البطون والأقفية والأصداغ، ومهما دارت الأيام فلن أنس ما فعله عزت فينا يوم جاء الخفيران يطلبان مقابلة أبى لمقابلة حضرة العمدة مرسى، كنت فى صحبته ورأيته وهو يقف مطرقا والحاج مرسى يوبخه ويهينه دون أن يرد، وكان عزت هناك جالسًا على الدكة والى جواره سلمان، وعرفت أن فى الأمر بطة مأخوذة من سرب البط السارح فى الترعة ويدعى عزت أنها تخصه. كنا بالفعل قد تعشينا فى الليلة السابقة بلحم بطة، ولم تكن هى المرة الوحيدة التى نتعشى فيها بلحم بطة، لكنها كانت المرة الأولى والتى يتهمون فيها أبى بسرقة البط، البط بط ربنا، والترعة ترعة ربنا والسمك سمك ربنا، وزرع الغيطان زرع غيطان ربنا، لكن الدنيا فى ذلك النهار بدت وكأنما انقلب ميزانها، قام عزت واتجه ناحية أبى وبكفه الغليظ ضربه فوق صدغه، مال عود أبى فعدله عزت بكف أخر وأنا أصرخ، وأمى التى طلعت من تحت الأرض تصرخ وعزّت يركله فى بطنه وأبى يتلوى:

- ح أطفحها لك دم يا ابن الكلب يا حرامى.

ولولا تدخل العمدة مرسى ما كف عزت عن ضرب أبى، ولولا شفاعات الناس ما تنازل عزت عن تجريسه فى الكفر كله بسبب تلك البطة، كان يلهث مثل كلب مسعور ومن بين أشداقه يتناثر اللعاب وأبى مسنود

على الجدار مثل خيال مآته لا يرد ولا ينطق بالدفاع أو الاعتراض، مستسلم تمامًا وجاهز لتنفيذ الأمر، وكان الأمر فى ذلك النهار أمر عزّت شلبى:

- يتجرس.

نقل العمدة مرسى نظراته بين شيخ البلد الساكت وعزت شلبى الغضبان وأبى المحكوم معدوم الحيلة وأمى التى تعوى مثل كلبة تلد، كانت فى نظراته رغبة فى عدم التنفيذ وعلى لسانه موافقة:

- يتجرس... بس ازاى؟
- زى كل الناس... لجل ما يتربى ويتأدب.
- أيوه أيوه... بس مين اللى ح يجرسه ياسى عزت... حقاشى يجرس المدندش روحه... انت ناسى إن هو اللى بيتصسب الجرسة؟

قالها وضحك فأضحك كل من كان حاضرًا فى المكان إلا عزت الذى كان غضبانًا يتقافز إلى أعلى ويشب على أظافر أصابع قدميه وكأنه من الممكن أن يزداد طولاً، لكنهم ضحكوا وأجبروه على الضحك غصبًا عنه، وكأنه يسايرهم بالضحك حتى لا يقال إنهم ضحكوا عليه، لكنه تحكم فى نفسه فجأة واقترب من أبى، لطشه بظهر كف يده اليمنى على صدره فسمعت صوت الصدر وهو يئن أنه وحيدة وعزت يحذره:

- على الحرام المرة الجاية لتجرس روحك بروحك يا مدندش، تزف نفسك وتلم عليك عيال البلد ويقولوا حرامى البطة وراك.
- خلاص بقى يا سى عزت وهو ح يستجرى يمد إيده على ريشة من ريش بطك بعد كده؟

قالها شيخ البلد ليطيب خاطر عزت وضرب أبى كفا على قفاه وهو يأمره بينما يدفعه دفعا للابتعاد عن المكان:

- غور من هنا الساعادى جاتك الغم وأنت عامل زى قحف النخل مالكش فايده كده.

وكأنما منحه كف القفا حرية الابتعاد عن المكان فرمح وأنا أرمح

خلفه وأمى ترمح خلفنا وتناديه ولا يرد.. وعندما دخل الدار مفتوحة الباب انزوى فى الركن البعيد عند باب بيت الأدب وكنا نسمع شهقاته وهو يبكى ولا نجرؤ على الاقتراب، وأنا فكرت فى الكيفية التى يستطيع بها أى واحد فى الدنيا أن يقوم بتجريس نفسه بنفسه، كيف يطبل ويحدى للعيال والناس وهو راكب حمار الجرسة بالمقلوب وعلى وجهه عجين الدقيق أو الجير وهباب الفرن، ينزل ويطبل فيلم الناس ثم يعاود الركوب ويحدى عمن سرق البطة من عزت شلبى هل كان من الممكن أن يحدث هذا الأمر لنا أو أن الموضوع من أوله لآخره لعبة من ألعاب الكبار لتسويد معيشة الصغار اكثر مما هى سوداء، عزت والعمدة وشيخ البلد والأكابر يرمون بلاويهم على الغلبان الحاوى من أجل بطة، مجرد بطة تائهة من سرب بط سارح على شط ترعة ملك الحكومة، فيها يعيش ويتغذى ويرجع إلى دار صاحبه، وإذا تاهت بطة فمن أدرانا بمن هو صاحبها، وهل يكتب البط اسم صاحبه على لحمه؟، وماذا لو أكل اليتامى فقراء الكفر بطة فى ليلة موسم مبارك حتى ولو كانت من بط الأغنياء؟ بينى وبينكم أنا أيامها كرهت نفسى وكرهت عزت والعمدة وكرهت أبى وأمى وشيخ البلد وكرهت الأكابر الساكتين وكرهت البط، لحم البط وشكل البط وأسم البط، ذلك أن أبى تكوَّر حول نفسه منذ ذلك اليوم وظلَّ متكورا ملموما على روحه، ساكتا ورافضا تقريبا للأكل والشرب رغم كل المحاولات، ولم ينفرد عوده إلا على درابه الغسل يوم أن مات بهمِّه وغمِّه وحسرة قلبه وخيبة أمله فى أكابر الكفر ذوى القلوب القاسية، مات حسنين المدندش وحملت من بعده هم الاستمرار فى الحياة وأنا أكثر يتما، أدفنه وأنا اليتيم وهو اليتيم وأمى وكل فقراء الكفر اليتامى.. الفقراء يتامى يا ناس.. الفقراء يتامى حتى لو كانت لهم أمهات مثل أمى وآباء مثل أبى.

* * *

سلمان ابن المدارس دخل الجيش، لبس الميرى والفاروقية وزغردت النسوان، رأيته بالكاكى وملابس الحربية، ورأيته وقد وضع على الكتفين نجمتين ذهبيتين وعلى الكاب تاج الملك، هنأته بأدب فهز رأسه بأدب، كان

عزت يتباهى به فى كل وقت وكل مكان، يتبغدد ويتفاخر بأنه أول من ربىَّ وأول من علَّم وأول من وسط الأكابر لقبوله فى المدرسة الحربية التى لا يدخلها إلا أولاد أكابر، كان سلمان مثل الشهاب الطالع وكان أسمه مثل السهم النافذ تنطق الألسنة به وتكيد الأعداء.

كانت صورة سلمان بالكاكى تتبدّل فى كل فترة زمنية، ومنها تعرف رتبته الجديدة، وعزت يحوط الصورة ببرواز مذهب يليق بضابط فى حرس الحدود، كان يتبغدد على الكل ويكايد العمدة مرسى الذى لم يستطع إدخال أحد أولاده مدرسة الحربية رغم السعى والاستعداد للتضحية بأى شىء، لكنه لم يكن يأتى إلى الكفر أو يذهب إليه أى واحد من ناس الكفر إلا خاله عزت، وعندما يسألونه عن سر غيابه يجاوبهم بنفس العبارات:

- هو فاضى لكم يا جاموس أبيض؟ دا غرقان لشوشته فـى شـغله ومصالحه هناك.
- إحنا كان غرضنا نطمن عليه.
- اطمنوا.. سلمان ابن أختى مستقام، بقـى بيـه رسـمى ورتبتـه بكباشى..
- حاجة تشرفنا برضه.
- معلوم.. هو حد كان يصدق إن كفركم الفقرى يطّلع واحد بيـه زى ابن أختى سلمان؟

كانوا يهزون أكتافهم وقد نفضوا أياديهم من أمره، لم يعد يخصهم ولا كان على ذمة كفرهم مادام قد طلع وترَقى وامتنع عن المجىء بإرادته التى توافقت مع إرادة خاله الحريص على قرشه حرص اليهودى والذى يقبل الربا من المحتاج إذا طاوله بأى مبلغ ولأى مدة حتى ولو كانت مجرد أيام يسد بعدها الدين والفائدة بحسب ما يحددها عزت شلبى ويأخذ كل الضمانات التى يطلبها.

سامحونى يا ناس كفرنا «الوردى» إن تجاوزت فى بعض الأوقات حدّى، طوال العمر الذى فات أعرف حدودى وألزمها لا أخطيها أو أعبرها

مهما كانت الأسباب، لكننى وقد كبرت وشاهدت الناس والأشياء تتبدل من حولى فيحق لى أن أبوح لكم بما يخفيه صدرى، أفكر معكم وان اعترضتم على أفكارى فاسألونى عن الأسباب، كل شىء يتبَدل فلماذا ترغبون فى أن أبقى فى نفس مكانى ولا أحاول. أنا حسنين ابن حسنين ولتاسع حسنين المدندش، الدندشة كما قال جدى لابى مرة تعنى الفرح والبهجة وعلى أى مدندش فى هذه الدنيا أن يقوم بوظيفته الأصلية، الدندشة، ولا مانع من إضافة بعض الأعمال الأخرى مثل توليد البهائم أو حلاقة شعر الحمير أو الندب على الأموات أو زفة العرسان أو تجريس من آمر الأكابر بتجريسهم، نحن اتفقنا على كل شىء يا ناس، وأنا لم أعترض، وشجرة الدندشة ممدودة ونحيلة نحيلة وقد طالت رغم نحول عودها وانحنت عندى، وأنا فرعها الأخير أخشى أن تنكسر وقد طالت وطالت رغم النحول، هى على كل حال أطول من شجرة كازورين وتستحق أن تعيش، ولابد أنهم فى المقبرة على حق، من أول حسنين حتى حسنين الثامن الذى هو أبى، يأتون ويسهرون حولى ويطالبوننى بالامتداد، ويقصدون الخلفة، ومقصدهم يا ناس كفرنا أن تتولوا أنتم تزويجى، زوّجونى واياكم والاعتراض على الفكرة، أعرف أننى كبرت وأن فمى يخلو من الأسنان والضروس، وأعرف أننى أتوكأ الآن على العصا من فرط ضعفى، لكننى أحمل فى صلبى بذرة الحسنين العاشر، ولى دار يمكن إصلاحها وترميم جدرانها، وكل ما هو مطلوب أن تبحثوا لى عن عروس تصاحبنى بقية ما تبقى لى من أيام فلعلى أمنحها بذرة الحسنين ولعلكم تحصلون على المدندش العاشر، وأنا يا ناس فى صفكم، مشغول بكم وبمستقبل ناس كفركم فلو فقدتم بموتى أخر البهاليل، فسوف تكون نكبة، كفر بلا بهلول ولا أمل فى ولادة بهلول من صلب بهلول، لن أطلب مساعدة الأكابر، أكابر هذا الزمن «الزهرى» لا يساعدون الفقراء اليتامى، ربما لأنهم اكثر من الفقراء فقراً رغم الثراء والامتلاك، نفوسهم فقيرة إلى حدّ يثير الشفقة، وسوف ألجأ إلى البسطاء منكم وأولاد الكرام ليدبروا حالى، عيبى الأصلى أننى كنت ف بعض الأوقات أمشى فى ركاب السادة ومشاريع السادة، يطعموننى مرة فأصير من الأتباع

وفيًا اكثر من كلب وطيّعًا اكثر من حمار ورعديد اكثر من أرنب، ولابد أننى ساعدتهم على اختطافى من نفسى، ولابد أننى غفَلت عن روحى مرة فغبت عن الوجود الحقيقى رغم الوجود بينكم، كأننى يا ناس أغمضت عينى مرة فتراءت لى بعض الصور وأضغاث الأحلام ثم صحوت لأكتشف أنه قد فات نصف قرن من زمانى وانضاف إلى عمرى أيام كنت بينكم ولحسابكم شابا طالعا فرحانا بروحه وبالحياة، كنت أيامها أحلم بإضافة فرع جديد إلى شجرة البهاليل أولاد البهاليل، هل غيّبنى الزمن الشلبى كل هذا الوقت على عكس إرادتى؟ أو أننى صدقتهم واشتغلت لحسابهم، وهل تنطلى عليكم تلك الكذبة المكررة التى يدافع بها الناس عن أنفسهم عندما يقولون إنه حدث غصبا عنهم أو إنهم فقدوا إرادتهم أو أصابهم سحر؟ حتى لو صدقتم أنتم فلن اصدق نفسى لأنه لم يكن سرابًا فى سراب ذلك الذى عشته، وشريط صندوق الدنيا لم يتبدل إلا بفعل فاعل أو مجموعة فاعلين، لقد تبدلت الرسوم وتبدل الأبطال، لبس الأنذال ثياب المالكين الحاكمين المتحكمين، وخلعت الحريم فى بيوتهن العالية براقع الزمن الماضى ولبسن براقع من نوع جديد، كأننى درت على كعبى واستدرت فوجدت بدل عنترة والزناتى خليفة وأبى زيد الهلالى ناسا أخرين، أنصاف أبطال وأنصاف رجال ومن ورائهم عشرات الطبَّالين الزمّارين المداحين، ومثلما تختفى الحقائق توارى الرجال وراء الجدران أو انسحبوا واندفنوا تحت الأرض ليفسحوا الطريق لكى ترتفع النجوم الكاذبة،التى تبرق وتنطفىء مثل فقاعات الصابون.

تعالوا نتأمل البنايات الجديدة فى كفرنا الجديد، ونطل على السيارات الغريبة والأجهزة المدهشة والرطانات غير المفهومة وسوف نكتشف أن ما أصاب كفرنا – دونا عن كل الكفور المجاورة – غريب ومحير وغير محسوب حسابه، فالبيوت المبنية بالطوب الأخضر تهدّمت بالفئوس والمعاول، تناثر رمادها وتطاير وتسلل إلى عيون البعض منا فأصابها بالرمد أو العمى أو أى وجع يصيب البصر أو البصيرة، ولأننى باعترافى أشهد أنهم سلبوا من عمرى قرابة نصف قرن فلابد أننى أعيش فى الزمن الفائت، تفزعنى تلك البنايات الخرسانية والبوابات الحديدية المزروعة على

امتداد السكة الزراعية من أول زمام كفرنا وإلى حدود البندر من ناحية وإلى زمام كفر الشرفا من الناحية الأخرى، وبدلا من عيدان القمح أو الذرة أو القطن صرت أرى أسياخ الحديد الطالعة من العواميد الخرسانية المنصوبة فوق البنايات وكأنها إعلان عن الرغبة غير المحكومة في معاودة البناء والطلوع، وأنتم بأنفسكم قلتم إن هذه البنايات تبخ الصهد في الصيف وتشوى سكانها وأنها في أيام الشتاء تجلب البرد والرطوبة وأوجاع المفاصل، فلماذا غير البعض منكم ومنهم بيوت الآباء والأجداد المبنية بالطوب الأخضر يا ناس؟

طبعا أنا لا أدافع عن دارى القديمة التى لم أهدمها أو أفكر فى هدمها لأعاود بنايتها بالطوب الأحمر، ذلك أننى لا أملك ولو امتلكت فسوف أتردد ألف مرة، وعيب دارى أنها من كثرة الهدم والردم ومعاودة البناء صارت قصيرة، كأنها امرأة عجوز محنية وقد ضمرت وانكمشت، وعيب الوصول إليها هو تلك الأتربة التى تتحول أيام المطر إلى وحل ناعم ولزج، وأنها فى الربيع والخريف تتطاير بحسب اتجاه الريح، تتطاير وتوسخ الثياب أو تؤدى إلى كل مواجع الأبصار إذا تفتحت فى مواجهتها حدقات العيون، كأنه يلزم لمن يدخل دربنا وكل دروب الكفر أن يرخى رموشه ويدارى بجفنيه وبكفيه العينين، يطل إلى مواطىء القدمين ولا يرفع البصر إلى أعلى أو ينظر إلى البعيد، عيبى أننى حاولت أن أنظر إلى البعيد، عيبى أننى فتحت عينى وحاولت أن أكتشف شعاع الشمس فى وضح النهار فدمعت عيناى واستشعرت اللهيب، نصحونى بالمراهم والقطرات وما توقفت عيناى عن التدميع، فى الحزن والفرح، فى الخوف ولحظات الجسارة تدمعان، كأنه مكتوب على أمثالى من الفقراء اليتامى أن نبكى بلا توقف ولا ينفع معنا طب ولا يشفينا دواء، تتزايد فى البدن المواجع، وجع فى القلب ووجع فى الصدر وأوجاع فى المفاصل، كأننى وأنا الفرع الهزيل المائل آخر المدندشين لولا الرغبة الكامنة فى النفس لكى امتد وأثمر، أترك فى الكفر بذرة الحسنين العاشر، وأنا يا ناس لست الشخص العليل الذى يتوكأ على العصا فقط، إننى هو ذلك الطفل الذى أشرك سلمان فى أمه، وأنا الصبى

الحافظ نصف كتاب الله والشاب الذى قرأ كتب التلامذة وطلاب الجامعات والأزهر الشريف، والرجل الذى شاهد الأزمنة وهى تتوالى وعمادة الكفر وهى تنتقل من دوار إلى دوار ومن عائلة إلى عائلة ومن فرع إلى فرع، أنا الشاهد الباقى من الزمن القديم اطالبكم بالوقوف إلى جوارى ومساعدتى على تحقيق آخر رغباتى مثلما كنت اساعدكم فى تحقيق رغباتكم فى السابق، ورغبتى مشروعه وممكنة، بنت حلوة تقبلنى على حالى وتعاشرنى على سنة الله ورسوله، ترعانى وتجفّف دموعى وتجاهد أن تنسينى حكاية الأعرابية التى خدعتنى وخدعتنى وخيبت رجائى وعطّلتنى فلا هى وفت بالعهد وجاءتنى ولا هى تركتنى لأدبر أحوالى بدونها، بنت حلوة من كفرنا المعشوق تحوطنى بأنفاس الأنثى وتدثّرنى بشالها وتطعمنى من صحون دلالها وتعوّضنى عن كل ما خسرته فى سنوات الشباب والرجولة، بنت من كفرنا المعشوق لها طباع الناعسة التى احتملت أيوب المصرى وخففت بلواه، قصّت شعرها وباعته لتداويه، حملته ولم تفرط فيه رغم المصاعب، ياه.. ياه يا ناس، كيف فاتنى أن أبحث عن الناعسة فى دروب كفركم وأنا الصبى والشاب والرجل القادر، ولماذا وأنا أيوب المصرى الذى يكابد المواجع فكرت فيها، وهل اعتدنا أن نقاوم ونقاوم ونقاوم المواجع حتى يقعدنا البلاء والعجز فنبحث عن شريكة العمر لكى نعاود القيام ونعاود الخلفة من جديد، تهبنا المرأة الصلبة الرقيقة والقوية الناعمة الرغبة فى البقاء، تهبنا بالحضور طاقة اكبر من طاقتنا ولعلها تنبهنا بوجودها إلى ضرورة أن نبقى وأن نستمر وأن نخلّف للدنيا أطفالا يحملون نفس ملامحنا ويحملون أسماءنا وأحلامنا ويكملون أدوارنا إذا رحلنا، أعرف أن نساء كفرنا «المعشوق» أرق من رجاله، وأعرف أنه من غير المستحيل أن ترضى باحتمالى واحدة منهن، واحدة مثل الناعسة تجدّد عمر الأيوب المصرى وترحم البهلول الفانى من أجل البهلول الآتى، أيها البسطاء من أهالى كفر عسكر، ساعدونى ورتبوا ليلة دخولى للدنيا أو خروجى منها.

* * *

يوم خروج الملك من مصر فرحنا بالأخبار وهتفنا للثوار، سمعنا عن

محمد نجيب وعبد الناصر والبغدادى والسادات، انطفأت فى البندر أنوار قصر الباشا وما عادات سيرته على كل لسان، انفتحت طاقات الأحلام والتهبت الحناجر بسخونة الحماس، وتحدث من لا يملكون فى زمام الأرض قيراطًا عن أملاك الباشا، تهامسوا عن تقسيمها وتوزيعها على المعدمين فشعر أمثالى من اليتامى أنهم أولاد البلد ولهم فيها نصيب، رفعنا الرءوس بحسب ما أوصانا عبد الناصر وقد أخرج عساكر الإنجليز، لكنهم عادوا وحاربونا بعد تأميم القناة، وقال البعض للبعض إننا بسلاحهم انتصرنا عليهم، وقال البعض الآخر إنهم هزمونا فلم نصدقهم، صدقنا أم كلثوم وهى تغنى لبورسعيد، وصدقنا عبد الناصر وتبدلت أحوال الناس، تجاسر الفقراء وعلّموا أولادهم فى المدارس بالمجان وزاد فى القلب الرجاء، وكنت أنا البهلول الحاوى أزف للناس الأخبار، أسمعها فى البندر ولا أداريها فى سهرات البسطاء أو مجالس الأكابر، كنت أقول ولا أدرى أننا نتساوى عند الله مثلما تتساوى أسنان المشط، وأننا كلنا لآدم وآدم فى تراب، لكن الزمن الشلبى كان هناك، ساكنًا تحت رماد الكفر ومسنودًا على كسل أولاد عوف الذين اكتفوا بالحديث عن عمادة الكفر التى راحت منهم ظلمًا وعدوانا بسبب البكباشى زميل الأحرار، من دهشتنا كنا نذهب إلى عزت ونسأله عن الأحوال، وكان يجاوبنا وكأن سلمان واحد من الأحرار فنخرج من داره وقد زادت دهشتنا حتى كان ما كان عندما انكسرت وخابت كل الرجاءات، فر العساكر والضباط وفاتوا سلاحهم لإسرائيل وتوافدت على الكفر جثث القتلى ملفوفة بعلم الثورة، دفناهم وسط البكاء والعويل والندب والتعديد، ولكنه كان هناك من لم يعد ويحسبونه من الأموات، وبين الرجاء وفقدان الرجاء عاشت الأمهات تنتظر الأخبار عن الغائبين، أيامها عرفت سيد أفندى وعرفت منه الكثير من الأسرار، وأيامها أيضا رجع سلمان ولبس الجلابيب والعباءات والطواقى وخلع ثياب الضباط وكانوا ينادونه ويتحدثون عنه بالاسم الجديد، حضرة العقيد، حضرة العقيد استقال من الجيش، حضرة العقيد باع، حضرة العقيد اشترى، حضرة العقيد رمى أساس الدوار، حضرة العقيد قابل المأمور ومساعد المأمور وبواسطته تولى يوسف عمادة الكفر

مكان الحاج مرسى، وكنت ألتقى به فأتحدث إليه ولا أجده كما كان فى سابق الأيام، كانت قد نزلت بينى وبينه ستارة تداريه عنى وتحجب الأسرار، ربما كان ثقيلا على لسانى أن أسبق اسمه بحضرة العقيد فى كل مرة، وربما كان هو نفسه قد كبرت نفسه وصار ينظر إلى باستهانة وعدم تقدير، وكان يحق له أن يفعل كل هذا واكثر مالم يكن بيننا عيش وملح وعشرة عمر، تباعدت عنه كما تباعد عنى وما عدت أسأل عن أحواله أو أسعى إلى حيث يمكننى أن ألقاه.

سمعت أن سلمان بنى دواره فى آخر زمام الكفر من ناحية البندر، كان الدوار يا سبحان الله بناية تفوق كل البنايات التى رأيتها فى كل عمرى، بوابات من حديد ونحاس مطلى، له سور طويل وعريض حول مساحة لا تقل عن خمسة فدادين وفى الوسط بناية عالية بأبراج وقباب جنب شبابيك وكلها مسكوكة، وسكة عريضة توصل ما بين السكة الزراعية وبوابة الدوار المفتوحة دائما والمحروسة بالرجال ذوى البشرات السوداء وكأنه أخذهم وهو خارج من سلاح الحدود، ناس لهم لهجات برابرة الهجانة الذين كانوا يأتون ويسكنون الكفر فى أعقاب كل عراك بين الشلبى والعوف يسقط فيه القتلى من الطرفين أو أحدهما، كان ما بين سلمان وناس كفرنا قد تناقص واختفى أثره، وكنت فى المرّات القليلة التى قابلته فيها وجها لوجه قد شعرت أن مابيننا قد تحول إلى سور صلب فى طول وعرض سور دوّاره.

وفى المرة الوحيدة التى نظرت فيها فى عينيه وكأننى أسأله عن أسباب التباعد الذى جرى بيننا، فى هذه المرة فرّت نظراته بسرعة وتشاغل عنى بالنظر إلى الوراء قلت لروحى ساعتها: لا تفكّر فيه يا حسنين فلا أنت من قيمته ولا أنت من مقامه، ووبخت نفسى لأننى فى بعض الساعات أنسى أبسط حقائق الحياة إلى حد إنكار كل الفروق بين الناس بدعوى أننا أولاد آدم وحواء، لكن هذه الساعات لا تدوم على أى حال فسرعان ما أفيق من غفلتى وأعرف حدودى، بل أننى فى بعض الأحيان لا أدخل الأبواب المواربة أو أدق على الأبواب المسكوكة حتى وإن كنت أقصدها ولى فيها مصالح،

وكثيرا ما كان يحدث أن أرجع بعد مشوار طويل لأنني وجدت الباب مواربًا أو مسكوكًا، كان البعض يتندّر على أفعالي، يقولون إن المدندش يطلب الصدر المفتوح والذراعين المفرودتين ليرتمي في الحضن مسلمًا روحه وعقله لمن يحتويه أو يتبسّم في وجهه، بل أنه كثيرا ما كان يحدث أن أمتنع عن دخول درب من دروب الكفر إذا خاصمني واحد من سكانه، أمتنع بإصرار وعناد بغل استرالي ولا أخطو فيه خطوة فيكتشفون أمري أو يحاول أهل الخير أن يصالحوني على من خاصمني أو خاصمته، وعلى كل حال فأنا لم أكن لأنشغل كثيرا بمسألة إهمال سلمان لشأني وتخييبه لرجائي فيه، ذلك أن سلمان أراحني وأراح بعض من لا يحبونه وبعض من يحبونه أيضا من أهالي الكفر، لقد اختار سكنه بعيدا عن زمام الكفر، بنى دوّاره بين بين، على السكة الزراعية صحيح، إنما في منتصف المسافة بين زمام الكفر وزمام البندر، ولابد أنه كانت له أغراضه التي تخفى على أمثالي من هذا التباعد وربما بسبب وجوده خارج زمام الكفر كنت أنساه أحيانا وكأنه ما زال في سلاح الحدود، لكن عزت كان لا يكف عن تذكيرنا به وكأنه لا يوجد في هذه الدنيا شخص يستحق الذكر غير سلمان، وقد كان يبدو لي في بعض الأحيان أن عزت كرّه الناس في سلمان إلى حد كبير، لكنني لم أكن لأكرهه ولم أكن مكرها على حبه في ذات الوقت، كنت أسمع أخباره من الطرفين وتزداد حيرتي في أمره، ولم أكن أعرف لأي الفريقين أنحاز، لكنني اعتدت أن أسمع:

- سلمان باشا عنده خمس مزارع تسمين عجول بسم الله ما شاء الله، خطّى على كل الأكابر في الناحية..
- ينقطع لسانك، سلمان باشا كوّن ثروته من مزارع البط الأبيض والفراخ الحمرا يا بو قلب اسود.
- يا عم قول يا باسط، دا ساكن في الخلا لجل ما يكون بعيد عن عيون الناس، أنت ناسي الكبدة الفسدانة اللي كان بيتاجر فيها أول مارجع الكفر؟
- أبدا.. ما إحنا كلنا منها وماجرالناش حاجة أهه..

- حد عارف.. البنى آدم صندوق مقفول، يعنى حد مننا كشف؟
- على رأيك.. حد عارف.. بس ما يصحش برضه تقول إن له نصيب فى تجارة الصنف.
- يا عم مش نصيب، دا هو اللى بيجلبه لحسابه ويبيعه لحسابه.
- أتارى الحشيش رخيص..
- ألف لك سيجارة من حشيش الباشا..؟
- لف..

يقولها الواحد منهم وينفجران فى الضحك، أشعر أن الخلاف بينهما كان تمثيلية مرسومة لإبلاغى معلومات جديدة عن سلمان، كأننى كنت مازلت مسئولا عنه بحسب ما يحسبون، كنت أدارى ما أشعر به ناحيته وأغير الموضوع، وفى كفرنا وكل البلدان المجاورة يبدأ الأمر بكلام، مجرد كلام يسرى فى الهواء مع النسيم فتبتلعه الصدور ثم تعاود إخراجه وقد أضافت إليه أى شىء جديد، ولابد أنهم الأعداء الذين نبَّهونا إلى زيادة الحشيش وكل أنواع الكيف الممنوع بعد أن جاء سلمان ولكن فى دواره الجديد، هو مجرد كلام فى كلام، صعب أن يدخل العقل وإن دخل لا يثبت فيه وإن ثبت لا يثبت إلا لزمن قصير، وهل يصدق عاقل أن رجلا مثل سلمان الذى تعلم وسافر ولف ودار وخلَّف من زوجه وبنت خاله عزت، خلف خمسة صبيان وأربع بنات، هل يغامر ويضع سمعة أولاده ومستقبلهم على كف عفريت؟ أى عاقل سوف يستبعد مثل ذلك الادعاء، تجار المخدرات لهم ناس مخصوص، ناس بلا مركز أو مبدأ، إنما سلمان؟ سلمان الذى يركب العربة المخصوص وله سواق مخصوص، دواره محروس بالبرابرة الغرباء وعلاقته بالمأمور وكل رجال الإدارة ظاهرة لكل الناس فهل كنت أصدقهم وينقلب فى عقلى ميزان الدنيا؟

ماتت أمى فعزَّانى فيها كل ناس الكفر، البسطاء والفقراء والأكابر، وكنت أفكَّر فى سلمان، قلت لروحى لو جاء فسوف أسامحه وأفتح له قلبى وأنسى سنوات التباعد والتجاهل، وكان الشيخ تهامى يوشك على إنهاء آخر ربع على روح المرحومة عندما سمعت الأصوات:

- البيه المأمور ومعاه البيه العقيد سلمان..
- أتفضل يا باشا.. أتفضل.. شرفت الكفر ورفعت راسنا لفوق.. أتفضلوا يا بهوات.

أسرعت وسلمت، تلقيت عزاء المأمور أولا ثم احتضنت العقيد سلمان رغم أنه بدا لى أنه لم يكن جاهزا للاحتضان. طوّل الشيخ تهامى قراءته فى سورة البقرة ورفرف قلبى بذكريات الزمن القديم، ودعت الباشا والباشا بعد أن ختم الشيخ تهامى قراءته وطالبنا بقراءة الفاتحة على روح المرحومة. كان الباشا سلمان والبيه المأمور قد وصلا وتركا سيارتيهما فى «الوسعاية» وكان من اللائق أن أوصلهما وأشكرهما قبل أن يركب كل منهما سيارته المخصوص ويسوق به سواقه المخصوص، سلمت على البيه المأمور أولا ثم احتضنت سلمان غصبا عنى ودون قصد فهدأنى بخبطات كفه على ظهرى، وانفلت لسانى أشكو له:

- أمنا إحنا الاتنين ماتت يا سلمان باشا يا خويا.

تخلّص هو من حضنى وطالبنى بأن «أشد حيلى»، وبسرعة ركب سيارته وأشار للناس قبل أن ينطلق السائق بالسيارة، وفى طريقى إلى الدار كنت محاطا بالأوفياء من أهالى الكفر الذين امتدحوا سلمان باشا المتواضع الذى لم ينس الجميل القديم وقد كبر فى السن والمقام وأصبح رفيقا للحكام، وافقتهم ولم أحدثهم عن خجلى من نفسى لأننى فى اندفاع عواطفى ساويت نفسى به وتمسّحت فيه، صحيح أن أمى أرضعته ضمن من أرضعت من عيال الكفر قبلنا وبعدنا، لكنها كانت بالنسبة له ولهم مجرد مرضعة، لو أحصيت من أرضعتهم لأصبح لى عشرات الأخوة من كل العائلات بينما الواقع يقول إننى رجل وحيد، وحيد وبسيط وساكن فى مكانى دون أمل فى أن أتبدّل مثل كل شىء يتبدّل ويتغير فى كفرنا «اللبنى».

كانت أمى مرضعة عيال الكفر تقول عن البعض منهم «شبع من بعد جوع» وكانت تصف عزت شلبى بهذه الصفة اكثر من كل ناس الكفر، كانت تكرهه دون مواربة وكان يتشكى منها لى ولطوب الأرض، ويهددنى بأنها

مالم تكف عن تطويل لسانها كلما قابلته فإنه لن يتراجع فى أن يقطعه لها من «لغلوغه». فأضاحكه وأعده بإسكاتها عنه دون أن أفعل، كنت أتمنى أن تعاود فضحه وأنا أثق أنه لن يجرؤ رغم كل ما يدعيه أن يضرها بشىء مهما حاول، كانت أمى مرضعه عيال الكفر كله، ولم تكن تملك اكثر من ثديين نافرين ممتلئين على عود نحيل نحيل هو فى الحقيقة وبحسب ماكان انكل يقول جند على هيكل عظمى، إنما صدرها يا سبحان الله أعجوبة: وكان لها لسان مشهود له بدقة الوصف، إذا وصفت رجلا من رجال الكفر بصفة ردّدها الأهالى دون تردد، وإذا قالت عن امرأة أو بنت أى شئ صار حقيقة لا تقبل المراجعة. وربما بسبب ذلك كان الأكابر يتوددون إليها أكثر من أبى، وربما بسبب وجودها كنت أشعر بالحماية وأتجاسر على الكل، كنت أحصل على السماح دائما، ولابد أنها كانت قادرة على حمايتى وحماية نفسها بعد موت أبى، لقد انخطف أبى منى وأنا فى السن التى لا تدرك طبائع الخلق وكيفية التعامل مع الناس، وتولت لى أمرى وبدلا من مصاحبة أبى وقد انخطف أبى منى وأنا فى السن التى لا تدرك طبائع الخلق وكيفية التعامل مع الناس، وتولت لى أمرى، صاحبتها وبحت لها وباحت لى بكل ما كان يدور فى عقلها من أفكار، ومن بين تلك الأفكار فكرتها عن عزت الذى كان السبب فى موت أبى قبل الأوان ناقص العمر، كانت تكرهه وكان يكرهها، وكانت لا تدارى كراهيتها له وإن حاول هو أن يدارى، كان يعابثنى فى بعض الأحيان ويناديني:

– تعال يا حسنين يابن أم بزّين العب مع سلمان.

وكنت أطاوعه على مضض، كنت أشعر أنه يسخر منها وربما يعايرنى ولا أفهم، أدارى عنها وإن كنت أرغب فى البوح لها وأخاف أن أغضبها، لكنها عرفت الحكاية وذهبت إليه فى ظهيرة يوم السوق وردحت له ما طاب لها الردح والناس تسكتها ولا تسكت، ولما زاد ردحها وسكوته قال حضرة العمدة مرسى الذى كان يمر بالمصادفة:

– وماله يابت.. ببزين ببزين، أصله منكاد منك، مراته مالهاش...

– أنت انخبلت يا عزت؟

ضحك الناس مجاملة لحضرة جناب العمدة وصار من المألوف أن يناديني بعض الأولاد الذين يكرهونني بنفس النداء.. «يابن أم بزين».. ولم أكن أغضب منهم. كنت أضحك وأسألهم إن كانت لأمهاتهم ثديان مثل أمي فيشعرون بالخجل ولا يعاودون مكايدتي مرّة أخرى.

كان المرحوم أبي يعابثها في وجودي ويمد كلتا يديه ناحية صدرها مهددا فترمح ويرتجّ صدرها وهي تفر، وإذا طالها وأمسك بها نبهّته إلى وجودنا أنا وسلمان فيفلتها وربما يطلب منا أن نخرج ونلعب في الغيطان، كنا ننسحب أنا وسلمان في بعض الأحيان، وفي بعض الأحيان لا نفعل تنفيذا لأمرها هي، وكانت تقول لأبي في بعض المرات وهي تضحك فينور الضحك وجهها وتحمر خدودها وهي تهمس:

- الولد سلمان ده بيغير منك يا حسنين، بيغير عليا اكتر من ابنك حسنين.

وكنت أتعجب وأسأل سلمان إن كان يغار عليها بالفعل فيجاوبني بغيظ:

- يارب أبوك يموت.

الغريب الغريب أنني لم أكن أغضب من سلمان رغم حبي لأبي، لم أكن أغضب ربما لأن أبي قال لي أن الدعاء لا يجوز إلا على الظالم والمفتري، كنت أشعر باطمئنان بان دعاء سلمان لن يجوز أو يؤثر في عمر أبي الذي لم يظلم في حياته أحدًا بحسبما كان يؤكد لي لكنه مات، وفي نفس يوم موته قابلت سلمان وسألته إن كان أبي يستحق الموت فلم يرد. غضبت من سلمان من أجل أبي الذي مات بسبب دعائه وبسبب عزت شلبي خاله الذي أخذ سلمان وضرب أبي، وكنت أدعو الله لكي يميت عزت مثلما أمات أبي لكنه لم يستجب لدعائي رغم تأكيدات أمي أنه رجل ظالم ويفعل كل ما يغضب الله والناس.

* * *

هلل أولاد كفرنا لعبد الناصر وكنت أعرف الأسباب، لكنه عندما جاء السادات وتحمس له أولاد شلبي لم أفهم سر الحماس لأن الرجل كان في

بداية أيامه ما زال، لكنه تكشَّفت لى الأسباب عندما ترشَّح العقيد سلمان الخارج من الجيش بعد النكسة لأسباب يعرفها الجيش ولا تصل إلى أمثالى من فقراء الناس، رشَّحَ الباشا العقيد نفسه لمجلس الشعب، وكانت سيرته أيامها لا تسر عدوا ولا حبيبًا إلى حد أن الكل تنبأ له بنفس النتيجة:

- ساقط ساقط.. هو حد عاد بيقبله فى كل الناحية؟

كان سلمان قد تباعد عن كل ناس الكفر إلا أقل القليل من أولاد عمه الذين لهم عنده مصالح أو له عندهم مصلحة، وصارت رؤية الناس له نادرة وان كان الكلام عنه لا ينتهى أبدا وكل ما نسمعه أو نراه منه يؤكد لنا أنّه مشغول بمصلحة نفسه قبل كل شىء، وعندنا فى كفرنا مثل يقول إن من أحب نفسه كرهته الناس، فما بالكم بواحد طالع من قلب ناس الكفر وداس على الكل وعطَّل مصالح الكل وأنكر الكل وكرَّه فيه طوب الأرض؟ أول شىء عمله سلمان ولم ننتبه إليه فى البداية كان سيطرته على سوق المواشى، صحيح أن القرش فى السوق صيَّاد ماهر، وصحيح أن المسألة تحتاج إلى شطارة، لكن أن يتحول السوق كله إلى سلمان وحده فهذا هو الأمر الذى لا يرضاه العبد ولا يرضى عنه الرب، استأجر سلمان مجموعة سماسرة صغار واستأجر مجموعة من الأشرار وقطّاع الطرق الشطار وقطع الطريق بواسطتهم على كل التجار، من يطاوع يأخذ رزقه المعلوم ويتوكل على الله راجعًا من حيث أتى، ومن يعترض فإما الضرب والإهانة أو سرقة ماله بالغصب وفى وضح النهار، أشياء مثل هذه رأيناها بحدقات عيوننا، وشكايات سمعناها من الغرباء بآذاننا، والغريب أن سلمان كان يعلنه على السنة أعوانه فى كل أنحاء البندر، ولابد أنه أقنع المأمور أيامها بأى طريقة بحيث سكت على كل ما كان يجرى، وربما لم تصل للمأمور نفسه أخبار البلاوى التى كانت تحدث فى السوق أو عند مداخل البندر مع التجار والفلاحين، ولابد أن البعض منهم لم يفكر فى الشكاية أصلا، وأن البعض الآخر حاول ولم يفلح، أو أن القليل منهم أشتكى ولم يجد لشكواه فائدة فكفَّ عن معاودة المجىء إلى السوق، يعلم الله ونعلم نحن أيضا أن سلمان

استولى على السوق لحسابه هو، كان يقف فى أحد أركانه ويشير بيده لأعوانه فينفذون ما أشار به، أصبح السوق سوقه، سوق سلمان أو سوق الباشا أو سوق سيادة العقيد، هكذا عينى عينك تحول السوق القديم الذى كنا نسميه سوق الخميس إلى سوق خصوصى يتحكم فيه بماله ورجاله ويمارس الظلم وقهر الناس، حتى عندما فكر الناس فى البيع والشراء فى الأسواق الأخرى للبنادر المجاورة تصدّى لهم قطاع الطرق ومنعوهم من الخروج بمواشيهم أو محاصيلهم أو الدخول بالبهائم إذا اشتروها من خارج الزمام إلا بعد الدفع الإجبارى والإهانة والتهديد، صار سلمان عصابة منظمة وصار الناس ضحايا لظلمه، بالسعر الذى يحدده هو يشترون ويبيعون، وفى كل حالة امتناع أو اعتراض نسمع عن تقليع الزرع أو تسميم الماشية أو حرق البيوت أو الأجران، وضاق الحال بالناس وانكتمت الأفواه مخافة الإنتقام، وأصبح دوار سلمان مزاراً للنسوان المظلومة والرجال الفقراء اليتامى، يتقبلون شتائمه واهاناته مقابل بعض الحق المسلوب، تحوّل سلمان إلى كابوس لا يحدّه حد ولايشعر بأى نوع من أنواع الخجل، وزادت أملاكه فى وقت قصير على حساب اليتامى، وهؤلاء الذين كانوا يملكون القوة والقدرة على مواجهته لم يفعلوا أى شيء، ربما لأنه كان يتعامل معهم بشكل مختلف، ذلك أنه فى حدود ما أعرف من ناس كفرنا لم أسمع شكاية من أحد الأكابر أو المالكين، كان أكثرهم ينكرون دعاوى الفقراء ضده بل أنهم كانوا فى بعض الحالات يكذبونهم ويدافعون عن شرف سلمان، ولا بد أن الأكابر اتفقوا معه على أن يبعد عنهم أشراره مقابل عدم تدخلهم فى شئون البسطاء من سكان الناحية كلها، ومثلما يهمد الجسد بعد مشوار طويل همد الأقوياء القدامى واستسلموا للراحة وما عادت لديهم الرغبة فى الصراع، استكانوا وأسلمونا لسلمان فاستسلمنا بدورنا لمصيرنا وأكلنا لحمه الفسدان الذى كان رجاله يبيعونه فى الأسواق، واكلنا سمكه المشكوك فى أمره لأنه لم يكن هناك سواه، واشترى الفقراء قماشه المخزون لأنه لم يكن فى السوق غيره، حتى من يبحثون عن بذور الزراعات وجدوها عند سلمان فأخذوها دون تردد أو اعتراض، يدفعون

الثمن الذى يحدده وكأنهم يتجنبون معادلاته بأى ثمن، وانقسم الناس فى كل الناحية إلى عاجزين وقادرين، مالكين ومعسرين اكثر مما كان عليه الحال قبل ذلك بكثير جدا.

* * *

«سبع صنايع والبخت ضايع».

قالتها لى أمى وأنا راجع من مشوارى القريب عند عباس أبو خشبة فى نفس دربنا المزنوق والضيق والمسدود من ناحية البحر: دار عباس أبو راجية أو أبو خشبة بينها وبين دارنا داران وخرابة ومشرم يفوت نفر واحد بجنبه للناحية الأخرى. ويبدو أننى كنت حزينا وإن حاولت أن أدارى، تكن أمى تقرونى بنظرة: مجرد نظرة تكشف لها فرحتى أو حزنى، نجاحى فى تحقيق غرضى أو فشلى، انبساطى من الناس والدنيا أو قرفى، كأننى صفحة من كتاب مفتوح أمامها لا ينسك أبدا، ودائما دائما تواسينى او تهننى قبل أن أقول لها ما جرى بمثل أو بمطلع غنوة أو كلمة أو موال، لكنها فى تلك الليلة قالت ما قالته وكأنها تنديني وتندب كل المندشين من أول حسنين حتى الحسنين الثامن الذى هو أبى وزوجها المرحوم، جلست ساكتا لا أنطق وتوقعت منها أن تسألنى لكنها لم تفعل، كانت تنكش بحراية وسط الدار بعود حطب قطن جاف، كأنها كانت تخط على الأرض مصيرى أو ترسم على الأرض اعترافها بهزيمتها وهزيمتى، كنت لا أرغب فى أن أبقى أمامها لأزوّد همّها وهمى فقمت، طلعت إلى السطح وأسندت ظهرى إلى جدار مصطفى الفار فبان لى وجه القمر الباقى بعد أن اختفى ثلثاه أو ثلاثة ارباعه، لكنه كان هناك يرسل بعض الضوء ويسمح لى بأن أميز المسافات وأسطح الدور الظاهرة، لم أكن غضبان من عباس أبى راجية رغم انه كسفنى ورفض طلبى، كنت أعرف أنه سوف يفعل، لأنه مثل كل ناس كفرنا «البدوى» يعمل حساباته فى مسائل الزواج والطلاق أيضا، ولابد أنه أمسك نفسه من الغلط وقال أحسن ما كان يمكن أن يقوله رجل فى الرد على طلبى:

– يا حسنين يا خويا إحنا بنعزّك صحيح، وانت تستاهل كل خير

صحيح، إنما راجية؟ راجيـة يـا حسـنين؟ انـت عـارف أمـك ماتأخذنيش، هي صحيح قريبتي.. انما، مـين فـي كفرنـا تقـدر تعاشرها يا حسنين؟ أمك لسانها متبرى منها، وكل ما بيتقل عليها العيا كل ما بيطول أكثر ما هو طويل، وراجية بنتي مش ح تطيـق تعيش وياها في دار، أمك دي عايزة واحدة قالعة راسـها وعادمـة ناسها.

الغريب الغريب أنني كنت أنتظر مثل هذا الكلام وأكثر منه، كنت أعارضها في الفكرة لكنها لكنها كانت تلح:

– بس أنت روح يا حسنين، ريّح قلبي يا ضنايا، عباس ابن خالتي ومش ح يلاقي أحسن منك، روح يا حسنين واطلبها منه، عايزة أرتاح من ناحيتك قبل ما ودع، عباس إيه ابن أبو خشبة ده كمان، هو يطول؟.. جته لهو على أبوه.

كنت أسمع مثل هذه العبارات كل صباح وأتحمس للفكرة ثم أتراجع عن التنفيذ في الليل، وأنا في بعض الحالات يختل ميزاني فأطاوعها في الغلط ربما من كثرة الزن على الدماغ أطاوعها. وربما لأن طاعة الأم واجبة، وربما بسبب مرضها ورقادها الذي طال صرت أميل إلى طاعتها، أكثر، أطاوعها لأريحها وأريح نفسي من كثرة الزن، ولأنها أمي، وهي راقدة ولا تكف عن تكرار نفس الكلام فقد ملت رغم عدم تصديقي إلى تصديق كلامها هي:

ح يرجب و ح يوافق، انت مستقل بروحك ليه يا حسنين، دانت ابن المدندش، هو فيه في الكفر كام مدندش يا حسنين؟

وراجية بنت عباس حلوة، تستحق التفكير فيها، شعرها أسود وناعم ومجدول في ضفيرتين غليظتين. عودها فارع مثل شجرة بأس وصوتها فيه بحة غير كل البنات، شملولة وشاطرة وعنها صحة تهد جبال، ثم إنها مؤدبة أدب طبيعي فهل كنت أكره أن أحاول مجرد محاولة أو أنني كنت استكثرها على روحي، ربما فكرت فيها لغيري، وربما أكون قد حلمت بها

لنفسى لكنه كان حلما بعيدًا بعيدًا، هو حلم يخجل الواحد من نفسه إذا فكر فيه، ولابد أننى كنت أفكر فيها أكثر مما فكرت فيها أمى، كنت أراها وهى تدخل دارنا. تملأ زيرنا من ماء الصهريج أو تطحن قمحنا فى ماكينة الطحين أو تخبز فى فرننا بمساعدة بعض الحريم، لكننى كنت أفسر الأمر فى حدود أنه نوع من الشفقة بأمى أو العطف عليها والرحمة أو عمل الطيب فى امرأة طال رقادها وليس لها بنت تساعدها فى مثل هذه الأعمال، على هذا النحو كنت أفكر فى أول الأمر. لكن اعتيادى على رؤيتها واكتشافى بعد كلام أمى عنها أنها بالفعل فارت واستدارت وأنا غفلان، كأنها طلعت من تحت الأرض بين يوم وليلة فصارت صبية ناضجة نضوج ثمرة برتقال بدمه ظاهرة ومكشوفة فى فرع شجرة جنب الدار، كنت أتلفت حولى وأسأل نفسى إن كنت بالفعل أليق بها أو تليق بى، وأفكر إن كان زمن الزواج قد فاتنى بالفعل لأننى تخطيت الأربعين منذ سنوات، أمثالى تزوجوا والبعض منهم زوج أولاده وصار جدا فهل يحق لى أن أبدأ الآن وقد فاتنى ما فاتنى من عمر، أبدأ وأنا أحمل فوق همومى وما صار إليه حالى وجود أمى الراقدة التى تحتاج أكثر منى إلى من يرعاها ويخدمها ويسهر على راحتها، وأضع فى حساباتى ضرورة أن يحتملها وقد صارت من كثرة الرقادة عصبية وغاضبة دائما ولسانها مثل لسان حية أو عقربة لا يكف عن اللدغ، لا تترك سيرة الأحياء أو الأموات تتسلى بها:

- أنا عارفة إيه اللى كان وقعنى فى أبوك، كان كبر وفاته قطر الجواز وأنا كنت صبية ولسه طالعة. لكن أتجرأ وطلبنى، خدنى وعشت معاه ع العيش والملح، لقيته كبير فى السن لكن زى العيل اللى لسه ما اتفطمش أبوك مات وهو لسه ما اتفطمش يا حسنين، كان يا والداه محروم م الأم، اتولد يتيم ومارضعش لبن أمه. ولا عاشلوش غيرك يا حسنين، المدندشين مش عيلة يا مدندش، دول فرع مايل ومدلدل وعزمه خيبان، ما هو أنت أهه، عزمك خيبان، وقليل قليل إن ضربت جدرك فى الأرض ومدّدت وفرعت زى اللى اتولدوا معاك. فاكر سلمان يا حسنين، أهو بقى جد.. وأنت مش

قادر تكمل نص دينك وتعيش زى خلق الله، ملعون أبوك لأبو اللى خلفوك.

وكنت أحفظ لسانى معها قدر استطاعتى لأن المولى سبحانه أوصانا برعاية الأم واحتمال الأم وطاعة الأم، كنت لا أرد على شتائمها فتشعر أننى احتملتها وتدعو لى بالستر فأنظر إلى أحوالى وأسأل نفسى عن الستر الذى لم يتحقق أبدا، أى ستر ودارنا مندرة ووسط دار وفرن وقاعة خزين معتمة وبيت أدب عريان، وحتى لو تجرأت وفكرت فى إكمال نصف دينى فأى ناس ترضى بدار مثل دارنا وفيها أمى وليس فيها عزال أو نحاس، وعروق خشب سقفها تحتاج إلى تستيف جديد وكتل لدعم خشبها القديم، وأى نوع من الأمراض هذا الذى أصابها وأقعدها كل هذه السنوات فصرت أنفق ما أحصل عليه لأداويها واطعمها وأكسوها، وأى بخت هذا الذى اورثنى فقره وفقرها وجعلنى ابدأ حياتى بسداد دينه ودينها بينما يرث الكل، ميراثى بالمقلوب يا ناس، ميراثى هو دفع ما لم آخذه من أحد فأى عدل هذا وأين هى طاقة القدر التى يتحدثون عنها لأطلب منها ما ظللت إدارية عن الناس وعن نفسى من إحساس مؤكد بالظلم دون ذنب أو حتى وعى يسمح بارتكاب ذنب، هو مجرد ميراث بالمعكوس، وأنا بينى وبين نفسى فتشت فى نفسى فلم أجد لأى واحد من خلق الله ظل غل أو حسد، وكل ما كنت أتمناه وأرجوه أن ينعدل حال الدنيا المقلوب، حال الدنيا مقلوب يا ناس، فهل تظهر لى طاقة القدر أم أن موعد طلوعها فى أواخر شهر رمضان؟ وهل ظهرت لأى واحد من الفقراء اليتامى طاقة القدر؟ أم أنها عندما تظهر لـــه يتحول إلى واحد من المالكين القادرين الآمرين الذين يحكمون ويتحكمون فى خلق الله، ينقص الفقراء واحدا ويزيد الأغنياء واحدا لكنه فى زحمة الدنيا لا يتبدل شىء، يبقى الحال على ما هو عليه رغم ظهور طاقة القدر للناس، لو ظهرت لى لطلبت العدل كل العدل على الأرض، تتوزع الأرزاق بالعدل ويتوزع الشغل بالعدل، وتتوزع دور الكفر بالعدل ويتوزع زمام الأرض المملوكة بالعدل، وبالعدل نأكل ونشرب ونكتسى ونتزوج ونخلّف ونعيش ونموت، نصبح مثل جيوش النمل أو النحل عرايا وقد تساوينا فى كل شىء،

لكنه يلزم أن يتميز من يملكون العقل أكثر. تكون لهم شارة يعرفهم الناس بها، هل من الممكن أن تظهر لى طاقة القدر وتنتظرنى لأطلب كل هذه الطلبات أو أنها كما يصفون تنفتح لحظة واحدة وتستجيب لطلب واحد، المال أو الصحة أو الزوجة والنسل أو الهداية أو رضا الله وخلقه، الستر أو القناعة والرضا بالمقسوم، شيء من بين هذه الأشياء فقط تسمح به طاقة القدر التى تنفتح فى ليلة محسوبة وللموعود بها دون بقية خلق الله فهل أفكر أنا الذى ضاع حظه فى هذه الدنيا، أفكر فى طلب واحد أطلبه من طاقة القدر إذا ظهرت لى، سوف أطلب العدل.. العدل أساس الملك. نعم سوف أطلب تحقيق العدل فى كل أركان كفرنا وفى كل البنادر، ولو سمحت طاقة القدر فسوف أطلب تحقيق العدل فى كل الدنيا، العدل وحده لأن العدل أساس الملك.

- عدل إيه ولهو إيه يا حسنين؟ وملك إيه، ما تسيب الملك للمالك ياخايب يا بن الخايب.

رأيتها قبالتى بعودها النحيل النحيل وصدرها البارز، كنت قد اعتدت أن أراها راقدة أو مسنودة إلى مسند أو جدار خلال كل السنوات الماضية، لم تكن تستطيع أن تنصب طولها بغير مساعدة، وحتى بالمساعدة كانت تعجز عن الوقوف دون انحناءة كبيرة تقترب من حالة الركوع، كنت أشفق عليها وأحاول أن أداريها عن عيون الناس فى تلك اللحظات، ولا بد أننى ارتعشت خوفا عندما أيقنت وتحققت أنها هى بشحمها ولحمها وأن ما أراه حقيقة وليس طيفًا ولا منامًا أو حلمًا، كانت هى نفسها التى تقف منصوبة العود ومرفوعة الرأس مثلما كانت فى السابق قبل الرقاد، بل إنها كررت ما قالته مرة أخرى وهى تقتعد الأرض قبالتى دون مساعدة:

- عدل إيه يا حسنين يا بنى اللى أنت داوش روحك بيه؟ أنت ح تفضل أهبل كده على طول؟
- هو العدل عيب يا أمه؟

سألتها وقد انمسحت من ذاكرتى مسألة مرضها وزال خوفى، كنت

أحدثها وتحدثني مثلما كان يحدث في السابق قبل أن ترقد، سبحانه القادر على كل شيء أنساني أسخف أيامي وأيامها وأصعبها وأقساها، هو مجرد نسيان مؤقت ساعدني على الاحتمال وقوّاني على الكلام معها. قالت أمي:

- سلمان أخوك مصّ دمك ودمي شوف لك حل معاه.
- اعمل له ايه يامه؟
- هات لي منه حق اللبن إلى رضعه؟
- لبن ايه بس يا أمه؟
- بلاش.. إلبد تحت باطه، خده سكه واطلع وياه ووراه.
- يامه..
- بلاش.. خليه يتوسط لك ويوظفك وإن ماوظفكش افضحه، أنت تقدر تفضحه يا مدندش..
- يا مه..

لم تكمل كلامها، أشارت إلى القلة فناولتها وساعدتها حتى ارتوت ونظرت في ضوء ما تبقى من القمر فرأيت عينيها تتراخيان وجفنيها ينطبقان، ناديتها فلم ترد، رفعت سبابة يدها اليمنى إلى أعلى ففهمت أنها تطالبني بارقادها في نفس المكان، ساعدتها على الرقاد وكان جسمها دافئًا وطريًا، سمعت صوت المؤذن ينادى المؤمنين لصلاة الفجر وسمعت نحنحات الخارجين من دورهم يوحدون الله ويصلون على محمد، وبدا لي أنني استعدت ما كان يجرى قبل طلوعها على هذا النحو فشعرت بالخوف منها ومن نفسي واستعذت بالله، تعجبت لأنها طلعت فوق السطح دون مساعدة من أحد وأنها كانت تقف منصوبة القوام لأول مرة منذ سنوات، كان شعاع النهار يكشف الأشياء وأسطح البيوت وكانت هي تتمدَّد أمامي في صمت مرتاح، ومن فزعي ناديتها:

- أمه.. أمه يا أمه.

لكنها لم ترد.. وكان الضوء قد كشف لي تقاطيع وجهها اكثر، كانت بشرتها اكثر بروزا وعودها النحيل النحيل قد إمتلأ، لأوقظها وأحملها إلى

فراشها فاهتزت ولم ترد.. عاودت هزها فاهتزت ناديت وناديت بأعلى صوتى لكنها كانت قد أراحت نفسها من كل رد... صرخت ورأيت الناس تصعد الدرجات وأحدهم يبعدنى عنها ويصحبنى من غفلتى صارخا.

- المرحومة ربنا اختارها.. وحد الله يا مؤمن.

* * *

كان أمل البسطاء أن يرشح أى واحد من الأكابر نفسه فى المدة الباقية لكى يمنحوه أصواتهم يوم الانتخاب ويحجبوها عن سلمان وساعتها يضيع أمله فى النجاح، لكن سلمان كان يتحرك فى الوقت الضائع، ينصب الشوادر ويؤجر مكبرات الصوت ويجمع الناس من حوله، وكان أتباعه يشيعون أنه على علاقة بالأكابر الحكام وأن السادات بنفسه زاره بدواره وأنه سوف يكسب بالتزكية، وكان هو يتحدث بنفسه عن نفسه قائلا إنه طالع من بطن أرض كفرنا الطيب، وأنه سوف يصلح ما أفسده المفسدون وأنه سوف يبدأ بالسوق الذى سيطر عليه بعض الغرباء والوضعاء الذين فقدوا ضمائرهم وأجَّروا من يتعرض للتجار الشرفاء، وأنه لولا رجاله لبارت تجارته مثل غيره لولا همة الرجال، وادعى أن هناك جماعة من الناس تقصد تلويث سمعته وافساد حياته وهو النقى الطاهر الذى أعتزل الناس واختار مكانا يبعد عن مسقط رأسه وبنايات البندر حتى لايقع تحت تأثير آهله وهو الذى يسعى لخدمة الكل دون تفرقة أو تمييز:

- والناس دى مش عارف عايزين منى إيه؟ عايزينى أنسحب م الترشيح ويخلى الجو لواحد من بتوع زمان، واحد من اللى كانوا ماسكين الكرباج للناس الغلابة وبيشغلوهم سخرة؟ لأ.. مش ح انسحب، مش لجل خاطرى، أبدا.. لجل خاطركم أنتم، أنا غرضى أخدم الكل ف زمام الناحية، ح استفاد من معارفى وزمايلى وأنوَّر كل داير الناحية، ح أبنى مركز لبحوث الزراعة ويزيد المحصول، بدل الفدان ما يرمى تسع قناطير قطن ح يجيب عشرين وبدل مايدى عشر أرادب قمح ح ينتج عشرين وتلاتين، التقاوى

موجودة، وح نعمل مخبز آلي ومصنع علف ومزارع سمك، وبكره تشوفوا الفرق بعينكم، ح نزرع تفاح امريكانى بدل الجميز والتوت.

كانوا يصدقونه ويصفقون لأنه كان يبرع فى الكلام، وأنا لولا معرفتى له كنت أصدقه خصوصا عندما كان صوته يختلج وعيناه تدمعان من فرط الإنفعال، وكان يحكى عن نفسه وكيف تربى أول ما تربى فى بيت حسنين المدندش الذى هو أبى وبرعاية وعطف الست حرمه التى هى أمى التى لولاها ما عاش، كان يقسم بأغلظ الإيمانات أنه لن يكون ناكرًا للجميل أبدا مهما حاول الأعداء، ولابد أنه كان يقصدنى بين من يسميهم الأعداء، ففى المرّة الوحيدة التى رآنى فيها نظر ناحيتى وأشار بأصبعه:

- أهه.. حسنين أخويا أهه، ابن عم حسنين قصادكم أهه، أخويا فى الرضاعة وعمرى ما ح أنكره، بأمد له أيدى كل ما أشوفه، لكن ياسبحان الله، ضحكوا عليه وغيَّروا قلبه من ناحيتى، اللى يفتحه يلاقيه أسود من قرون الخروب، شوفوا لابس مبهدل ازاى، قصده يحرجنى، يقلّل من قيمتى، طيب يا حسنين قصاد الناس دى كلها أنا فاتح لك صدرى أهه، وعفا الله عما سلف، تعالى فى حضنى وربنا شاهد عليا وعليك، شايفين بيبص لى إزاى؟ بيكرهنى.. بيكرهنى يا ناس وأنا مادد له إيدى وقلبى عليه، بيكرهنى ياناس.. بيكرهنى.

بينى وبينكم أنا ساعتها أنخرست، نزل على لسانى سهم الله وما عرفت أن أرد عليه، أنا المشهور بطول اللسان أنخرست وعجزت عن الكلام، وساعتها عرفت أن الكذب المسبوك المزوق يقدر أن يخرس الصدق العريان، كنت أشعر أنه عرَّانى اكثر من عرى الثياب التى كنت ألبسها والتى كنت دون أدنى شك أخجل منها وسط الزحام.

قال واحد من الأكابر بعد أن شكوت له حالى:

- رشح نفسك قصاده وإحنا نقف وراك ونساعدك بالفلوس

كانت أول مرة أسمع فيها هذه الفكرة، ورغم أننى سمعتها فقد كدت

أن أنفض آثارها من أذنى قبل أن تصل إلى دماغى وأقلبها مثل كل الأفكار التى تصلح للتنفيذ. صحيح أننى مسكين ولا أملك ما أخشى عليه من الضياع فماذا يأخذ الريح من البلاط؟ لكن هل أقبل أنا على نفسى أن أتحول إلى مسخة يلعب بها أكابر الناحية ضد سلمان؟ هل أرشح نفسى ضدد ثم يتضاحك ناس كفرنا وكل الكفور المجاورة على الطبال الزمار الحاوى، الرداح الندابُ البائس الذى تجرأ ووقف فى سكة الأكابر بأصابع الأكابر الآخرين؟ وهل أساوى نفسى بينى وبين نفسى مع الكذوب المراوغ المخادع القادر على أن يلعب بالبيضة والحجر، هل أضع رأسى البسيط النظيف فى مواجهة رأسه اللامع القادر على التزييف؟، رفضت أن أناقش الفكرة فقال الكبير:

- لك حق وشك ينزرد ويزرق يا مدندش، إنت راجل غلبان صحيح بس نضيف، إنما ده.. دا تعبان شراقى لسانه بيبخ سم ناقع فين ما يفوت.

ولابد أن كلام الكبير قد وصل إلى قلبى ومسه مسا خفيفا، ذلك أننى شعرت بسخونة دمعتين تتحركان على غير إرادة منى وتعبران خدى وأنا الذى ما كنت أبكى، حتى وأنا أندب دون بكاء، هل كنت أبكى على حالى أو على سلمان؟ ربَّت الرجل على ظهرى مواسيا وضاحكنى فتجاوبت معه وصرت أضحك، هز الرجل دماغه وقال بعد فترة كدت أنسى فيها سلمان وأنسى نفسى:

- إحنا ح نوقف قصاده واحد عبرة، واحد مالوش قيمة خالص فى كل الناحية، إن كسبه تبقى مسخرة وحش وسط ما يرفعش راسه بعدها أبدا. وإن خسر تبقى مرمطة وقلة قيمة. عارف مين أوطى واحد فى الناحية يا مدندش؟
- لأ.. مين؟
- ح أقولك بعدين.

لم يقل لى وإنما رأيت بعينى رأسى مالم يخطر على بالى أو يرد فى خيالى حتى فى الأحلام، رأيت واندهشت مثلما اندهش كل ناس كفرنا وناس

الكفور المجاورة فى نواحى الناحية، ومن لا يندهش إذا كان الوحيد الـذى استخدم حقه فى الترشيح ضد سلمان هو شحيبر إبن الكلاف؟ شحيبر الذى كانوا يقولون عنه «بتاع» الأرض والذى طول قامته ثلاثة أشبار دون زيادة بمقاس شبر سعيد الكمونى. ثلاثة أشبار بالفعل دون مبالغـة وفـى حالـة المبالغة نقول «شبر ونصف» طبعًا شحيبر لم يفعلها من تلقـاء نفسـه ولا كانت فاتت على خياله فى الأحلام. ولابد أنهم أقنعوه وناولوه ما لـم يكـن يحلم بأن يناله قبل أن يذهب وفى آخر يوم وآخر سـاعة لقبـول طلبـات الترشيح بعد أن قال الكل إنها طابت لسلمان بالتزكية، قلت لروحى وأنا أراه فى البندر مزفوفا ومحمولا على الأعناق ومن أمامه طبال وزمار وراقـص بالعصا وغازيه من سنباط ترن «صاجاتها» وتطلب النقوط للرجل الغلبـان الذى رشح نفسه بإسم الفقراء ومن أجل الفقراء. قلت لنفسى بينى وبـين نفسى «كان من الممكن أن أكون مكانه» ولابد أن الخبر طار فى كل أركان الناحية مثل السبرتو أو البنزين.

كل الناس مالم يكن اكثرهم عرفوا «شحيبر»، كل من سافر بالقطـار إلى طنطا أو شبين رأى شحيبر، كل التجَار والأفندية والمـزارعين شـافوا «شحيبر» ابن الكلاف. دكك المحطة أخذت من بدنه وعلمت عليه، من فـى كل الناحية لم يعرف شحيبر؟ كان أكثر شهرة من شـاى الشـيخ الشـريب أيامها، كان يجلس من أول طلوع شمس ربنا وحتى قطار التاسعة والنصف مساء، يجلس على نفس السكة أو يبدلها إذا أراد، يجلس وينتظر وصـول أى قطار من أى الاتجاهين فيتدحرج على رصيف المحطة حتى يصل إلـى أحد أبواب القطار، يمدّ يده إلى أى شيء تطوله: سلة أو قفـة أو طفـل أو حقيبة أو «خرج»، يطلب السماح من صاحب الشيء ثم يلقمه على كتفه أو ظهره ويرمح، يبدو لكل من يراه مثل «حرامى الحلة» الحامسل مايداريـه، لقمة أو خنفساء أو صرصار، يحمل الحمل ويجرى فلا تظهـر منـه غيـر ساقين قصيرين متسارعين فى اتجاه باب المحطة، ودائما دائما مـا كـان يجبر صاحب الثقل المحمول على الجرى فى أعقابه أو اسـتمهاله بعـض الوقت حتى يلحق به، لكنه مع النساء كان يتأنى ويتبختر على مهل فتسبقه

المرأة وتستعجله ولا يتعجّل أبدا، دماغه لا تلين أبدا وكأنه بغل استرالى، يحدد أجره ولا يتنازل عنه أبدا حتى ولو حصلت مصيبة أو قامت بينه وبين أى إنسان خناقة، حركته خفيفة ولسانه ثقيل فى الكلام، وعزمه فى الحمل أكبر بكثير كثير عن مظهره، فكم شهدوا له بحمل ثقل يعجز عن تحريكه رجل بشوارب أو رجلين فى بعض الأحيان، وكانوا يسخرون ويقولون:

- هو شال حاجة؟ دا منه للأرض
- لأ ورجليه زى عجل الونش عارفة سكتها.
- سبحان الله، صحيح.. كل ذى عاهة جَبار.

وحكايات شحيبر مع الناس فوق رصيف السكة الحديد أو شوارع البندر تحتاج إلى راوى بربابة، هى حكايات بسيطة تليق بأى شخص بسيط، تراه سهلا وبلا قيمة ثم تقترب منه وتتعامل معه فيظهر لك شخصا آخر، شخصا غويطا ومشحونا بوعى غير محسوب حسابه، وهل كان سلمان أو أحد رجاله يفكر أن شيالا قصيرا مقطوعًا وساكنا على رصيف محطة بندر منسى فى ناحية تبدو منسية سوف يفعل ما فعل لمجرد أن بعض الأكابر فتحوا له الأبواب وقالوا له: قدم اسمك ورشح نفسك ضد سلمان ففعل وكبرت فى دماغه ولم يتنازل أبدًا رغم أنه عاش كل سنوات عمره مسكينا بين المساكين يسعى من أجل اللقمة له ولعياله والثوب يستر بدنه وأبدانهم، صحيح أن «شحيبر» بحسابات الكل كان يملك «عرق الصبا» لكن ما فائدة «عرق الصبا» لشيال اكثر من مساعدته على حمل ما يحتاج إلى حملة أصحاب الحاجات؟ وهل كان عرق الصبا يقدر مثلا أن يعينه على إزاحة هموم حياته أو إبعادها عنه؟ لقد ظل عرق صباه عطلانا وقاعدًا على دكة رصيف المحطة حتى أوقفه بعض الأكابر الخبثاء بغرض الضحك عليه وعلى سلمان فاستقام عوده وبدا للناس أنه أطول مما كانوا يحسبون وأن قدرته على السعى فى الكفور والأنحاء لضمان أصوات الأهالى كانت أكبر من قدرات سلمان، وسبحانه الواهب القهار الذى ألهم من فكر فى الأمر قبل غيره وساعد «شحيبر» على الانتصاب.

فى كفرنا «السوقى» حسب الناس أن المسألة نكتة فـى أول الأمـر، مجرد نكتة علاجها بسيط، دعوة من حضرة جناب العمدة الذى هو ولى أمر شحيبر مثلما هو ولى أمر كل ناس الكفر الذى أنوئد فيه شحيبر، ثم بضـع كلمات من اللوم أو التهديد والوعيد أو الاستهجان لأننا فـى النهايـة أولاد نفس الكفر ولا يليق أن نقف ضد بعضنا ونضحك علينا الغرباء، وقد فعـل العمدة ذلك بالطبع عدة مرات، لكن شحيبر كان قد تبدل، كبرت دماغه ومـا عاد يخاف التهديد، وكانت الأيام تمر وآخر موعد للتنازل يقتـرب والولـد يعاند مثل بغل استرالى، جربوا رشوته وزودوا قـروش الرشـوة أو آلاف جنيهاتها فلم يستجب، على العكس كان يخرج ويبوح للناس بكل ما سـمعه فيكسبهم فى صفه، والواقع أن شحيبر كسب عطف الناس بسـبب عنـاده وقدرته على مواجهة التهديد بكل شئ ولأبعد حدود التهديد مثلمـا كـان قادرا على رفض الوعود والإغراءات التى لو صادفها فى كل عمره السابق لزحف على بطنه لينال عشر معشارها ويحمد الله، عاند شحيبر بكل عزمه على العناد، وعاند بعزم غيره أيضا ممن كانوا ضد حكومة الساداتت لأسباب لا نعرفها رغم أن الرجل انحنى أمامنا جميعا أمام صـورة عبـد الناصـر، انحنى ووعد بأن يحافظ على سياسته ويمشى على طريقه ونظامـه، لكـن هؤلاء كانوا لأسباب تخصهم لا يصدقون الرجل، وربما أرادوا إنجاح شحيبر لكى يصبح مثل لقمة خشنة وضئيلة فى حلق كل أعضاء المجلـس الكبيـر بناسه الكبار، وكان هناك أيضا أولاد الأكابر القدامى الذين يحملون – رغـم إلغاء الألقاب – لقب الباشا والبيه، هؤلاء القدامى كرهـوا عبـد الناصـر والسادات ومن قبلهما محمد نجيب، كـان تحديـد ملكيـاتهم فـى الأرض الزراعية قد أوشك أن يساويهم مع صغار الملاك من أمثال سلمان والنـاس الشلبى.

كان هؤلاء وهؤلاء يجمعون التبرعات ويقيمون السرادقات ويضعون اللافتات باسم محمد شحيبر مرزوق الكلاف الشهير بشحيبر ورمزه النخلة، يأتى شحيبر وقد لبس الكشمير اللائق وطالت قامته وهو يرفع كلتـا يديـه بالتحية للناس ردًا على التصفيق والهتاف، لم يكن شحيبر يملك القدرة على

الكلام أمام الناس، كان في الغالب يكتفي بالوجود في المكان ويتولى من يتحمس الكلام بدلا منه فيهز رأسه استحسانا أو يقاطع الكلام بعبارة أو عبارتين:

- لأ.. أنا ح أزود المدارس وأعلم عيال الفقرا بلاش.
- قوللهم اللحم الفسدان اللى اتباع فى السوق مين اللى جابه؟
- حشيش إيه ومخدرات إيه؟ إحنا نعرف الكلامده؟
- إزاى بقى.. مهما حصل.. أنا واحد منكم وأقل منكم كمان، أنا لسه يا ناس شيال على محطة السكة الحديد.

كان الناس يهتفون باسم شحبير ويحملونه على أعناقهم ويدورون في شوارع البندر بمكبرات الصوت التي تدعو الناس لانتخاب «النخلة» التي هي رمزه، وكانت الحريم في بعض الأحيان تزغرد. وعند الانصراف كان البعض يقول للبعض أن شحبير سوف يأخذها من سلمان. ويضيفون أن دوار سلمان المبني يفوق من حيث الاتساع والتجهيزات كل قصور الأكابر القدامى من الباشاوات والبهوات في كل الناحية والنواحي المجاورة، كان من الواضح أن سلمان سوف يخسر بسبب أفعاله وتباعده عن الناس وثروته التي يشك الكل في شرعية مصدرها وهو من الناس الغلابى الذين لم يسمع بهم أحد قبل جيلنا بجيل أو جيلين في أحسن الأحوال، لكن سلمان كان يبعث أنصاره إلى رءوس العائلات ليدفعوا لهم مئات الجنيهات أو الآلاف ليقوموا بتوزيعها على الأفراد ويسألوهم نفس السؤال الذي لا رد عليه:

- بقى معقول إن شحبير يتكلم باسم عيلتكم في البرلمان؟ شحبير؟

وكان الكبار يطرحون على الصغار نفس السؤال ويطالبونهم باختيار «المسدس» رمز سلمان، وكان البعض يبوح بما جرى والبعض يداري ويعد باختيار «النخلة». وفي يوم الانتخابات تأخر ناس وجاءت ناس، لكن من تأخروا كانوا أكثر ممن حضروا. وسمعنا إشاعات عن تقدم شحبير في الكفور والنجوع والقرى وتقدم سلمان في البندر وفي كفرنا الشلبي. وظل

البعض شعبير تقدم فى كل نجوع الناحية والبندر والقرى البعيدة. وتبادل الفريقان الاتهامات والتهديد بالطعن فى الانتخابات إذا جاءت فى غير صالحه.

هل مات سلمان فى جلده وغاب عن وعيه خلال اليومين بليلتين التى جرى فيها فرز الأصوات؟ كانت معركته صعبة وقاسية عليه وعلى أنصاره لكنه فاز بفارق هزيل. فارق لا يكاد يشعره بأنه نجح بحق، نجاحه كان أقرب إلى الفشل إذا وضعنا كل الشكوك فى الميزان، ولابد أنه لم يفرح بنجاحه كما كان يحلم ويحلم أهله وناسه لكنه على كل حال نجح وانفلت وفتح باب دوار لكل من أراد أن يذهب إليه قبل أن يسافر بعد أيام لا ندرى لماذا. ذهب إلى دواره ناس لتأدية الواجب ولجبر الخواطر أيضا، كان البعض منهم يذهب ويعود ليقول إنه كان يدارى ضحكته فى «عبه» أو «كمه» يبارك بحسب ما يسعفه الكلام، وسلمان فى كل الحالات يهز رأسه ويردد نفس العبارة:

- كتر خيركم.. كتر خيركم.

يزعم البعض أنه كان يقولها شاكرا لمن ساعدوه، ويزعم البعض الآخر أنه كان يقولها عتابا أو لوما ناعما لأنهم أجهدوه وجعلوه يسعى بكل الوسائل المسموحة والممنوعة فى الخفاء والعلن ليغطى على من خذلوه وتمنوا أن يضحكوا كل ناس الناحية عليه أكثر مما ضحكوا بسبب ذلك النجاح الهزيل الذى حصل عليه.

لعل ما هوّن الأمر على سلمان هو أن شعبير لم يطعن فى نتيجة الفرز. بل أنه قالها لبعض من حرّضوه على ذلك قائلا بحسم:

- خلاص.. مش ح اطعن ولو انطبقت السما ع الأرض.

كان قد ركب دماغه عناد البغل الاسترالى، أو كان قد تعب هو الآخر من دخول معركة لا كانت له ولا كان لها، أو ربما فهم الملعوب الذى شارك فيه مدفوعا بأياديهم وإرادتهم، وربما - وهو ما شاع وتردد - حصل على المقابل الذى يكفيه ويكفى أولاده. ومن كان يصدق أن شعبير سوف يمتلك

فى أى يوم مثل هذا الدكان الكبير الذى انفتح أمام باب المحطة وانكتب على لافته «بالنيون» «شحيبر وأولاده.. للأحذية والمداسات» وكان يجلس فى عصر كل يوم على مقعده أمام المحل ويمارس لعبته القديمة التى كان قد أبطلها، ففى أى وقت كنت تراه ممسكا بين أصبعيه الإبهام والسبابة بقطعة من العملة المعدنية، يحرص أن يريها لكل من يحيطون به ليتأكدوا من سلامتها قبل أن يضغط بإبهامه الخشن على سطحها العلوى بينما سطحها السفلى مسنود على ثنية السبابة، يضغط بعزمه فيمسح الكتابة وصورة النسر أو الصقر، فيقولون أنه مازال مالكا بين كفيه قوته القديمة، وأن «عرق صباه» مازال قادرا على اثبات وجوده.. تماما مثلما كان فى السابق يفعل بأى عملة فضية يطلب منه صاحبها أن يمسحها فيمسحها ولا تعود صالحة للصرف وقد إنطمست الكتابة وصورة الملك.. أى ملك.

* * *

فى كفرنا «الفرعونى» يظن الناس أن مداومة رؤية الأموات فى الأحلام هى نذير بالموت القريب أو نهاية الأجل، ولأننى أعيش منذ فترة طويلة مع الأموات بحيث كنت أراهم فى أحلامى وأستعيدهم فأفكر فيهم فى صحوى، قلت لنفسى إنها بداية النهاية، ولآن الموت على رقاب العباد ولأنه لكل أجل كتاب، ولأننى ومنذ البداية كنت منذورًا للموت فأننى لا أشعر بالخوف أو الرهبة من مواجهته، ولابد أن البهاليل أمثالى يعشقون الحياة على حافة الحافة إلى حدّ الاستهانة بالحياة نفسها أو بالموت نفسه، لقد وجدتنى هكذا دون قدرة على المحافظة على شىء، ربما لأننى لم أجد فى حوزتى أو من حولى أى شىء يدعونى لأن أحافظ عليه، ولأنه لا يطلع إلى العلالى إلا من يملك سلمًا للطلوع، ولأننى عزيز النفس وإن شح زادها فقد كنت أعيش بينكم أيامى يومًا بيوم وساعة بساعة ولحظة بلحظة، عشتها وتعلقت بها لأشبع منها وأتشبع، أفعل ما يرضينى ولو أغضب الأكابر، مؤمنا بأن العمر واحد والرب واحد، وانه لا يأخذ الروح إلا خالقها، حتى عندما كنت أمثل دور التابع المطيع كنت أفعل ما أريد وأرغب، وكانوا فى أغلب الأحيان يسمحون لى بمساحة فى العفو أو المسامحة عندما أخرج عن

حدود المسموح، وكانوا يبررون ذلك بكلام زائف على عقلى الملطوش أو لسانى المفلوت لأننى بهلول، كنت أسمع مثل هذه الأوصاف وأتمادى فى الخروج عن حدود المسموح، آخذ حقى وبعض حقوق الفقراء، هو نوع من خلط الجد فى الهزل أو عجين الهبل مع الشيطنة ونادراً ما كانوا يكتشفون مالا أرغب فى كشفه لهم، وكأنه كان بينى وبين الأكابر عقد غير مكتوب لكنه محسوس بأن نتعايش على هذا النحو، أنا فى الهامش وهم فى البؤرة، أنا فى الظل وهم فى مناطق الضوء، أنا فى منطقة الصدق الخالص وهم فى مناطق الأكاذيب المحبوكة والمسبوكة باقتدار، وأنا بلا أملاك أو رغبات فى الحيازة وهم أصحاب كل الأملاك وكل الحيازات.

- «اللى يتشحت بالبق يتاكل بايه يا حسنين؟»

سألنى وأنا ماش إلى جواره وأحتمى بظله من سخونة الشمس، احترت ولم أجبه وظللت محتميا بظله من سخونة الشمس، لكننى بعدها فكرت وعرفت أن الفم الذى يطلب إحسانا أو صدقة غير الفم الذى يمضغ ويميِّز طعم الأشياء ويستمتع بمذاقها، كأنه صعب أن يستمتع الإنسان بخبز استجداه، بلسانه، وأنا كنت أراه فى كل أحلامى يحمل الخير ويعطينى، لا ينتظر سؤالى، وكأنه داخل فى خلايا عقلى وعارف كل ما أحتاج إليه، اللقمة أو جرعة الماء أو الثوب الواقى من البرد أو السخونة، كان فى كل منام يعطينى وأفسر أحلامى لنفسى فأقول إن عطايا الأموات خير آت، يعطينى وآخذ منه دون أن أطلب أو أستجدى، لكنه فى الآونة الأخيرة كان يدعونى للرحيل معه، يغرينى بمولد السيد البدوى أو زيارة البندر أو حتى الذهاب إلى عمدة كفرنا القديم الذى سمعت أسمه دون أن أشهد زمنه، كنت أسارع بمرافقته فى خلاء الزراعات وأستمتع برفرفة النسيم من حولى وأراه وقد عبأ النسيم جلبابه الأبيض فأنتفخ وصار مثل مظلة كبيرة تحمله إلى أعلى، ومن مكانه يمد يده ليأخذنى، يطالبنى بأن أسمح للهواء بأن يملأ جلبابى ويحوله إلى شبه مظلة تحملنى وأوشك على الموافقة لولا أننى أنتبه فى الحلم وأفسر لنفسى ما يعنيه الصعود إلى أعلى، لا أطاوعه واكتفى بالنظر إليه وهو يرتفع مثل بالون أبيض، يرتفع ويرتفع حتى يختفى فى

الفراغ البعيد ولا أراه، وساعتها في الحلم أحلم أنني فسرت حلمسي وأنسه مازال في العمر بقية، هو أبي من يأتيني ويشاغلني كل ليلسة قبسل تمسام الاختفاء، أصحو من منامي فأحدث طيفه الهربان الذي فاتني ولم يقدر على البقاء ليحميني من هؤلاء الذين أهانوه وظلموه وهزموه بشكل مهين، أقول إنه كان من اللازم أن يقاومهم، أن يعترض، أن يرد على إهانتهم بإهانسات مماثلة، أود لو دارت عجلة الزمن إلى الوراء لأراه وأصرخ فيه، أدعوه لأن يبقى من أجلي، يرعاني ويداريني، أحدثه عن الضواء الذي أصابني برحيله وأقول له إنه عندما يبقى فلابد أنني سوف أصير وسط ناس الكفسر رجسلا معدودا، كنت أرضى ببقائه ولو كان عاجزاً أو ضعيفا أو هسزيلا أو حتسى ساقطا من حسابات الناس لكنه كان من الممكسن أن يكسون بالنسسبة لسي ضرورة، كيانا محسوسا يا ناس، يصعب أن أصفه لكم بالكلام، يكفسي أنسه كان بوجوده قادراً على حمايتي من معايرات الرجال:

- أصل أنت تربية أمك يا مدندش.

كنت أرد عليهم وأردح لهم وأهينهم واعدد للناس مخازيهم حتى يفر الواحد منهم من المكان معلنًا أنه أسلم واستسلم لكنني لم أنتصر أبدًا أبسدًا على من شاكسني بمثل هذه العبارة، كنت أشعر بالهزيمة الكاملة رغم مسا يبدو للناس من أمارات الفوز، كان موت أبي الذي يغازلني في الأحلام هسو نقطة ضعفي وعار وجودي الذي ورثته منه، عفا الله عنه وحاسب هسؤلاء الذين ظلموه وكرهوه في الدنيا ودفعوه لأن يستسلم قبل الأوان.

وكنت أراها وقد جاءت بصدرها الممتلئ وعودها النحيل وقد أوشسك على الامتلاء قليلا لكنه مازال يحتفظ بنحول، تناديني بصوتها فاطلّ ناحيتها وأراها وقد أخذت في حضنها بنت حلوة من بنات كفرنا، أي بنت حلوة من بنات كفرنا، كل بنات كفرنا حلوات وفي المنام أحلى، وأمسي تسأتيني وقسد ألبست البنت الحلوة ثوب الزفاف الأبيض ووضعت علسى رأسسها طرحسة الزفاف الأبيض، وفي وسط الزحام أرى وجسه المسأذون وأرى الشساهدين وأسمع صوت سلمان وهو يعترض:

- مابيتجوّزهاش وهو حافى أبدا. ما يتجوزهاش وهو حافى يا ناس.

وأنتبه أن سلمان يقصدنى وأننى بالفعل أقف حافيا وبلا مداس، أسعى بين زحام الناس وأسألهم عن أى «مداس» أو مركوب قديم فلا يسعفنى أحد، بل أنهم كانوا يستخدمون مداساتهم ومراكيبهم فى الدوس والضغط على القدمين الحافيتين، يمعنون فى الضغط وتناديني أمى ويعترض سلمان طريقى إليها والبنت الحلوة فى ثياب العرس، أشعر برءوس المسامير الطالعة من مداساتهم ومراكيبهم وهى تنغرس فى لحم القدمين، أصرخ وأمد يدى فى اتجاه أمى النحيلة فيعترضنى سلمان، يتضخّم سلمان وقد استند إلى دواره الكبير فصار فى حجم الدوار، يصبح سلمان دوارا له أبواب مفتوحة ونوافذ ومساحات من الفراغ وبنايات بقباب وأعمدة ولا أرى سواه، يخرج لسانه الطويل ويكيدنى به مثلما كان يفعل وهو صبى صغير، أتذكر فى المنام أن سلمان الحى قبالتى ميت منذ سنوات فأغيظه بذاكرتى.

- إنت ميت يا سلمان.. أنت ميت

ويجاوبنى من باب دواره المفتوح:

- ميت هو.. ميت هو.

أقوم مفزوعاً من منامى فأبسمل وأحوقل وأرفض الرقاد مخافة أن ألتقى بسلمان مرة أخرى وقد تحول إلى دوار، أتعجب من تكرار مطاردته لى فى رقادى وقد رحل تاركا للدنيا خلفة من الأبناء والأحفاد، أعجب لأنه يضن علىَ ببنت من بنات كفرنا لتكون للعجوز فى آخر أيام عمره الونيس والجليس والعوض وبها يكتمل نصف دينى.

وكنت أرى جدى الذى أشتهر فى الكفر بحرصه على وضع وردة أو زهرة فوق أذنه اليمنى وقد علقها بجزء من فرعها بين نسيج الطاقية وخصلات شعره التى تسكن تحتها، أراه وقد تحول إلى سلطان آمر ومن حوله الاتباع والعسكر، يأمرهم فيأتوا بأبى مقيداً بالحبال ومتهوما بسرقة البط والأوز والأرانب وزراعات الغيطان، يدافع أبى عن نفسه بأنه جاع فاحتال على الدنيا ولبس ثياب الشطار لتستمر الحياة، يخلع جدى الحسنين

السابع زهرة الأذن أو وردتها ويرميها على الأرض ويوبّخ أبى لأنه جعل نفرا مثل عزت شلبى يهينه أمام الغرباء ولم يرد له الإهانة، يشعر أبى بالخزى والعار، يحكم جدى على أبى بالموت غضبا ويأمر العساكر بأخذة وأنا أصرخ من ظلم حسنين السابع فيناديني ويعاود القراءة من كتاب بلا غلاف تقول صفحاته إن الشرفاء الشرفاء يعاقبون لأنهم يفسدون شرفهم بسرقات صغيرة وتافهه لا تفيد، وإنه فى نفس هذا الكتاب يترك لكبار اللصوص حق ارتكاب كل الخطايا وقتل النفوس وهتك الأعراض وسلب الأموال من جيوب الفقراء والطعام من أفواههم لأنهم بلا شرف ولا يصح أن تؤنبهم أو تلومهم، أطاوع جدى وأخرج معه لكى يعطينى زهرة أو وردة أضعها – مثلما كان يضع زهرته أو وردته – فى أعلى أذنى اليمنى وأدس عودها الصغير تحت قماش طاقيتي، وأصير فى هذه اللحظة أنا هو الحسنين السابع لولا أن سلمان يأتي ويخطف الزهرة أو الوردة فيتحول سلمان إلى جدى وأعود كما كنت أنا حسنين التاسع وقد فقدت أبى.

وكنت أرى سلمان أيضًا فى كل مراحل عمره، فى طفولته وصباه وشبابه، وفى رجولته وكهولته، وقبل موته وقد انحنى عوده واستند على كتف واحد من أحفاده، كنت أراه وأحزن من أجله فيعايرنى قائلاً فى كل مرة:

– احزن على حالك.

فأحزن ثم أنفض عن نفسى حزنى وأفيق لروحى لأكتشف أن ما كنت أراه هو حلم أو منام أو كابوس عبيط، وأتعجب من أمر تلك الأحلام التى تتشابه مع ما أراه وأنا صاح لروحى، ومن تلك الحقائق التي أعيشها وهي تشبه أمثال تلك الأحلام أو الكوابيس، يختلط كل شيء بكل شيء، الأحلام البعيدة مع الأحلام القريبة، الكوابيس مع الواقع، الذى أراه، يصبح ما أرد فى الواقع وما أحلم به مجرد عجينه واحدة أتحسسها فى الصباح والظهيرة وفى بدايات الأمسيات ونهايات الليل الساكن وساعات ما قبل الفجر يختلط كل شيء بكل شيء، ويزدحم الدماغ بإشكالهم القديمة، أمى وأبى وجدى، وسلمان أخى وشقيق عمرى وكل من ماتوا واندفنوا وأراهم فى الأحلام ثم

أعاود رؤيتهم فى الصحو، أقول إن الأمـوات يحاصـروننى ويطـاردوننى ويمهدون الطريق لرحيلى إليهم ويمنحونى فى كل مرة الإشارة لأقطع مـا تبقى بينى وبين الناس والحياة من خيوط، يساعدوننى على أن أنهى ذلـك التعلق العبيط بما تبقى لى من أيـام لأنـه قليـل قليـل ويـدعو للغضـب والاعتراض عليه بالرحيل والخلاص..

لكننى بعد الفجر أرانى قد قمت واغتسلت وذهبت إلـى زاويـة أولاد عوف، أتوضأ وأصلى فجرا جديدا حاضرا مع الجماعة ثـم أجلـس علـى رخامة الصهريج وأرى البنات العذارى الصاحيات فى البكور وهن يحملـن الجرار أو الصفائح الفارغة يتنادين بدلال ويتضاحكن بـدلع وقـد تنـبهن لوجودى، يتباطأن أو يتعجلن الخطوات أمامى، كـأننى عـريس مرغـوب يستحق أن تعرض عليه كل البنات جمالهن ويتركن له الحق فى الاختيـار، أشعر بالحيرة فكل بنات كفرنا جميلات، وأنا البهلول الحاوى والزمار الطبال الباقى أقدر أن أعطى نسلا جديدا ليكون لكفرنا «الغفلان» لا يـزال طبـالا جديداً وزَمارا وبهلولا اسمه الحسنين العاشر..

وحدوا الله.

رباعية كفر عسكر

[٤]

سيرة العمدة الشلبي

ومن قبل زمان العمدة الشلبى بزمان وزمان حكم الكفر عمد أشكال وألوان، ولكل عمدة حكاية ورواية وسيرة وشهود، تنفتح السيرة فيتسابقون على تذكر ما كان وما جرى للكفر وناسه على أيام العمدة فلان ابن فلان الفلانى، وقد يحلو للواحد منهم أن يكمل الحكاية للآخر فلا يغضب أو يعترض أو يصحِّح فى تواريخ الأحداث ودلالاتها، كأنما تحولت كل سيرة فى ذاكرتهم إلى كتاب مفتوح ومحفوظ للكل، يصدُق من قال قبلنا أن البنى آدم سيرة، ينتهى العمر وتزول النعمة وتضيع الهيبة والثروة وربما ينقطع دابر الخلفة ولا يتبقى غير السيرة، والناصح الناصح هو الذى يفهم ملاعيب الدنيا ويحتاط منها، والغشيم الغشيم هو الذى تفتنه المظاهر فيفلت منه الزمام، تندفن سيرته وهو حى فى قلوب الناس وعقولهم، وإذا مات ينضاف لاسمه صفة أو صفتين ذميمتين وينتهى الموضوع بعد فترة تطول أو تقصر تجلده خلالها وتلسعه الألسنة النمَّامة فتسودِّ الأسود والرمادى فى حياته وتطول المساحات البيضاء أيضًا، وربما يكتفون إذا نبَّههم عاقل بأنه بعد سقوط البقرة تكثر السكاكين الحامية والباردة على حد سواء فيتنهدون بسماحة ويستغفرون عن ذنوبهم وذنوبه.

* * *

أنا نفر فى الهامش الساكت من كفر عسكر، اسمى فلان الفلانى ابن فلان الفلانى وفلانة الفلانية، ربما كنت معدودًا ومحسوبًا لأننى انولدت فيه، افترشت أرضه وتغطيت بسماه، من خيره حصلت على رزقى وعشقت ناسه وبناياته ومواشيه وطيوره وأرضه البراح وطيوره وزمام غيطانه المزروعة بالخير والناقص فيها الخير، وربما تكون إرادة المولى جلَّ وعلا فى سماه هى التى أوحت لى بأن أكون راويًا لكم من غير ربابة، يحكى لكم سيرة

العمدة الشلبى وسيرة الكفر فى أصعب أيامه، وربما أكون قد أوهمت نفسى عندما ركبتنى الفكرة ذات مساء عسير قاومتها خلاله ونفضتها عن نفسى لكنها غلبتنى وركبتنى فى غفلة منى، فصرت ولا مؤاخذة مثل الحمار المركوب بالمقلوب وقد طوَّع نفسه وتآلف مع من اعتلى ظهره، ولا بد أننى ركبت حمار حياتى بالمقلوب فانكتب علىَّ أن أنظر إلى الأشياء بعد حدوثها أو بعد الأوان المضبوط، أراها وهى ترمح منى وتنفلت لحظة بلحظة دون أن أمتلك القدرة على إيقاف الحمار أو التحكم فى مساره لأننى انمنعت من مسك اللّجام، لكننى برغم كل المكابدات كنت أنعم بقدرتى على تأمل الأشياء على مهل وقد انفردت أمامى صور الناس والبنايات والمسافات والأشياء، صحيح أنها بينما كانت تتباعد كانت تنضاف إليها أجزاء جديدة، لكنها تبدو ثابتة ومفتوحة فى ذات الوقت، وكان يحق لى أن أدقق النظر إلى الخفيرين السائرين بأمر حضرة العمدة وراء الحمار يحرسانه ويحرسانى وقد حمل كل منهما سلاحه على كتفه متباهيًا بتبعيته للحمار، تتداعى الناس بكسل للفرجة على الجرسة وفى عيونهم تكذيب فاتر لم يصل إلى حد الاعتراض، كانت خطوات الحمار منتظمة ورتيبة وحسنين المدندش يحدى بآلية للعيال ويردون عليه لتكتمل مراسم الجرسة، هل كنت أنا راكب الحمار بالمقلوب فعلاً أم أنها كانت مجرد تهيؤات وخيالات شاغلتنى أو شغلت ذاكرتى، ربما أكون قد توهمت وربما أكون بالفعل ركبت حمار الجرسة بالمقلوب أو كدت أركبه، كل هذا لا يهم الآن، والذى يشغلنى هو تلك الحقيقة المؤكدة والتى يلزم أن أبوح لكم بها ولنفسى فى ذات الوقت:

- لقد ركبت حمار حياتى نفسها بالمقلوب، سبحت عكس التيار فخسرت مكاسب وكسبت روحى، وتبدَّى لى فى ساعات التجلّى أننى اخترت أنسب طريقة لركوب الحمار، ولأنه لكل كفر من كفور هذه الدنيا الواسعة طريقة تليق به وتناسب ناسه، فقد كان علىَّ مع ناس كفرنا أن نكتشف أنسب الطرق للحياة فى الكفر الشلبى والزمن الشلبى والناس الشلبى بالعمدة الشلبى.

يرجع مرجوعنا لمسألة ركوب الحمار بالمقلوب لأنها أساسية، ربما

تكون مساوية للكلام بالمعكوس، الكلام الهادىء الناعم المؤدب الذى لاغبار عليه ولا اعتراض وقد أنعجن بالفعل الخسيس الغادر الخوَّان، شىء يشبه حضن الثعبان الشراقى الأزرق أو غش اللبن والعسل والسمن أو الشهادة الزور التى تطيِّر الرقاب، طيب، إذا كان كل شىء أمامك مقلوبًا فكيف تركب أنت حمارك بالمعدول؟ ربما يكون من الأفضل والأنسب أن تركبه بالمقلوب، صحيح أن الحمار سوف ينعم وحده برؤية الدنيا معدولة ومفتوحة أمامه فيعبر الكبارى أو يتخطى التراكيب والقنوات الضيقة أو ينحنى مع الطريق إذا انحنى وقد يتمكن من تحاشى جذع شجرة أو نخلة أو حافة مصطبة، وإنه بالقطع سوف يتمكن من التباعد عن معجنة طين تختمر على مهل جنب جدار أو حرف مدار ساقية أو سلاح محراث، وكل هذا مطلوب من أى حمار فاهم وظيفته، بل إنه وصل إلى علمى أن كل حمير الدنيا لا تملك أن تفعل معكوس ذلك، مستحيل يا سادة أن أتخيل أو يتخيل أى واحد منكم حمارًا يمشى بالمقلوب أو بالمعكوس، ذيله إلى الأمام ورأسه إلى الخلف منها، لكن الإنسان يستطيع أن يمشى بالمقلوب والمعكوس، يتكلم بالمقلوب والمعكوس، ويعيش حياته كلها بالمقلوب والمعكوس لأن للضرورة أحكام، حسنًا، سوف نسلم أمرنا لله ونبوح بما كان يوم أن ركبت الحمار بالمقلوب تنفيذًا لأمر أو من غير أمر حضرة العمدة الشلبى العارف أننى انظلمت ظلم الحسين فى زمنه، لو كان الأمر أمره فعلاً فقد عملها ليكسر نفسى ويذلَّنى أمام ناس الكفر لغاية فى نفسه أخفاها وداراها عنى عمرًا طال بطول عمرى الذى يساوى عمره إلا أقل القليل وأكون قد خسرت العمدة الشلبى الذى استعان بالأعوان من الغرباء عن كفرنا فبدَّلوه وغيرَّوه إلى الحد الذى شككنى فى أنهم رسموا تقاطيعه على شخص آخر غيره وألبسوه ثيابه وأنطقوه بلسانه وصوته أو أنهم على الأقل دسُّوا فى مسامعه الدسائس التى بدَّلته بحسب ما يروقهم، فى السابق كان يسأل ويستفهم ولا يخجل من إعلان عدم معرفته بالأشياء التى لا يعرفها، لكنهم بالقطع أوهموه بأنه صار يفهم فى كل شىء، وربما أقنعوه فى غيابى أن الإهانات والتجريس وقطع الأرزاق هى أفضل الطرق للتعامل مع من عرفهم وعرفوه فى الزمن الفائت،

كأنما انبنى فى غفلة منه ومنّا جدارًا عاليًا من عدم الاطمئنان أو الارتياح بيننا وبينه ولو أننا كنا قد عرفناه عن قرب فى طفولته وصباه وصدر شبابه فانفصلنا ووصلنا إلى فقدان الثقة وقلة الود، ثم انحدرنا إلى حالة من حالات الخلاف واحتمالات المواجهة.

أعرف أن أعوانه من ناس الكفر كانوا يقولون عنه كلامًا مغايرًا ومعاكسًا لما يرددونه عنه بعد أن استتبّ ووصل إلى عمادة الكفر، لكن هذا هو شأن الأتباع والأعوان دومًا، مثلهم مثل من سبقوهم فى كفرنا وكل الكفور المجاورة من أتباع العمد والمشايخ والأعيان وأعوان الباشا المأمور فى المركز وكتبة المحكمة والشهر العقارى والصحة، وكل هذا مفهوم ومعمول حسابه وجائز أيضًا، إنما أن أتحول أنا إلى هدف فهو ما لم أكن أنتظره منهم أو منه وأعمل له حسابًا، ربما كان من الأنسب أن يتباعدوا بمكائدهم عنى لأننى برغم كل ما كنت أعرفه عنه وعنهم عشت فى حالى، تناءيت عن المشاكل وقفلت باب دارى باختيارى فى أحرج الأوقات ظنًا منى أن فى السكوت حكمة لأنه عندما تتساوى قوتان متنازعتان على الغنائم فعلى العقلاء أن يتباعدوا عن كفتى الميزان الوهمى حتى لا ترجح الكفة الظالمة موهومًا بأنه لا يصح فى نهاية المطاف إلا الصحيح، ولا بد أن فكرتى كانت مغلوطة لأن الحق الساكت ينداس بنعال الكذب المطلوق المحبوك الثرثار، ولأن أمثالى ممن فقدوا السطوة والعزوة والمال فقدوها بالسكوت والتخاذل أمام مراوغات الخبثاء، ولأن الضعف اختيار أحمق بإرادة من يتباطأون أو يتكاسلون بينما تدور عجلة الأيام بسرعة البرق، لكنها على أى حال حسرة فى غير أوانها لأن الأموات لا يرجعون ولأن من اندفن تحت رماد الأيام البليدة قد اندفن، لكن الأرض ولّادة ولا بأس أن تراودنى رغم القهر وزحمة الكوابيس أحلام وردية فى مستقبل الكفر وعياله.

أعرف أن كفرنا مجرد واحد من كفور وقرى الناحية وكافة النواحى المتناثرة على امتداد الوادى والدلتا، وأن بلدنا نفسها مجرد بلد متوسط

المساحة على خريطة الدنيا الواسعة لكننى أحبه وأعشقه وأشعر فى ذات الوقت بأننى قصَّرت فى حقه، لا أدرى كيف لكننى قصَّرت، وربما يكون ذلك بسبب الكسل والقعود الساكت مدة فى الهامش، ولعلنى أرغب فى التكفير عن ذلك السكوت بإرادة البوح المفتوح التى لا يحدُّها حد، وبالطبع سوف أبوح بما تسعفنى به الذاكرة الكليلة والنظر الضعيف. فسامحونى إذا بحت بأشياء لا تليق أو تخفَّت عنى أشياء، وسوف أدارى عنكم اسمى فما أهمية الاسم بالنسبة لمن يريد أن يعرف سيرة كفر من بين مئات الكفور التى تتباعد وتتقارب؟ قد يكون الاسم علامة، لكن العلامات تتكرر وتتشابه، وقد يكون الاسم رسمًا وملامح ووظيفة أو دلالة على زمن بعينه، لكننى أشعر أننى كنت رسومًا وملامح ووظائف فى شتى الأزمنة، كنت حاكمًا ومحكومًا وكنت فارسًا جسورًا يحمل الرمح أو فرسًا بلجام، وعشت أزمنة فى نخلة بلح أو جذع شجرة توت أو فرع جميزة من أيام الفراعين، ولا بد أننى عشت مرة فى قلب بقرة جباها مملوك ظالم من فلاح مقهور ثم استدار ليبيعها لفلاح آخر بدينارين من ذهب أخذهما ودسهما فى سيالته ثم طعنه بحد السيف فى ظهره ورطن بلغة عربية غير مفسَّرة، ولا بد أننى كنت هناك فى زمام نفس الكفر أيام الفرس والرومان على هيئة قط أسود أو نمس، أو كنت ثعلبًا مطلوقًا فى براح الغيطان يقطع الطريق على الغرباء، لابد أننى انعجنت فى كل شىء وكل وقت وأننى عشت قبل هذه الحياة عدَّة حيوات أو أنه تهيأ لى أننى مارست الظلم وكابدته بحسب مكانتى فى كل زمان، فرحت من نخاع قلبى وحزنت الى حد اليأس من الدنيا فانتحرت مرَّة، شبعت وجعت وعشت مستورًا، كنت حاكمًا فظًا ركب على أكتاف الناس وجزءًا من هامة محنية لتابع بارع فى التملق ومدح من لا يستحقون المديح، شعرت بالغرور فتكبَّرت ثم تواضعت إلى حد التدنِّى، تخابثت وتساذجت وتذاكيت وتغابيت فحيَّرت سادة الزمام، كنت فى تلك الأزمنة فى طين الأرض وحيطان البيوت وأساور البنات وأحجار الطواحين ومدارات السواقى وحبال الشواديف وأخشاب الطنابير وكل شىء وكل شىء فى كفر عسكر أو هكذا تبدَّى لى فى كل ساعات التجلى النادرة التى كانت تراودنى

فى أحلك الأوقات وأكثرها إشراقا، وأحسب أنه يحق لى اختيار أن أكون معلومًا بالاسم والرسم والزمن المعاش أو مجهولاً ومتواريًا بإرادتى ربما حذرًا وحماية للروح وقد دخلنى الوهم بأن حماية العمر فى زمنى تستوجب الكتمان بينما رغبتى تستدرجنى للبوح بما لم يكتشفه غيرى وما اكتشفوه، وربما تصلكم هذه السيرة فى زمن العمدة الشلبى أو أى عمدة آخر يأتى من بعده، وربما يتضح لكم أنها تتشابه مع غيرها من سير القدماء فى كفرنا أو البلدان البعيدة أو أنها تختلف، لكنها حاصرتنى وأوجعتنى وأجبرتنى على تسجيلها رغم اختلاط معالمها وهى تتبدّى فأنشغل بترتيبها ولا تسعفنى الذاكرة، فقلت لروحى أنه يلزم على الأقل أن أنظّم اختلاطها غير المنتظم، جزء من المسألة كان عنادًا واختبارًا لقدرتى، والجزء الآخر كان اعتمادًا على قدرات الناس فى كفرنا على فهم المقاصد والمعانى وهى طائرة.

ولا بد أننى سوف أحدثكم بإرادتى أو غصبًا عنى عن كفرنا الساكن شط ترعة محدودة من ريّاح مائى متفرع من نهر النيل الأبدى قبل أن يتوزع على الفرعين.

صلوا على سيدنا النبى.

* * *

أول ما وعيت لروحى رحت لكتّاب الشيخ درويش وكنت أقلد العيال الصغار الأكبر منى وبعسر كنت أنطق الكلمات، وقبل أن أحفظ الفاتحة جاء يوسف وجلس إلى جوارى، يتعثر مثلما أتعثر فى نفس الكلمات حتى فتح الله علينا وانفكت عقدة اللسانين وحفظنا قل هو الله أحد، ولا بد أن أبى فرح بى فاشترى لى صندلاً له جلد أحمر ونعل بنى كنت أخلعه بأدب قبل أن أجلس وسط العيال على الحصير المفروش فى نصف مساحة القاعة، وعندما كان الشيخ درويش يصرفنا كنت ألبس صندلى وأنا فرحان بينما العيال يتحسسونه بإعجاب، وكنت عندما تبتعد أياديهم عنه أقوم وأرمح فى اتجاه دارنا والعيال تمسك فى ذيل جلبابى وتهتف:

يا وابور يا مولع... حط الفحم   وانا أقولك ولع... حط الفحم

لكن الولد يوسف غافلنى مرة وداس على نعل فردة الصندل اليسرى فانقطع السير الجلدى وانفصل عن نصف النعل فانخلع، توقفت لعبة القطار وانصرف العيال فبكيت بينما كنت أحمل الفردة المقطوعة وأنا أدخل دارنا وكانت أمى تخبز فأسكتتنى ثم أخذتنى وراحت إلى دار فرحانة أم يوسف وعاركتها لكن أم يوسف لم تسكت إلا عندما جاء أبو يوسف حلاق الحمير وطيب خاطر أمى بعد أن شتم فرحانة وقال:

- ياستى داحنا قرايب... وبأمر الله لما ربنا يسهل أجيب له صندل غيره.

خجلت أمى من نفسها ورجعنا للدار، ليلتها بتّ حزينًا من غير عشاء لأن أمى وبختنى على الإهمال وعدم المحافظة على صندلى الجديد، بعدها صرت أذهب إلى الكتَّاب حافيًا مثل بقية العيال.

ولا بد أن وقتًا طويلاً كان قد انقضى قبل أن يأتى أبو يوسف حلاق الحمير إلى دارنا ويجلس إلى جوار أبى فى المندرة يشرب الشاى ويخرج من «سيالة» جلبابه صندلاً أزرق ويناديني:

- تعالى... تعالى قيس الصندل ده...
- لأ يا ولد...

قالها أبى فطاوعته وسمعته يكمل بغضب:
- مش عيب برضه... ح نقبل العوض يابو يوسف، لبسه لابنك.
- ما هو أصل...
- لا أصل ولا فصل... أنت جاى تشتمنى فى دارى؟
- بلاش يا سيدى بلاش، ولا تزعل نفسك ألبسه ليوسف... بس تبقى أنت راضى ومرتاح.

وتغيَّر الكلام وما عادت حكاية الصندل تشغلهما بعد أن أعاده أبو يوسف إلى سيالته وأنا حزين.

فى الصباح التالى جاء يوسف إلى الكتَّاب بصندله الأزرق الجديد

وجلس به ملبوسًا فى قدميه على حصيرة الكتَّاب حتى رآه الشيخ درويش فشتمه وأمره بخلعه حتى لا ينجس الحصيرة الطاهرة، وأضاف بغضب:

- ولابس لى صندل ف رجليك؟ يكونشى أبوك بقى من الأعيان ياولد؟ اترزع واقعد وخليه يفوت علىَّ بعد صلاة العصر.

كدت أشكى للشيخ درويش مرة أخرى لكننى لم أفعل، وكدت أحكى له عن رفض أبى للصندل الأزرق عوضًا عن الصندل الأحمر لكننى خجلت من نفسى ولم أنطق بحرف، وعندما صرفنا الشيخ درويش لبس يوسف صندله الأزرق وعمل من نفسه سائقًا للقطار والعيال تمسك فى ذيل جلبابه وتهتف بنفس الغنوة التى كانوا يغنونها ورائى، طالبونى بأن أتعلق بذيل أى جلباب لكننى لم أفعل واكتفيت بالبكاء.

* * *

لكن بداية العمدة الشلبى غير بداية سلمان شلبى، وحكاية العمدة الشلبى غير حكاية سلمان شلبى، ولا بد أن نهاية العمدة الشلبى غير نهاية سلمان شلبى، صحيح أنهما شلبى فى شلبى لكنهما يختلفان، ولم أكن وحدى الذى اكتشف ما بينهما من فروق أو اختلافات، لأنه فى كفرنا الساكت من زمن الطوفان يبرع الناس فى التمييز بين الطباع والعادات والأهداف والألوان فى أشد مناطق التداخل تداخلاً، صحيح أن الأكثرية تكتفى بالمعرفة والفرجة من بعيد لبعيد وكأن الأمر لا يخصهم فى شىء، بل إن البعض منهم يتطوع أحيانًا بالنصيحة لمن يهمه أمره لكى يسكت أو يكفى على أخطر الأخبار «ماجورًا» ابتعادًا عن الشر إن كان البوح بالأسرار يضعهم فى سكة الخطر، وغالبًا ما يسكتون أو يتنهدون أو يتأفف الواحد منهم فيفرغ صدره المنفوخ بالهواء الفسدان، وقد يتوهم أنه ارتاح وشفى روحه بروحه، لكن الدنيا لا ينصلح حالها بالسكات، ولا ينصلح حالها بالكلام، فالكلام مثل التنهد والتأفف وإخراج الهواء الفسدان من الصدور، الكلام نفس خارج ونفس داخل فهل تنصلح أمورنا بإخراج الأنفاس؟ سامحونى لأننى سوف أدخل معكم فى سراديب مخفية ومحفورة فى الذاكرة بمناسبة

حكاية العمدة الشلبى ونهاية العمدة الشلبى الذى لا تجوز عليه غير الرحمة، أنتم تعرفون حكاية البيضة والكتكوت طبعًا، هى لغز محلول لكنه باق دائمًا لإثارة الجدل، ترى لو أننى انولدت خارج زمام الكفر الذى هو كفرنا الذى صحوت للدنيا فوجدتنى مزروعًا فيه، ولو... لو حدث وجئت فى زمن سابق أو زمن لاحق، هل كانت المصائر سوف تتبدل؟ طيب، لو كنت رحلت وتركت حدوده ورائى وعظام الأجداد فى مدافنهم والأحياء فى مشاغلهم ومشاكلهم فلم أشهد بعينى رأسى ما شاهدت فهل كنت أشهد من غير مشاهدة؟

أعرف أننى انولدت فى الزمن الفائت، وأننى بحساب الزمن الفعلى طرح الزمن الفائت، وأننى بحسابات البعض راحل عن دنياكم فى الأجل المحتوم الذى هو قريب قريب، لكننى برغم فوات كل هذه السنوات التى عشتها أحسب نفسى على الزمن الآتى، كأننى صبى أهوج أو شاب طائش مدفوع برغبة جهنمية لكشف ما هو مخبوء فى الذاكرة من تفاصيل الزمن الشلبى، كأننى أجَّلت حياتى نفسها لحين الانتهاء من رصد الأحداث وترتيبها أو لملمتها فى خيط واحد لحساب الأبناء والأحفاد، كأننى إذا قلت شهادتى أستحق أن أعيش بينما العمر بكل الحسابات قد أوشك على الانتهاء، ولا بد أن ذلك الزمن الذى انتظرته راوغنى وضللنى وفر منى فلم يطلع نهاره بعد، فهل أكتفى بأن أربط الماضى بالحاضر وأظل أحلم وأحلم حتى النفس الأخير فى عمرى بصورة المستقبل الذى راهنت عليه بعمرى وخسرت الرهان؟ ألم أقل لكم أنها مثل حكاية البيضة والكتكوت؟

* * *

قالت جدتى لأبى مرة عن واحد من عمد الكفور المجاورة لكفرنا:

- قالوا ناوى يتوب ويحج ويزور قبر النبى مصدقناش، كان قتال قتلة وخباص وظالم، وكانت سيرته فى كل الناحية مهببة بهباب، الغرض، سافر ورجع وقابلوه الخلق بالطبل والزمر والنقرزان، الناس فى البلد دكهت صدقت إنه تاب وانصلح حاله، لكن عدوينه

وبهايم عدوينه ماتوا ورا بعض ورا بعض ورا بعض، الخلق هناك قالوا إن ربنا رضى عليه بعد ما تاب وحج وأن موت عدوينه علامة من عند المولى على أنه قبل توبته وهداه، لكن الله يرحمه الشناوى جوزى كان شغَّال فى الصحة فى البندر، حضر غسل واحد م الخلق دول قال دا ميت مسموم وبلّغ، الدنيا انقلبت وطلعوا الأموات م الترب وكشفوا على رمم البهايم المرمية على حرف المصرف لقوهم صحيح كلهم مقتولين بالسم، ناس من أهالى الأموات اتهموا العمدة وانمسك وثبتت التهمة عليه، لكن ضحك ع الحكومة الهبلة أياميها وحلف ع المصحف إنه ح يتوب. الحكومة والّست مع العمدة وطلع م المحكمة براءة زى ما بتطلع الشعرة الناعمة م العجين، وفضلنا ف كفرنا نسأل إزاى السم بينباع فى بلد النبى المرسل وفى موسم الحجاج؟

ظل سؤال جدتى لأبى يطن فى آذانى ويبحث عن الجواب فلا يجده أو يسمعه، عجزت الكتب التى قرأتها عن تقديم الجواب الكافى الشافى، وعجزت أنا الذى راهنت على المستقبل وحسبت نفسى على المستقبل عن الوصول إلى شط الجواب للسؤال القديم القديم من أيام جدتى، وهل كان يخيفنى ويعوق حركتى ويلجم لسانى ما قالته جدتى عن مصير جدى الذى اكتشف وكشف المستور فما حماه الكشف من نهاية محزنة:

- رجع يا حبة عينى مايل ووشه مزرود زى الكبدة الفسدانة، قساللى عملوها فىَّ الكلاب، حطوا لى السم فى كباية الشاى وانا ف مكتب الصحة جنب مفتش الصحة، طالونى وطلعوا لى لسانهم وقالوا لى موت يا حمار قبل ما تفهم بقية الملعوب، ياريتنى فهمته وعرفتــه كله، دا أنا كنت لسه ح أدخل من عتبة الباب، كنت لسه ح ادخـــل من عتبة الباب، قالها مرتين وطب ساكت سكتة الموت، وأنا يومها من حرقتى لطمت وندبت وشتمت الحكومة اللى بتوالس مع الأكابر وقلت أشوف فيهم يــوم ولســه مــا شــفتوش، لســه ياضــناى ما شفتوش.

عيبى وعيب كل ناس أسرتى أننا عشنا فى منطقة النصف التى هى بين بين، بين الفقراء الفقراء والأغنياء الأغنياء، أنصاف أفندية وأنصاف فلاحين، يذهب الواحد منا إلى وظيفته فى الصباح ويرجع بعد الظهر لكى يرعى أرضه الموروثة عن جدود الجدود، نرمح وراء الدنيا الدَّوارة لنفهم ونفسر ونبوح بما تعنمناه، فينا المهندس والمدرِّس والمحامى وكاتب الحسابات، فينا الحكيم وشاعر السيرة النبوية ومأذون الناحية وفينا وفينا، لكننا جميعًا لم ننفصل عن فلاحة الأرض، يسافر الواحد منهم مثلما كنت أسافر إلى البندر وأعود لأشق على الأرض وأرعاها لتبقى حبلاً مجدولاً يربطنى بالكفر وناسه، لكننى صحوت ذات صباح لأجدنى عند الحافة قابلاً للإزاحة أو الزحزحة من مكانى فى منطقة النصف المستور المحترم الذى يسبق اسمه لقب الأستاذ، ولم أكن وحدى، كان كل من هم على شاكلتى قد تبدّلت أحوالهم، البعض منهم صعد وعلا نجمه وصار من جلساء العمد والمشايخ والمأمور وأكابر البندر والبعض الآخر انحدر وتدحرج وصار لايملك من زهو الزمن الماضى غير لقب الأستاذ يقولونه على مضض وكأنما عن غير اقتناع، وقد يتجاسر البعض وينادى الواحد منهم أى واحد منا باسمه مجردًا من أى ألقاب، ولقد سألت نفسى فى ذلك الصباح إن كانت أسرتى وأمثالها قد تبددت أو تلاشت أو ذابت أو انشطرت على نفسها شأن كل شيء يقبل الانشطار؟ وجاوبت نفسى بنفسى إنه احتمال قائم أن أكون وحدى الباقى فى منطقة النصف نصف، باختيارى الحر وبرغبتى أبقى حيث كنت، ربما لأنه من الضرورى أن يكون لكل ناس فى الكفر جماعة تعيش فى منطقة النصف نصف، ولا بد أنه دماغى المفلوت منهم ومنكم هو الذى أوحى لى بأن أظل فى مكانى ومكانتى، هى منطقة مهجورة بفعل فاعل أو مجموعة فعلة لكنها لازمة مثلما أثق بأننى لازم وضرورى مهما كانت المكايدات، وربما يحرّك وجودى فى نفس المكان بعض الأدمغة الكسلانة، أو لا يتحرك أحد فأظل وحدى منفيًا ووحيدًا رغم الزحام من حولى، ومن داخلى سمعت صوتها يهمس لى بنفس النبرات الواثقة التى أعرفها:

- أنت ابن بكره

تلفّت حولى فلم أجدها، لكن صوتها لم يكن وهمًا ولا خيالاً ولا خبلاً، كان صوتها الذى عايشته زمنًا يحوطنى ويكرِّر العبارة عدَّة مرات وكانت أنفاسها الهادئة تقترب وتقترب فأحسها وأشم رائحتها وأوشك أن أفرد الذراعين لأتلقاها بين أحضانى لولا بقية من عقل يحذرنى من المجازفة بفعل يتنافى مع ما تعيه الذاكرة ويصدقه العقل.

* * *

كانت جدتى لأم من الناس الشلبى، لكن أمى نفسها لم تكن منهم، وبالمثل أو على العكس كانت جدتى لأب من الناس العوف لكن أبى لم يكن منهم، ولا بد أننى حملت فى داخلى بقايا البذرتين، أستحضر الواحدة من بقايا البذرتين فأدنو من الشلبى أو العوف بحسب الحالة أو أتباعد، أشعر بالإعجاب أو الاستنكار أو الدهشة لكننى أبقى فى منطقة التوازن عارفًا حقيقة أمرى ومحافظًا على هويتى، قرابتى بعيدة وتسمح لى بأن أفكر بحياد ودون تعصب لأى منهما، كانت جدتى لأبى ابنة عم آخر عمدة من الناس العوف، صحيح أنها لم تكن ابنة عمه الشقيق لكنها كانت فى مقام بنت العم، رأسها برأسه فى الزمن الذى كانت تراعى فيه صلات الدم والرحم ويحترم الناس الأصول ويعرفون العيب، ولا بد أنه كان عمدة الكفر قبل أيام الملك فؤاد الأول بعد حصوله على لقب ملك بأمر الإنجليز أولياء نعمته، يقولون أن المرحوم سيد حسنين عوف كان على رأس قائمة المرشحين للحصول على رتبة البك، فأشاروا عليه بأن يذهب إلى السراى الملكى ليسجل اسمه فى كشوف المهنئين ويتقدم بهبة أو هدية تليق بالمقام العالى للملك فيناديه بالاسم مشفوعًا بالرتبة، وساعتها يصير من زمرة البكوات رسمى، لكن الرجل كان له عقل غير عقول ناس كفرنا، ولا بد أنه عرف أن المسألة من أولها مبادلة مضمونة المكسب لكل من لانت رؤوسهم وقبلت أن تنحنى للأسياد الكبار مرة ثم ترتفع بقية العمر على أولاد الناس الذين ولدتهم أمهاتهم أحرارًا فصاروا بفعل السخرة والكرباج والأعوان الظلمة فى حكم العبيد، هل كان ابن عم جدتى يبحث فى أركان الكفر أو الناحية أو كل البلد عن العدل المستحيل؟ وهل كان بحق مثلما يؤكدون مالكًا لزمام نفسه ومتحكمًا فى نزواته أم أنها مبالغات؟ سيرته المروية تحكى عن رجل من

صلب رجل، رأيه من دماغه وغاية مناه أن يحكم بالعدل الممكن فى أركان الكفر الصغير الصغير، يقولون أنه قبل أن يحدث له ما حدث فى أواخر أيامه أنصف مظلومًا لجأ إليه يشكو ابن عم العمدة نفسه فلم يتردد فى أن يطلب عبد القادر عوف الكبير ويوبخه أمام الناس ويفرض عليه إعادة الحق للمؤاجر المظلوم فامتثل واستجاب، يقولون إنه خرجت من القلب دعوة المظلوم تطلب للعمدة دوام الفضل وطول البقاء، لكن أبواب السماء لم تستجب لدعوة المظلوم هذه المرة، بل إن الدعوة بطول البقاء انعكست وتحولت إلى حشٍّ الأجل المباغت، لا يدرى أى الناس ممن عاشوا إن كان موته المفاجىء قد سبقه تدبير من أعداء العدل وأنصار الظلم فى الكفر أو الناحية أم أن السهم جاء من البعيد البعيد الساكن فى سراى الملك عن طريق أى واحد من الأعوان الأتباع الذين انحنت هاماتهم من كثرة السجود وحصلوا على الرتب والألقاب وزينوا صدورهم بالأوسمة والنياشين.

قصيرة هى أيام الفرح فى حياة ناس كفرنا، ولولا قدر كبير من الإيمان الراسخ فى القلوب ومقدار أكبر من الرغبة فى تخطى مصاعب الأيام ما تمنى إنسان فى الكفر أن يطلع عليه صبح جديد، ولا بد أن ناس كفرنا غير كل ناس الدنيا، ذلك أنهم رغم الهم الكابس على الصدور يبحثون عن الضحكات ويزرعون من حولهم أسباب الفرح، يتعلقون بالأوهام ربما، لكنهم يقدرون على الاستمرار، يتكاثرون ويتوالدون ويكابدون ويزرعون النبت الجديد، من فى كل الدنيا شاف ما شافوه واستمر فى الحياة؟ من داست قلوبهم سنابك الغدر والخيانة وانغرست فى صدورهم حراب الهمج من كل جنس ولون وظلوا يتنفسون؟ يتحدثون ويتباهون عن أمثال العمدة العوف الذى فات على الكفر زمنًا، وعد الخلق فيه بتحقيق بعض العدل فحفظوه واحتفظوا باسمه على ألسنتهم، بقيت سيرته ومانساه من رآه أو سمع حكايته أو تحدث إليه فى أمر من أمور الكفر واستفتاه.

* * *

بعد حوادث القتل التى جرت بين العوف والنعناعية من ناحية والشلبى والشناوى من ناحية أخرى عزلت الإدارة يوسف من عمادة الكفر

وعينت الصول عرفان فى النقطة الثابتة ليتولى شئون الأمن فى الكفر بعساكره ومخبريه الذين اندسّوا فى دروب الكفر يستطلعون الأخبار ويستقّزون الناس لمعرفة الأسباب، كانت هناك جرائم ارتكبها البعض فى وضح النهار وعلى مرأى ومسمع من أهالى الكفر، لكنه كان الخوف من ناحية وتواطؤ يوسف من ناحية أخرى، هذا التواطؤ الذى أدى إلى إنكار كل من شهد ورأى أنه يعرف أى شيء عن الفاعل أو الفعلة من أى الأطراف، ولا بد أن عزل يوسف لم يكن قد طاف فى خياله ولو من بعيد، ربما لأن فرعه من الناس الشلبى لم يكن طرفًا فى الأحداث كما كان يؤكد لكل من يراه، كان يبدو كالملسوع بنار حامية لا يعرف مصدرها، كان يأتينى ويحادثنى فى الأمر وكأننى مسئول عن قرار الإدارة بعزله أو على الأقل قادرًا على إعادته، كنت أشعر بضعفه وضعفى، وكنت أشفق عليه وعلى نفسى لأننى كنت أحتمله بأكثر من قدرتى على الاحتمال، ولا بد أن الإدارة بمرشديها ومخبريها توصّلت إلى معلومات تفيد عجزه عن إدارة الكفر أو مساعدتها فى الاستدلال على الرؤوس المدبِّرة أو الأيدى المنفّذة لتوجه إليها الاتهامات فى قتل تسعة رجال وثلاثة صبية وامرأة خلال أسبوع واحد انقلبت فيه كل الموازين.

كان من العسير أن أتباعد عنه فى تلك الأيام رغم أن ما كان يحادثنى بشأنه بخصوص ما حدث فى الكفر وما جرى من أمر عزله صار يتكرَّر ويتكرَّر إلى الحد الذى جعله يكتشف هذا بنفسه ويعلن أكثر من مرّة:

- أنا عارف إن اللى بنبات فيه بنصبح فيه،وإن الكلام اللى ح أقوله قلته قبل كده عشرين مرة، بس ح أعمل إيه؟ هى الخلق تقتل بعض وأنا أنعزل؟ هو أنت مش عارف إن ماليش ف الثور ولا فى الطحين؟ ما هو الكفر لسَّه مولَّع نار والقتل داير، هو الصول عرفان ح يمنع التار؟.

أهدئه بكلام مكرور ومعاد ثم يسود بيننا صمت، أشعر أنه فى بعض اللحظات ينظر ناحيتى بشك وكأننى المسئول، ربما يطول الوقت قبل أن

يستأذن فأستمهله ويسألنى نفس السؤال:

- وانت ح تعمل إيه؟ ف إيدك حاجة تعملها لى؟ ف إيدك؟ ح أقعد أهبب إيه؟ ح أقلب دماغك ودماغى أكتر من كده ليه...؟

كنت لا أجد على أسئلته الممرورة ردًا لائقًا غير تنهيدة أو زفرة أو كلمة عابرة أو عبارة أتمنى فيها أن يظهر الحق ويرجع إلى عمادة الكفر التى لم يهنأ بها أكثر من ثلاثة شهور، يهز رأسه يأسًا ويتركنى لأرتاح من أجل مواعيد شغلى فى الصباح التالى كما يقول وهو خارج من باب الدار.

وفى كل مرة كانت فردوس تأتينى بعد خروجه لتسألنى عن أسباب تلك الزيارات المتكررة التى تطول مددها يومًا فى إثر يوم، وكيف أنه يضعنى بقصد أو بغير قصد فى مواضع الشبهات فمن يضمن ألا تكون حركاته محسوبة عليه وعلى من يقضى معهم أوقاته؟ أو يضمن ألاَّ أتعرض للنقل إلى مدرسة خارج زمام المديرية مرة أخرى وكنت أطمئنها وأنا لا أشعر بأى اطمئنان، تذكرنى بما كان من أمره مع الأهالى طوال الفترة التى تولى فيها عمادة الكفر وكيف أنه كان يعادى الكل لحساب أصحاب الفضل عليه من الشراودة أهل «أصيلة» الذين نصَّبوه عمدة رغم إرادة كل الناس:

- دى الخلق فرحت فيه، هو ده كان يليق عمدة أبدًا؟ متصاحب عليك اليومين دول ليه؟

- هو أنا بروح له داره يا فردوس، ما هو اللى كل ليلة ينط لى، ح أطرده؟ دا حتى ما يصحش.

- ما عرفش بقى، أنا خايفة عليك وخلاص، ما تبقى تقصر معاه فى الكلام، فاتحله صدرك قوى على إيه؟ أنت نسيت؟.

لم أكن أنسى ما جرى منه أيام عينوه لعمادة الكفر، كان يبدو لى فى بعض الحالات وكأنه يتحَرَّش بى فأتباعد عنه وأوسِّع المسافة بينى وبينه، وصل الأمر فى بعض الحالات أننى كنت أفضل السكك التى لا يمشى فيها والأوقات التى لا يخرج فيها، لكنه كان يتابع أخبارى وإذا صادفنى تصادم

معى أمام الناس هزلاً فيه كل الجد، إن سكتُّ اعتبرها خوفًا من هيبته ورهبة من أهل «أصيلة»، وإن وقعت فى مصيدته ودافعت عن نفسى أشهد الناس على سواد قلبى وبياض قلبه لأن الأمر من أوله لآخره دعابات ومضاحكات ربما لم أفهمها، ينتهى العرض أمامهم وقد أيَّدوه فى الرأى بأننى «حنبلى» لا أحتمل دعاباته أو أفهم نكاته، كنت أشعر فى كل الأحوال أنه يسابقنى على نحو غامض وأنه فى كل احتكاك يحدث بيننا كان يكسب نقطة وأخسر نقطة، كانت كل المقدمات السابقة تقول أنه يتخابث فى معاملاته معى، يعرف نقاط ضعفى ويستغلها وأعرف نقاط ضعفه وأتعفَّف عن استخدامها، يخاصمنى أمام الناس فى شارع أو ميدان ويصالحنى فى زقاق أو ركن دار مثل دارى، أنسى ما جرى وأبدأ معه من جديد، ألتمس له الأعذار إذا ذكَّرنى بالقرابة التى جمعتنا وكيف أننى عرفت ظروف حياته الصعبة التى عاشها وحظه التعس الذى حرمه من التعليم:

- وهو أنت يا أستاذ ح تجيب واحد متعلم زى حالاتك لواحد زى حالاتى، أنا اتهيأ لى إن مخك يوزن بلد، ما تبقاش تزعل منى وتنحمق كده، إبقى استحمل قصاد الناس الفالصو لجل ما تبقالى ف وسطهم قيمة وهيبة، ياخويا داحنا اخوات من زمان... اخوات ولا مش اخوات؟ صافى يا لبن؟
- صافى يا لبن يا حضرة العمدة.
- عمدة إيه وبتاع إيه؟ هى العمودية ح تدخل بين الاخوات كمان؟

أتأمله مليًا ولا أملك غير إعلان السماح، يبدو مرتاحًا وراضيًا عن نفسه وقد زالت كل الحواجز بيننا وانفتحت صفحة جديدة، لكن الأيام كانت تمر ويطويها هو ثم يأتينى مرة أخرى ليطالبنى من جديد أن أنسى ما قد يكون قد قاله أو فعله وأغضبنى، وكنت دائمًا أنسى ما فات وأبدى موافقتى على أن نبدأ من جديد.

قد لا أكون ذكيًا بالفطرة لكننى لست غبيًا فى أسوأ الحالات، وأنا لا أحدثكم عن الذكاء المدروس واختباراته الشائعة، وإنما أتحدث عن الذكاء

الفطرى فى التعامل مع البشر والأشياء، ومن هذه الناحية بالتحديد يكسبنى يوسف، قد يكون يوسف معجونًا بالكذب، وربما يثق أننى أعرف أنه كذاب ومع ذلك كان دائمًا يفلح فى أن يجعلنى أصدقه، على الأقل عندما يشاء أو يتطلب الموقف استسلامى لحالة التصديق التى ينتزعها منى انتزاعًا، تارة بالإلحاح الذى يوصلنى إلى حالة من حالات الخجل، وتارة باستغلال قدرتى على الاحتمال، ولا بد أنه قرأنى أكثر مما قرأته أو على الأقل قرأنى مثلما قرأته، ربما يكون قد عرف حقيقتى أكثر من أى واحد فى كل الناحية، كان يقول للناس عندما تأتى سيرتى أننى أملك قلبًا أبيض من اللبن الحليب، وأننى قادر على الاحتمال وأقدر أيضًا على النسيان، لكنه كان يحذّرهم أيضًا:

- بس إن زاد عليه الضغط تركبه العفاريت ما يعرفش أبوه.
- وساعات ينسى نفسه ويندفع زى الطور الهايج ما تعرف لجامه فين... بس أنا حافظه وعارف دواه.

مثل هذه العبارات كان يقولها فى حضورى وغيابى على حد سواء، وكنت عندما أسمعه يردِّدها أفكر فى أمر نفسى وكيف أننى بالفعل مثلما يقول يوسف أحتمل وأتحامل وأتحامل ثم ينفلت من عقلى ولسانى وكل أعضاء بدنى الزمام، ربما أكون قد خسرت كثيرًا بسبب تلك الطبيعة التى تبدو متقلِّبة لبعض الناس، وربما لا أكون عارفًا للحدّ الفاصل بين منطقة الاحتمال ولحظة الانفلات، ربما عرف يوسف تلك المنطقة أكثر منى واستثمرها لصالحه، وربما عرف أيضًا دوائى أو لجامى فى لحظة الاندفاع، هل أقول أن يوسف استثمر نقاط ضعفى لصالحه طوال الوقت، أو أنكر ذلك عليكم وعلى نفسى؟ الكذب خيبة، لكن الكذب ألوان، كذب أبيض لا يضر وكذب رمادى ضرره قليل إذا قارناه بالكذب الأسود كثير الضرر، ومادام هناك كذب أبيض ورمادى وأسود فلا بد أنه هناك أيضًا صدق أبيض ورمادى وأسود، تتفاوت ألوان الصدق والكذب وتتدرج إلى عشرات الدرجات، أحيانًا كنت أصنف كذب يوسف فى خانة الكذب الأبيض المكشوف الذى لا ضرر منه ولا خوف من سماعه، وأحيانًا كان يتدرج فى كذبه داخل

المناطق الرمادية حتى مناطق السواد الحالك، لكنه لأسباب خاصة كان يتباعد عنى فى تلك الأوقات، كأنما كان بينى وبينه اتفاق غير مكتوب أو منطوق منذ زمن لا أعرفه أو تعيه الذاكرة مؤداه أن يمارس كذبه دون أن يتسَّبب فى ضررى بشكل مباشر مقابل أن أسكت أو أتكاسل أو أتهاون فى بعض الأوقات عن كشف أكاذيبه فى كل صغيرة من الصغائر التى كان يرتكبها، هو نوع من التواطؤ بالصمت الذى يصيب الإنسان بعد أن يكتشف أنه لا جدوى من الكلام، لكنه على كل حال أدى لاستمرار العلاقة بيننا، وربما كانت حكايتى مع الأستاذ رجب مدرس العربى والدين فى المدرسة الثانوية قد علمتنى أن الأكاذيب تختلط مع الحقائق فى نسيج حياة بعض البشر إلى الحد الذى يصبح من المستحيل أن يفصل العقل بينهما، كانت تجربة عسيرة على الهضم جعلتنى أفيق لنفسى أو أدرِّب روحى على قدر من الغفلة بالإرادة، أتخلص ولو قليلاً من تلك الأوهام القديمة التى زرعتها فى نفسى جدتى لأبى ورواها وباركها أبى نفسه، أشياء عن الصدق والكذب، والأبيض والأسود والظلم والعدل، كنت أحسب أن الضعفاء وحدهم هم الذين يلجأون إلى الكذب وأن الأقوياء لا يكذبون أبدًا، وكنت أضع يوسف وأمه فرحانة وأبوه فى خانة الضعفاء ممن يلجأون للكذب بكل درجاته لتستمر الحياة، لكننى اكتشفت أنه ما دام الكذب ألوانًا ودرجات تبدأ بالكذب الأبيض وتمر بالرمادى حتى تصل من خلال درجاته المتداخلة فى نهاية المطاف إلى الكذب الأسود، ثم اكتشفت أن الصدق أيضًا ألوان ودرجات تبدأ بالصدق الأبيض النقى وتمر بكل درجات الصدق الرمادى حتى تصل إلى الصدق الأسود...هناك فى حياتنا صدق أسود.

نرجع لحكايتى مع الأستاذ رجب الذى كان أستاذ الفصل ورئيسًا لجماعة الخطابة فى المدرسة وقد اختارنى بنفسه لأن أكون عضوًا فيها، كان يجمعنا فى قاعة المسرح الفسيحة ويعلّمنا أصول الخطابة والمناظرات وكيفية مواجهة العيون المصبوبة علينا تتفحصنا وترصد حركاتنا، وكان يؤكد لنا أن الشجاعة الأدبية هى أهم شرط للوصول إلى مرتبة الخطباء العظام من أمثال الزعيم سعد زغلول والفتى الجسور مصطفى كامل، ولعله

عَلمنا أيضًا كيفية تفنيد الحجج الباطلة والأدّلة الزائفة التى يلجأ إليها المتناظرون معنا فى المدارس المنافسة.

لكنه لأسباب أقوى منه ومنى ومن ناظر المدرسة تغيَّرت الوزارة، وظننت أن تغيير الوزارة لم يكن بقادر على أن يتبدَّل الأستاذ رجب صاحب المبادىء الراسخة والقدرة على إقناع الخصوم بأفكاره مهما كانت مخالفة لأفكارهم، لكنه تبدَّل وراح يمتدح رئيس الوزراء الجديد ووزير المعارف الجديد على نحو بدا لى ولتلاميذ الفصل انقلابًا كاملاً ومعكوسًا لأفكار كان يجاهد فى تلقينها للتلاميذ ضد الحزب الذى تشكلت منه الحكومة ووزير المعارف على وجه التحديد، قلت لنفسى مستحيل أن يصالح الأستاذ رجب عدوَّه القديم الذى اتهمه بكافة الاتهامات لمجرد أنه صار وزيرًا للمعارف فى وزارة قال أبى عنها أنها قصيرة العمر ولا يسندها قبول شعبى لأنها من حزب مكروه، وقلت ربما يختبرنا فى مناظرة مفتوحة، فانطلقت أتهم الوزارة ووزير المعارف بنفس التهم التى كان يكيلها لهم الأستاذ رجب حتى الأمس القريب، أسكتنى فلم أسكت، حسبتنى مصطفى كامل يخطب ضد الإنجليز والسراى وظننت أننى سوف أنال رضاه كاملاً، والأولاد ينظرون إلىَّ باندهاش وإعجاب ويصفقون استحسانًا، وانقلبت موازين الفصل ثم تطور الأمر بإطلاق هتافات رددها تلامذة الفصول المجاورة وصارت فى حوش المدرسة مظاهرة رفعونى فيها على الأعناق وهتفوا لكن الباب لم ينفتح.

فى نهاية اليوم المدرسى أعطانى ناظر المدرسة خطاب فصل لحين حضور ولىِّ الأمر، كنت محاطًا بالأولاد وقد أكتسبتهم لصفِّى بسبب نجاحى فى إثارة الأستاذ رجب بل وهزيمته، لكننى كنت فى نفس الوقت أشعر أننى انطردت من الجنة ودخلت الجحيم، كأنما سقط على دماغى جبل وانكتمت أنفاسى أو أصابنى خرس، هل يمكن أن يؤدى الصدق والشجاعة والتفاصح إلى فصل التلميذ المجتهد من مدرسته لمجرد أن الوزارة تغيرت؟

لا بد أن همًا ثقيلاً انحط على دماغ أبى وهو يواجه المشكلة ويبحث عن مخرج منها، كنت قد انعزلت فى القاعة الجوَّانية وحدى ممتنعًا عن

الكلام والأكل. حتى جرعات الحليب كنت أبتلعها بعسر، ربما فقط بسبب إلحاح أمى التى كانت تحاول طمأنتى بأن أبى سوف يحل المشكلة لأنه حلاَّل العقد الصعبة، تحدثنى عن اتصالاته التى لم تتوقف وكيف أن الأستاذ رجب رغم عناده سوف يتنازل عن حقه فى فصلى نهائيًا كما يشيعون، كنت أسمع منها ولا أرد، وفى وحدتى كنت أتأمل نسيج الجلباب الرمادى الذى كنت أرتديه، أغوص بنظراتى فى تلافيف النسيج فى محاولة لأن أتمكن من فصل اللونين المتداخلين فى بعضهما البعض ولو بشكل متخيَّل بحيث أستطيع أن أعيد تشكيل النسيج إلى خطوط واضحة ومعزولة من الأبيض والأسود، ولا بد أنه أبى الذى قرأنى وفاجأنى وقد كنت مستغرقًا فى فحص اللون الرمادى:

- ما فيش أبيض أبيض ومافيش إسود إسود.

نظرت إليه وقد أعادنى صوته وربما يكون قد أنقذنى من الجنون فتابع كلامه وهو يجلس إلى جوارى بالبنطلون الرمادى.

- كل وقت وله أذان، والوزارة... اتغيرت... اتغيرت...

لابد أنه اقتادنى بهوادة من دوَّامات الخيال المعزول الجامح إلى شاطىء الواقع الصخرى الصلب وهو يؤكد على تغيير الوزارة وربما نظام الكون:

- أنا باصرف عليك دم قلبى لجل تتعلم وتفهم الخلق ماشيه إزاى والدنيا بتلف بيهم، ليل ونهار، فوق وتحت، لا الراكب بيفضل راكب ولا الماشى بيفضل ماشى، مالك أنت بالوزير؟ ما فكرتش إنه ممكن يفصلوك بصحيح؟ وأنه ممكن ناظر المدرسة والأستاذ رجب يترقوا على قفاك؟

تحيَّرت فى أمر نفسى وهو يقوم ويشدنى لأقوم معه وقد ظهرت على ملامحه راحة من حلِّ العقدة الصعبة وفك اللغز المستحيل، تبعته وسمعته وهو يحكى تفاصيل المساعى التى بذلها من أجل إعادتى للمدرسة وكنت على وشك أن أتحوَّل إلى كبش فداء.

كانت هذه هى حكاية الأستاذ رجب وخطورة الصدق الأسود التى هى أخطر بكثير من كل ألوان الكذب، ربما لأن الكذب يتلوَّن بسرعة، أو لأنه محسوب فى نهاية الأمر ضمن المساحات الرمادية المطلوبة أكثر فى نسيج الحياة، لعلَّنى شعرت على نحو غامض أن يوسف سوف يلتف حول مشكلته ثم يقفز على أسوارها ويتخطاها ويعود من جديد لعمادة الكفر وربما أقوى بكثير مما كان.

* * *

- مات الملك... عاش الملك.

سمعتها لأول مرة وأنا بصحبة أبى فى البندر، كان أبى يمسك بيدى وهو يتجه إلى محطة القطار، كان هناك على رصيف المحطة زحام من الأفندية بالطرابيش والمشايخ بالجبب والقفاطين والعمامات الملفوفة، وعندما سمعوا صوت القطار رجعوا إلى الوراء خطوة متباعدين عن الرصيف، كانت صفارة القطار عالية الصوت. وكان الدخان الكثيف الأسود يخرج من المدخنة الكبيرة على سطح الونش، عندما توقف القطار نزل على الرصيف أفندية بطرابيش ومشايخ بجبب وقفاطين وعمامات، انزحم الرصيف وتراجعنا إلى الوراء مرة أخرى ثم سمعنا الهتاف:

- مات الملك... عاش الملك.

وردَّد كل من كانوا على أرضية الرصيف المزحوم وبعض من كانوا يطلّون من النوافذ نفس الهتاف، بعدها تجمعوا حول الأفندى النحيل لابس البدلة الرمادية والطربوش وقد اعتلى دكة خشبية وصار يحدثهم بكلام لم أحفظه وحفظت الهتاف الذى قاله عدَّة مرات وكل الناس ترد عليه وأبى يرد وأنا أرد معهم بحماس رغم أننى من فرط قصرى لم أعد أرى الأفندى بالطربوش:

- مات الملك... عاش الملك.

وعندما عدنا للكفر انفلتت يدى من يده وصرت أجرى فى شوارع الكفر وأهتف نفس الهتاف والعيال تتبعنى، أجرى وأهتف والعيال تتزايد من

حولى، طالبتهم أن يردِّدوا نفس الكلام من ورائى فردَّدوه وتزايدت أعدادهم، ولا بد أننا اكتشفنا فى ذلك النهار لعبة جديدة أسمها مات الملك عاش الملك، وبعد العشاء عدنا نتجمع من جديد ونلعبها وقد كان يحق لى أن أقودهم فى ذلك المساء لأننى كنت أول من اكتشف اللعبة ونقلها من البندر الى ناس كفرنا الصغار والكبار على حد سواء، لكننى وأنا راجع سألت نفسى كيف استطاع الملك أن يموت ويعيش فى نفس الوقت، وتذكرت أن الملوك غير الناس العاديين أمثالنا، الملوك فى كلام كل العيال الأكبر منا يستطيعون عمل أى شىء، وفى مراهناتهم بعضهم لبعض كان الولد الكبير يقول للولد الأصغر منه مثلاً:

- ابن الملك يقدر يطلع النخلة العالية، ويقدر ينط من فوق السطوح ع الأرض ما يتعورش... تقدر أنت؟
- ابن الملك يقدر يعدِّى البحر وإيديه ورجليه مربوطين ويقدر يسبق القطر وهو بيجرى، تقدر أنت؟

وكم من مراهنات مستحيلة اخترعوها واخترعناها معهم لتأكيد قدرات ابن الملك التى شافها ناس كبار، أب أو عم أو خال أو أخ أكبر شاف وأقسم على المصحف إنه شاف ابن الملك يفعل كذا أو كذا أو كذا دون أن يعترض على الكلام أو الفعل الصعب طالما نسبوه لابن الملك.

لكننى لم أسمع عن ابن ملك أو حتى ملك مات ثم عاش مرة أخرى، فكرت أن أسأل أبى لكننى نسيت مثلما نسينا فى الكفر لعبة مات الملك عاش الملك بعد عدة أيام.

لكن سيرة الملك انفتحت فى دارنا من خلال الشيخ عبد الصبور الذى هو قريب أبى من بعيد وكان له أخ شفناه فى شرخة من الأرض مجاورة لأرضنا ثم اختفى وعرفنا من الشيخ عبد الصبور أنه دخل الجيش لتأدية الخدمة العسكرية ولعجزهم عن دفع «البدل»، لكن نبرة الشيخ عبد الصبور عن أخيه تغيَّرت وهو يكثر من زيارتنا ويطوِّل فى الوقت الذى يقضيه عندنا وليس له كلام إلاَّ عن عبد النصير الذى اختاروه وحده من بين كل المجندين

فى مديريتنا ليكون ضمن حرس جلالة الملك فاروق، كنت أرى صورة الملك المنشورة فى الصحف التى كان أبى يشتريها أحيانًا، أراه شابًا جميل الملامح بالطربوش وأتخيله قادرًا على عمل كل المعجزات التى يتراهن عليها العيال فى كفرنا، ولا بد أن كلام أبى عن الملك الطيب توافق مع كلام الشيخ عبد الصبور الذى كان ينقل لنا أفعاله وأقواله كما ينقلها له أخوه عبد النصير وهو من ضمن الحرس الملكى، ويصف لنا ملابس التشريفة التى يلبسها وهو راكب الحصان بالكسوة أمام موكب جلالة الملك وكيف يرافقه فى كل تحركاته وينعم بعطف جلالته على عساكر حرسه الذين يأمر لهم أحيانًا بوجبات من اللحم الخالص الذى يأكل منه ويصرف لهم هبات مالية أحيانًا ثم يسمح لهم بركوب كل القطارات بالمجان، وكان كل ما يتمناه أن يجدّدوا له مدة الخدمة فى الحرس الملكى فاقترح عليه أبى أن يكتب له طلب التجديد بنفسه ففرح ودعا لأبى بزيادة الرزق والستر فى الدنيا والآخرة، كتب أبى طلب التجديد بخطه اذن وسلمه الشيخ عبد الصبور لأخيه، لكن الرجل لم يكف عن المجىء والحديث عن الملك وحرس الملك، يسأل أبى عن رأيه فى مستقبل عبد النصير إذا قبلوا تجديد خدمته فى الحرس الملكى فيطمئنه أبى، يتنهد ويهز رأسه ثم يقول:

- دا لو جدّدوا له ح تنفتح له طاقة القدر، ح يعيش فى خير ما حدش يحلم به فى الكفر كله، ومش بعيد يحوش أرض ويصير من الأعيان.

- ربنا يسهل وينولّكم المراد.

يقولها أبى ويحاول أن يغيّر الموضوع لكن الرجل يعيد ويكرر ما سبق أن قاله وردّده وحفظناه، ومرة همس بصوت خافت فى أذن أبى:

- ما تدينا زينب بنتك لأخويا عبد النصير

- زينب ح تكمّل علامها يا شيخ عبد الصبور، دى لسه عيلة، ولما تكبر تبقى تاخد اللى يليق لها ويكون صاحب النصيب، ما تزعلش منى إن قلت لك ما تفتحش السيرة دى تانى... زينب؟ لأ...

كانت حسابات أبى أن الرجل سوف يكف عن المجىء، أو على الأقل

يخفف من زياراته لنا لكنه لم يفعل، ظل يأتى ويتحدث عن عبد النصير وحرس جلالة الملك، وكيف أن عبد النصير رآه أو سمع صوته من داخل السراية وكيف ناداه وسأله عن اسمه وبلده فجاوبه بكل الأدب، وكيف ترقى من عسكرى إلى وكيل أومباشى بشريط ثم أومباشى بشريطين وهو أمر ليس بالسهل فى حرس جلالة الملك الذى تزيد فيه قيمة الشريط على قيمة الدبورة على كتف الضابط فى أى سلاح، من كثرة حكايات الشيخ عبد الصبور عن أخيه بدأ أبى يتهرب منه ويأمرنا بإنكار وجوده لو سأل عنه وهو الذى لم يفعل مثل هذا الأمر أبدًا مع غيره من ناس الكفر رغم القرابة المؤكدة التى تربط بينهما.

وذات مساء جاء الشيخ عبد الصبور ووقف أمام باب دارنا المفتوح ونادى باسم أبى، وقبل أن تفكر أمى فى إنكار وجوده فاجأها وهو يتقدم ناحية العتبة قائلاً:

- أنا عارف إنه لسه واصل دلوقت وداخل من باب الدار، أصل أنا شفته من فوق سطوح الجماعة، عقبال عيالك عايز أبشَّرك وأبشَّره بالخير اللى جايله والسعد اللى ح ينكتب له...
- اتفضل.

ودخل إلى القاعة ليرحب به أبى ويسمع منه البشرى التى تلخصت فى قبول طلب التجديد الذى تقدم به عبد النصير لتجديد خدمته فى الحرس الملكى وكيف أن أبى بخطه الذى هو مثل سلاسل الذهب يفتح الأبواب المسكوكة، ذلك أن جلالة الملك قرأ الطلب بنفسه وعبر عن إعجابه بالخط وفصاحة كاتب الخط الذى هو أبى فطلب الأومباشى عبد النصير وسأله إن كان هو الذى كتب الطلب فلم يكذب أو ينسب لنفسه خطًا لا يخصه، قال الحقيقة فى حضرة جلالة الملك والأكابر الكثار الذين كانوا فى مجلسه، بل أنه أضاف اسم كفرنا فانبسط الملك والناس الأكابر وضحكوا وقالوا له قبلنا طلبك يا عبد النصير.

- مبروك اللى نال مراده وشرَّف كفرنا وناسه.

- بكره الخلق ترمح وراه محدّش يحصله.

ولم يعلق أبى على كلامه متحاملاً على نفسه حتى لا يفسد على الرجل فرحته، لكن الرجل لم يكف عن التباهى بما حدث، شرب أكثر من مشروب بعد أن شاركنا وجبة الغداء ثم اعتدل فى جلسته وهمس بجدية ظاهرة:

- خدمة قصادها خدمة، تنزل مصر وتروح على ميدان عابدين، تسأل على عبد النصير أخويا ألف مين ح يدلك، ح ياخدك للضابط رئيسه فى الحرس الملكى، ح يدخلك على طول ويفكر جلالة الملك باسمك وبلدك وخطك، ح تتعين خطاط فى الديوان الملكى، شوف أنت بقى خطاط فى الديوان الملكى تساوى إيه؟ مش بقولك ح ينكتب لك السعد؟ ونبقى بالمرة نخلص موضوع كتب كتاب البنت على أخويا عبد النصير.

ساد صمت شعرت فيه بالزهو لأن أبى سوف يكون خطاطًا فى الديوان الملكى، وأنه لا بد سوف يرى الملك جالسًا على عرشه، وربما يجعلنى أراه، لكننى أفقت من خيالاتى وأنا أسمع صوت أبى الغاضب:

- بقى أنت جاى وعينك مفتوحة كده وعايز البنت كمان؟ أنا مش سبق وقلت لك زينب بنتى ما تليقش مع أخوك؟ مش قلت لك؟

- هو انت ح تفضل مستقل بيه لأمتى؟ دا ح يتوسطلك تشتغل شغلانة ما تحلمش بيها، ما تلين دماغك لمصلحة نفسك.

- الله الغنى يا أخى... مش عايز أتوظف فى الديوان بتاع أخوك اللى ورثه عن أبوك، قاعد مستنى إيه؟ أجيب لك عرقسوس؟

لم يكن فى دارنا عرقسوسًا، وربما لم يدخل العرقسوس دارنا فى حياة أبى الذى لم يكن يحبه أبدًا رغم انتشاره فى دور ناس كثار فى الكفر خصوصًا فى شهر رمضان، كدت أذكّر أبى بتلك الحقيقة خوفًا من أن يوافق الشيخ عبد الصبور كعادته كلما اقترح عليه أبى مشروبًا أو طعامًا، لكن

الرجل نظر إلى وجه أبى بغضب وقام نصف قومة ثم أكملها على مهل، وربما يكون قد غمغم بكلام غير مفهوم لأنه نصف منطوق.

خرج الشيخ عبد الصبور من دارنا فى تلك الليلة الشتوية وربما لم يدخلها بعد ذلك أبدًا، ولم أفهم الأسباب، ربما كانت هناك علاقة بين الرجل والعرقسوس، أو أن هناك حادثة حدثت له على مسمع ومرأى من أبى فيها عرقسوس، لكنه على كل الحالات تباعد عنا ولم نعد نراه إلا نادرًا، كانت سيرته تنفتح فى مناسبات عديدة عندما يتحدثون عن أخيه عبد النصير الذى شاع فى الكفر أنه صار من الواصلين الذين يوسطونهم لحل المشاكل العويصة فى كل الناحية وذلك بسبب أنه كان يحرس الملك ويراه ويتقبل عطاياه ويشترى الأرض التى ما كان يحلم بامتلاكها ولا حسب نفر من ناس الكفر أنه سوف يطأها بقدميه أبدًا، حلاق الحمير أبو يوسف نفسه كان يقول عنه هذا الكلام رغم القرابة الشديدة بينهما، لكنه كان يأتى ويطيب له أن يفتح سيرته:

- وهو إن على ولا وطى مش حتّة عسكرى ولا حتى شاويش، إش جاب لجاب، دا المرحوم أبوك دفع لكم البدلية نهار ما كانت العشرين جنيه تشترى فدان طين، دفع لكم لجل ما حدش منكم يلبس الميرى، يقوم الآخر يقولك روح لعبد النصير ونادى عليه فى ميدان عابدين لجل يتوسط لك؟ لا... لا مالوش حق أبدًا.

ولا بد أن كلام أبو يوسف كان يدوس على جرح أبى الذى كان يتشكى من أن علاوة دورية راحت عليه أو أن ترقية كان يستحقها لم يحصل عليها وحصل عليها من كان أقل منه، صار أبى يتحدث باعتباره من مظاليم وزارة الصحة، لكنه أبدًا لم يوافق على كتابة مظلمة يأخذها أى واحد باليد ويسلمها لعبد النصير ليقوم بتسليمها لجلالة الملك وهو الذى كتب بخطه الذى يفتح السكك المفتوحة عشرات المظالم والشكايات لناس الكفر دون أن يكتب مظلمته ليرفعوا عنه الأذى ويعود إليه بعض حقه المنسى فى ملفات المديرية الصحية.

كنت أشعر أنه رغم الضحكات حزين، كنا نكبر وتزيد مشكلاتنا فى

الدار والمدارس، وكانت أمنياته القديمة فى عدل الملك الصغير الذى كبر تتناقص وتتضاءل ثم تنعدم، وكلما زادت مشاكلنا، أو ضاعت من راتبه علاوة أو فاتته ترقية زاد غضبه على السراى والملك وحرس جلالة الملك، ورغم رفضه لبيع ميراثه من الأرض إلا أن أملاك عبد الصبور وعبد النصير التى كانت تجاور أرضنا من ناحية واحدة فى شرخة ضيقة وقصيرة من الناحية الشرقية زادت واتسعت وصارت تجاورنا من الشرق والغرب وقد كان يدفع بسخاء لمن يرضى أن يبيع له من جيراننا فى الماضى. ولا بد أن عبد الصبور كانت له أغراض يفهمها أبى وتخفى على أمثالى فى ذلك الزمن البعيد.

* * *

فردوس هى عمرى: شريكتى فى الفرح والهم ومستودع أسرارى، لها وحدها من دون خلق الله أفتح أبواب قلبى ولا أدارى، لا أشعر أمامها بالخجل من ضعفى أو مخاوفى أو عوزى، هى مثل البلسم تنحط على جرحى فتداويه ويطيب، يزول كل ما قد يكون أصابه من وجع، ومعها أنسى كل المصاعب وأضحك من قلبى، أزرع الأحلام التى تبددت مرة أخرى وأعيش بالأمل، تحوطنى وأنا العريان البردان بثياب الأمنيات الناعمة فأستشعر الدفء بنظرة منها، تبدو لى مثل أم فقدتها فى طفولتى المبكرة واستعدتها فى مطلع شبابى فصرت رغم سنوات العمر التى فاتت وانقضت طفلاً أبديًا لا يكبر قلبه ولا يشيخ رغم التجاعيد البادية والشعر الأبيض يغطى الرأس والشارب والحاجبين والصدر كله، عاشت ترعانى وعشت أرعاها، تحنو علىَّ وأحنو فى كل لحظة، تحوطنى وأحوطها بالود وسماحة النفس، فردوس هى عمرى المخلوط فى عمرها فهل طالتنى الكلاب فى مقتل؟

كنت قد واجهت الموت الحقيقى مرة، هى لحظة خاطفة تلك التى تفصل بين الحياة والموت، لكن تلك اللحظة الخاطفة نفسها تتسع رغم قصرها الشديد لكى يسلم الإنسان وديعة عمره لمن يهمهم أمره، يسلمهم بالروح أو إرادة الحياة آخر الوصايا، وربما لا يقول باللسان حرفًا، لكنه

يبعث إليهم برسالة مختصرة حاسمة وقاطعة ولا تقبل الضياع أو المساومة، هكذا على الأقل استشعرت أنا فى تلك اللحظة الخاطفة أننى أبعث لها رسالتى المختصرة الحاسمة أوصيها برعاية العيال إذا مت فجأة، الغريب الغريب أن الرسالة وصلتها رغم بُعد المسافة بينى وبينها، وصلتها وحدثتنى عن تفاصيلها بنفس الصورة التى تخيلتها بعد ذلك، وشعرت ساعتها بنوع من الأمان الداخلى لأن ما بينى وبينها موصول ومتصل، وأنه فى أسوأ الحالات لا بد أننى سوف أتمكن من التواصل معها ولو عبر اللحظة الخاطفة الأخيرة من عمرى.

فكرت فى أمرها وأمرى وأنا أتأمل أركان الدار وقد خلت منها، ولم يكن فى الدار آثار ضرب أو خبط، ولم تكن قد وصلت إلى قلبى أو روحى أو نفسى أى مقدمات للرسالة الأخيرة التى لا بد أن تبعثها هى لى لو حدث وواجهت إحساسها بنهاية العمر، كان فى قلبى ثبات يصل إلى حد اليقين فى أنها بخير إذا كانت على قيد الحياة، مجرد الاستمرار فى الحياة محسوب فى جهة الخير، هى حيَّة تتنفس حيث لا أعلم ولا أستطيع أن أذهب، خطف مقصود به إخضاع إرادتى وتقييد حريتى وتهديدى، ولأن من فعلها أو دبَّر لها عدو قديم وأبدى بحساباته على الأقل، فيلزم أن أستعيد تاريخى لأعرف أعدائى، أحضرهم فى ذاكرتى أولاً ثم أصنِّفهم، أصنِّف أساليبهم فى مواجهة الخصوم ثم أتوصل إلى مناطق البحث وأرتِّبها بحسب أولوياتها، المسألة فى واقع الأمر نكبة فادحة أو مصيبة كبيرة وليس لها علاج بغير الوعى وتهدئة المشاعر، هل أقول أنه يلزم أن أتخفَّى فى طباع الأجداد القدامى من زراع الأرض الذين انعزلوا عن العبيد المجاليب المملوكين الذين تحولوا إلى سادة بسيوف وخناجر وحراب وأتباع يمارسون الغدر كل الغدر ولا يحفظ الحياة أو الأحياء غير الكثير الكثير من المراوغات والملاوعات والتخابث المشروع، فليكن ما على الوجه غير ما فى القلب وليكن ما ينطق به اللسان معكوس ما يصدقه العقل الناصح فى بعض الحالات، فالكنز المخطوف يستأهل الحذر كل الحذر لكى أستعيده.

وطَّنت نفسى على الصبر، صبر أيوب المصرى المبتلى وقد راحت من

دنياه الناعسة وما تبقى له غير الانتظار لصبح تنزاح فيه الغمَّة، ولسوف يعتصرنى الألم وأعتصره وحدى ممرورًا بالسكوت الغضب والكلام الغضب ومتأبيًا على الاستسلام لليأس، ليس لأن فى اليأس موتى وفنائى فقط بل لأنه أيضًا فناء لها وانتفاء وقد طالتها الكلاب وطالتنى فى مقتل.

أن تخلع جلدك القديم وتلبس جلدًا غير جلدك، أن تصير معكوس نفسك بينك وبين نفسك، وأن تنحدر من مكانك الحقيقى إلى مكانة أدنى لتحتال على الدنيا بهدف البقاء فى ذلك الهامش المخفى بغرض الاستمرار فى المكان والزمان، معاندًا حتى نفسك ومتحولاً من أستاذ إلى نفر أو شبح شاحب الوجه نحيل البدن يتوكأ على العصا فيستدر عطف البشر وتتشفى فيه الأنطاع، كانت هذه هى ملامح صورتى الجديدة التى رسمتها لنفسى، ولا بد لا بد أنها كانت حيث كانت تحسّنى وتبعث من روحها فى اتجاهى أمارات الرضا، ومنذ تلك الليلة حالكة السواد وقد تأكد اختفاؤها من الكفر وكل الناحية صرت أتمثلها وأستعيدها من الذاكرة، أحرص على إحكام قفل الأبواب بالترابيس والشناكل الحديدية والنوافذ المطلة على الدرب قبل أن أحادثها بصوتى المسموع وأرد نيابة عنها بما هو مخزون فى ذاكرتى من ردودها اللائقة، وفى مثل تلك الحوارات كانت تستدرجنى فأعايشها وأعاشرها وأتناول جرعات الدواء فى مواعيدها وأرتمى على الفراش مهدودًا بالتعب مثلما كنت أفعل فى السابق، صرت أعيش حياتها وحياتى كما كان يحدث، يطول ليلى وأسهر بالأرق، وعندما يطلع النهار أطلع من الدار فى نفس مواعيدى وأرجع فى نفس مواعيدى، وربما كنت أتطوع بشراء مستلزماتها فى بعض الحالات وقد فقدت الدار خيرها وقد تطاير الحمام الساكن فى البنانى وبين فراغات سقف وسط الدار، تطاير وهجر وما عاد يحط أو يبيض ويرقد على البيض ينتظر الفراخ الصغيرة ليرعاها حتى تكبر ويظهر على جلدها الطَّرى ريش، والدجاجات أصابتها «شوطة» وسطت عليها العرس والكلاب والقطط الضالة فما عادت تنق وما عادت تبيض، صرت مكرهًا على شراء كرتونة بيض المزارع والفراخ المجمدة وخيار الصوبات الماسخ الطعم معدوم الرائحة.

وبالجملة صار السؤال الذى يؤرقنى ويحيرنى هو: كيف كانت هى تدبِّر أمور الدار بكل تلك الكفاءة وما كانت تملك أكثر من نفس الجدران وفراغ وسط الدار وسطحها المكشوف؟

* * *

كنا من غير زينب فى عين العدو خمسة كما اعتادت أمى أن تقول دائمًا وهى تفرد كفها بطول الأصابع وتمدها واقفة بين وجهها ووجوه من تتوقع منهم مخاطر الحسد، لم تكن تفرق بين الأقارب والغرباء، ربما كانت تفعلها أكثر مع أقرب الأقارب، جدتى التى هى أمها أو فرحانة أم يوسف أو خالتها البائعة أم مرسى، أحيانًا كانت تفعلها فى وجه أبى الذى كان يضحك وهو يسألها باستنكار وهو يعرف مقدمًا جوابها، يسألها إن كان من الممكن فعلاً أن يحسد الرجل أولاده فتجاوبه بأنه لا يحسد المال أو الطير إلاَّ أصحابه، ولا يحسد العيِّل إلا أهله وأحبابه، يسكت ويدعو لنا جميعًا بالستر ويطلب من الله أن يحفظنا إكرامًا لخاطرها، وربما يكون قد قال لها مرَّة أو لم يقل لها: أنه لو حدث لا سمح الله وأصاب أى عيل من عيالها مكروهًا فإنها لن تحتمل، تصاب بالجنون أو تطب ساكتة، لعلنى كنت أعيش حالة من حالات التوقع الصعب بسبب تكوينها وقلقها الذى لا ينتهى، وكان أبى لا يملك غير طمأنتها وتهدئة مشاعرها المتوترة.

لكن زينب التى كانت خارج حدود قبضة اليد المفرودة فى وجوه الحاسدين أصابتها العين بين يوم وليلة فتحولت فى قلب أمى إلى جرح بلا دواء وفى قلب أبى إلى وجع لا يملك نسيانه أو دفعه أو حتى التقليل من فداحته. وقد بدا أن أمى بالفعل لن يواسيها كلام أو يرضيها عزاء، ربما لأن زينب نفسها كانت أبعد ما تكون بحسابات أمى على الأقل عن منطقة الخطر، كانت البنت بأدبها وخفة دمها وحيويتها بالإضافة إلى صحتها وجمال تقاطيعها تزرع فى قلوب الكل أملاً وارتياحًا مطمئنًا، كأنما كانت خارج دوائر التوقعات الصعبة، لكنها كانت مثل مصباح شديد الإضاءة نفخت فيه نسمة عابرة فاهتز الشعاع ثم انطفأ، وكانت بالنسبة لى مثل خيال

مسافر وعد بالرجوع لكنه لم يرجع أبدًا، ولأن أمرها كان عسيرًا على التفسير بالنسبة للكبار فقد كان بالنسبة لي خيانة من عزرائيل بكل ما تعنيه كلمة الخيانة من دلالات.

البنت رجعت من المدرسة وملأت أركان الدار صخبًا، شاكست الكل وقبلت من الكل المشاكسات بابتسامتها الودودة المتألقة ثم فجأة حطّت كفها على جبهتها وبدا أنها سوف تتأوه لكنها لم تفعل، اهتزت في نفس مكانها وكل عيوننا عليها تناديها في صوت واحد مشترك، ربما تكون قد شعرت بدوخة أفقدتها التوازن وكادت أن تقع على الأرض لكن أبي كان هناك فتلقاها على صدره وأحاطها بذراعيه، حملها مدهوشًا وأرقدها على طرف السرير، طلبت أن تشرب جرعة ماء فقربت أمي حلق القلة من فمها، ظلت تشرب وتشرب حتى أفرغتها وأشارت تطلب المزيد:

- عطشانة

لكنه لا الماء الصافي ولا الماء بالسكر ولا عسل النحل المذاب في عصير الليمون جعلها تشعر بالارتواء، وأسرع أبي إلى البندر راكبًا جحشته السريعة ليستدعي الطبيب من المستشفى كما أشارت عليه أمي، ربما يكون الوقت قد طال وربما لم يمض وقت طويل قبل أن نسمع صوت سيارة الطبيب يهدر ثم يتوقف أمام الباب، كانت زينب قد راحت في إغفاءة قصيرة من فرط الإرهاق، لكنه عندما فحصها الطبيب لم يجد فيها شيئًا مخالفًا للمألوف، استمع إلى وصف أمي باهتمام ظاهر لكن دون اقتناع، واستدار لأبي قائلاً:

- البنت ما عندهاش حاجة... يمكن دلع بنات.

لكن البنت تحركت وكذّبته وهي تهمس لأمها:

- عطشانه... أشرب.

كانت أمي تسقيها والماء الذي تشربه يتصبب من مسام جلدها عرقًا غزيرًا لا يكف عن معاودة الظهور وبكثرة برغم أن أمي كانت تجففه بالمناديل وفوط الوجه والملاءات، ولا بد أن الطبيب احتار في أمرها وأجهد

ذاكرته لعله يكون قد قرأ فى كتب الطب التى درسها شيئًا يشبه ما يراه، وقد تحولَت البنت إلى أرض شراقى فى عز «بؤونة» الحجر، ينصب الماء من فمها المفتوح وبكثرة فينشع من مسام بدنها فلا الماء يكفيها أو يرويها ولا المسام تنسد، لعلها كانت تحتاج إلى سيل من مطر لا يتوقف أو مجرى نهر نرميها فيه فينطفئ اللهب الذى ما رأيناه ولا رآه الطبيب الجديد الذى نزل كفرنا لأول مرة لعله يؤدى خدمة لأبى ويعالج البنت، لكنه عندما أعيته الحيل اقترح أن يركب سيارته ويذهب الى البندر يستدعى مدير المستشفى أو أى طبيب آخر فلعل وعسى أو كما قال لنفسه:

- وربنا يستر... ربنا يستر.

ربما كانت السيارة وقد تباعد صوتها قد وصلت إلى أول السكة الزراعية فى طريقها إلى البندر عندما فتحت زينب فمها وأشارت إلى القلة وهمست بالحرفين لم تكملهما:

- أش...

ثم سكن الرأس فى نفس مكانه، تحركه أمى فلا يتحرك، تهزها فيهتز بدنها باستسلام وقد فقدت قدرتها على الإحساس أو الحركة، كانت أمى تناديها ولا ترد، لكن قطرات العرق كانت تنز من جبهتها ولا تكف، حتى وهى على دراية الغسل كانت تغسل بدنها الطرى بعرقها والنسوة يكذبن عيونهن ويقسمن أنهن لم يشهدن فى كل أعمارهن واحدة مثل زينب:

- عروسة فى ليلة الجلوه، على وشها نور وجسمها بيلمع كما البنور... زينب من بنات الحور...

مثل هذا الكلام قالوه وقالوا أكثر وأكثر، ولعل فرحانة أم يوسف كانت أكثر النسوة ملازمة لأمى، تجالسها طوال النهار وتتركها فى أوقات الرقاد ثم تأتيها فى الصباح الباكر، توقظها إن كانت نائمة لتحكى لها المنام الذى شافت فيه زينب:

- شفتها النبى حارسها وصاينها لابسة أبيض فى أبيض، وكانت

ضحكتها منورة وهى بتقولى روحى يا خالة فرحانة طمّنى أمى، قوليلها إنى فى الجنة ونعيمها وأن ربنا اختارنى وسقانى من نهر الكوثر، سألتها نهر الكوثر ده فين يا زينب يا بنتى ضحكت وطارت لبعيد زى ما تكون حمامة بيضا، عارفاش نهر الكوثر ده يبقى إيه؟ ... آه ... أيوه... تبقى فى الجنة صحيح.

تسكت أمى مدة ثم تنخرط فى البكاء وهى تهمس لفرحانة:

- يا بختك بتشوفيها يافرحانة ياختى... أمال أنا مابشوفهاش ليه؟

ترد عليها جدتى إن كانت حاضرة:

- من عمايلك اللى بتعمليها فى روحك وروحها.

كانت فرحانة فى تلك الأيام رفيقة أمى، تأتنس بها وتبوح لها بحرقة قلبها على زينب والأخرى تواسيها بالكلام المريح وتحلم لها كل ليلة حلم جديد شافت فيه زينب:

- وشفتها يا حبة عينى واقفة على كرم نخل وعيال صغار بتجمع لها بلح من كل شكل ولون، زغلول وسمانى وأمهات ورطب وابن عيشه، تمر أبريمى وسكوتى وبلدى وجنديله، يجمع لها العيال ويحطوه فى حجرها، بصت لى وناولتنى حفان تمر ما دقتش زى طعمه ولا انحط على لسانى طول عمرى... ده بلح الجنة ما فيش كلام.

- الغالية صحتنى من النوم وأنا نايمة فى المنام، قالت لى روحى لامى خليها تطلع شوال البلح الأبريمى المحطوط فى الحضير البحرى وتفرقه ع اليتامى فى ليلة الخميس الكبير.

وتبدى أمى دهشتها لأنها بالفعل خزّنت البلح فى الحضير البحرى وبحسب ما أقسمت لم يعرف سر بلحها غير المرحومة، يتأكد لها أن فرحانة صادقة فى كل أحلامها وأنها لا شك نطفة طاهرة ومظلومة فى معيشتها مع رجل لا يستحقها، تأمرنا بأن نطلع ونفرغ البلح المخزون فى

الشوال وأن نعطيه لفرحانة لتوزعه بمعرفتها على روح المرحومة، وأشياء أخرى شبيهة بهذه الأحلام وتلك الرسائل التى كانت فرحانة تتلقاها من زينب الساكنة بجوار نهر الكوثر وأمى التى كانت توشك على الجنون لولا هذه الحكايات والأحلام والوصايا التى كانت تنفذها دون تردد أو تفكير، حتى فى الأيام التى لا تفاتحها فرحانة أو تحكى لها حلم جديد شافت فيه زينب كانت أمى تسألها إن كانت زينب غضبت عليها، فتهبد صدرها بفزع:

- يا حومتى... تغضب عليا إزاى؟ وأنا خالتها، مش بيقولوا الخالة والدة... إنتى فكرك إنها غضبانة منك؟ أبدًا... دى زعلانة عشانك وح تجيلك فى المنام قريب... دى هى إللى قايلالى بعضمة لسانها... تعالى أما أحكيلك تعالى على اللى شفته.

تستسلم أمى لها وتسمع تفاصيل المنام الجديد، تبدو وقد استغرقت فى الحلم وعاشته لحظة بلحظة، والأخرى تواسيها وتربت على كتفها بحنو وربما تتأثر أكثر وتشارك أمى البكاء.

لكن أصعب يوم وأصعب ليلة فى تلك الفترة الحزينة كان يوم الخميس الكبير وليلته، ربما لأن أمى انشغلت قبلها بالناس من الأهل والأقارب والجيران قريبهم والبعيد، يحادثونها ويواسونها، كانت الدار مزحومة بالرجال والنسوة والعيال، وكانت طواجن اللبن قبل ليلة الخميس تأتى محمولة على رؤوس البنات بلا عدد، ووسط الدار تمتلئ بالطيور الغريبة والأركان بعبوات التمر وثمار البرتقال، وليلة الخميس نفسها سهرت النسوة حول المواجير تعجن القرص والفطائر أو أمام الفرن تخبزها وتفردها على الحصائر لتبرد قبل أن ترصَّها فى السلال وبأعداد فردية دائمًا، وطلع فجر الخميس قبل موعده كما قالت فرحانة أم يوسف وأيدَّتها جدتى.

وفى المدافن تولت فرحانة توزيع الفطائر والقرص والتمر والبرتقال على الأطفال الصغار والمقرئين ومن احترفوا جمع رحمة الأموات فى كفرنا ومن خارج زمامه، رجعت كل السلال فارغة تمامًا، وقبل العصر جاء إلى الدار كل مشايخ الكفر من العميان والمفتحين، من مقرئى الرواتب

والفقهاء، وقسَّموا القرآن إلى أجزاء بينهم ثم بدأوا فى القراءة، كل واحد يقرأ فى جزء غير الأجزاء التى يقرأها الآخرون بأصواتهم المتداخلة التى يصعب وسط الجلبة تمييز غليظه من الرقيق أو المرتفع من الخافت، هى الخاتمة التى يتم الواحد منهم جزءه فيسكت بينما يستمر الآخرون حتى أنهى الشيخ محمدين الضرير آخر آياته فطلبوا له فتح الله ونور البصيرة، وقبل أن يسيطر الصمت على أركان المندرة الكبيرة جاءت الصوانى وعليها المواعين المملوءة بالفت والأرز وفوقها القطع الكبيرة من اللحم المسلوق، تخاطفوه رغم الكثرة عميان ومفتحين وبأسنانهم نهشوه قبل أن يجربوا الأرز، تساند البعض منهم على الكفوف والبعض الآخر على الكيعان متباعدين عن الصوانى ومسنودين على مساند الكنب يشربون الشاى برشفات لها صوت، وبعدها دسّ أبى فى كفوفهم المفرودة فلوس الرحمة فدسَّها البعض فى الجيوب وأبقاها البعض فى القبضات المضمومة وهم يتساندون بينما ينصرفون من الدار داعين لأهلها بالفرج والستر وأن تكون هذه آخر الأحزان، لكن الخاتمة التى كان من المنتظر أن تطرد الشياطين من الدار وأن تنزل على قلوب أهلها الصبر والسكينة انتهت نهاية غير محسوبة، ذلك أن أمى رأت وسط الخارجين ظهر الشيخ عباس الأعرج وهو يطلع فى خطواته متعجلاً فإذا بها تسحبه من قفا جبته إلى الخلف فيختل توازنه ويسقط بطوله مرميًا على ظهره وعيناه تنظران إلى سقف الدار، خلعت فردة مداسها ورفعتها لأعلى فى مشروع لضرب الرجل الذى تساند على أياديهم وقام نصف قومة، لكن أبى كان قد جاء إلى المكان ورفعها بينما ما زالت ترفع مداسها لأعلى وتصرخ:

- نزّلنى... نزّلنى... خلّينى أقطّع البرطوشة على دماغه، مين دخّل الأعرج أبو ديل نجس دارى؟ يدخلها فى يوم زى ده ليه؟ وأنا أقول قلبى مولع نار ليه؟ أتاريه إبليس ومدفوس مع الخلق الغلابة دول، يا نارى... نزلنى يا راجل نزلنى.

ولم يتركها أبى تنفذ رغبتها أو ينزلها إلاَّ بعد أن خرج الشيخ عباس الأعرج من باب الدار، وربما يكون قد خرج من الشارع ووصل داره،

أو دخلها وسك بابها عليه.

أبدت كل الحاضرات أمى فى فعلتها إلاّ فرحانة أم يوسف التى وجَّهت كلامها للستات دون أن تنظر ناحية أمى:

- حرام عليكم يا ناس... اللى معاها كلمة طيبة تقولها... دا غلبان ومنكسر وعاجز كمان، انتو كده بتقطعوا عيشه ظلم.
- بس الخلق كلها شاهدة على نجاسته وقلة حياه.
- خلق مين يا أم الشحات؟ انتوا اللى بلدكم تولد البغلة، أهو تلقيح جثث والسلام...
- لأ بقى يا أم يوسف... يوسف ابنك فين؟ ... أهه، قول لأمك يا يوسف شفت إيه فى الترب ليلة العيد أنت والشحات؟

وحكى يوسف وحكى الشحات وحكيت أنا ما كنا قد رأيناه ثلاثتنا فى تلك الليلة المقمرة التى سرحنا فيها ثلاثتنا وسط الغيطان وتجاسرنا عنادًا على الرجوع من سكة المدافن حتى لا يتهم أحدنا بأنه خاف من العفاريت التى تسكنها، سمعنا فى أول الأمر أصوات ونحنحات ثم رأيناه عند حوش مدفن النعناعية الجديد، كان هناك مقطع قماش ملفوف حول نفسه والشيخ عباس بارك على ركبتيه وقد تعرَّت مؤخرته ومن بين فخذيه شفنا ساقين عاريتين لامرأة لا تتحرك، فى أول الأمر تهامسنا بأنه عفريت راكب عفريت لكن الولد يوسف قال أنه بنى آدم راكب بنى آدم أو بنت آدم، تباعدنا عن المكان واختبأنا فى زريبة عزيزة بنت الدبوس ننتظر وقلوبنا توشك على التوقف من شدة الخوف، وعندما مرَّ الشيخ عباس الأعرج وقد لفَّ مقطع القماش تحت إبطه تأكدنا أنه هو، كان يتنحنح ويتمخط ويكح ويحادث نفسه بخفوت:

- الستر من عندك يارب، استرها يا كريم.

كتمنا السر فى قلوبنا حتى صباح العيد عندما أشاع الناس إن حوش مدفن النعناعية انفتح وان كفن سعيدة بنت الغباشى النعناعى انسرق وفاتها اللص عريانة، قلت أنا لامى ولا بد أن الشحات قال لأمه لكن يوسف لم يبح

بالسر إلا فى تلك الساعة وقد كنا فى المكان معًا، لا بد أنه لم يشع ما رآه تنفيذًا لنصيحة أمه فرحانة أو تهديد أبوه حلاق الحمير بأن يقطع دابره إذا نطق، لكن سر عباس انكشف وصارت الناس تقول للناس أنه خباص وأنه يرتكب دائمًا الفاحشة مع الأموات من النساء والبنات ويسلب الأكفان، لكنه كان مجرد كلام قلناه فى ليلة عيد، وربما تهيأ لنا أنه كان عباس لأن العفاريت والجن تتشكل فى هيئة البنى آدمين.

كانت فرحانة أم يوسف هى الوحيدة التى لم تصدق الحكاية وجلست إلى جوار أمى تهدئها وتحلف لها بأغلظ الأيمان بأن المسألة كلام عيال وأن زوجها عندما كان يجمع مشايخ الكفر والفقهاء لم يكن قد سمع مثل هذا الكلام الفارغ وإلا ما كان اتفق مع عباس، وحفظة المصحف والمقرئين فى كفرنا وكل الناحية متواجدون وجاهزون ورهن الإشارة فى كل الأوقات.

لكن الليلة لم تفت على خير، كانت الدار قد صارت شبه خالية بعد أن تسحبت النسوة واحدة فى إثر واحدة وما تبقى غير جدتى وفرحانة وأم الشحات، أما الرجال فلم يكن هناك غير أبو يوسف وزميل لأبى منقول جديد لمكتب الصحة وقد جاء ليؤدى واجب العزاء وتعشى ثم سأل إن كان السير فى السكة الزراعية بعد المغرب خطر فجاوبه أبى بأنه من الممكن أن يقضى الليلة فى دارنا حتى يطلع النهار.

ولا بد أنه كان صوت زغرودة ذلك الذى سمعناه يخترق آذاننا من جهة آخر الشارع ناحية بوابة أولاد عوف، قامت فرحانة أم يوسف من جلستها بجوار أمى وقد نجحت فى تهدئتها من ناحية دخول عباس الأعرج دارنا ومشاركته الفقهاء قراءة الختمة الشريفة والتى لا بد أنها بسبب وجوده لن تنفع ولا بد من إعادتها، لكن صوت الزغرودة كان بمثابة موضوع جديد أهم من موضوع الختمة وعباس ومسئولية أبو يوسف عن وجوده، خرجت من باب الدار تستطلع الأمر فما غابت حتى سمعنا أصوات متداخلة زغاريد ثم أصوات استغاثة وصراخ ورمح وفرحانة تعبر من باب الدار المفتوح وهى تستغيث لا أدرى بمن:

- إلحقونى... إلحقونى... ح يموتونى... إلحقونى يا ناس.

وعندما اختفت فرحانة داخل الدار رأينا زوجة عبد الصبور وزوجات أولاده الكبار وعياله الصغار يقفون عند الباب ولا يتجاسر أى منهم على عبور عتبتها وهم يسبون فرحانة ويتهددونها بالهلاك إذا ظهرت لهم، طلعت لهم جدتى وطلع أبى يستوضح الأمر فعرفنا أن فرحانة بطحت الشيخ عبد الصبور بقالب طوب أحمر وأن الرجل فى الدار غرقان فى دمه، أبدى أبى دهشته مثلما اندهشنا وسألناهم عن الأسباب فتبادلوا نظرات حائرة ولم يرد على السؤال أحد، لكن بعض الجيران ممن كانوا فى المنطقة يتسكعون فسروا لنا الأسباب وهم يطردون من كانوا يطاردون فرحانة ويتهددونها منذ لحظات فانسحبوا جميعًا بتراخ وكسل.

- الخلق دول زى ما يكونوا قلعوا برقع الحيا، لا بيراعوا جيرة ولا قرابة، هو ده وقته يشرطوا شرط ويقروا فاتحة؟

وعندما ظهرت فرحانة وقد اطمأنت عرفنا منها ومنهم تفاصيل ما جرى عندما اكتشفت فرحانة أن عبد الصبور «الخنزير» اختار هذه الليلة بالذات ليكيدنا حيث قرأوا فاتحة عبد النصير الليلة على بنت جعفر الشوكى وهو نسب لا يشرف ولا يرفع رأس، تباكت أمى وهى تتذكر كيف كان عبد النصير يلح فى طلب المرحومة زينب وكيف أن أبى رفض وأنها رفضت أن تعطيها لواحد مثله لا علام ولا تربية ولا أصل ولا قيمة، تباكت أمى وفرحانة تهدئها وتمنيها بخلفة بنت غير البنت تتسمىَّ بنفس الاسم وتعيده على ألسنة أهل الدار، هل ارتاحت أمى للفكرة وتمنت حدوثها؟ ربما، وربما تمناها أبى وتمنيناها لتكون لنا عوضًا عن زينب، تلك التى انخطفت بلا مقدمات.

وقالت جدتى لأمى أنها لو كان لها أخت شقيقة أم وأب ما كانت عرَّضت روحها للموت فى دار عبد الصبور وما كانت أخلصت لها أكثر من فرحانة، قالت ذلك وتمنَّت لها الستر وأن يرزق ابنها يوسف من حيث لا يعلم ولا يدرى فوافقتها أمى وقالت: آمين.

لا بد أنها أمي التي ورّثتني الحذر والخوف مما يمكن أن تفاجئني به الأيام، هو حذر متواصل يلبد في الدماغ ويفتح له الأبواب ليعايش كل التخيّلات الصعبة وكأنها بالفعل حدثت أو أوشكت على الحدوث، كيف أتهرب من هذه التخيّلات عندما تحاصرني وأنا في الشغل مثلاً، تركبني في أول الأمر بوداعة ثم تضغط على أكتافي وتكبس على أنفاسي وتمارس استبدادها الذي لا يحدّه حد أبدًا، كانت أمي تتوقّع الخطر وتخشى على عيالها من الحسد، وكانت تنتظرنا الواحد بعد الآخر، لعلني شاركتها القلق في أيام الأجازات أو أيام الغياب عن المدرسة، تنتظر أختي فإذا وصلت تنتظر إخوتي واحدًا فواحدًا ثم تنتظر أبي، لو تأخر أي منهم عن الموعد الذي حدَّدته هي بحسّها الخاص تركبها الهواجس وتعذبها – مع من يتواجد معها – كل التوقعات الشرسة، كانت تملك خيالاً خصبًا في تمثل الشرور وكيف يمكن أن تصيبها أو تصيبنا بلا ذنب:

- افرض أن أبوك وهو راجع طلعوا عليه قطّاعين الطريق الشراودة، أبوك غلبان ومالوش أهل يتخاف منهم، مش يمكن يقتلوه وياخدوا اللي معاه، ساعتها ح تتربوا يتامى من غير أب، وعمامكم ما فيهمش خير لحد، أبقى أنا أعمل إيه، وانتوا تعملوا إيه؟

أسرح متخيلاً ما يمكن أن يحدث وأشعر باليتم وأستحضر في ذاكرتي كل الأطفال اليتامى في الكفر فأشعر بالانكسار، لكنني أفيق على نحنحات أبي وقد اقترب من باب الدار أو دخلها، أجري في اتجاهه وأمسك بساقيه أحتضنهما بلهفة من عثر وهو في حالة يتم حقيقي على أبيه الذي وهبه الله الحياة من جديد.

ولا بد أنه أبي ذلك الذي ورّثني تلك الحالة من حالات الاستسلام والرضى بما يمكن أن يلقاه لأنه كما كان يردِّد دائمًا:

- المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين، واللي من نصيبك لا بد ح يصيبك، وإن جريت جري الوحوش... والأعمار بيد الله لا تقول طب ولا دوا... بس البني آدم يعمل اللي عليه، دا البني آدم غلبان،

غلبان خالص، ومهما كان متجبِّر وفرعون برضه غلبان، على ولاّ وطى أهو بنى آدم له أجل محسوب، أنا عارف الخلـق بتتخاصـم ليه؟ كأنه على امتداد عمره كان مستعدًا لمصالحة الدنيا بأسـرها، لا أذكر أنه وضع إنسانًا ــ مهما كانت بينه وبين هذا الإنسان من خلافات يحسبها الناس عداوة ــ فى خانة الأعداء، كان يبدو لنـا ولأمى على وجه الخصوص مسالمًا إلى حدِّ التفريط، تهمس لنا فى ساعات التودُّد:

- ده ربى إخواته البنات وجهّزهم من كدّه وادّاهم ورثهم اللّـى فـى عبّه كمان، أقوله هاتللى ورثى اللّى فى عبَ أمى يقـول يـا وارث مين يورثك؟ مش لى حق أطق من جنابى؟

لكنها كانت تحبه وكان يحبها، ولا أذكر أنهما رغم اختلافهما الشـديد فى الطباع اختلفا على شىء إلى حد يتهدَّد حياتنا أو حياتهما معًا، لا بد أن مساحة الاتفاق بينهما كانت أكبر من تلك الاختلافات، ولا بـد أن قـدرتهما على فهم بعضهما البعض جعلتهما فى مأمن من عواصف الأيـام، لكننـى ورثت عنهما ودون اختيار تلك المخاوف من مفاجآت الزمن، وهذه الرغبة فى مصالحة الدنيا بأسرها بلا ضغائن ولا كراهيـة حتـى لمـن يحسـبون أنفسهم فى خانة الأعداء، أتأمل ميراثى فأندهش لأننى أنقسم أو أنشطر بين رغبتين متنافرتين، رغبة الحماية التى تصل إلى حـدِّ التـوحش ورغبـة المسالمة إلى حد التفريط والعبط، الوسوسة والتواكـل، مخاصـمة الـدنيا بأسرها والرغبة فى مصالحتها كلها وبلا مقابل.

نرجع لحكايتى مع يوسف الذى انجرح بإبعاده عـن عمـادة الكفـر فتحوّل إلى وحش خبيث بمخالب ظاهرة ومخفية، ولا بد أن يوسف تشـكّك فى أن أكون أنا من بين العناصر التى سعت إلى عزله أو على الأقل عرفت هذه العناصر، لعله كان يتأرجح بين غايتين: الأولى أن أتحول إلـى صـفه وأعيده أو على الأقل أساهم فى إعادته، والثانية أن يدمِّرنى إذا تمكن ليثبت لنفسه ولأعوانه أنه قادر فى كل الحالات على الرد، حتى لو كان الرد فـى

غير مكانه أو وقته فهو رد لإثبات القدرة التى يسعى ويلزم ومن حقــه أن يمتلكها حتى ولو على حساب شخص برىء من خارج ساحة الصراع.

لعلنى كنت على امتداد العمر هدفًا مكشوفًا تســهل إصــابته لكنــه لحسابات حسبها أجَّل تصويب سهامه ناحيتى طالما لم اعترض طريقــه أو يتشكَّك فى أننى اعترضت طريقه مرة، كان الخلاف بيننا كلام فــى كــلام، والخلاف فى الكلام يكشف البنى آدم وأفكاره، من ناحيتى كنت دائمًا أبوح له بقناعتى وأكاشفه منذ البداية أو البدايات بأننى أراه شخصًا ضعيفًا يســتحق الإشفاق، أتمادى موضحًا له أنه يلجأ إلى الكذب كثيرًا لأنه بلا سند أو ظهر قوى يحميه، وفى البدايات كان يضحك ويوافقنى مبديًا سخطه على الظروف الصعبة التى إنوجد فيها، يطيب له فى بعض الأحيــان أن يقــارن ظروفــه بظروفى السهلة، يرضينى ذلك الاعتراف فأتمادى فى ذكر مزايــا الصــدق والشجاعة التى يتحلى بها الأقوياء، هؤلاء الذين لا يخيفهم فى الحق لومة لائم، كان يسلِّم أو يستسلم لأفكارى فأصدق نفسى أكثر، لكنه فــى صــحوة الشباب بدأ يوسف يتحفظ فى أول الأمر ثم يتجاسر فــى بعــض الأحيــان ويعارضنى.

كنت أقول لنفسى إنه انزرع فى سوق المواشــى وتعلــم دون شــك مجموعة من الخبرات بينما كنت أنا شبه غارق فى الكتب الدراسية وأفضل المناهج لتدريس التاريخ للتلاميذ، ولعله بعد تعيينى فى مدرسة البندر زادت بيننا الخلافات، وكثيرًا ما كنا لا نتفق، كنت أراه ببســاطة إنســانًا ســوقيًا يتقافز مثل جرادة ليحصل على رزقه قبل كل الكائنات فى زمن مجــدب، ولا بد أنه للجراد زمن مغاير يسطو فيه على النباتات ويخربها معتمــدًا علــى كثرته وتكاسل البشر أو عجزهم عن اكتشــاف المبيــد المناســب ليحمــوا ثرواتهم وممتلكاتهم من اكتمال الالتهام، وكان يرانى أفنديًا فــى الهــامش البارع فى التشدق بالكلمات الطنانة والأفكار الوهمية لأننى ببساطة معزول عن الناس والدنيا وما يجرى فيها، كان يتهمنى بالدروشة وبــأننى ســوف أعيش وأموت وأنا فى حالة توهان، وكنت أتهمه بالجهل واستسهال الدجل وبأنه صار بالفعل نصف نصاب، يتأملنى فاحصًا دون انفعال وربما يبتســم، لعله كان يكتشف أنه ارتقى وارتفع إلى الحد الذى يجعله ندًا لى ولغيرى بعد

أن عاش في منطقة لا تسمح له حتى بالخلاف، ولعله كان يشعر من داخله أنه سوف يصبح الأقوى على المدى الطويل طالما يدور الزمان في نفس الاتجاه أو نفس المدار. وكان يفلح في بعض الأحيان ويجعلني أشعر بالحرج أو الارتباك، يحاصرني لأصبح في منطقة الدفاع، ولا بد أنه كان يقرأ على ملامحي بوادر الهزيمة فيزوِّد هجومه، يحدثني عن الشراودة وكيف طاب لهم العب الجوّاني بقوة السلاح والمداهنة ثم وسّعوا اهتماماتهم ولعبوا مع أكابر الناحية وأعوان الحكام، يسألني إن كنت قد لاحظت أن البساط انسحب من تحت أقدام ناس وانفرش تحت أقدام ناس غير الناس فأقول له إن الدنيا على هذا الحال لا تدوم لمخلوق وإن دراستي للتاريخ هي التي علَّمتني مثل هذا الكلام الذي لا بد أنه سمعه مني عشرات المرات ثم صار يردِّده، يتظاهر بالاندهاش فيدهشني، أتداخل داخل نفسي قبل أن أنظر في عينيه وكأنما أبحث فيهما عن المرآة التي تعكس صورتي فيهما دون تزويق أو تشويه، أراني في حدقتي عينيه إثنين أعجز عن جمعهما في واحد، يسحب نفسًا عميقًا من دخان الجوزة فيشعل نار حجر المعسل ويحرق «التعميرة»، أشعر أنه يكيدني بقدرته على إشعال النار وقتما يشاء فأنكاد، يعتدل في جلسته قبل أن يتفلسف:

- طيب، ما أنت عارف جعفر الشارد كان إيه قبل العز اللّي هو فيه، مش كان كاتب محامي بنص فرنك؟ مش ضحك ع الخلق واتنطط على قفاها؟ وأهو ف كل انتخابات بيكتب كلام زي اللي أنت بتقوله على اليفط القماش... بيعمل إيه؟ صدق إيه وحق إيه وقوة إيه؟ ده كلام تقولوه للعيال في المدارس.

أتناول الجوزة من يده وقد رصَّها بتعميرة جديدة فأسحب أول نفس ويداعبني:

- شد... شد جامد... طيب مش أنا نص نصاب؟ ياريتني أبقى نصاب بصحيح، عارف نهار ما أفتح لنفسي سكة مع الخلق دول مش حارجع أبدًا طيب وأرجع ليه؟... ورايا إيه يتخاف عليه؟ أنا عايز ضهر أتسند عليه. اتهيأ لي ما فيش ضهر أقوى من ضهرهم.

أسرح بخيالي وأتمثله وقد طلع فوق كل الأكتاف وارتفع، أقول لنفسي

إن أمثاله عندما يخرجون من القماقم لا يرجعون، يختطفون لأنفسهم أدوارًا لا تخصُّهم ويلبسون ملابس أوسع من مقاساتهم ثم يتلاعبون أمام الناس مثل أى سمسار مواشى بارع فى اللعب على الحبلين ليحصل على عمولته من البائع والمشترى، يعيدنى بهزة أو يمد طرف البوصة ناحيتي طالبًا منى أن أشدّ فأفيق وأشدّ وأراه أمامى كما عرفته وأشعر أننى فى هذه الفترة كنت فى أمس الحاجة إليه صاحبًا ونيسًا.

ولا بد أنه الموت وقد اختطفهما فى نهار واحد هو الذى رمانى أكثر فى حضن يوسف وقد تيتمت وأورثانى الخوف والحذر مع الاستسلام المستكين، أفر من وحدتى وقد تطوع بملازمتي وهو البارع فى جلب الحشيش وتقطيعه ورصه على سطح المعسل قبل أن يغطيه بحذر بحيث يجعل النار تلمسه ولا تكبس عليه فتكتمه أو تحرقه، يناولنى التعميرة جاهزة للشدّ فأشد وأصير بين الصحو والتوهان حتى إذا غلبنى النوم أرقدنى فوق الفراش وغطّانى وأعاد كل شىء إلى مكانه الصحيح حتى إذا صحوت من مرقدى سألت نفسى عمن نقل الجوزة والمعسل والحشيش، أو غطى نار القوالح بالرماد لتنطفىء وأجاوب نفسى بأنه يوسف الذى لا يغيب وعيه أو ينسطل مهما طال الوقت أو ارتفع مستوى الصنف، أستشعر من داخلى إحساسًا بالأمان، وأرضى به رغم كل الاختلافات صاحبًا ونيسًا.

فى هذه الأيام كان يتحدث كثيرًا عن رأفت الشارد وأصيلة بنت رأفت الشارد:

- أنت خايف تقول رأيك ليه؟ طيب إفرض إن أنت مطرحى، تتجوزها؟ الخلق كلها بتقول إنها مش حلوة وإن قطر الجواز فاتها من زمان، أهى ح تبقى زى جذع نخلة مخوخة إنما إيه... وراها خير مالوش آخر، وأنا عايز نسب يسندنى، يساعدنى، يعمل لى مركز فى الكفر والناحية... قلت إيه؟

كنت أحدثه عن أفكارى وكيف أن الزواج يحتاج إلى توافق أو تقارب فى الأفكار والمشاعر والأهداف وأن مسألة المال والجمال تختلف من

شخص لآخر، إنما لا بد أن ينبنى الزواج على أساس سليم وليس على حسابات محسوبة أو غش مستور لتحقيق أغراض، ولا بد أن كلامى لم يكن يعجبه، أو أنه لم يكن يتناسب مع حالته، لكننى فى كل مرة يفاتحنى فى أمر أصيلة بنت رأفت الشارد كنت أرد بنفس الردود رغم ما كان يتبدَّى لى من أنه غضبان أو واقع تحت تأثير فكرة عكس أفكارى، كنت أقول لنفسى إنه يتأرجح وكنت أحسبه سوف يتخلص من تلك الفكرة التى تسلَّطت عليه لكى يعاشر جذع نخلة مخوخة فاتها وقت الزواج بحسب ما كان يؤكد ساخرًا بمرارة من حكم على نفسه بالحبس الانفرادى وفى يده مفتاح الزنزانة وكل مفاتيح الأبواب المسكوكة، كنت أحسب أن طبعه الخوَّاف سوف يعيد إليه عقله ويمنعه حتمًا، لكنه فاجأنى وفاجأ الكفر كله بالزواج من أصيلة، قبلها بأيام انقطعت أخباره وكفَّ عن المجىء، حتى عندما سألت عليه وأرسلت له أكثر من مرسال لا جاء ولا ظهر، أدهشنى أكثر أنه تجاهلنى فلم يخبرنى أو يبعث إلىَّ من يخبرنى بموعد عقد قرانه ودخوله الذى تم فى نفس الليلة وفى سكات لا يليق باسم رأفت الشارد أو برغبة الناس فى كفرنا فى الفرجة والرقص وزحمة الأفراح، وقلت لنفسى مثلما قال ناس كفرنا: هو حر فى نفسه، سمسار مواشى دخل سوق البهائم وحسب حساباته ليخرج منه كسبانًا، لا خسرنا له شىء، ولا كان من الممكن أن نكسب من وراءه أى شىء ولا بد أن كل شىء كان محسوبًا فى عقل يوسف وناس يوسف الذين ارتبط اسمهم باسم الشراودة منذ ذلك التاريخ.

وتباعدت عن يوسف لأنه تباعد عنى زمنًا، صرت أسمع أخباره من الغرباء مشفوعة باستفسارات أو استنكارات لتلك المقاطعة التى لم يكن يتوقعها أحد، لا كانت عندى ردود عن استفساراتهم ولا تعليقات على الاستنكارات، لكنه فاجأنى بزيارة اتهمنى فيها بأننى قصَّرت فى حقه ولم أحضر زفافه مثلما فعل الغرباء قائلاً:

– وهو أنت كنت عاوز دعوة؟ وإفرض ما ملكتش أجيلك، ما تحضرش فرحى؟ وفاتح ودانك لكلام الناس، ما فكرتش تدافع

عنى، هو انا لا سمح الله عملت منكر؟ بقى أنا أقول إنك زى الأخ الشقيق وأكتر وأنت تقاطعنى من غير سبب؟

لا بد أننى شعرت بالخجل وتأكد هو من ذلك فربَّت على كتفى وهوَّن علىَّ الأمر وكأنه تنازل وسامحنى:

- اللى فات فات، وإحنا ولاد النهارده...

ومنذ ذلك النهار عادت المياه إلى مجاريها، يسهر معى ويحادثنى عن أصيلة وأملاك أصيلة التى كتبها رأفت الشارد باسمها خارج نصيبها فى الميراث عندما يحين أجل رأفت، يسخر من نحولها الزائد وصدرها الممسوح وتقاطيعها التى تشبه النسناس، أهز رأسى ولا أعلق فيكمل:

- بس يا سبحان الله عليها شعر... كده... طول كده...، ناعم وأصفر زى سلوك الحرير، ساعات تفرده يغطيها وهى راقدة لحد بز رجلها، أصلها فى الصيف بترقد عريانة ملط.

أكتفى بالتدخين وأشعر أنه من العيب أن أعلق على كلامه لأنه يخص امرأة تخصه هو وحده، وأنه لو كان هو قد أخطأ بالكلام عنها على هذا النحو الفاضح فيلزم أن ألتزم بالأدب والأصول، أسمع ولا أعلّق، لعلنى فى تلك الفترة على وجه التحديد فكرت فى فردوس بنت عمى التى شاغلت قلبى وشغلتنى طوال تلك السنوات الفائتة، ولعله من كثرة كلامه عن أصيلة حرك فى داخلى رغبة كامنة تحت رماد الأحزان على فراق الوالدين واسمها فردوس.

كان يوسف يحيِّرنى فى أمره، مرَّات يأتينى فرحانًا ومزدهرًا وكأنه عثر على كنز بين جدران داره، يحدثنى عن أصيلة وأصلها العريق الطيب وناسها الواصلين للأكابر والأعيان والذين عملوا لاسمهم فى الناحية هيبة ورهبة، يهمس فى أذنى بأن أهله من الناس الشلبى أصبحت لهم فى الكفر قيمة بفضله وان كانوا لا يعترفون ولا يستحقون الخير الذى جلبه لهم، يبدو لى كارهًا لأهله وناسه أكثر من كراهيته لكافة أهالى الكفر فى بعض

الأحيان، يوسوس لى شيطان بأن أمثاله ممن ليس لهم خير فـى أهـاليهم يصعب أن يكون لهم خير فى الغرباء وبأنه يلزم التعامل معه بحـذر، لكـن وسواسًا عبيطًا آخر يعترض على الوسواس الخبيث قائلاً إن أمثال يوسـف يعيشون ويرحلون وهم فى خانة الاتباع فى أحسن الأحوال أو فـى خانـة أتباع الأتباع فى معظم الأحوال وعليه فلا خوف منهم ولا حذر إلاَّ فى أضيق الحدود، ولا بد أن القلق منه كان يعترينى إذا كانت التعميرة التى يجلبها لى قسدانة أو مخلوطة، كان هو يؤكد فى كل مرة إنها مـن صـنف فـاخر لا يتعاطاه غير الأكابر والأمراء، أحاول تصديقه حتى تكذّبه الأنفاس وقبـل أن ألومه يلومنى لأننى الوحيد الذى يتعاطى الصنف ولا يجرؤ على حملـه أو شراؤه بنفسه، يضيف أن التجار من أمثال زينهم الشارد أو فتحي الشارد أو شهاب لا يراعون قرابة ولا نسب، وأنهم فى مثل هذه الحالات يسبِّبون لـه الحرج لأنه لولا النوايا الحسنة والثقة بينى وبينه لظننت أنه يأخـذ مـنهم سمسرة:

– أنا صحيح باسمسر فى سوق البهايم، إنما اتهيأ لـى عمـرى مـا فكرت أسمسر فى الكلام الفارغ ده... وح أسمسر منك إنت؟ داحنا بنحرقه مع بعض، النوبة الجاية لى كلام تانى مـع ابـن الكلـب الغشاش.

كنت أقول لنفسى إنه من الصعب أن أتخيـل إنسـانًا يغـش نفسـه ويتسبَّب فى عكننة مزاج نفسه مهما كان الثمن، ذلك أنه فـى مثـل هـذه الليلات كان يوسف يبدو ساخطًا وغضبانًا على الشراودة والكفـر والـدنيا كلها، يقول لى مثلاً أننى كنت على حق عندما حذرته مـن الـدخول مـع الشراودة فى علاقة نسب، أكون رغم بعض الغياب ما زلت واعيًا لنفسـى، أراجع ذاكرتى فلا أتذكر أننى قلت له مرة مثل هذا الكلام، يتهمهم بالقـدرة على النصب على كل الناس حتى على زوج ابنتهم التى كان يليق بهـا أن يتزوجها عزرائيل، تتناقص نار القوالح الجاهزة للاستخدام فتتزايـد لهجـة أسى الزوج الندمان ويوشك أن يتباكى على حظه العاثر الذى أوقعـه فـى هؤلاء الناس، يزداد من حولى سواد الليل وتعوى ذئاب مطلوقة من ناحيـة

المدافن فأتذكر الأموات، يحدثنى ومن يشاركنا السهر عن الهم الثقيل الذى يحمله فى قلبه ويداريه عن أهله والناس ويتمنى لو استطاع أن يداريه عن نفسه، أندهش من قدرته على البوح بكل هذه الهموم دون حذر بينما يدعى الرغبة فى الكتمان، أطيب خاطره لو كنا وحدنا وأترك تلك المهمة للآخرين إن كان لنا فى السهر شركاء، وأحيانًا يلوم نفسه على الورطة التى حطّ فيها نفسه بنفسه ويستعيد الزمن القديم ليرمى المسئولية على حظه التعس الذى أعطاه أبًا مثل أبيه وأمًا مثل أمه وعائلة مثل عائلته، وقد يتمادى فيلعن كفرنا الفسدان وأصحابه الذين بلا فائدة ترجى منهم ويتذكّر:

- بنت المراكيب اللى وشها يقطع الخميرة من البيت بتعرف تطوّل لسانها وتقل أدبها، فكرك لو طلّقتها ح يحصل إيه يعنى؟ ح يقتلونى؟ فكرك لو طلقتها يقتلونى؟

أعجز عن رد السؤال الصعب وأسأل نفسى إن كان بالفعل يقصد ما يقول أو أنه يستكشفنى لغاية فى نفسه، أتأرجح بين إرادتين، إرادة البكاء على حاله وحالى وإرادة الضحك، يغلبنى البكاء فى معظم الأحوال وينفلت الضحك فى بعض الحالات ولا أتمكن من السكوت قبل أن تظهر علامة تبشر بطلوع صبح جديد.

* * *

وكانت جدتى لأبى تسكن فى أول درب عوف من ناحية الوسعاية، أذهب إليها مطمئنًا أن يوسف لن يكون هناك وأن خالتى العبيطة «كاف» لن تكون هناك أيضًا، كانت تأخذنى إلى قاعة مظلمة فى كل الأوقات ومضاءة بمصباح له شريط يمكن رفعه وتزويد الضوء بمفتاح مستدير يدور ويتحكم فى الشريط، تفتح علبة صفيح مثل تلك العلب الصفيح التى توضع فيها قطع الكراملة الملفوفة فى ورق شفاف، وكنت أسمع الصوت والعلبة تهتز فى يدها، تفتحها فأرى أنصاف الفرنكات الفضية سداسية الشكل والمدوّرة، تناولنى واحدًا فآخذه فرحانًا وأرمح لأشترى من الدكان حلوى أو مصّاصة أو عسلية ملفوفة بورق أبيض وآخذ الباقى وأرجع، وكانت تحرص على إطعامى من لحم الأرانب، تبدأ بالكبدة والخصيتين إن كان الأرنب المذبوح

ذكرًا، ثم تناولنى الورك أو السلسلة فآكلها، وتناولنى قطعة أخرى حتى أشبع وأرفض المزيد، تقشر لى قصباً حلو الطعم فأمضغه وأمتص العصير ثم أرمى مصاصة القصب البيضاء الخالية من العصير، ألعب بالقشر الملون خطوطا بالطول أبيض وأحمر، تعرفنى وهى عارفة أننى أعرف أنه يشبه خد الجميل، وأحيانًا تقشر لى برتقالة أو تفرط فى الطبق الصاج رمانة أو تناولنى ثمرة جوافة، أشعر عندها بالامتلاء وأتعجب من حلاوة لحم الأرانب عندها، احتفظ بالسر لنفسى ولا أبوح، صحيح أننى كنت أشهد الأرانب الكثيرة وقد طلعت من جحورها تأكل البرسيم خطفًا ثم تهرب إلى الجحور عند أقل حركة أو إشارة من يدى، وصحيح أنها كانت فى بعض الأوقات تأتى إلى دارنا وقد حملت عددًا من الأرانب فى سبت أو قفص، تعطيها لأمى وهى تقول بينما تنظر ناحيتى:

– لجل الولد.. أصله بيحب الأرانب.

كانت أمى تشكرها لأنها أتعبت نفسها بينما دارنا مملوءة بالخير، تقول لأبى عندما يرجع عن الهدية دون أن يبدو عليها الاقتناع فيهز رأسه ويكمل ما كان قد بدأه من كلام، وعندما كانت أمى تذبح الأرانب كنت أشعر أن طعمها يختلف عن تلك التى آكلها عند جدتى، حتى كبدة الأرنب لم تكن فى أى مرة فى مثل حلاوة كبدة الأرنب التى آكلها عند جدتى، لكننى عندما كنت آكل وتسألنى أمى عن حلاوة طعمها أقول أنها أحلى من كل الأرانب التى أكلتها فى كل عمرى، كنت أشعر أنها لا تصدقنى لكنها لم تكن تكذبنى.

وفى وقفة العيد كنت أذهب لآخذ مصروفى منها، كانت لديها علبة صفيح أخرى فيها ريالات وأنصاف ريالات فضة على أحد وجهيها صورة الملك فؤاد، وكانت جدتى لا تحبه بينما كنت أحب صورته بالطربوش المائل للوراء، وعندما رأيت صورة الملك فاروق على وجه الريال لأول مرة أحببته أكثر وكانت جدتى لا تحبه أيضًا، كانت تكتفى بأن تقول لنفسها:

– قطيعه تقطع سلسالهم كله، مانابناش منهم غير الخراب المستعجل وقلة القيمة.

كنت أندهش لأن كلامها عن الملك وابنه الملك يختلف عن الكلام المكتوب فى كتب المدرسة، ويختلف أيضًا عن الكلام الذى يقوله عنهم ببعض الاحترام أبى، لكننى على أى حال كنت أحصل منها فى وقفة كل عيد ريالاً فضياً على أحد وجهيه صورة ملك، أفرح به وأجرى بحماس لأريه لأمى التى لم تكن تتحمس أبدًا إلى الحد الذى يجعلنى أخجل من نفسى وأتشكك فى قيمة الكنز الذى حصلت عليه، ألوم نفسى لأننى انتظرت منها أن تشاركنى الفرحة وأنا العارف أنها لم تفعل أبدًا، ولا بد أننى اكتشفت أن العداوة غير المعلنة بين أمى وجدتى لأبى لن تمحوها كل ريالات الدنيا المرسوم على وجوهها صور الملوك لا بسين الطرابيش، ولا أدرى فى أى وقت على وجه الدقة صرت أحصل على الريالات وأنصاف الريالات من جدتى ولا أقول لأمى، أكتم فرحتى فى قلبى وأستشعر القلق إن كان الكتمان حراماً فى مثل هذه الحالة أم أنه لا حرام فيه ولا ذنب؟

أذكر أنها ماتت بعد ليلة الختان بعدَّة شهور، وأننى أكلت من لحم الأرانب الذى كانت تجيد طبخه قبل موتها بأيام وقد أعطتنى من غير مناسبة آخر ريال فضى حصلت عليه منها، ومن بعدها حرمت من الريالات وأنصاف الريالات وأنصاف الفرنكات التى كنت أثق فى الحصول عليها وأنا ذاهب إلى دارها الكائنة فى أول درب عوف من ناحية الوسعاية.

* * *

لكن جدتى لأمى كانت حكايتها حكاية، كانت لها بشرة ناعمة وشديدة البياض، يظهر بياضها أكثر إذا أحاطتها بالشال القطيفة السوداء، عيناها ضيقتان مكحولتان دائمًا بكحل أزرق أغمق من لون العينين الذى يختلط فيهما الإخضرار بالزرقة، وكانت دارها أوسع من دارنا ومبنية بالطوب الأحمر وفيها مندرة واسعة بالبلاط، ونادرًا نادرًا ما كنت أراها وحيدة، كانت دارها مزحومة فى أغلب الأوقات، وإذا خلت فهناك خالتى العبيطة «كاف» أو فرحانة أم يوسف أو يوسف نفسه، كنت أراها وهى تستقبل الستات والبنات حاملات المشنَّات أو السلال وفيها البيض أو الجبن أو قطع الزبد

بالإضافة إلى كل ما يتاح من الطيور الداجنة مربوطة السيقان ومحطوطة فى القاع، تفاصل فى السعر قبل أن تدفع وتحمل أى واحدة السلة أو المشنّة إلى القاعة الجوّانية، تفرغها وتفرغ المواعين وتعيدها لصاحبتها، وفى القاعة كنت أجد دائمًا أكوامًا من الجبن القريش وطواجن مملوءة بالبيض ومواعين فيها كتل الزبد وأخرى فيها المش والجبن القديم، أشياء تملأ دكان، وكان الوصول إلى دارها أسهل من خلال الشرم الموصل إلى «الواطية» التى تقع فى خلفية الدار، وبينما كانت أمى لا ترحب بذهابى إلى جدتى لأبى كانت تدفعنى دفعًا للذهاب إلى دار أمها وتوصينى بمداومة البقاء هناك، وتدعونى لأن آكل وأشرب بحسب ما أشاء، لأن مال جدتى هو فى الأصل مالنا:

- أنت أولى من ابن العورة اللى لابد عندها ليل ونهار، أنا عارفة أنت طالع خايب كده ليه؟ هو أنا كل يوم أقرّيك ولا بتقراش؟

ولأننى كنت أسمع مثل هذا الكلام وأكثر كل يوم تقريبًا مرة أو مرتين فقد كنت أظنها لا تعنيه بشكل مؤكد، ذلك أنها كانت تقول عكسه أو ما يشبه معكوسه أيضًا وبنفس الحماس من وقت إلى آخر حسب ما تأتى به الأحداث العارضة:

- ما تبقاش تتنيّل على حبة عينك وتروح هناك، أنت يعنى بتروح تهبّب إيه؟ وفّر للهبله وابن العورة والعيال الشلبى اللّى سناتهم زى المناشير، مالنا ومتحرَّم علينا يارب مالنا ومتحرَّم علينا يارب؟

وكان أبى يهدئها إذا سمعها فلا تهدأ أبدًا، ربما تركبها عفاريت الظهر الأحمر إذا تمادى فى الكلام، كنت أتخيل أن أبى يحمل معه مفاتيحها بالفعل، يفرحها أو يغضبها أو يجعلها تتحرك فى المكان وكأنها واقفة على رخامة فرن حامى، أو هادئة وكأنها تمشى على قشر البيض، هى نفسها كانت تقول هذا الكلام نفسه عنه وعنها فى ساعات الصفاء:

- طول عمرك ضاحك عليّا ومحيَّرنى فى أمرك، زى ماكون صندوق مقفول وفى جيبك مفتاحه، بس كان مناى ومنى عينى أشوفك

واقف جنبى، تجيب لى حقى الضايع.

– أنتى محتاجة حاجة؟ ناقصك حاجة؟ حق إيه جاكى كسر حقك؟

تضحك وتبدو لنا طفلة يلاعبها أب أو عم أو خال أو أخ كبير ناصح ومحبوب، تهدأ وربما تنسى الموضوع ساعة أو ساعتين لكنها تعود وتفتحه مرة أخرى بنفس الحماس، كأنما فكرت ولم تقتنع بما سمعت، أو تذكرت جديداً كانت قد نسيته، وفى مثل هذه الحالات كان أبى يخرج من الدار ويتركنا فى مواجهتها، تسبُّ الزمان الخسيس وتلعن الدنيا والنصيب الأغبر الذى أو قعها فى أفندى ببدلة لا يحافظ على حقوقه أو يطالب بميراث زوجته، تلعن الأفندية كلهم وتخص باللعنة كتبة الصحة والخطَّاطين فنعرف أنها تقصده ولا نجرؤ على الدفاع عنه رغم أننا نحبه.

كنت أذهب إلى دار جدتى لأمى إذن شبه مغصوب أو مغلوباً على أمرى رغم الترحيب الذى ألقاه وسرعة تلبية مطالبى إذا طلبت منها أى شىء، وكانت تمنحنى من القروش أكثر من قدرتى على الصَّرف، بل أن أول جنيه حصلت عليه كان منها، دسَّتة فى يدى ورقة خضراء مطوية فى صباح أحد الأعياد، ساعتها احترت فى أمرى ولم أعرف إن كان من المناسب أن أذهب به إلى أمى أو أن أتباعد عنها حتى لا تغضب علىَّ كعادتها إذا أظهرت لها فرحتى بالحصول على أى شىء من جدتى لأنها فى كل الحالات كانت تغضب أكثر مما تفرح وربما تقول:

– وإيه يعنى، ما هى بتدِّى اللِّى مايستاهلوش، روح أسال يوسف خد منها إيه؟ ح تلاقيه واخد زيك ويمكن أكتر، الوليَّه زى اللى تكون ولدتنى ونسيتنى.

وبمثل هذا الكلام كانت تحدِّث نفسها وتستمر حتى لو خرجت من الدار، أشعر أننى كنت سبباً فى إغضابها وأقرر أنه فى المرات القادمة لا أبوح لها بما يغضبها، لكننى كنت لا أستطيع الكتمان.

وكان يوسف دائمًا هناك مثلما كانت أمه فرحانة هناك بين أمى

وجدتى لأمى، تشعر أنهما أخذاها منها مع بقية أولاد شلبى، وربما بسبب ذلك كنت أشعر أن يوسف نفسه أخذها منى وأخذ منها مالا يستحقه مثلما أستحقه لأننى ابن بنتها الأكبر والأعقل، والتى كانت بحسب ما تقول لكل الناس أول فرحتها ووش الخير الذى عاشت فيه منذ أن عرفت سكة التجارة، فتزوم أمى غير مصدقة أن تجارتها بدأت برأسمال الناس الشلبى، هارون وفطوم والناعسة وكلهم لا يهون عليهم القرش وإذا هان فبالربا وأخذ كل الضمانات، وكان كلام أمى عن أبيها يشعرنى بالحزن لأنه مات قبل أن تكبر وتحس أو تفرح بأبوته، عاشت يتيمة وزوَّد يتمها أن فتحت عينيها لترى زوج أمها مبيِّض النحاس الذى هو أب «لكاف» ولا بد أن تبييض النحاس فى زمنه لم يكن بكاف للصرف على الدار وأنه اعتمد على ما كان فى متناول «أمها» التى تاجرت بمال زوجها السابق حسب كل التأكيدات التى وصلتها من ناس الكفر تمتدح أبيها وتسخر من زوج أمها، وربما كانت فى الحكايات مبالغات لكنها بالقطع لم تكن تخلو من وجاهة تجعلها قابلة للتصديق فى بعض الأوقات التى كانت تنفتح فيها سيرة الرجلين، وتبكى أمى عندما تكتشف فى كل مرة وكأنها تكتشف لأول مرة أنها انولدت يتيمة الأب مثلما انولدت فرحانة أم يوسف، لكن فرحانة وجدت من يدافع عنها ويرعاها بينما خسرت هى فى نفس الوقت أمها:

- قلبك محروق عليها قوى وعلى عيالها، طيب ما أنا ما شفتش أبويا زيَّها، أبويا اللّى أنتى لسه عايشه فى خيره وحارمانى منه، يا صنف.. يا صنف.. ح أقول إيه.. أتقّها تدخل ف عبِّى؟

وترد عليها جدتى بأنه لم يكن من الممكن أن تفعل لها أكثر مما فعلت لأنها سترتها وكستها وجهَّزتها أحسن جهاز فى الكفر كله قبل أن تزوجها لابن الحلال الذى هو أبى المستخدم والخطَّاط الذى يعيشها فى نعمة لا تحس بها لأنها جاحدة وطماعة وقلبها مملوء بديدان الغلّ والكراهية لأهالى أمها الذين هم أحسن من أهل أمى زرَّاعين التين الشوكى على شطوط الترع فى غير ملكهم، بيَّاعين الترمس المبلول والفول النابت.

تعايرها باسمهم «الخروبى»، وتكيد أمى بالمثل:

- «نص الفطرة خروب»

فتدافع أمى عن الخروب والناس الخروبى وتشتم الناس الشلبى وقلة أصل الناس الشلبى ثم تذكرها بمبيض النحاس:

- يامه اتحسَّرى على أبو بنتك الهبلة، دا عاش حافى ومات حافى، واندفن فى تربنا، هو أنتو كان لكم ترب تندفنوا فيها؟
- بس بقالنا أحسن ترب فى الكفر كله.
- من الخطف والنهب وقلة الذمة، أبويا فاتلك إيه يا مه؟
- فات إيه؟ هو كان حيلته حاجة؟
- والأرض؟
- بعتها على تربيتك وجهازك يا بنت الخنزير.
- وتحويشة العمر؟
- ما كانش يحتكم على قرش أبيض
- والدار اللّى أنتى ساكناها لحد النهارده؟
- روحى أقعدى فيها.
- ما تدِّينى حقى يامَّه.
- حق إيه جاتك لهوع اللّى لك، روحى اشتكينى يا بنت.
- يا واكله مال اليتيمة.. ح تنكوى ف نار جهنم.
- طول عمرك طمَّاعة وعينك فارغة، ما بتشبعيش مهما خدتى، وأكلانى قبانة ومساحة ولسانك متلفعة بيه.
- من نارى.. من نارى.. آه يا نارى لو كنت ولد، كنت وريتك النجوم ف عز الظهر.
- لو كنت عارفة أنك ح تطلعى جاحدة كده كنت قعدت عليكى بطّطتك وارتحت من قلة أدبك.

الغريب الغريب أن أمثال هذه المعارك كانت تدور بينهما وهم قعود وسط نسوان الدرب وعياله فى دارنا أو دار جدتى أو فى «الحاكورة»

البحرية أيام الصيف، تبدأ بالضحك والنوادر ثم تتحول إلى عتاب خفيف وسخريات تؤدى على مباراة تطول وتطول وترتفع الأصوات ويصير الكلام ممطوطًا ومكرورًا تتخطى فيه أمى حدودها ويبدو للسامع والرائى أنها لا تتكلم مع أمها فتفعل جدتى نفس الشيء ويبدو أنها لا تعارك ابنتها التى لابد أنها ولدتها يوماً، يصل الحوار بينهما إلى ردح حقيقى موزون، وكانت كل واحدة منهما جاهزة ومستعدة للتقليل من قيمة الأخرى، وربما لا ينتهى الأمر إلاّ بسباب واحد من أهل أى واحدة منهما يطالبها بأن تخرس وتلم لسانها الذى ينهش فى لحمها فى نفس الوقت الذى ينهش فى لحم الأخرى، وفى مثل هذه الحالة ينفض السامر بالغضب، لكنه فى بعض الحالات كان ينتهى من غير تدخل من أحد، ربما تنهيه نكتة أو تعليق يدعو إلى الضحك ثم يلين طرف ويلوم أو يعاتب أو يداعب فتعلق النسوان بكلام يؤكد أن الصلح خير وتسكت أمى وجدتى وكأن كل واحدة تفكر فى أخطائها التى ارتكبتها فى حق الأخرى، أو تلوم نفسها وتبدو مستعدة للصلح دون أن تتنازل عن حقها فى معاودة العتاب، وربما ينتهى العراك ببكاء أى واحدة منهما، تبكى فيسود صمت متوتر، وربما تقوم الباكية غضبانة إذا كانت فى غير دارها، أو تقوم الأخرى ساخطة لاعنة نفسها لأنها طاوعت روحها وجاءت لمن لا يستحق المجيء، وقد تقسم بألف يمين ألاّ يخاطب لسانها لسان الأخرى، ورغم محاولات الموجودات للإمساك بالغضبانة وإعادتها للقعود فإنها فى الغالب لم تكن تستجيب، لكن أغرب النهايات كانت تنتهى بأغنية يغنيها الصغار بتحريض أمى التى تقول للعيال:

- قولوا يا عيال.. أبو بلغه تحت باطه.

ويهلّل العيال قبل أن يشكلوا دائرة تدور حول النسوان وهم يغنون غنوة المدندش المحفوظة فتقوم فرحانة إن كانت فى المكان ولا تسمع:

أبو بلغة تحت باطه أبو بلغة تحت باطه
طمعان ف فلوس مراته طمعان ف فلوس مراته
أنا شفته فى منامى بارد ولسانه حامى

وعاشـــت الأســـامى بـــايع خلخـــال مراتـــه بايع خلخـــال مراته
ونبـــيض النحـــاس ونخلـــع المـــداس
وأن ضاق على المقاس يرهن صـيغة مراتـــه يرهن صيغة مراته
وأبو بلغة تحـت باطـه أبو بلغة تحـت باطـه أبو بلغة تحت باطه
هيه.. هيه.. هيه..

كنت أشاركهم فى أول الأمر دون أن أعرف حكاية الغنوة التى كانوا يتضاحكون عند سماعها وتغضب جدتى، لكن كثرة التكرار عرفتنى سر مبيض النحاس الذى تزوج جدتى لسنوات خلّف فيها خالتى «كاف» وكيف أنه كان من الوافدين على الكفر من أرض البرارى حيث أصول الناس الشلبى، جاء حافياً وباحثاً عن شغلانة تناسبه وأشار عليه أكابر الناس الشلبى بأن يتزوج من جدتى ليستر نفسه ويسترها وهى التى تملك الدار الواسعة تعيش فيها مع طفلتها الوحيدة ومازالت فى عز صباها وجمالها، ولا يدرى أحد سر موافقتها على الزواج منه بشرط وحيد هو أن يشترى بلغة ويلبسها يوم الفرح.. وكيف أنه منذ أن احترف تبييض النحاس لم يستطع أن يلبس المداسات فى أى الأوقات فكان يحملها تحت إبطه فى كل الأوقات إلا إذا أجبرته مناسبة على لبسها، كانت جدتى تدافع عنه قائلة إن عبد المولى الإسكافى أخذ مقاسه ووعده ببلغة صفراء مناسبة لكنه لأسباب ومقاصد لم تكتشفها فصلها ضيقة ولا بد أن المولى عز وجل سوف يضيق عليه قبره يوم القيامة بذنب كل من غشّهم فى الجلد أو الأجرة أو مقاس المداس مثلما فعل مع الرجل الطيب الذى أحسن عشرتها ولم يطمع فى قرش واحد من مالها على عكس ما أشاعه أهل كفرنا القوّال الفعّال الظالم الذى يخاف ولا يختشى، يضحكون من شدة حماسها فى الدفاع فى كل مرة وبنفس الكلام الذى حفظوه تقريبًا إلى الحد الذى يجعلهم فى بعض الأحيان يكملون العبارة إذا تباطأت هى أو سرحت فى البعيد، يبدو الانبساط على وجه أمى وتؤكد نصرها بسؤالها الودود:

– اللى راح راح بقى يامّه.. بس هو كان بخيل بصدق يامّه؟
– أبدا.. ما كانش بخيل.. بس كان ناصح لقرشه.

- أمَّال الخلق اللّى عاشرود كلهم قالوا إنه كان بيوفرها ويخاف عليها خوف العمى ليه؟
- هى ما فيش غير مرَّة واحدة اللّى قلعها قصاد الناس وهو بيعدى جنب معجنه يوم جنازة هارون.
- وهو فيه حد بيقلع مداسه ف الميتم يامَّه؟
- أهو اللّى حصل بقى. هو تحقيق؟ جتك لهو على أبوكى.
- تانى يامَّه.. ح تغلطى ف أبويا تانى يامَّه؟

تشعر جدتى أنها سوف تعيد ما كانت قد انتهت منه فتغّير الموضوع وتتلفّت حواليها، ربما تسأل عن مداسها أو تسأل عن فرحانة أم يوسف فإذا اكتشفت عدم وجودها لامت أمى بغضب:

- غضَّبتيها يا بنت الخروبى؟ ناسية إنه كان خالها أخو أمها لزم.. يا كبدى عليكى يا فرحانة يا بنتى.

تلبس مداسها فى قدميها وتلف الشال حول رأسها ورقبتها وهى تقوم متعجلة الخطوات فتحذرها أمى من الانكفاء على وجهها أو التعثر فى طوبة أو حجر بينما تسعى إلى دار فرحانة والواطية مردومة بالطوب والدبش والأحجار، لا تلتفت جدتى إليها وإن بدا عليها وعلى الكل قبل القيام المباغت أن القلوب تصافت، وإنه ليس فيها ما يعكر الدم الذى تعكر باكتشاف جدتى رحيل فرحانة بينما كنا نتقافز فرحاً ونحدى بالغناء.

ومرة أخرى تأمرنى أمى على مسمع من كل الحاضرات بألاَّ أذهب إلى دارها أو أزورها أو ألعب مع يوسف أو اكلم «كاف» فأهز رأسى علامة الموافقة، وربما تطالبنى بعد تلك التنبيهات بالذهاب إلى هناك بعد ساعة أو ساعتين أو فى صباح اليوم التالى إذا احتاجت من دار جدتى أى شىء، منخل أو وتد أو مكيال دقيق أو إبرة وخيط.

* * *

كنت فى مدرسة البندر مثال التفانى فى العمل والأخلاق بشهادة

المنصفين من غير ذوى الأغراض، لكننى فوجئت بقرار نقلى إلى الصعيد الجوَّانى تبع مديرية أسوان، أشار علىَّ وكيل المدرسة بكتابة تظلم باسم الوزير شخصياً، لكن ناظر المدرسة استخف بالفكرة وقال إن مثل هذه التظلمات لا ينظر فيها أحد وإذا نظر فبنيَّة الرفض المسبق لأن أمثال هذا النقل البعيد لا يحدث إلاَّ بسبب سوء سلوك شنيع أو خطأ سياسى ثابت على الشخص المنقول، وانقسمت المدرسة بإدارتها ومدرسينها نصفين، نصف يرانى إنساناً طيباً فى حالى لم أتسبب طوال عمرى فى أى إيذاء لأى إنسان، والنصف الآخر يرتاب فى أمرى ويتباعد بحذر مخافة أن أكون قد أصابنى جرب مخفى تحت الجليد قابل للإنتشار ونقل عدواه للأبرياء والأطهار بمجرد الاقتراب، وقال الناظر إننى بالفعل شخص فسدان ومسنود على ميراث لا أستحقه وشهادة عالية لا أحترم قيمتها بدليل أنه سمع أننى كنت أجمع فى دارى مجموعة مقاطيع جهلة يشاركوننى تدخين الحشيش، ولما قال له الوكيل إن هذه كانت فترة وانتهت، رد عليه بأن كل شيء مكتوب ومسجل فى ملفات الحكومة الجديدة وعهدها الجديد.

كان ناظر المدرسة من حملة كفاءة التعليم، وكان فى كل مناسبة يعلن كراهيته للفسدانين من حملة الشهادات الجديدة التى يسمونها عالية:

- التعليم كان زمان، فى الكتاتيب والأزهر الشريف.

وكان من المشهور عنه البراعة فى كتابة العرائض وتوجيه الاتهامات فيها لمن لا يرتاح لهم أو يرى أنهم خطر عليه، لكننى كنت فى تلك الفترة فى حالى، مهموماً بوحدتى وخلو دارى بعد رحيل الأهل، وبناءً على نصائح الوكيل والأنصار كتبت التظلم مشمولاً بالأمل فى إنصافى وأنا من أنصار العهد الجديد الذى خلَّص البلاد من الفساد والمفسدين بحسب ما أشار حضرة الوكيل، لكن التظلم حسن الصياغة رفضوه وتأشَّر عليه بخط الوزير شخصياً بضرورة تنفيذ النقل فى الميعاد حتى لا يخضع مقدمه لتطبيق القوانين كذا وكذا وكذا.. وذكر عدة أرقام وسنوات لم أفهم منها أى شيء، لكن التأشيرة أثارت شكوكى وشكوك الناس، نقص أنصارى وزاد

المحاذرين خصوصاً وأن الرد جاء مع مخصوص من القاهرة رأساً للمدرسة وهو أمر يثير الدهشة.

وقال ناظر المدرسة في الاجتماع المخصوص الذى عقده للنظر فى شأني بعد أن جاء رد الوزارة أن الحكومة بهذا الرد تضعنى فى خانة المعارضين وغير المتعاونين، وأن القوانين المذكورة هى قوانين طوارئ وخرقها يعنى الحبس الاحتياطى أو النفى لآخر بلاد المسلمين، وقال إن هذه الحكومة غير حكومات العهود البائدة لأنها صاحية وليست غفلانة، وإنه لا بد أننى أخطأت دون قصد وأنا أشرح للعيال دروس التاريخ أو أننى بعبعت بكلام ضد النظام الجديد فى ساعات السطل مع المفاطيع الذين لا يستبعد أن يكون أى واحد منهم صاحب مصلحة فى نقل الكلام للمسئولين، كنت أرى نفسى غرقاناً فى بئر غويط من الاتهامات، يتأكد براءتى من تهمة فأجد تهمة أخرى أو احتمالات تهمة تكون قد توجهت ضدى بناءً على تقرير مكتوب أو شكوى برع كاتبها فى صياغتها وأقنع المسئول، وكان ناظر المدرسة فى هذا الاجتماع هو بطل الحلبة، وقد تمكن من سحقى تماماً وسحق أنصارى وفاز علينا بالقاضية وكان يبدو للكل متمكناً وقادراً ولا يفكر فى أى عفو، لكن الوكيل ظل فى موقعه المتعاطف مع حالتى وأخذنى على جنب فى أحد الفصول الخالية وقال إن المسألة فيها شكاوى مكتوبة ضدى ولم يستبعد أن يكون للناظر يدٌ فى كتابة بعضها وهو المشهود له بالبراعة فى كتابة الشكاوى، نصحنى بالاستقالة فشعرت بالفزع فأوضح لى أن ملكيتى من الأرض تكفينى وزيادة فزاد فزعى، لعلنى لم أكن أجسر على مثل هذه الخطوة أو حتى أفكر فيها.

وقال ناس من مدارس أخرى إن النقل التأديبى واجب النفاذ، وإن الاستقالة التى نصحنى الوكيل بتقديمها تعنى تحدياً للحكومة وهى قادرة على التأديب بوسائلها الأخرى، وإن أفضل حل هو التنفيذ ودون تلكؤ أو تباطؤ، فزادت دهشتى لأن الكلام الذى سمعته مهموسًا على لسان الوكيل صار شائعاً على ألسنة الكل وكأنهم كانوا يختبئون تحت الدكك ولا أراهم،

احترت واحتار أمرى، صرت بين يوم وليلة حكاية على كل لسان، وصار من حق أى واحد تربطنى به علاقة أولا تربطنى أن ينقل إلىَّ خبراً صادقاً أو مكذوباً أو يسدى لى نصحاً ينجينى أو يرمينى فى معتقل تحرسه كلاب بوليسية قادرة على النهش والتمزيق، وصرت مثل وحش محبوس فى قفص ضيق يبحث عن منفذ فلا يراه إلى أن جاء اليوم الذى طلبنى فيه عمى وكأنه يذكرنى بأن لى فى الدنيا أهل وناس.

ساعات أفكر فى الأمر على هذا النحو: رب ضارة نافعة، والخيرة فيما اختاره الله، وما هو من نصيبك لا بد أن يصيبك، وكلام على هذا المنوال كثير لا أذكره لكنه عمل لحياتى توازناً كدت أفقده وأتخبط فى الدنيا بأكثر مما تخبَّطت، ربما كانت هذه النقلة أكبر نقلة فى حياتى، لا أحسبنى انتقلت من حال إلى حال بهذه القوة فى كل حياتى، كانت النقلة سبباً فى تعديل مسارى وكأننى كنت قطاراً مدفوعاً للأمام والسائق ينظر متوهماً أن مسارة سوف يبقى فى نفس الاتجاه فإذا بتحويلة لم يلحظها أو يتوقعها فى القضبان تأخذه وقطاره فى اتجاه المجهول، لكنه يكتشف بعد فترة أن هذا المجهول نفسه أفضل بكثير من المعلوم الذى كان يسعى للوصول إليه.

دخلت دار عمى فسمعت صوت جدتى لأمى، لا بد أننى كنت قد وصلت إلى حالة من حالات اليأس والانهيار التى ظهرت علاماتها وأنا أحسبها فى الداخل مخفيَّة، شىء مثل الأسرار الشائعة التى تظنها مستورة ثم تكتشف فجأةً أنها على كل لسان إلاَّ لسانك الذى حافظ عليها وكتمها، وساعتها تضحك على روحك لأنك كنت الوحيد الذى صدق أنها سرٌ يستوجب الحفظ والكتمان، شىء مثل كلام وكيل المدرسة الذى أسرَّه لى وشاع ربما بعد أن وصلنى مباشرة وربما قبلها. سر مكشوف ومعلن قبل البوح به، هل جرَّب أحدكم مثل هذا السر واحتفظ به مثلى بينما الكل يتداوله حتى قبل أن أسمعه، لا بد أننى كنت مكشوفًا للكل على نحو فاضح دون أن أدرى، وقالت جدتى لأمى وهى توجه حديثها لعمى بينما أجلس:

- مش قلت لك ابن بنتى عضمه طرى وقلبه خفيف وما يستحملش

الحاجات دى، ده عاوز حد يكون قلبه عليه، يوعّيه ويسنده ويصلب طوله، وأنا إن لفيت الدنيا كلها مش ح ألاقى له أحسن من بنتك فردوس.

هل كنت أنا فى غيبوبة بينما تتحاور هى معه فى كل التفاصيل وأنا مثل البنت البنوت ساكت وغائب أو غير مسموح لى بالكلام بحساباتى على الأقل فى تلك الأمسية التى تفاوض فيها أولياء أمرى فى أمرى وأمر فردوس حتى انتهى الحوار بزغرودة من أم فردوس جلجلت كإعلان عن فرحة تدخل قلبى الحزين من غير تعب أو سعى أو مناهدة، ثم زغرودة أخرى أطلقتها خالتى العبيطة «كاف» أضحكت النسوان فترة قبل أن تزغرد فرحانة أم يوسف فيتأكد لى ولكل السامعين أننا بالفعل قد قطعنا كل الأشواط وسوف نبدأ الفرح.

- شوف وشه نور إزاى؟

قالتها جدتى لأمى وهى تشير ناحيتى فأبتسم وأنسى هم النقل وما دار حوله من كلام وتهديدات وقلق، وقالت جدتى أيضا:

- يدخلوا هنا يا حاج ف داره اللّى هى دار أخوك وأنا اللّى ح أبعت أحوش لهم سكن هناك وأنقل عزالهم كمان على حسابى.
- أيدنا على أيدك يا حاجة، هو إحنا ح نبخل على إبننا.. ما هو إبننا برضه.. مش كده وللاّ إيه؟ هئ هئ هئ.. هئ.

كانت المندرة قد انزحمت برجال ونساء وعيال وعيناى تبحثان عن فردوس، لا بد أننى بسكوتى الذى طال رغم طلبات البعض منى أن أتكلم وأقول رأيى فى أى شىء فلا أنطق وأجعلهم يضحكون، وغاية ما استطعت أن أقوله بعد أن هززت رأسى بالموافقة عشرات المرات هو:

- أنا موافق على كل اللّى قالوه..
- وموافق ع اللّى ح يقولوه..

لا أعتقد أن زواجاً تم فى كفرنا على هذا النحو وقد نفض العريس يده

من كل شىء وأسلم روحه للتفكير فى مستقبل الأيام، كانت دارنا تزدحم بالوافدين، منجدِّين ونجَّارين وحملة صناديق وكراتين، ناس تكنس وناس تخبز وناس تغسل وناس تذبح طيور لا أعرف مصدرها ثم تنظفها وتحمرها فى الفرن وأنا المتفرج الوحيد:

- أصله بينكسف.
- بس اللِّى ينكسف من بنت عمه ما يجيبش منها عيال..
- حد عارف بقى.. يمكن مالوش.
- والاَّ العروسة مش عاجباه..؟
- إخرسى يا بنت منك لها بلاش قلّة حيا. تقولها جدتى فتخرس البنات عن الكلام.

لكن ضحكاتهن تجلجل وتملأ فراغ الدار ويتأكد لى أننى خلال اليومين الفائتين عرفت الفرح لأول مرة فى حياتى بعد موت المرحومين فى يوم واحد وغلبة الأحزان، لا بد أننى كنت أخجل فعلا من التفكير فى أمر الزواج أو الكلام عنه رغم إعجابى بفردوس، وقد تحدَّدت تفاصيل بدنها وصار لصوتها بحة مميزة، ولنظراتها ارتباكات مشاغبة جديدة عليها، والوجه الذى كان يتلوَّن بالحمرة خجلا عندما أمرُّ على دارهم مجرد مرور وتتقابل نظراتنا صدفة، لم يكن فى العقل أو القلب أو الخيال غير فردوس، لكن هل كان من الممكن أن أفكر فى الزواج ولم تمض على موت أمى وأبى فى نهار واحد غير ثلاث سنوات وبضعة شهور؟ وحتى إذا فكرت هل كنت أستطيع التنفيذ أو أتجاسر على الذهاب إلى دار عمى والجلوس أمامه بأدب لكى أطلبها لنفسى بنفسى؟ صحيح أنها كانت منذورة لى وكنت منذوراً لها منذ سنوات وبشكل معلن أيام وجود الوالدين، لكننى بالقطع كنت فى حال من الارتباك والتشتت والقلق الكفيل بإسكاتى عن المطالبة بأى حق من حقوقى إذا منعوه أو اغتصبوه حتى ولو كان جرعة ماء من مجرى النيل، لم تكن فردوس مجرد نذر قديم نذروه، أو مشروع زواج أقارب مألوف فى كفرنا، لكنها كانت فى القلب قبول وشوق مستور بالأدب وصورة فى الخيال وهى شريكة لمشوار العمر كله تطرح فيه شجرتها عيال يشبهون صور

الملائكة المرسومة فى كنيسة نصارى كفرنا الكائنة ناحية الدوَّار القديم حيث كنا نتجمع للعب الكرة أيام الجمع من كل أسبوع ونتوقف أحيانا بكل الاندهاش لنتأمل الرسوم.

لا بد أن ملاكاً طاهراً هو الذى أوحى لجدتى وعمى بأن يفعلوا ما لم يفعله أحد فى كل ناحيتنا بهذه البساطة والبراعة واليسر، كان كل شىء يتم حولى بسرعة وخفة إلى حد مذهل ودون أن أتعب فى شىء، ولا بد أن جدتى سدَّدت لأمى دينها القديم فى هذه المناسبة وأكثر، كنت أسألها عن تكاليف أى شىء أو ثمن أى شىء فتجاوب بنفس الجواب:

- ده من القرشين اللّى كانوا فى ذمتى للمرحومة أمك يا ابن بنتى، ح تحرمنى من سداد الدين وتكوينى ف نار جهنم كمان؟ الله يرحم اللّى راح.

بعد عقد القران أحاطونى فى مشوار الزفة القصير وعن يمينى فردوس، من دار عمى لدارنا وجدتى تتقدمنا حتى وصلنا للباب المفتوح فأمرتنى:

- أحملها يا ولد وأدخل بيها من عتبة الباب.

حملتها فشعرت بها خفيفة خفيفة تكاد أن تكون نسمة ليس لها ثقل، وعندما خطوت عدة خطوات انسك الباب بيد جدتى التى أمرت الكل:

- كل واحد يروح لحاله.. العروسة للعريس والجرى للمتاعيس.

وضحكت ناس واعترضت ناس وزغردت نسوة وألقيت على الباب المسكوك حفنات من الملح الأصلى نفذت بعض حصواته من شراعة الباب وطالتنا فضحكت أنا وفردوس.

لا بد أننا اكتشفنا كل شىء على مهل وبكثير من الخجل، كنا مثل طفلين غرِّيرين يخطوان فى الفراغ قبالة بعضهما أولى خطواتهما كل منهما فى اتجاه الآخر، ولا بد أننى فى الفراش تجاسرت بأكثر مما كنت أملك فى الخيال من جسارة، ولا بد أنها تجاسرت أيضًا عندما قبلت جسارتى التى

مكنتنى من فتح سكة لقدرتى فى طريق كان مسكوكاً وصرت أملكه، وانطلقت أعيرة نارية ساعة الفتح سمعناها فارتبكنا لحظة ثم تبادلنا الأحضان من غير تردد.

وكانت فردوس فى الغربة حضناً حنوناً يبعث الدفء فى الصدر والقلب والأطراف، ربما لولاها ما استطعت أن أعيش بالغصب فى تلك المدينة أياماً رغم التنبيهات والتحذيرات والمخاوف، كانت فردوس فى غربتى ونسى، وفى دنياى المعزولة بؤرة تواصل فيه متسّع، كانت هى الأم والأب والأخ والأخت والعم والخال وبنت العم وبنت الخال، وكانت صاحبى الذى يلاعبنى كل ألعاب الورق، تغلبنى وأغلبها فنضحك ونعاود اللعب. وكانت هى الزوج المعشوقة وكنت زوجها المعشوق دون أن يتحدث أى منا عن مسألة العشق لأن الكلام فى العشق عيب كما اتفقنا. كانت قادرة على طمأنة القلب وسقايته بشهد الحياة الصافى وهى تتدفق بفطرتها دون أدنى افتعال لتحمينى من وساوس العقل ومخاوفه، وكانت تنسينى فى الليل كل متاعب النهار.

لكن ناظر مدرسة العهد الجديد كان نسخة قديمة من الناظر القديم، كان يتباهى بكفاءة المعلمين أيام كانت كفاءة المعلمين أحسن ألف مرة من أعلى الشهادات حسب تأكيداته، لكنه كان أكثر جرأة فى الإعلان عن وظيفته الأهم من نظارة المدرسة وهى مساعدة المسئولين على تحقيق النظام وإنجاز العمل بالإضافة إلى قدرته المذهلة على التلون، يدخل مكتبه المفتش أو أى مسئول فيبادره بالسعى ناحيته حيث يكون ثم ينحنى ويتصاغر ويقصر طوله وهو يعلن:

- نقبل الأيادى سعادتك.

لكن إذا خرج المفتش أو المسئول نفسه من المكان واطمأن تماماً أنه ابتعد بشكل مؤكد عن مجال السمع قال نفس العبارة لأقرب واحد يكون إلى جواره حتى ولو كان واحداً من الفراشين، يقولها مهموسة وممنوحة للآخر بعد أن يزفر:

- أهو غار.

وكنت أصف لفردوس أفعاله وتهديداته التى لا تنتهى بأن يتصل بالمسئولين الذين يملكون الحق فى نفى أى معترض، أو نسفه، أو استضافته فى منطقة مجهولة وبعيدة وكائنة وراء الشمس، أبثها مخاوفى من أن يكون هناك أى شيء ضدى يدعوه لكل هذه التخويفات المتكررة فتظمئننى بأننى رجل مستقيم وفى حالى وبأننى لم أكن ضد رأى شخص بعينه لأكتسب عداوته، لا أصدق وأجادلها فى الأمر وأذكِّرها بقرار نقلى إلى هذه البلدة البعيدة فتهوِّن علىَّ الأمر قائلة:

- كلها بلاد مسلمين والناس هنا طيبين.

أوافقها وأعود للحديث عن مخاوفى من الناظر فتوصينى بأن أنسى الشغل بعد مواعيد الشغل، وأن أنسى ناس المدرسة وأنا خارج من باب المدرسة، أدرب نفسى على ذلك فأفلح فى بعض الأيام وأفشل فى بعضها الآخر، لكنها لم تكن تكف عن نصحى ولا تمل احتمالى، تجذبنى للحديث عن نطفة تتحرك فى بطنها أو طفل تعلّم الابتسام وعمره عدة أيام فأقوم إليه لأتأكد من ذلك بنفسى وأنا أصله، أشعر بارتياح وبأننى أستطيع بقليل من الوعى أن أملك كل وقتى وأن أنعم بحياتى مع فردوس وطفلها إذا هدأت أعصابى، أتحول إلى أب فرحان وأشعر أننى بمساعدتها استطعت أن أتجرَّد من بعض أحزانى، لكن القلب بسبب الخوف عليها وعلى خلفتنا لم يكن يخلو من الوجع، لا بد أن فردوس فى تلك السنوات العجاف كانت وطنى الذى انتزعونى منه غصباً ودون أى ذنب فضحكت عليهم وأخذته معى وأركبته القطار بتذكرة سفر ثم ساكنته أو أسكنت نفسى فى حماه مستغنياً به عن كل ما كان يحيطنى أو يدور حولى، لا بد أن فردوس كانت قبل أن تولد أسرة كاملة أو عائلة كبيرة متماسكة ومتوحدة ومتفقة على أساسيات استمرار الحياة رغم كل المصاعب لكنها نزلت من بطن أمها على هيئة بنت، كان من الممكن أن تكون وحدها عائلة، عيالها كثار واسمهم فردوس وكبارها اسمهم فردوس وحريمها اسمها فردوس، وكنت أنا وحدى الحاكم

لها أحيانًا ورعيتها المحكومة، والحامى لحماها وحدودها والمحمى بقدراتها على إدارة الحياة، سبع سنوات من الاغتراب الذى لم استشعره إلاّ على فترات متباعدة خلفت لى خلالها بنت واحدة وولدين وجعلتنى أدور فى فلكها باختيارى لأنها كانت بالقطع تدور فى فلكى وعلى مقربة منا ناس كثار من أبناء تلك المدينة فتحوا لنا صدورهم وباحوا بالأسرار فشعرنا معهم بالأمان وعاشرناهم باطمئنان، لعب عيالنا مع عيالهم واقتربوا منا فاقتربنا منهم إلى الحد الذى أنسانى حكاية النقل الذى يشبه التأديب أو العقاب عن خطايا لم أعرف أبدًا متى ارتكبتها ولا حتى ضد من كنت فيها طرفًا معاديًا يستحق الانتقام فى بدايات ذلك العهد الذى حسبته عهدى وتحمست له لأنه جديد.

لكن ناظر مدرسة العهد الجديد طرق بابى ذات مساء على غير موعد فرحبت به كما تقضى الأصول وقدمت له الواجب اللائق بناظر مدرسة، شكرنى ثم همس وهو يتلفّت حواليه ناسيًا أننا فى بيت مقفول بابه:

- حد هنا غريب..؟

- لا

ومرة أخرى جال ببصره متلفّتًا فى أركان المكان وكأنه يتحسَّسه بعينيه وأنفه فلما اطمأن قال بنفس نبرات صوته المهموس المانح:

- جايب لك بشرى أستاهل عليها حلاوة كبيرة قوى.

- خير.. أنا تحت أمرك يا حضرة الناظر..

- صدر أمر بالعفو عنك، ح ترجع بلدك عن قريب، أصلهم سألونى وقلت لهم رأيى فيك، وبينى وبينك ما أخبيش عليك أنا كنت متكلّف أكتب خط سيرك للمسئولين من يوم ما جيت، أصل أنت كنت جاى مغضوب عليك، بس الظاهر كانت تهم مالهاش أساس - تهم فى السياسة يعنى.. هو أنت كان لك ف السياسة هناك؟ إتهيألى لأ.. بس مش عايزك تجيب سيرة لحد..

قالها وانتفض واقفاً وكأنه حاجب محكمة كلّفه قاضى مشغول بقراءة

منطوق حكم بسيط على متهم بخطف طاقية فى مولد لم تثبت إدانته وحصل على البراءة، مدَّ الناظر يده يطلب السلام فاستمهلته ولم يتمهل بينما يخرج من باب البيت وكأنه مسئول عن موضوعات أخرى يلزم إنجازها فى نفس الوقت، موضوعات يعلم الله مدى خطورتها أو بساطتها فى حياة ناسها.

لكننا رجعنا على أى حال بعد أن صدقت بشرى ناظر مدرسة العهد الجديد وانطبع قرار النقل وانختم لتنفتح دارنا التى هجرناها ويتم تنظيفها وفرشها بعفشنا المنقول، وقبل أن يكتشف العيال براح الدار جاءتنا الأخبار بأن جدتى تطلبنى وقد توافق وصولى مع اشتداد مرضها ومنازعاتها مع الموت.

* * *

طبعا كنت أصغر من يوسف بسنة وشهرين حسب ما ظهر أيام أن تقدمنا للالتحاق بالمدرسة الابتدائية، ولولا واسطة مدير عام المصلحة نفسه ما دخلت أنا ولا دخل يوسف، كنا قد نجحنا فى امتحان القبول أنا ويوسف وصلاح النعناعى لكنهم وضعوا أسماءنا فى كشف مفصول عن كشوف المقبولين وقد كتبوا أعلاه «كشف بأسماء الناجحين وليست لهم أماكن» وقلنا أنه نجاح أصعب من السقوط لأن السقوط كان يسمح لنا بدخول الصف الأول بدل الصف الثانى الذى اجتزنا امتحان قبوله، وطبعًا تحمل أبى المسئولية وحده بدون مناقشة لأنه متعلم ومستخدم وله وساطات، أول ما سعى اتجه لسراية الباشا كبير الناحية حشمت الدكرونى لكن الباشا حشمت اعتذر بلطف لأن حزبه خرج من الوزارة، وقال إن الحزب الحاكم فسدان ولا يريد أن يعمل أى إصلاح، وإن ما جرى فى مسألة قبول التلامذة أو عدم قبولهم لعدم وجود أماكن الغرض منه تجهيل الشعب وتزويد الأمية، وقال كلاماً كثيراً زوَّد به هم أبى الذى كان يحكى لصلاح النعناعى وحلاق الحمير كل تفاصيل مساعيه ومشاويره وأفكاره لحل المشكلة، قال لهما إنه يعرف من مفاسد الحكومة والحزب الحاكم أضعاف أضعاف ما يعرفه الباشا كبير الناحية والنائب عنا فى البرلمان، لكنه طمأنهما بأنه سيحاول من باب آخر:

– ولو أنى ما حبِّش الجرى والتنطيط والوقوف على أبواب المكاتب

إنما ده مستقبل ولازم نلاقى حل للعيال دول.

وفى صباح اليوم التالى قال لأمى إنه سوف يسافر لمقابلة مدير عام المصلحة نفسه فى مصر المحروسة، وسافر وغاب يومان وليلتان ثم رجع متهلّل الوجه مستبشراً، وفى مساء نفس اليوم جلس فى صدر مندرتنا وحكى لكل من جاء يستفسر عن نتيجة سعيه فحكى عن محاولاته للدخول لمكتب مدير عام المصلحة وتأجيل دخولـه مرة بعد مرة بسبب الاجتماعات واللجان والزوّار الأجانب وغير ذلك من الحجج التى يبرع الموظفون فى مكاتب المسئولين الكبار فى اختراعها:

- أنا كنت زهقت خلاص وفكرت أرجع من غير ما أقابله.. بس العيال صعبت عليا.. قلت للكبير فيهم روح وقول للبيه المدير العام فلان الفلانى مستنى حضرتك من يومين، الراجل بص لى بغيظ.. بس يا سبحان الله دخل وطلع وشه متغير وبقه مفتوح ع الآخر ويا أهلا وسهلا.. أتفضل حضرتك البيه المدير عايزك، أنا بقيت مش مصدق روحى بس دخلت، الراجل رحب بى وقال إنه يسمع على أسمى من زمان وإنه كان عاوز يشوفنى، قلت يا سبحان الله.. العيال دول سكتهم سالكه وربنا ح يوفقنى ف المشوار، سألنى ع المطلوب قلت له، هز رأسه وضحك وقال: بس كده.. روح يا أفندى* على بلدك، ابنك وزمايله ح يدخلوا المدرسة، بس أنت سلم لى على عصمت بيه.

سألوه عن عصمت بك فأكد لهم أنه لا يعرف شخصاً فى مصلحة الصحة اسمه عصمت بك، وأضاف إنه عرف بالصدفة أن البك المدير العام زوج بنت الباشا وزير المعارف أو زوج بنت أخته أو أخيه، شىء من هذا القبيل وأنه لم يلتق به أبدًا، أو يظن أن لهم أملاك فى الناحية، لكنه الله الذى سبب الأسباب وجعل الرجل يرحب به ويطمئنه على مستقبل العيال، أظهروا دهشتهم واعتزازهم بسعى أبى ودعواتهم أن يكلّل مسعاه بالنجاح وتمنياتهم للبك مدير عام المصلحة بدوام العز والقدرة على إنصاف المظلومين.

ولم تمضى أكثر من عدة أيام حتى ظهرت البشارة وأعلنت المدرسة على بابها بخط عريض إنها سوف تقبل كل الناجحين ولم تكن لهم أماكن وتفتح لهم فصلاً جديداً، على هذا النحو كان لمدير عام المصلحة فضل دخولنا المدرسة، انفتحت بواسطته الأبواب المسكوكة وانوجدت الأماكن غير الموجودة فدخلنا أنا ويوسف وابن النعناعية.

لكن حكاية نجاح يوسف نفسه فى امتحان القبول لا يعرفها غير الله وأنا ويوسف نفسه لأنه فى الامتحان كان الولد يوسف يجلس ورائى، ربما لأنه من نفس بلدنا، وربما صدفة لكنه كان ورائى، يحلفنى طوال وقت الامتحان بالنبى المرسل ويدعو لى ولأبى بطول العمر لكى أغشِّشه فأخجل من نفسى وأتحين أى فرصة يلتفت فيها المراقب لناحية أخرى فأرفع ورقة الإجابة فى وضع قائم معتمدًا على قدرات يوسف التى شهد له بها كل الناس برؤية الأشياء البعيدة أكثر من غيره من عيال الكفر، وكنت أفسر له بالكلام المنطوق أيضًا ما يعجز عن فهمه لأنه كان يتميز ببلادة وعجز ظاهرين فى فهم المعانى ونطق الألفاظ كما علمنا الشيخ درويش، لكنه نجح بمساعدتى مستغلا قدرته على الإلحاح وادعاءاته المتكررة أن للقرابة الشديدة التى تربط بيننا حق فى رقبتى ويلزم أن أوفّيه، الشيخ درويش نفسه لم يصدق مسألة نجاح يوسف فى امتحان القبول بمجهوده، وقال إنه لابد أن أوراقه اختلطت بأوراق ولد شاطر، أو إنه غشَّ فى اللجنة، وعندما سألنى أخفيت أنه كان يجلس ورائى أو أنه غشَّ منى، حتى صلاح النعناعى أخفى عن الناس ما رآه ربما لأن يوسف حلفنا فى أول يوم بالمصحف ألاَّ نبوح.

لكن يوسف دخل المدرسة فى فصل غير فصلى أنا وصلاح النعناعى، وبينما كنا ننجح كان يوسف يعيد كل سنة فيأخذها فى سنتين مما جعل الشيخ درويش يستشهد بذلك على خيبة يوسف التى تنبأ بها من زمن قديم، ولعله الشيخ درويش أيضًا الذى نبَّه أبى إلى إمكانية استغلال تفوقى الظاهر فى دخول امتحان العامين الدراسيين لأنط كل سنة سنتين دراسيتين وإصل إلى التوجيهية بينما يوسف يمتحن الابتدائية لثالث مرة.

في كفرنا وفي الكفور المجاورة اعتدنا موت الرجال قبل النساء وتوقعناه، وقد يموت الرجل فتدخل امرأته تجربة الترمل الطويل، أو تسعى لزواج جديد، وفي كفرنا كل الحالات بأشكالها وألوانها الحادة والباهتة، نبدأ بمثال لتلك التي رمت عيالها لأهاليهم ليتولوا تربيتهم وتشوف هي حالها، كان قد فاتها قطار الصبا والقدرة وشاب شعرها وغزت تقاطيعها تجاعيد تليق بعمرها، وكانت عندها خلفة كثيرة بعضهم كبر وزال همه، والبعض منهم كانوا صغار السن يحتاجون لرعاية الأم، على وجه التحديد رعاية الأم، لكنها فتحت بابها وسمحت للورداني بدخوله وهو النفر «التملّي» ابن السيد العبد المجلوب من بلاد العبيد السود، قال ناس الكفر إن الست نرجس حرم المرحوم شيخ البلد وديع قلّلت قيمة روحها بروحها، صحيح أن الشرع يسمح ولا يمنع لكنه هناك أيضًا شيء اسمه العيب وهو ما لم تحسب حسابه فأتاحت للألسنة التي تشبه سكاكين الجزار المسنونة أن تسلخ جلدها وتغوص في لحمها وعرضها ساخرة وقادرة على تخليق النكات البذيئة عن المرأة التي حكمتها الغريزة وسكنتها من الداخل دودة شقية لا تكف عن الحركة إلاّ إذا ركبها رجل وأشبعها، ولا بد لا بد أن شيخ البلد مات بسبب تلك الدودة نفسها ناقص العمر لأنها لا بد كانت تطارده وتقلقه وتوقظه من أعز نوم لكي يطفئ اللهب الحادث من حركة الدودة في اللحم الحي، لكنه أيضًا لأن الناس في كفرنا تعشق العفو والسماح فإنهم بعد عدة أسابيع من التندُّر والتعبير عن القرف من أفعال بعض النساء، قالوا لبعضهم البعض إن الله حليم ستار وإنه على أي حال الحلال أحسن من الحرام، كأنما بعد أن شبعوا كلاماً في السيرة أدركوا أنهم حرَّموا الحلال فمالوا إلى التكفير عن خطاياهم بالحماس الزائد لتحليل ما هو حلال والاعتراف بأن الورداني العبد بني آدم من دم ولحم شأنه شأن الأسياد.

لكن الوجه الآخر كان معكوس الست نرجس، ليس فقط لأن نادرة كانت صبية وعفية وتتمتع بطلعة بهية بينما قريناتها وبنات عمرها مازلن بناتًا غالبًا وأبكارًا لم يمسسهن بشر إلاّ أقل القليل، وكانت بنت ناس على باب الله، لا مال ولا أرض ملك ولا عزوة عائلة قادرة على إعالتها بطفلتها

الوليدة وقد مات زوجها فى سكة البندر عندما صدمه جرار الحاج مرسى، لا كان للولد معاش ولا الحاج مرسى نفسه عوَّضها بأى شىء أكثر من تكاليف الدفن وثمن الكفن، وكان من الطبيعى أن يظهر لها من شباب الكفر من شاء أن يقترن بها ويسترها وأن يطمع فيها بعض كبار السن من المتيسرين ذوى العيون الفارغة، ولعل علامات الطمع ظهرت لها فى زيارات العزاء المتكررة والتلميحات المكشوفة فى الكلام مثلما فعل الشيخ بسطامى فأوقفته عند حدِّه بحدَّة وقالت له على رؤوس الأشهاد إن من يدخل سكنها للعزاء فلا بد أن يدخله باحترامه ويخرج منه باحترامه، وابتلعها الشيخ بسطامى وتباعد عدة أيام ثم بدأ فى إرسال المراسيل لجس نبض البنت وما إذا كانت على استعداد لأن يدخل حياتها بشكل شرعى وعلى سنة الله ورسوله شريطة أن يكون العقد عرفياً فرفضت، تنازل وأبدى استعداده بأن يكون الزواج شرعياً وبعقد رسمى فرفضت أيضًا وأعلنت لكل من فاتحها بينه وبينها أو وسط الناس أنها سوف تربِّى طفلتها من كدِّها وعرق جبينها وأنها لن تجلب لطفلتها زوج أم، نصحها المتعقلون بقبول عرض الرجل لأنها سوف تتحوَّل إلى ست هانم تأكل من خير زوجها ميسور الحال ما لم تأكله فى حياتها وتلبس ما لم تحلم يوماً أن يلمس بدنها، لكنها اعترضت بحسم، وظل الشيخ بسطامى يحوِّم حول سكنها وكأنه مسحور أو مكتوب له بالعشق وعدم نوال المراد، ولأنه لم يكن بقادر أن يمنع نفسه فقد أضحك عليه الناس لأنها بصراحة أصغر من بناته، ولأنها بدأت بكشف أغراضه قبل أن ترفضه بعناد حمارة من الصنف الحصاوى الأصيل مما أكد لهم طهارة ذيلها وصدق قولها بأنها بعد المرحوم قصير العمر طلَّقت الرجال بالثلاثة.

ولا بد أنها حسبت فى عقلها أن لقمتها فى داره وأن كانت حلوة الطعم إلاَّ أنها سوف تكون مسمومة من عيون زوجته أم عياله وعياله وناس الكفر خارج حدود داره فاختارت السعى فى السكة الصعب، تركت الناس تتقوَّل على الشيخ بسطامى بحسب ماتسعفهم الألسنة:

– دا راجل شايب وعايب وإحنا كنا مغشوشين فيه.

- بس البنت أجدع من ستين راجل، وقَفْنه عند حدّه بصحيح.
- دا بقى كهنه وضهره انحنى، كان فاضل فيه حيل لجواز؟

وغير هذا كلام كثير قاله الناس وسمعه الناس ومن بينهم أهل الرجل الذين صار كل همهم أن يمنعود من خروج الدار وإذا خرج أعادوه وهو ينادى طيفها الساكن دماغه بلا خجل فى الشارع والدار وكل مكان يتواجد فيه:

- يا نادرة.. ردى علىّ يا نادرة.. نادرة..

وعندما بتعب يسكت، ونادرة هناك على مقربة أو مبعدة منه تشقى روحها ولا تهدأ أبدًا، يوم السبت من كل أسبوع تذهب إلى البندر وتشترى الترمس الجاف من الغباشى العطار ثم تعود وتقسمه ست أو سبع أكوام تحط كل كوم فى جلباب مسدود طوقه بحبل أو شوال وتنقعه فى مجرى الترعة جنب المصلية الكائنة قبالة سكنها، والعبوّة التى تطيب وتطلب الأكال كما تقول تفرغها فى طبق العشاء الكبير وتغسل الترمس فى ماء الصهريج حتى تلمع قشرته الصفراء وتشتهيه العين قبل البطن، تجلس ببضاعتها عند باب المدرسة والبنت على حجرها، تبيع للعيال الصغار وللبنات ولمن يطيب له أن يتذوق ترمسها المملح بحلاوة من الرجال. وكانت البنت تكبر، وتزحف وتمشى ثم ترمح وتدخل نفس المدرسة ثم تكبر أكثر وترافق نادرة في نفس مشوارها اليومي فتبدو مثل أمها فى صباها القديم وتتحول نادرة فى وسط الحريم إلى مثال على القدرة يذكرونه للرجال إذا عنّ لهم أن يتباهى الواحد منهم أكثر مما ينبغى بقدرته.

لكن بعض نساء الكفر أيضًا يمتن قبل الرجال، وأحيانا تكون الزوج شابة تستحق أن يحزن عليها الرجل كل عمره مثلما حزن عيّاش الضّانى وشغل عمره بالولدين والبنت ونسى أمر الزواج البديل إلى الحد الذى جعله يحتمل ما كان يشيعه عنه الشباب من أنه فقد قدرته كلها وربما نصفها فخاصم الحريم، كان قد انكمش على نفسه وصار ثقيل الحركة ومن داره لزاوية أولاد عوف للغيط، ومن الغيط للزاوية للدار يغسل لنعيال ثيابها

ويجهز عشاءها ويغطى من ينام وينتظر آذان العشاء ليذهب إلى الزاوية ويصلى ويرجع للدار ثم ينتظر بينما هو نائم آذان الفجر ليصلى ويوقظ العيال، لكنه من فرط دهشة الناس فى كفرنا صار يتباعد عن النساء، توجِّه له الواحدة تحية الصباح أو المساء فلا يرد، تعرض عليه أى واحدة من قريباته خدمتها أو مساعدته فى شأن من شئون العيال فيطرق مدة ولا يرد وكأنه خجلان من الرد، وبمرور الأيام اكتشفوا أن عيَّاش الضَّانى خاصم بالفعل كل الحريم وأنه لم يتبادل على امتداد السنوات عبارة حوار مع أى واحدة سواء قريبة أو غريبة، قالوا أنه أصيب بمسٍّ من الجنون لكن الرجل كان فى حوارد مع الرجال عاقلا بكل ما يظهره العقل من علامات، وتطوع حسنين المدندش وسأله فى ليلة طلع فيها القمر ونوَّر دروب الكفر وسطح دار عيَّاش الضَّانى حيث كانا يجلسان، سأله فبكى وأجهش فى البكاء وباح:

- كل النسوان خاينين، أتجوزها وأرهن فى جهازها خمس قراريط وتخلفلى عيال أفرح بيهم وأفرح واقول الدنيا بتضحكلى، أول ما فرحت وقلت لنفسى الدنيا بتضحكلى ماتت.. ماتت من غير أسباب، ماعيتش، مارقدتش، ماسخنتش، كانت زى الرهوان.. وهب.. قعدت ع الأرض وشاورتلى ميِّلت عليها وسألتها مالك قالت لى أقعد جنبى يا عيَّاش.. بايِنِّى ح أموت فـ لعبه يا عيَّاش، أنا كنت باكفِّيك وأراضيك وعمرك ما شبعت يا عيَّاش، سلسالك فرعون ما بيتهدش أبدًا.. ثلاث مرات فى الليلة يا مفترى.. قتلتنى وكنت عشقاك.. إن مت يا عيَّاش ماتكشفش روحك على حريم بعدى.. حرام عليك.. حرام.. ح أتعذب فـ تربتى يا عيَّاش... قالت يا عيَّاش وماتت.

والمدندش حفظ الكلام، وزنه وحكاه وربما كان أول شيء غنَّاه على الربابة الجديدة، وكل ناس الكفر سمعت حكاية عيَّاش الضَّانى وصدقتها رغم أنهم لم يسمعوا بمثلها فى الكفر والناحية ولا حتى فى حواديت بلاد تركب الأفيال:

- عيَّاش الضَّانى حكاية يا ناس.. عيَّاش الضَّانى حكاية.

على هذا النحو كان يبدأ المدندش حكاية عيَّاش، وربما يكون وسط جمهور السامعين عيَّاش الضَّانى نفسه، يسمع ويتعجب ويمصمص الشفاه شأنه شأن الآخرين الذين صاروا يتعاطفون معه ويمنعون الحريم من عمل تلك المشاكسات المتكررة معه والتى كان لا يرد عليها بأكثر من إطراقة تطول بطول مدة وجود من تشاكسه أو تعاكسه من النساء وعندما يطمئن إلى خلو المكان منها يرفع رأسه ويقوم لشأنه، لكنه لم يعد يتعرض لمثل هذه المشاغبات من زمن طويل وقد طالت قامات عياله وزادت على قامته، ولابد أن حكايته التى كان يغنيها المدندش كل مرة بشكل انضاف إليها جديد وانحذف منها أجزاء لكنها مسموعة ومحفوظة على كل حال.

لكن عيَّاش الضَّانى وجه من وجهى عملة الرجال ولها وجه آخر تظهر فيه صور رجال كثار تجمعهم رغم الاختلافات البادية والظاهرة لهفتهم على الحريم بعد رحيل الزوجات وأحيانا قبل الرحيل، لهفة تتبدَّى فى استعجال الموت لأم العيال حتى لا يطول عذابها كما كان همَّام عوف يدَّعى بينما زوجته أم عياله الستة الذين صاروا رجالا لهم عيال أو أمهات لهنَّ عيال ولبعض عيالهم عيال، كان همَّام عوف أب وجدّ لخمسين فرداً بين كبار وصغار طلعوا كلهم من صلبه ومن رحم ونيسة بنت عمه التى عاشرته وعاشرها ما يزيد عن الخمسين عاماً بسنوات، عمر طويل من الزواج والمعاشرة وجيش من الخلفة يتوه فيها أى عقل كما كان همَّام يتوه، ولولا أن ونيسة بنت عمه كانت صاحبة أرض أضافها لأرضه من أجل العيال وتربية العيال ما تردَّد فى الزواج من غيرها أكثر من مرة شأنه شأن المتيسرين من الرجال الذين استغلوا يسر الحال فى سكة الحريم سواء بالحلال أو بالحرام، نتكلم فى الحلال لأن الله حليم ستار على عباده، كان همَّام يسعى فى أعقاب كل بنت لها طلعة أو هيئة أو شكل يعجب ويستحق الانتباه، لكنها على كل حال كانت مناوشات غيطان ينساها أو ينكرها بشدة إذا انفتحت سيرتها فى الدار، لكن أن يصل الأمر فى بعض الحالات أن تسرّ

زوجات الأبناء للست ونيسة بما يفيد أن همَّام طوّل يده عليها أو قرصها أو زنقها فى جذع شجرة متظاهراً بأنه يتناول عباءته المعلّقة، أو أن يكون قد قال لها كلاماً مكشوفاً عن علاقتها بالولد ويعنى به ابنه الذى هو من صلبه وقد زوّجه للبنت بنفسه وبرضاه، يسألها إن كان يعرف كيف يجعلها مبسوطة من عدمه أو إنه خائب الرجاء لا يعرف، تسرُّ الواحدة من الأربع زوجات للأربع أبناء للست ونيسة، وكل واحدة لها حكاية شكل، لكن ونيسة كانت أعقل من همَّام، توبِّخ البنت أو تتهمها بالميوعة وقلة الأدب لأنها تجاسرت وقالت مثل هذا الكلام عن الرجل المحترم الذى يعيش الكل فى خيره بينما هى فى عمر واحدة من البنتين أو أقل فى العمر والهيئة والجمال والشكل، لكن ونيسة برغم كتمانها كانت تعايره فى ساعات الغضب بأفعاله على مسمع من الحاضرين ودون مداراة، وساعتها كان يهرب إلى الغيط، يأخذ الحرام على ظهر الجحشة ويغضب فى الغيط، كان غضبه الذى يتكرَّر لا يضيره فى شىء لأن الوجبات كانت تصل إليه بانتظام وربما يكون بزيادة ملحوظة فى اللحم أو الطيور المذبوحة التى يحصل عليها فى حالة مشاركته لهم فى أكل الدار، يصله الأكل صابحاً بصابح وكأن ونيسة بهذه الزيادة كانت تسترضيه وتصالحه لأنه - كما كان يشاع - مفجوع وهمَّه على بطنه وليس عنده مانع من أكل نصف ذكر البط وحده تاركًا لجيش العيال وبعض الأحفاد نصفه الآخر، وإذا حذرته ونيسة أو نبهته زام وبرطم:

- شالله ما عن حد كل، هو احنا ح نزغطهم يا وليه؟

لكنها كانت تفلح فى إسكاته منعاً للجرسة على رؤوس الأشهاد. عمر طويل من الاحتمال عاشته ونيسة التى تحولت بعد هذا الشقاء إلى عجوز لا قدرة ولا حيلة والرجل وقد تخطى السبعين تتواتر عنه الحكايات الفاضحة وكأنه فى هذا العمر شهوان لم يشبع أبدًا، وكان يتشكى بلا خجل:

- عمرها ما ريحتنى زى الحريم مابتريح الرجالة، حتى اللقمة كانت تستخسرها فىَّ وتدفسها لعيالها ونسوان عيالها، ربنا يحش أجلها عن قريب، يا ما نفسى أعيش لى يومين على راحتى يا ناس..

بس إمتى بس ترحل وتنزاح.؟

ولا بد أن أبواب السماء كانت مفتوحة أو أن الست ونيسة عندما كان يبلغها مثل هذا الكلام كانت تتمنى الموت لروحها لكى يرتاح، ذلك أنها فى صباح أحد الأيام أرسلت للغضبان فى الغيط ليرجع بحرامه الصوف لتراه قبل أنْ تقابل وجه رب كريم فلم يتردَّد ورجع للدار بالفعل وكأنه كان يثق أنها لن تخدعه وأنها سوف تراه وتتملّى بطلعته فقط ثم تسلم الروح، ولا بد أنه رغم تشنيعاته ضدها كان يثق فى صدقها فى كل الحالات وقد تأكد له ولكل ناس الدرب يومها أنها لم تكذب عليه أبدًا حتى النفس الأخير من عمرها، ذلك أنه عندما دخل من باب الدار سألت إن كان هو همَّام فأجابوها بالإيجاب فطلبت منهم أن ينادوا عليه ليدخل لأن صوتها لا يساعدها على النداء وقد انحاش عنها، نادوه ودخل فنظرت إليه وهمست بحروف متقطعة:

– سام.. سامحـــ.. سامحنى.. سامحنى..

نظر إليها ملياً وأراحها مرددًا:

– مسامحك.. هو خلاص..؟

– خلاص.

وخلصت روحها بعد أن نطقت الكلمة فانتحى هو جانبًا من جوانب الدار وجلس مقرفصًا وأحنى رأسه بين ساعديه فترةً لم يقترب خلالها منه أحد، ولا أحد كان يدرى إن كان قد بكى أو أنه تظاهر بالبكاء أو الحزن، لعله استعاد فى تلك الدقائق القصيرة عمرها معه وقد طال، ولعله كان يدبِّر أمره وأمور داره بعد أن يحملها مع الرجال إلى المدافن لترقد هناك ويعود بعزمه الشديد يدق بالمداس على الأرض ويلتقط أنفاسه فيملأ صدره المريض بالهواء الجديد، كان همَّام يبدو صلبًا متماسكًا بينما يتقبل فيها العزاء وكأنه يؤدى واجباً ثقيلاً لم يجهِّز نفسه لتأديته على النحو اللائق، حتى العبارات التى ردَّ بها على كل من عزَّاه لم تبد للناس مناسبة:

– ما فاتتش من عمرها يوم.. هى كانت صغيرة ولاَّ إيه؟.. بس يابنت الكلب منك لها بتلطموا على إيه؟.. إخرس يا بن المركوب بتنهنه كده ليه؟ يرحمها ويرحمنا ربنا، ما أنا عارف إنها أم اللهو العيال.. كنت ح اشتريلها عمر تانى؟

وقال ناس لناس إنه كان بينه وبينها سباق طوال السنوات، وإنه من كل قلبه كان يتمنى لها الموت وربما كانت تتمنناه له أيضًا، ومثل هذه التخريجات ولّدتها تصرفات همَّام الذى ما كف عن السعى وراء الحريم يتقصى الأخبار ويسأل عن ظروف المرأة المطلقة والأرمل ومن بارت وفاتها قطار الزواج، عن إمكانيات كل واحدة فى الخلفة ومطالب أهل كل واحدة من العريس، ساعات يطلب لنفسه وساعات يلبس عباءة الوسيط لرجل غيره ظروفه تشبه ظروف همَّام وعمره يقترب من عمره والناس تجاريه وتحاوره وتحدِّد مطالبها وهى عارفة أن العريس همَّام، يراوغ مثل ثعلب مكشوف مع ثعالب وذئاب ونمور وحيَّات حتى يفوت يوم الأربعين كما نصحوه وشدَّدوا عليه فى النصح، وفى اليوم الحادى والأربعين دخلت دار همَّام امرأة فى نصف طوله، نحيلة نحيلة إلى حدٍّ مذهل بينما هو مثل الثور الهائج المفرود البنيان الصلب التقاطيع، وقالوا إنها بنت ناس من واحدة من العزب الجوَّانية، وقالوا إنها من البندر، وقالوا من بلد بعيد لم يذكروا له اسماً، لكنه على كل حال أدخلها داره ودخل عليها فى سكات أشبه بزفة الأموات وعياله يتباعدون ويتباعدون عن الكلام فى موضوع الرجل ثم يثور الواحد منهم فى وجه من يحادثه إذا زاد عليه الضغط أو زادت نغمة التقريع:

– هو كفر اللّى اتجوز؟ هو الجواز حرام؟ ح تحرموا الحلال؟ حرمت عليكم عيشتكم يا بقر وجاموس.. هو حر.. حد غرم له حاجة؟.. إحنا راضيين.. إيش حشركم يا كفر ندَّابين؟

ولأن أولاد عوف رغم ما يشاع عنهم من أنهم طيبون وأصلاء وذوى قلوب صافية إلاَّ أنهم أحيانًا تركبهم العفاريت لأتفه الأسباب ويتحولون إلى

ناس فاقدة عقلها ووعيها إذا زاد عليهم الضغط، لذلك كفَّ الناس عن الحديث فى أمر همَّام أو سؤال عياله وعيال عياله عن أخباره التى تداريها الحيطان، لكن الحيطان لها قدرة محدودة على الإخفاء والتغطية، وربما لأن الحياة أقوى من البنايات الصماء فقد خرجت من الدار زوجة همَّام لأول مرة وهى تحمل على كتفها طفلها المولود فى مشوار مخصوص للحكيم فى البندر وعرف الناس أن همام صار أبًا للمرة السابعة، وربما لام البعض أم إبراهيم التى ولّدت المرأة وكتمت عن كل ناس الكفر خبر ولادتها فدافعت عن نفسها:

- دانا لو كنت قلت لحد كان قتلنى بصحيح، أصل انتم ما شفتهوش اليومين دول.. دا بقى واحد تانى خالص.. دا لابد فى الدار زى عريس نغّه عنده تمتاشر سنة بالكتير.

وصدقها الناس وقالوا لبعضهم البعض إن الكلام فى سيرته لم يعد له طعم وإنه إذا كانت كل ناس الكفر قد رفضت أن تدخل معه فى علاقة نسب أو قبل واحد من أهله أو من غير أهله فى الكفر أن يأتمنه على ابنته أو أخته فهذا معناه أن أحواله بعد موت الست أنيسة لم ترض أهل البلد، لكنه أيضًا ما دام وجد من خارج زمام الكفر من وافقت على عشرته فلن يكونوا هم مثل قطاعين الأرزاق لأن الله أدرى بعبيده ولا أحد يعرف أسرار الناس غير الخلاَّق، وما دام الرجل مرتاحًا فلماذا تتعبون أرواحكم من غير فائدة وقد حصل ما حصل وهو لا يحصل لأول مرة؟ ومن يكون همَّام وسط أولاد عوف المزواجين القدامى الذين كان الواحد منهم يحتفظ فى داره أو دوَّاره بأربع ستات، يعاشرهن ولا يشبع فيسرح فى البنادر والموالد يتشمَّم رائحة الحريم الغرباء ويسعى فى إثرها، وينفق ببذخ وبدون حساب، وإذا ماتت واحدة من الستات سعى للزواج من غيرها بعد الأربعين، وإذا مرضت واحدة تعجَّل موتها، كان الزمن يختلف عن زمن همَّام لكن العرق دسَّاس وممتد لأبعد من سابع جد.

ولأن البيوت أسرار، ولأن ما ينتشر علي ألسنة الناس هو جزء من

الحقيقة وليس كل الحقيقة مهما كانت دقة الأخبار فإن الناس فى كفرنا تترك الأمر لصاحب الأمر، ربما لا تنكشف أخطر الأسرار وإن انكشفت فلفترة تنقطع بعدها السيرة ويختصرها الناس فى عبارة للتذكير بما جرى إن كان للتذكير فائدة، ولا بد أننى لم أعرف إلا أقل القليل من شئون الأزواج والزوجات فى كفرنا، لم أعرف إلا ما سمحوا لى بأن أعرفه، لكننى بالقطع عرفت أمى وأبى، وعرفت أنهما من بين كل أشكال العلاقات وألوانها كان لهما شكل مخصوص وطبع مخصوص ونهاية غير كل النهايات.

* * *

كنت وأنا فى مطالع الشباب أخاف على أمى من موت أبى، أتخيلها وقد ترمّلت ولبست السواد وتعصبت به واستسلمت لحالة من حالات الانطفاء بالاختيار، أو تخلصت منا على أى نحو وعاشرت غيره لأنها مازالت صبية والزواج سترة وحماية من الأخطاء كما يقولون، لا أدرى كيف تسلط علىَّ الخوف من مثل هذه المواجهة التى تحدث برحيل الأب، لعلنى لم أفكر فى رحيلها قبله لأنها كانت أصغر منه بسنوات لم تبح بعددها أبدًا، ولا بد أننى عبَّرت لها عن مخاوفى بكلام غير مباشر أكثر من مرة فكانت تفهم قصدى وتطمئننى بأن أبى سوف يكون طويل العمر بإذن الله وإنه سوف يتمكن من تربيتنا وتعليمنا وتزويجنا وهو فى كامل قوته، وأنه لو بعد الشر بعد الشر تولاه الرب برحمته فإنها سوف تعيش لنا وبنا وإنه بالقطع لن يخطر على خيالها أبدًا أن تفكر مجرد تفكير فى أن ترقد إلى جوار رجل غيره من بعده ثم تدعو بعد زفرة:

- وربنا يجعل يومى قبل يومه.

كنت أحزن من أجلها أكثر من اطمئنانى على مصداقيتها وقدرتها على الوفاء لذكراه ولنا، وربما كنت فى مثل هذه الحالات أفهم أسباب خلافاتها الدائمة مع جدتى التى هى أمها، ذلك أن أمى كانت تعتقد أن زواج جدتى الثانى بعد موت جدى لأمى كان خطأ فى خطأ، ذلك الزواج الثانى الذى أنجبت فيه خالتى العبيطة «كاف»، وأن المرأة عندما تقبل مثل هذا الزواج

الثانى تتحلّل من دورها كأم، كنت أشعر أنه قد انبنى بينهما جدار صلب لا يلين أو ينزاح حتى فى أصفى الساعات التى تتفقان فيها على أى شيء وتوشكان أن تمتزجا مثل أى أم وابنتها، كان الجدار يظهر فجأة وينتصب حاجزاً قائمًا وقادرًا على الفصل بينهما ولن ينزاح.

لكنها فى علاقتها بأبى كانت تختلف، ربما لأنه كان يعاملها بكل الود الممكن ويشركها فى أفكاره، يودعها أسراره وفائض ماله ويسألها عن اللائق والمناسب حتى من ثيابه التى يهم بلبسها لحضور أى مناسبة، يداعبها فى حضورنا ويرمح وراءها، يمسكها ويضمها إليه فى حنو دون أن يفلتها إلا إذا تدخلنا استجابة لإستغاثاتها الضاحكة تطلب منا مساعدتها أو الفرجة على أفعاله:

- يا راجل عيب عليك.. دا عيالك بقوا رجاله.

- وأنا باعمل حاجة غلط لا سمح الله.. بالاعب مراتى.

يقولها وهو يقرصها أو يجذبها نحوه ثم يفلتها متوعداً بأن يأخذ منها حقه فى أقرب وقت ممكن، كنا نضحك وتضحك ويضحك هو أيضًا قبل أن ينصرف كل واحد لحاله.

لكنه فى ساعات القيلولة من كل يوم كان يختلى بها فى القاعة الجوّانية فنتهامس بأنه دون شك يلاعبها ملاعبة أشدّ ولا تفكر فى الهرب منه أو الاستجارة بنا مثلما كانت تفعل فى المندرة أو وسط الدار، نقول إنها هى التى راحت له بنفسها أو استجابة لنداء أو إشارة منه، ننساهما وقد عشّش الصمت على القاعة.

وفى صباح كل جمعة وكل موسم وكل عيد وكل مناسبة سعيدة وأحيانًا من دون مناسبة بحساباتنا كانت هى تفتح باب القاعة فنرى فى وسطها طشت الحموم الكبير النحاس الأحمر وقد امتلأ بالماء الممتزج فيه الصابون، تفرغ الماء فى المواعين الأصغر وتحملها لترميها فى أركان الدار ووسطها البراح، تفعل ذلك بدلع وقد أحاطت رأسها بفوطة كبيرة أو

بشكير وكأنها تشهدنا على سعادة قلبها وطراوة بدنها وبياض جلدها بعد الاستحمام، بعدها تعود للقاعة وتجلس على طرف السرير من ناحية الشبّاك الصغير بينما يتمدَّد هو مسنودًا على المخدَّتين بكوعه، ربما تنادينا لأى سبب فنراها وقد حلّت شعرها المبلول وراحت تمشطه فتبرق خصلاته الغزيرة السوداء فى الأماكن التى تعبرها الفلاية العاج، وربما لا تنادينا ونسمع صوتها وهى تغنى لنفسها أو له:

أمك وأبــوك ع الســطوح   بيفلّوا بعضيهم يا عبده
ولا والنبــى يــا عبــده   قصبك سوس يا عبــده
بيع وأتجوز يا عبده

تحرص بعناد على إقلاقه إذا غفّل قبل صلاة الجمعة وتجبــره علــى القيام ليضع عباءته على كتفيه ويخرج متوجهًا إلى زاويــة أولاد عــوف، ربما يصحبنا معه فنصلى ونعود ونراها مشغولة بإعــداد وجبــة الغــداء، تستمهله دون أن يسألها وتأسف على التأخير وكأنما فاتها تأديــة فــرض واجب لا يحتمل التأجيل، يركن العباءة ثم يتطوع بمساعدتها فى عمــل أى شىء دون أن تطلب ولا يتردد عن مداعبتها بالقرص أو الضرب الهــيِّن أو حتى بالكلام حتى تنضج الوجبة ونقوم بمساعدتها على رصّها فوق طبليــة العشاء، نأكل بشهية وانبساط لأنهما يأكلان بشهية وانبساط.

وفى ساعات الفراغ كانت تجمعنا وهو فى مشوار أو عمل وتحــدثنا عنه وكيف إنه طيب طيبة نادرة وأنه من حســن حظهــا أن اقترنــت بــه وخلفتنا، تتباهى بأنه لم يسىء إليها فى كل عمره الــذى عاشــه معهــا لا بضرب أو سب أو حتى لوم ثقيل مهما ارتكبت من أخطــاء، كــان يكتفــى بسؤالها مستنكراً عليها الخطأ:

– كده برضه؟ أنتى تعملى كده؟

تعتذر له أو حتى تسكت لعجزها عن تبرير الخطأ فيهز رأسه ويغيــر الموضوع، ينسى الموضوع وتنساه، تقول إن عيبه الوحيد هو أنه لم يدخل فى أى صراع على أى شىء فى الدنيا، وأنها كانت تتمنى لو طالــب أمهــا

بميراثها الشرعى الذى ورثته عن أبيها والذى نهبته جدتى ولم تشأ أبدًا أن تعترف بذلك، كنا نفعل مثله ونطالبها بأن تنسى ذلك كـى تـريح نفسـها فتشتمنا بضحك وتتهمنا بأننا مثله أطيب مما ينبغى، نفرح بأبوينا ونتمنـى أن نفعل مع زوجاتنا مثلما يفعل عندما نكبر.

لكن مسألة الموت ظلت فى عقلى مثل الهاجس المتسلط، أو فى منطقة الاحتمال الدائم، تداعبنى وتعذبنى ولا أملك المقدرة على زحزحتها بعيدا عنى حتى فى أسعد الأوقات، كانت طيوره تحوم حول أبى فى كل الحالات فأشفق فى الخيال عليها وقد ترملَت، وكنت أحيانًا أطمئن نفسى وأقول إن المرأة أقوى من الرجل فى مواجهة الموت رغم الصوات واللَطم والندب والتعديد، أقول لنفسى هذا وقد سلَمت أمرى لله الخالق مانح الأعمار وواهب الحياة إلى أجل قريب، يمدُّها أو ينهيها بحسب ما يشاء، يسكن قلبى بعض الوقت ويعاود الانشغال، لا أملك القدرة على الفرار من سوار الأفكار وترتسم صورته على «درابة» الغسل بينما تولول هى وتناديه فلا يرد، تطلب منه القيام فلا يستجيب.

لكن ما جرى خالف كل هواجسى وظنونى لأنها ذات نهار كانت قد حمَّرت لنا ديكًا ودست أرزًا وطبخت قلقاسًا بالخضرة فتغدَّينا وانبسطنا وكانت هى مزدهرة بينما يشاغبها على عادته وتتباعد عنه بخفة ولطف، يسألها وقد أقترب منها عن أسباب حمرة خديها الزائدة عن المألوف فترمح لتقف أمام المرآة، تطل على سطحها وتتحسَّس خديها بفرح لأنها تأكدت من زيادة احمرارهما، تبدو حبيبة عفية فى حركتها وقد زاد نشاطها بينما ترفع بقايا الطعام، لكنها وعلى غير توقع وقد كان هو بعيدًا عنها بمسافة قالتها مرة واحدة: آه..

نظر إليها وسألها عن سر الآه فلم ترد، اقتعدت الأرض فى نفس مكانها وقد أمسكت ظهرها بكلتا يديها من منطقة الوسط أعلى الحوض، تدافعنا نحوها معه فنظرت إلينا بأسف وهمست له:

- دى شكة موت.

- انعدلى.

قالها وهو يساعدها على التمدُّد فى مكانها على الأرض وأنا أضع الوسادة التى لم أعرف من أتى بها تحت رأسها، تأوهت، هى عدة تأوهات وبدا لى أن عظام هيكلها كانت تتكسر مثل زجاجة مصباح رقيقة وأسمع صوتها، شهقت شهقة واحدة ثم غابت عيناها وكفت عن التنفس، يهزها ونهزها فتهتز وقد بردت أطرافها وسرحت البرودة إلى بدنها وكلنا يكذب أنها يمكن أن تنخطف منا بهذه السهولة وعلى هذا النحو المفاجئ فى لمح البصر، وكانت ما تزال ترف على ملامحها ابتسامة الأسف، بكيناها وبكاها هو قبل أن يشعر بنا الجيران والأهل، كأنما كان هذا الوقت لنا ويخصنا وحدنا، لكنهم دخلوا الدار فانقلبت موازين الأشياء لأن الدار التى كانت تتفجر منها وفى أركانها الحياة صارت فجأة مكانًا يلتقى فيه الوسطاء بين الموتى والأحياء ممن يجهزون الأكفان ويغسّلون الأبدان قبل تكفينها، وكانت صرخاتنا لا تصل إلى أسماعها بالقطع لأنها لو وصلتها فلا بد أنها كانت سوف ترد، انعزلت عنا تمامًا وانعزلنا عنها، وكان النعش المركون جنب الجدار عند مدخل الدار علامة تؤكد أنها لن تفيق، وأن هذا الغول المركون بلا حسٍ ولا ذمة هو الوسيط الأخير بينها وبين المدافن حيث السكون الأبدى واللا رجوع.

كان يناديها بصوته المبحوح بينما يضعون جسدها فى النعش، وعلى الرغم منه منعوه من حملها أو الذهاب إلى المدافن معنا فى رحلة الوداع، لعله بكى بكاء الضعفاء المغلوبين على أمرهم وصار يناديها ونحن نتباعد ونتباعد حتى اختفى صوته تمامًا، وما عاد فى الآذان غير الاعتراف المتكرر الذى يلجأون إليه فى كل مرة يحملون فيها نعشًا فى طريقهم للمدافن، واعتراف بإيقاع رتيب مهموم ومستسلم وباعث على اليأس من التعلق بالأوهام:

- الدايم هو الدايم.. ولا دايم غير الله..

وبعد طقوس الدفن وقراءة القرَّاء وتلقين التى إنسك على بدنها باب

المدفن، عدنا بعسر تتقدمنا جدتى لأمى، صامدة وصلبة وقادرة على الاحتمال، رأيناه جالسًا وحده ينظر إلى سقف المندرة ولا ينطق، وهمس الغباشى لجدتى:

- الراجل من ساعة ما سبتوه وهو على دى الحال.

أشارت إليه تطلب منه أن يسعفها بكوز ماء فأسرع وملأ الكوز ثم ناوله لجدتى، اقتربت منه بالكوز فلم يحرك بصره من حيث كان يطل لكنه أزاحه بيده ربما بشكل عفوى، وربما بشكل مقصود، لكن الماء اندلق ومال أبى برأسه جهة اليمين ثم مال بكل بدنه رغم أننا كنا حوله نسنده، ربما تكون قد فاتت ساعة أو بضع ساعة من الزمان الصعب قبل أن يسلم الروح هو الآخر وتنحط على رؤوسنا بلوتان كبيرتان فى نهار واحد، ولا بد أنه كان قد تواعد معها فى الخفاء على الرحيل معًا لأنه فى نفس اليوم انفتح نفس القبر للمرة الثانية ليضم بدنه إلى جوار بدنها وقد تكفّن بنفس قماش الكفن، وبدا لى وأنا واقف على قبرهما أسمع وصايا من كان يلقنه أننى كنت أسمع همساتهما الخافتة وهى تضاحكه ويضاحكها مثلما كانا يفعلان فى قيلولة كل نهار داخل القاعة الجوّانية.

وكنا فى كفر عسكر أول من تيتم مرتين فى نهار واحد، وكنت وحدى أشعر أننى خلصت من هواجسى القديمة التى كانت تتسلط على عقلى فأسألها وأسأل نفسى عن مصيرها إذا مات وتركها أرملة، ولعلها بفعلتها جاوبتنى على خلاف ماكنت أتصور أو أظن أو يسمح بذلك خيالى.

* * *

يوم تعيين يوسف فى عمادة الكفر كان يوم غير كل الأيام، نعلنى فى أول الأمر لم أصدق فردوس وهى تبلغنى بما سمعت، كانت الفكرة تبدو بعيدة عن خيالى لحسابات كنت أحسبها، لكن متى انضبطت الحسابات المحسوبة على مصائر الناس فى زماننا وكفرنا الغطسان فى همه؟

كانت بينى وبين يوسف حالة جفاء وتباعد طالت عن المألوف، لكننى

كنت أشعر بارتياح لأنه فى الفترة الأخيرة كان يفرض علىَّ علاقات مع ناس من كل شكل ولون، ناس أعرفهم ولا أرغب فى التعامل معهم، وناس أسمع عنهم ولا أفكر فى الاقتراب منهم، وناس لا شفتها ولا سمعت عنها، لكنه فى كل الحالات يأتينى وقد اصطحب معه نفر أو نفرين أو أكثر، أشعر بالحرج وأنا أرحب به وبهم فى أوقات راحتى أو انشغالى مع العيال وفى الدار، يطول الوقت ويوسف ينتهى من موضوع ويدخل فى موضوع، أحيانًا كان يدير حواره مع معارفه الذين أتى بهم إلى دارى ويتجاهلنى، كأننى غير موجود بالمرة أو كأننى فقط موجود لتقديم الواجب له ولضيوفه، يتحدثون فى السوق وغلو أسعار المواشى وفى الزراعة وخيبة محصول القطن ويتحدثون فى أولاد الليل والجرائم التى تحدث فى الناحية وخارج الناحية، وربما يتكلمون فى الانتخابات والوفد والأحرار، وأحيانًا كنت أتناعس لعله يحس ويستأذن فلا يفعل، أترك لهم المندرة فينادينى ويطالبنى بأن أجالسه وضيوفه ويسأل إن كنت لا أطيق وجودهم فأنفى ذلك بشدة وأنا أغلى من داخلى وأكتم أنفاسى مخافة الانفجار.

لكننى فى واحدة من المرات وقد طال جدله مع الضيوف الذين جلبهم معه سألته لأوقف سيل الشتائم المتبادلة بينهم:

- جرى إيه يا يوسف.. هى الدار دى مش لها حرمه وساكنها ناس؟

وساد صمت ثقيل لكن يوسف لم يجاوبنى على السؤال بأكثر من نظرة حائرة، ثم نظر إلى ضيوفه وأشار لهم بأن يتبعوه فتبعوه بآلية دون أن يفكر أى واحد منهم فى الاعتذار عما بدر منه، ومن بعدها كف يوسف عن المجئ، لعله حسبها طرد صريح بينما كنت أحسب الموقف كله على أنه قلة ذوق وقلة أدب لا يوقفها إلاَّ إعلان الاستياء والاستنكار بتلك الطريقة التى حدثت فى أقل تقدير، لكننى ارتحت وارتاح أهل دارى وما عدت حتى أنشغل بأخباره التى أسمعها ولا يعنينى منها شىء، سمسار مواشى وأراضى ودور ونصف مقاول وله علاقة نسب مع تجار مخدرات وقريب من بعيد شأنه شأن عشرات الأقارب من بعيد، هل كان يحق له أن يشغلنى

بأمره إلى هذا الحد وطوال هذا الوقت؟ لكن يوسف كان مثل النصيب الغلاّب يطلع لى كل فترة زمن ويحوِّم بوجوده حولى، يزعجنى ويربكنى ويدهشنى ويشعرنى بالحزن ويحملنى أحزانه وربما يجعلنى أضحك وأنسى وأفكر على نحو مغاير، يفتح لى فى بعض الحالات طاقة نور وسط العتمة دون أن يشعر أو يقصد، وجوده كان بالنسبة لى مثل القضاء والقدر يصعب الفرار منه، ربما لأنه أسرع وأحمق وقليل التمييز.

أول ما خطر على خيالى وفردوس تبلغنى بتعيين يوسف أنه ليست له فى الكفر حيازة تسمح له بأن يتولى عمادة الكفر، لكننى تذكرت الشراودة وإمكانية نقل الحيازة على الورق عند الضرورة، لكننى فكرت أن يوسف لم يشغل نفسه أبدًا أو يفاتحنى فى شغل أى منصب فى الكفر، لا عمادة ولا مشيخة بلد ولا حتى أن يلبس على رأسه «تكلت» خفير، فهل شاف ليلة القدر وطلبها فاستجابت السماء لطلبه؟ ومادامت عمادة الكفر وصلت ليوسف فكيف لم أفكر أنا ولو مجرد تفكير فى أن أتولاها، وجاوبت نفسى بأننى لم أفكر لأننى لا أصلح، كانت ملامح العمدة العوف الذى مات منذ فترة تتراءى لى مثل غريق يتشبث قبل أن يغطس فى القاع بأعواد الحلفا المزروعة شيطانى على منحدر السطح، قلت لروحى إن الناس العوف راح زمانهم، وأن بساط القدرة انسحب من تحت أقدامهم وهم فى غفلة، ربما ياولد لأنهم مثلك لا يفهمون فى السياسة التى كنت قد قرأت عنها عبارة فى أحد الكتب الدراسية فأصابك فزع ورحت تسأل أستاذك متصورًا أنها مكتوبة بشكل خاطىء، لكنه أكدها لك وبإيقاعات صوتية تزيدها تأكيدا.. السياسة هى فن الكذب المحبوك بمعنى من المعانى «من يومها خفت أنت من السياسة وخفت أكثر من الساسة الكذابين لأنك كنت تعشق الصدق المستحيل ولا تعثر عليه خالصاً أبداً، ولأنك أيضًا لم تكتشف العلاقة بين الكذب والقوة فظللت فى مدارك القديم تدور مثل فحل جاموس منذور للذبح لكنه لا يكف عن ترديد نفس الكلام القديم عن ارتباط القوة بالصدق، وارتباط الكذب بضعف النفوس».

على هذا النحو فكرت وقلت لروحى بعض ما كان يلزم أن أقوله

لبعض الناس وأنا أشهد الزفة التى أوقفوها بقصد على باب دارى، طبل وصاجات وثلاث غوازى ولمَّة سامر يديره رجال من الناس الشراودة حاملين السلاح بأياديهم وعلى أكتافهم ويوسف بالجلباب الكشمير الزهرى والعباءة السوداء يركب كارتة رأفت الشارد التى يجرها حصان واقف بقلق يحرك سيقانه فى نفس المكان، كانت زفة لا خطرت على خيال ولا حصل لها مثيل فى شارعنا وكفرنا كله، كأنما كان وجودهم فى مواجهة باب دارى إعلان مقصود به اختبارى واكتشاف مرونة تصرفاتى، وهل يمكن أن أخرج لأبارك وأسلم، أو أبقى مثل حيوان القوقعة الداخل فى جلده والمحمى بجدران بيته وسكنه، كانت الأعيرة النارية تنطلق من البنادق والرشاشات بكثرة وفى اتجاه عين الشمس ذاتها، وسماء كفرنا اتِّساع وبراح لا يحدُّه حد، اتِّساع يتبدَّد فيه الرصاص ويصعب تحديد مصادره، تنطفئ فيه النيران مهما كانت ساخنة وملتهبة، ومنه تتساقط الأمطار على سطوح البيوت والغيطان، ومنه أيضًا تهب العواصف والرياح، والناصح الواعى هو الذى يميل فى اتجاه الريح حتى لا ينكسر عوده إن كان عوده نحيل مثل عودى وقلبه خفيف.

لكن النفس أمَّارة بالسوء، منعت نفسى من المشاركة فى الزفة، لا تعاطفاً مع أولاد عوف ولا كراهية لأولاد شلبى، المسألة كانت أكبر، كانت شراودة، صحيح أن الميزان القديم كان قد تبدَّل، وأن الأثقال خفَّت فى ناحية وثقلت فى الناحية الأخرى لكن ليس إلى الحد الذى يجعل يوسف عمدة إلاَّ إذا انحطت كف فوق كفة الشلبى لتعمل لها ثقلا زائفًا، هو نوع من الغش على أى حال، لكن هل كان يفيدنى بشكل شخصى أن يركب الناس الشلبى حمار الكفر فترةً بعد أن ركبه الناس العوف زمناً طال لأبعد من عمر جد جدِّى؟ وإذا كانت الدنيا تدور حول محورها وحول الشمس فلا بد أن تتبدَّل فى كفرنا الأشياء وتتغيَّر مواقيت الصلاة وقبلة المصلين من مكان لمكان ومن زمن لزمن.

كانت جنازة نقل التليفون الميرى من دار المرحوم حسنين عوف بواسطة عساكر البندر ومندوب مصلحة التليفونات وهؤلاء الأفندية الغرباء

الذين رأيناهم يدخلون الكفر دخول الفاتحين، ويخرجون منه خروج الآسفين على تنفيذ الأمر الصادر لهم من فوق، يخرجون وكأنهم كانوا فى عزاء رسمى لأهل ميت غريب عنهم لكن ناسه كانت تستحق العطف والإشفاق، لكن التليفون تم نقله والسلاحليك تم نقله وكافة مستلزمات العمدة من أوراق وعهد تم نقلها في وضح النهار وبقوة السلاح، والناس العوف ينظرون للناس ولأنفسهم نظرات شاردة مكذبة، لعل البعض منهم كان يلوم البعض الآخر على الغفلة التى طال مداها والغيبوبة التي لا بد أن تصيبهم وقد صاروا مثل الغائب الحاضر أو الذاكرة المطوية فى صفحة كفرنا لحساب يوسف والناس الشلبى.

قالت فرحانة التى ضعف بصرها وما استطاعت عمادة يوسف للكفر أن تقويه، بينما تتحسَّس رأسي بحنو ذكَّرنى بأمى:

- أخوك يوسف يا خويا خد العمودية من حبة عين عدوينه، والكل راح وبارك له.. مستنى إيه؟ أدينى جيتلك بنفسى أهه؟

وعدتها بالذهاب وبتثاقل وبعد تردُّد طال مداه ذهبت فتلقَّانى بحفاوة عند باب داره التى صارت دوَّاره، أخذنى فى حضنه واقتادنى إلى مندرته الواسعة، أجلسنى إلى جواره وحكى لى مشوار الطلوع وما صادفه من مصاعب وعقبات، وقال لى أسماء الخصوم والأنصار، وبدا لى أنى كنت فى ذلك النهار مثل أبى جاهزاً للصلح دائمًا وقادراً على السماح، كان يوسف قد تبدَّل، تبدَّلت نبرات صوته وتبدَّلت بعض تقاطيعه وغطتها هيبة الحاكمين، شعرت أننى صرت جليسه أو سوف أكون جليسه بعد أن كان جليسى.

كان من المألوف فى تلك الفترة أن تزيد زيارات الناس الشراودة لكفرنا، يأتون فى كل المناسبات بدعوى تأدية الواجب لإبنتهم «أصيلة» لأنهم أصحاب واجب، ولعلنى اكتشفت كما اكتشف ناس كفرنا أن المناسبات أكثر بكثير من حساباتنا عن المناسبات التى اختصرناها نحن فى الأعياد والمواسم الشائعة والموالد ومطالع الشهور، بينما أكتشف الشراودة مناسبات أخرى كانت خافية علينا أو معروفة ومنسية، لكن الناس كانت

تقول للناس أن المسألة ليست مناسبات يلزم على أهل العروس أن يؤدوا فيها الواجب لإبنتهم كما يقولون، وإنما لأنه صارت لهم فى كفرنا مصالح أكثر من المصالح التى كانت لهم بعد زواج البنت وقد كبرت خلفتها وصار عيالها أطول من يوسف نفسه، وربما كان من بين الأسباب فى زيادة تواجدهم هو خوف يوسف من الناس العوف وخوفهم على عيال «أصيلة» وزوج «أصيلة» ومصالحهم الجديدة التى بدأت تتزايد وتتكشَّف وكأنهم اكتشفوا كفرنا من أول وجديد.

لكن فرحة يوسف بنفسه وفرحة الناس الشلبى بانتقال عمادة الكفر لواحد منهم لم تدم أكثر من بضعة شهور اشتعلت بعدها فى الكفر نار لا يعرف أى واحد من سكانه مصدرها ولا من كان ينفخ فيها لتزداد اشتعالا، وبدا لبعض العقلاء أن العراك والقتل المتبادل فى دروب الكفر كانت له أغراض مخفية وأن العائلات التى كانت تحسب نفسها على الحياد دخلت ساحة الصراع وبسرعة على نحو يوحى بأن الأمر يحدث بفعل فاعل أو مجموعة فعلة، وزادت فى الكفر مساحات الشكوك والشكوك المضادة وأصبح من العسير تصنيف الناس فى خانات الأنصار أو المعادين بشكل مؤكد، اختلطت الصفات وتداخلت الألوان وصار الغدر بطولة والنميمة وفاء والسلب والنهب شطارة والتباعد عن المشاكل جبن والدخول فيها طمع فى جنى الثمار، تاهت الحدود والأصول وما عاد الصغير يسمع صوت الكبار ولا الجهلاء يصدقون أقوال العارفين، اختلط الأمر وتداخل السواد مع البياض والحق مع الباطل والوفاء مع الغدر والإيمان بالكفر.

لكن الحكومة لا تخفى عليها خافية، دست رجالها فى الدروب واستخدمت مرشدينها وأعوانها وخلصت إلى قرار بضرورة عزل يوسف وتعيين الصول عرفان مسئولاً عن أمن الكفر ومقيمًا فى النقطة الثابتة يعاونه مجموعة من المجندين والعساكر، وفرح فى الكفر ناس وحزنت قلوب ناس، وقال ناس لناس إن الأمر جرى على هذا النحو بفعل أنصار «العوف» من «الدكارنة»، أو بفعل أنصار الشلبى من الشراودة، أو بفعل

الحكومة ذاتها لتتخلص من يوسف الذى اكتشفت أنه أعجز من أن يدير شئون كفر، وأنه لبس ثوباً واسعاً لا يليق به ولا يستطيع رغم سمنته البادية أن يملأه أو يليق به، وقال ناس إن الانتخابات التى أعلنوا عن تزوير نتائجها كانت وراء هذه الأحداث، فرد عليهم ناس بأنه لم تحدث هذه الأحداث فى غير كفرنا التابع، والذى لم يكن له فى هذه الانتخابات دور يذكر أو تأثيرات لها نتائج محسوسة وأنه فى واقع الأمر كفر معزول وغير محسوب حسابه، وقالوا كلام جديد عن الناس الشلبى والناس الشراودة، لكنه كان مجرد كلام وإشاعات مؤداها أن الفساد سيطر، وأن تجار الصنف زاد نشاطهم، وأن الأخلاق انهارت والذمم فى السوق أصابها الخراب، لكل هذه الأسباب ولغيرها من الأسباب التى تاهت من الذاكرة عزلوا يوسف فدار حول نفسه مثل مفراك يفرك فى ماعون فارغ فى اتجاه اليمين واتجاه اليسار ومن فوق لتحت دون جدوى، ثم يدور حولى ويشغل وقتى وعقلى بحثا عن جواب السؤال الذى لا أملك رده، لماذا عزلوه بهذه السرعة؟

* * *

كانت أم يوسف تنادى جدتى لأمى بـ «ياخالتى»، صحيح أنها لم تكن خالتها تمامًا لكنها كانت فى حكم الخالة، بالتقريب كانت بنت بنت العم أو بنت بنت الخال، أمثال هذه العلاقات القديمة لم تكن واضحة فى خيالى، هى شبكة من علاقات متداخلة وشائعة، كانت هى تأتى إلى دار جدتى لأمى وإلى دارنا، بينها وبين أمى ودٌّ شديد أو قطيعة كاملة، وكانت أيام القطيعة أطول بسبب عصبيتها وعصبية أمى، لكن جدتى كانت أكثر حكمة وقدرة على تهدئة النفوس الغضبانة، وبشكل دائم كانت تدافع عن أم يوسف:

- دى بنت الغالى اسمها بس فرحانة وهى حزينة، ما صحيتلوش ياضنايا، مات قبل أمها ما تولدها، وأمها سمتها فرحانة، ومن يومها الحزن ماسابهاش، عينها راحت يا ولداه وقسمتها حدفتها فى أيدين حلاق الحمير، ماخلاش وراها ولا قدامها، فرحانة كانت وارثة فدانين من أبوها المرحوم هارون بس كله راح.

وعندما كانت تجادلها أمى بخصوص اهتمامها الزائد بفرحانة ومعاش دار فرحانة كانت جدتى تغضب وتقول إنه من الضرورى أن تصب الترعة الملآنة مياهها فى القناة الصغيرة الخالية لتستمر الأرض فى طرح الثمار، وإنه لا أحد يدرى متى يخلق الله بقدرته من ظهر الفاسد عالمًا ومتى يخلق من ظهر العالم فاسدًا، تسكت أمى قبل أن تمصمص شفتيها يأسًا من إقناعها، وربما تقول لها عبارتها الغاضبة:

- ح تفضلى مضيّعة شقاكى وتعب رجليكى ع اللّى ما يستاهلوش.

كانت جدتى عدلات رغم كبر سنها تتاجر فى خير الكفر، تجمع الزبد والجبن والبيض وكافة أنواع الطيور والأرانب من الأهالى وتدفع من مالها الثمن ثم تحمّل على عربية سعد تلك البضاعة إلى البندر، تسلّمها للتاجرة الكبيرة فى البندر أو تفرشها فى سوق الخميس، تبيع وتحسب الربح فتفرح، وربما تشترى بعض المطالب لدارها أو دور عيالها ولا تنسى أم يوسف فرحانة، بل إنها كانت تتكفّل بكسوة فرحانة وأطفالها فى الأيام التى تسبق المواسم والأعياد، وكانت لا تبخل عليها برطل اللحم أو الفاكهة والخضر البشائر وحلوى المناسبات، ولا بد أنها كانت تدخل دارنا أولاً لتعطى أمى نصيبها ثم صارت تذهب إلى دار فرحانة لتتحاشى عراكها فى كل مرة مع أمى التى تستكثر نصيب فرحانة فتتهمها جدتى:

- عينيكى فارغة وبغلّ

- اللّى ما حد جاب لنا حاجة..

- ح يجيبوا لك إيه يا طفسة؟ جوزك له شغلتين، مستوظف وخطّاط وعينه مليانة، أنا عارفة أنتى طالعة جلده لمين؟

- لكى يا أمه.. دى مستخيباكى

- أخرسى ينقطع لسانك..

وكانت أمى تشتعل بالغضب وتثور وربما ترمى ما أخذته من جدتى فى المشنة لينضاف إلى نصيب «فرحانة» المحجوز فلا تعيده جدتى إلينا، تحمل مشنتها وتكيد أمى بنفس العبارة المحفوظة:

- ح تزول من وشك.. النعمة اللّي بترميها ح تزول من وشك.

وعندما تخرج تبرطم أمي بكلام لا نفهمه، وربما لو حضر أبي يحاول تهدئتها ولا تهدأ:

- الوليه زى اللي كانت مخلّفاهم وناسياهم، خلّلي حلاق الحمير يتمتع على قفانا.

- يا ستي هي حرة ف مالها.. أنتي ناقصك حاجة؟

ولا بد أن جدتي عاندت أمي بذهابها بعد ذلك أولاً في كل مشوار رجوع من السوق إلى دار فرحانة أم يوسف، تعطيها مالا نعرف من خيرات البندر، وربما تساعدها بالمال بحسب ما كانت تؤكد أمي، ولا بد أن قدرا من عدم الرضا عن أفعال جدتي كان يتنامى في داخلي، وأنه بدا لي في بعض الأحيان أن كل ما كان يلبسه يوسف وأم يوسف وأبو يوسف وأخوة يوسف هو من ثمرة سعي جدتي، كنت أغتاظ منه إذا لبس ثوبًا جديدًا ولو بمناسبة العيد لأنه من مال جدتي التي قاطعتنا زمنًا وحوّطت على دار فرحانة.

كنت أذهب إلى دار جدتي فتلقاني بترحاب وفرح، تعطيني قرشًا أو تمنحني برتقالة أو موزة أو أي شيء حلو ليس له في غيطان أو دكاكين الكفر نظير، أفرح ولا تزول فرحتي إلاّ إذا جاء يوسف بعدى ومنحته مثلما منحتني وربما أكثر، وأحيانًا كنت أجده هناك في دارها قبل أن أدخل، يأكل أو يلعب أو يخبئ في سيالة جلبابه شيئاً قبل أن يفر، وعندما كنت أعود إلى الدار وتسألني أمي عما فعلت أو شفت في دار جدتي كنت لا أبوح لها بشيء، تقرّرني فلا أقر، ربما كي لا تغضب وهي السريعة الغضب، لكنها كانت تغضب مني لأنني أدارى عنها ولا أريح قلبها بمعرفة ما يدور هناك بحسب ما كانت تتشكى لنفسها بصوت مسموع وتلعن العيال وخلفة العيال.

* * *

كنت أنا ذاكرة العمر العريان، يراني ويكتم في قلبه النوايا الغادرة، وكنت خصمه ونقيضه ومالك ما لم يملكه أبدًا، كنت أملك حريتي وكان هو

قد دخل باختياره فى زمرة الأقوياء محمياً بهم ومسنوداً على أكتافهم وشواربهم وقدرتهم على التخويف، كانت كل الناحية تعرف أن زواجه من بنت «الشراودة» بداية سكة يمشيها ولا يحق له التراجع أو إبطاء الخطوات، كانت البنت قد فاتها زمن الزواج المحسوب، ولم يكن ذلك بسبب دمامتها النسبية أو نحولها المفرط أو طبعها الشرس مع الأهالى والأنفار والأتباع فقط، ولكن أيضًا لأن الخوف من رأفت كبير «الشراودة» وآمرهم وشيخ منسرهم والذى تصادف أن جاءت كل خلفته من الصبيان الذين صاروا رجالاً يستبيحون أهل الكفر الجوّانى ويزوّدون الرعب فى قلوب ناسه، وكانت «أصيلة» هى بنته الوحيدة، ولا بد أنها كانت تريد فارساً قادرًا على أن يمسك لجامها، لكن أى فارس هذا من بين كل فرسان الناحية يرضى بالدخول باختياره فى غابة الشراودة؟ ولهم فى كل شهر بلوة تنحط على دماغ القريب قبل البعيد؟ ناس استباحت كل شىء فى العبّ الجوّانى، قطعت الطريق وخلّعت الزرع وسمَّمت المواشى واختطفت الأطفال والنساء لتحصل على الديَّة، كان النفر منهم بحسب ما سمعنا يطلب الفدية قبل اختطاف المرأة أو الطفل فإذا تأخرت عن الموعد المحدد خطفوها أو خطفوه، يمارسون كل الخطايا مع المخطوف أو المخطوفة ويحصلون على الفدية وربما على أضعافها، كبيرهم قبل رأفت كان من أكابر الناحية وحاصل على رتبة البك رسمى من جلالة الملك، وعضو فى المجلس النيابى وله أولاد رتب فى الجيش المصرى وحرس الملك والبوليس، أرضه كانت تتَّسع بشكل دائم على حساب الناس فى الكفر الجوّانى، وكانت له فى كل مصلحة معارف، ومن بين رجاله طلع رأفت، نفذ أوامر البك كبير الشراودة ولم ينس نفسه، وسَّع ملكيته وزرع الرعب فى العبّ الجوّانى كله من اسم رأفت الشارد، ساعده رجال البك حتى صارت له هيبة وعزوة ورهبة، وعندما مات البك الكبير كان رأفت الشارد قد أصبح كبير الشراودة.

أشاع الناس فى كفرنا أن الناس الشلبى لهم علاقة قرابة أكيدة مع الشراودة، وأنهم جميعًا أولاد أم واحدة كان السلطان يناديها من بين حريمه

وجواريه باسم «الغزالة الشاردة»، ويؤكدون أنها كانت فاتنة تفتن العابد، واستدلوا على تلك القرابة بجمال النساء الشلبى والرجال الشلبى ذوى العيون الملونة بالأخضر والأزرق، طبعًا كل شيء فى كفرنا وناحيتنا جائز، جائز يكون لمثل هذا الكلام ظل من الحقيقة، وجائز تكون المسألة كذبة محبوكة الصنع، ولأنه فى ناحيتنا تطلع للكذبة رجلين ممدودتين تجوس بهما فى الليل بين الدروب وتسرح بالنهار فى السكك فإننى لا أنكر ولا أصدق وليس لى فى المسألة رأى قاطع، صحيح أن العرق دسَّاس وأن جدتى لأمى تنتمى للناس الشلبى وقد كانت لها عينان زرقاوان تتشابهان مع عين فرحانة أم يوسف وعينا فطوم، لكن النساء فى كل الناحية شبكة متشابكة ومن العسير على أمثالى أن يفصل الخيوط ويتتبع المسارات الأكيدة ويصل إلى منطقة اليقين، لكن المؤكد أن يوسف ابن حلاق الحمير الشلبى طلب أصيلة بنت رأفت الشارد وهو فى أوج قوته وتمام اكتماله، وأن الشراودة جهزوها أحسن جهاز وزفوها زفة لا كانت ولا حصلت من مدخل الكفر الجوانى لغاية مدخل كفر عسكر، ويومها سلموها للرجال الشلبى وعلى رأسهم المرسى والسعيد ويوسف، لكنه منذ تلك الساعة العصرية برزت شوكة يوسف وطلعت له مخالب وصار يتكلم عن أهل أصيلة وأفعالهم وسلاحهم وعزوتهم ومعارفهم، ولا أدرى إن كان يدارى فى قلبه حسرة الرقاد فى حضن امرأة مسلولة رغم الثراء، سليطة اللسان باعترافه إلى حدٍّ يصل لإهانته أمام الخدامين والأنفار.

كان يتشكى لى من المأزق الذى انزنق فيه وليس له منه مهرب أو سكة فرار، وكنت أواسيه بالكلام اللائق وأذكره بأصلها وعزوتها وميراثها فيتبدَّل حاله ويتنامى إلى حد الوصول إلى حالة من الزهو المصنوع أمامى لأنه حصل على «أصيلة» ذات العينين الزرقاوين، أسكت أنا فلا يكف عن الثرثرة المعادة على نفس الوتيرة السابقة قبل لحظة التشكى من المأزق الذى انزنق فيه يوشك أن يخوِّفنى رغم صلة القرابة التى تجمعنا فأقول لنفسى إنه ما دام قد وصل إلى هذا الحد فلا بد أنه مع الغرباء يتغطرس ويتعالى ويبتز إلى درجة لا تطاق.

لا بد أننى كنت أمشى على الصراط فى معاملتى مع يوسف، لا أعاديه ولا أسعى نحوه بحماس، كنت أترك له اللهفة والأشواق يبديها ويلومنى على التباعد فأؤكد له أننى مشغول فى شغلى وزراعة أرضى، كان فى بعض الأحيان يسخر من راتبى ويدعونى لأن أترك الوظيفة، يقترح علىَّ الشغل فى التجارة فأوضّح له إننى لا أصلح للتجارة، بينى وبين نفسى كنت أغتاظ من جرأته التى تتزايد إلى حد أن يسمح لنفسه بتخطيط مستقبل حياتى، ناسيًا فشله فى الحصول على الابتدائية فى نفس السنة التى أنهيت فيها أنا وصلاح ابن النعناعية شهادة التوجيهى وقد كنا فى فصل واحد، أتصابر وأمنع نفسى من الدخول معه فى مواجهة، ولا بد أنه كان يتمادى فى نفس الاتجاه حاسبًا أننى كنت أخافه، صحيح أننى لم أكن فى يوم من الأيام مستعدًا للعراك معه أو مع أحد رجاله، لكن المسألة لم تكن خوفًا بأى معيار، المسألة مسألة أخلاق، وإذا كنت - وأنت إنسان - عارفاً أهمية كونك إنسان وقد دخلت فى قفص القرود والنسانيس فهل تفقد إنسانيتك وتتحول إلى قرد أو نسناس؟ طيب نفرض أنك وأنت إنسان دخلت قفص الذئاب، هل تطلق مخالبك وأنيابك وتصير مثل الذئاب ذئبًا؟ أم أنه من الأفضل أن تبحث عن مفتاح القفص، تفتح بابه وتخرج بسلام؟ فلتكن الذئاب فى قفصها وأنت فى الخارج ترقبها بأمان، وما دام من الممكن أن تخرج فاخرج وعش كما أنت إنسان.

كأنه قد انكتب علينا أن نعايش كل وحوش الفلا من كل جنس، يفترسون أكبادنا ونتباعد لتستمر الحياة، يقطعون علينا الطرقات وننغرس فى وحل الغيطان لنتحاشى الالتقاء معهم على نفس الطريق، ربما لو مررنا ورمينا عليهم السلام نحصل على حق المرور وأوسمة الفرسان، تماما مثل الحكايات القديمة التى كانت تحدثنا بها الجدات وأمنا الغولة تقول «لولا سلامك سبق كلامك كنت أكلت لحمك قبل عظامك» هذه الحكايات وأمثالها تنفع مع الشاطر حسن وست الحسن والجمال، لكننا نعيش فى زمن مختلف، المغامرة غير المحسوبة تعنى الموت، ولقد يقول البعض أن فى كلامى خوفا أو جبناً عن المواجهة، لكننى أعترض بشدة، أولاً لأننى جاهز للموت ولكن

بجسارة، أكره أن أموت بلا ثمن مثل العشرات الذين كانوا يتساقطون على مرأى ومسمع من كل ناس الكفر وقد غرقوا في بحور الدم ولفظوا أنفاسهم وهم يرفرفون مثل أفراخ الحمام أو اليمام المذبوح وعلى غير الشريعة الإسلامية، كان أى حلوف من حملة البنادق أو الرشاشات يستطيع أن يصوِّب الرصاصة إلى أى قلب وبلا قلب، وهل للشراودة قلوب تحس وتتوجَّع، وهل شعر أى بغل منهم بلوعة الأم التى فقدت رجلها أو ابنها الشاب أو كرامتها أو عفة بنتها؟ الشراودة ناس من صنف مختلف، الشراودة ذئاب تلبس جلابيب البشر، هل سمع أحدكم عن رجل انخطف ابنه وطلب منه الخطافون ديِّته فى صباح اليوم التالى فسعى فى كل أركان الناحية يبيع ويرهن ويقترض حتى أوفى قيمةَ الديَّة ورقد فى انتظار الصباح ليقدمها إلى مندوب الخطَّافين، وعندما طلع الصبح وفتح باب داره وجد رأس ابنه الشاب المفصولة تتدحرج داخلة من عتبة الباب؟ وماذا كان بيده أن يفعل، حمل الرأس وراح إلى المركز وأتَّهم من أتَّهم واستشهد بمن شهد وجاءوا بالمتهمين والشهود فأنكروا جميعًا واتهموا الرجل بأنه قتل الولد وأخفى جثته وجاء يرمى بلواه على الشرفاء الأبرياء ويستشهد بمن أصابهم العمى والصم والخرس، لقد حدث مثل هذا وأكثر فى كفر عسكر.

كانت فى دربنا امرأة عاقر تسعى فى كل اتجاه، راحت لدكاترة ومشعوذين ونصابين ودجالين وسحرة وسماسرة ومشايخ طرق، صرفت دم قلبها وقلب زوجها وابن عمها لتسمع البشارة بطفل أو طفلة تحملها فى بطنها وتطفئ يوم مولده أو مولدها أشواق عمرها كله، دارت على عيادات الدكاترة فى البندر وكافة المدن القريبة والبعيدة، وكانت تقسم للكل بأنها قادرة على الخلفة وأن رجلها قادر هو أيضًا على الخلفة لكن الحظ يعاند، أشاروا عليها بزيارة الأضرحة فزارتها مهما تباعدت المسافات، أشاروا عليها باللجوء إلى السحرة والمشعوذين فلم تتردَّد، طالبوها بزيارة المصطفى فزارت ودهنت واجهة دارها بالجير الأبيض ورسمت على الناحيتين صورة المحمل وجمل «التختروان» وانكتب على الرسم عبارات المباركة بالحج المبرور والذنب المغفور، حصلت على الأحجبة المكتوبة

واستدعت الدراويش لدارها يذكرون ويقرأون الأوراد بينما تغطى رأسها وبدنها بالأبيض الخالص، كانت الحاجة «زينة البنات» على كل لسان، تنفق ببذخ وتطعم المساكين والمحتاجين فكافأها الخالق الوهَّاب بنطفة جنين، كبرت بطنها وزاد كرمها، لكن بغلاً من رجال الشراودة أرسل إليها مندوبه الكفيف حافظ آيات الذكر الحكيم والأحاديث المسندة يطلب منها ديَّة المولود قبل أن يولد، كانت الديَّة أضعاف أضعاف ما تمتلك ويمتلك رجلها وابن عمها وناسها، ولو كان فى استطاعتهم تلبية المطلوب ما تأخروا، ولو كان اللجوء إلى المركز بغرض الشكوى يفيد ما سكتت، هل كان الخوف وشدة الارتباك والعجز وراء نزول الدم عليها قبل الميلاد؟ أم أنه كان حملاً كاذبًا عاشت تتوهمه على امتداد ستة أشهر متتابعة؟ لكنها بحسب ما شاع أسقطت حملها الميت ففاحت رائحته تزكم الأنوف فى كل دربهم، بعدها فقدت الحاجة «زينة البنات» وعيها واستكانة روحها وصارت تسرح فى دروب الكفر، تهاتى بكلام غير موزون أو مفهوم عن الظلم والخصوبة وسلامة الأعضاء، تعرى نصفها التحتانى وتضرب بيدها على لحمها الأبيض فى الأماكن الحساسة فيدير الرجال رؤوسهم ويغضُّون الأبصار، وتتهامس النسوة عن «الطوفة» التى أصابت «زينة البنات» وعن المكتوب وقد سلَّط الخالق أبدانًا على أبدان فعرَّتها وفضحتها وقد كانت مستورة على امتداد السنوات.

وبعد أن كان رجال كفرنا يسخرون من بلادة رجال الكفر الجوَّانى وسكوتهم على الشر المتسلِّط على أرواحهم ونفوسهم والكاسر لأنوفهم والكاتم على قلوبهم بحيث يرون ويسمعون ولا ينطقون، صاروا هم أيضا أهدافاً محتملة لمصائب يدبِّرها الناس الشراودة بمعاونة الناس الشلبى أو يدبِّرها الناس الشلبى بمعاونة الناس الشراودة ويسكت الناس العوف، كأنما تواطئوا بالسكوت أو رضوا بابتعاد الشر المباشر عن دربهم وناسهم، وربما أغراهم ما كان يتبدَّى لهم أحيانًا من أمارات الاحترام الزائف عندما كان رجال الشراودة يتعاملون مع أكابر الناس العوف، ولا بد أن أتفاقًا أو مجموعة من الاتفاقات قد أبرمت بين العوف والشلبى وأحفاد «الغزالة

الشاردة» جارية أفندينا القديم، اتفاقات بالسكوت الممدود على الشر ما دام قد ابتعد عن باب الدار ولا يهم بعد ذلك إذا أطال الضرر بسطاء الناس فى كفرنا مثلما طال رجال الكفر الجوَّانى وحريمه والأجيال الطالعة محنية الرؤوس لا ترى أبعد من محيط حركات أقدامها على الأرض، أيامها همست فى بعض الآذان بما سوف يجرى عندما تتوازن الكفتان أو ترجح الكفة الشلبى على الكفة العوف وساعتها ينقضّون عليهم ويفتكون بالرجال ذوى الشوارب المبرومة والأبدان الفارعة الطول فارغة العقول، يستبيحونهم ويتقافزون ويتفرعنون على نسل الفراعين.

* * *

وكانت لأمى أخت لأم كنت أناديها «كاف» دون أن أسبق «الكاف» بلفظ الخالة، وربما كان ذلك بسبب أنها كانت عبيطة أو لأنها كانت تضربنى وأكرهها، ولخالتى «كاف» العبيطة حكايات وروايات لها علاقة بحكايات السيرة، سيرة عمدتنا الشلبى، لكنه يلزم أولاً أن أصف لكم بداية علاقتى معها، سيقول البعض إننى لم أكن فى المكان وقتها لكننى كنت فيه والعكس أيضا صحيح لأننى لم أكن فى المكان بعد، وأحسبكم عرفتم بفراستكم التى لا أشك فيها أننى كنت وقتها مازلت جنينًا فى بطن أمى ساعة الاستعداد للولادة، ولا بد أن أمى كانت راقدة نصف رقدة وقد ثنت ركبتها تنفيذا لأوامر «أم إبراهيم» الداية، تكتم أنفاسها وتدفعها لتحت ثم تكتم أنفاسها وتعاود دفعها لتحت، ولابد أننى كنت أتزحزح أو أتمرجح بفعل هذه الأنفاس المكتومة قبل اندفاعها لتحت، أكذب عليكم لو قلت أننى شعرت بهذه الزحزحة أو المرجحة، وأكذب أيضًا إذا قلت إننى لم أشعر أو أحس، لقد كنت بين بين، أتهزهز وأتزحزح وأتمرجح استعدادًا للنزول فى المكان المعد لنزولى، ولا بد أنه من كثرة ترددى على نفس المكان بعد أن وعيت لنفسى ومن كثرة ما سمعت من حكايات وحكايات حول لحظة نزولى وما جرى لى فيها تخيَّلت كل شىء، تخيَّلت نفس القاعة المعتمة التى مازالت فى مكانها فى خلفية الدار، مهملة وأرضيتها الرطبة غير مستوية، فيها ارتفاعات

وانخفاضات لم يتطوع أحد أبدًا بتسويتها ولها باب سميك وعريض ومفتوح نصف فتحة، ولا بد أنه كان وقتها ثابت فى نفس مكانه لأنه مسنود من الأمام والخلف برماد الفرن والتراب والتبن المتناثر ومئات الأشياء الدقيقة والظاهرة التى انعجنت أو أوشكت أن تنعجن فى «بحراية» القاعة التى هى أوطى من أرضيتها غير المستوية، فى معجونها ريش طيور من أحجام كبيرة وصغيرة وحصى طوب أحمر وقطع فخار وجذور مكسَّرة لحطب قطن وذرة وفول وعيدان برسيم ورماد خشن وجاف ومبلول ونوى بلح تمر وحيَّانى وقطع زجاج صغيرة متناثرة تلمع وخرق قماش قديم كان يستخدم فى كل الاستخدامات ابتداءً من كونها مزق من قمصان أو جلابيب أو حتى ألبسة داخلية إلى كونها مزق مستخدمة فى تنظيف بلاطة الفرن أو ربط جناح بطة، ولا بد أن بعض هذه الأشياء وغيرها كان فى نفس المكان أو أن أشياء تماثلها كانت فى نفس المكان، وقد تكونت على شكل تل صغير يخترقه مجرى مستقيم يسكنه بالكاد القائم السفلى العريض لباب القاعة الذى انكسرت مفصلاته بفعل الصدأ وانعدام الاستخدام الذى طال وطال وطال منذ ما قبل يوم مولدى بسنوات وحتى هذه اللحظات التى أخط لكم فيها هذه الجزئيات من سيرتى ضمن ما قررت أن أبوح به مكتوباً من سيرة العمدة الشلبى ومسيرته.

نرجع لخالتى العبيطة «كاف» التى قالوا وأكدوا وكرَّروا مرارًا حتى أيقنت أنها كانت تقف مسنودة إلى ذلك الباب المسنود على أرضية «البحراية» أو المجرى الغويط منها الذى جعل الباب مسنوداً وثابتاً رغم فساد مفصلاته، كانت «كاف» لا تريد أن تستجيب لأوامر أم إبراهيم اللّينة بأن تنزاح من مكانها بالخروج أو الدخول لتسمح لنور ربنا بدخول القاعة المعتمة، ولا بد أن البنت رغم العبط قد أدركت أن مثل هذه الأوامر اللينة تقال فى مثل هذه الساعات لإزجاء الوقت أو تتويه اهتمام الست الوالدة عن مواجع الولادة، بقيت «كاف» مزروعة فى مكانها فى أرضية البحراية تطل على أمى التى كانت تكتم الأنفاس وتدفعها تنفيذًا لوصايا أم إبراهيم وانتظارًا لفرج الله القريب الذى يظهر فى صورة مجموعة من الطلقات الهوائية

المصاحبة لتقلصات بدنية تساعد إحداها أو أقواها المولود على الخروج مندفعًا بعد الهزهزات والمرجحات والزحزحة، وبينما كانوا ينتظرون فى الخارج اندفعت أنا من الداخل بفعل الطلقة المباغتة التى جرَّبتها أمى لأول مرة فى حياتها، وقبل أن تأخذ نفسًا عميقًا أو أن تجفف لها أم إبراهيم عرق جبهتها اندفعت «كاف» وتناولتنى من فوق الأرض واستدارت لناحية الباب ربما لكى ترانى فى النور، ولولا أن الخلاص نزل فى نفس اللحظة وأن إلهاماً نزل على أم إبراهيم لكى تحمل الخلاص وتتحرك مع حركة خالتى العبيطة «كاف» لا نقطع الحبل السرى وانتهى الأجل، لكنها هى أم إبراهيم التى استطاعت بوعيها أن تخلصنى من بين يديها فى الوقت المناسب بين الحياة والموت رغم ما قالوه وأكدوه من أن «كاف» كانت مثل الحدأة التى فاجأت الكل باختطاف الكتكوت الوحيد، ستر المولى وخلصتنى أم إبراهيم من بين مخالب «كاف» إذن فانكتب لى عمر على يديها فى ذلك الصباح الباكر من شهر بؤونة الحجر، لولاها لخسرت عمرى مبكرا وخسرتم أنتم شاهدا عاش وشاف وباح بالمكتوب، وربما بسبب ذلك لم اطمئن أبدًا إلى «كاف»، كنت أنفر منها وأتحاشاها وأتباعد عنها دون قصد، لكن الحكايات التى سمعتها فسَّرت لى أسباب نفورى وابتعادى، ولا بد أن الخلايا المولودة سجلت رائحتها وصنفتها فى خانة الأعداء الغادرين، أو أنه عبطها وعدم درايتها جعلتنى لا أرتاح لها، كان هناك فى كل الأوقات عداء غير معلن بينى وبينها، حتى فى ساعات الصفاء كان هناك بينى وبينها حاجز يمنعنى من الاطمئنان إليها بشكل كامل.

ولولا وجود دليلة ما كنت أسرح وأدخل دار جدتى لأمى، كانت دليلة فى مثل عمر «كاف» لكنها كانت تختلف، ترعانى وتحملنى وتطعمنى بيدها، وكانت بارعة فى ملاعبتى، تحمينى إذا بدا لها أن ثيابى قد اتَّسخت أو أن الجو قد صار صهداً، ترطب جسمى وتأخذنى فى حضنها، وإذا فكرت هى فى الاستحمام أخذتنى وخلعت ثيابى وأجلستنى على ركبتها ورشرشت الماء على بدنى فأضحك وتضحك هى، وكانت فى بعض الأحيان تفعل نفس الشىء مع يوسف فأشعر بالغيرة منه وأطالبها بإعادة تحميمى وحدى، كانت

دليلة فى دار جدتى معكوس «كاف» فى كل شىء، ولم أكن أعرف أيامها درجة قرابتها لجدتى، لكننى كنت أشعر أنها أقرب لى من «كاف» وأحب، وفكرت فى أحد الأيام أن تأتى دليلة وتعيش فى دارنا، كان ذلك فى أوقات الخصام بين أمى وجدتى وقد كانت تطول وتتكرر، قلت لدليلة هامسًا:

- تعالى عندنا.. وباتى عندنا.

- ياريت.

قالتها هى بفرح واشتياق وشعرت أنا بالفرح وقلت لروحى لا بد من حيلة، تخلفت عن الكتَّاب وقلت لأمى أننى مريض، العجيب أن أمى تحسَّست جبهتى وقالت بفزع وهى تنظر ناحية أبى:

- الولد سخن نار

تحسَّس أبى جبهتى وأبدى خوفه المفاجئ وسألنى:

- أنت كلت إيه عند ستَّك؟

- ماكلتش غير كوز ذره وزر بطاطا.

التفت هو إلى أمى وطالبها متعجلاً أن تلبس الملس استعدادًا للذهاب إلى عيادة الدكتور جمعة قبل أن يغادر عيادته، فخرجت أمى بينما يطلب منى القيام لأتبعها كى تغير لى ثيابى فقلت بضعف:

- وخللى دليلة تشيلنى.

لا بد أن الفكرة أعجبت أمى ولم تجد اعتراضًا من أبى، أرسلوا إلى دليلة عند جدتى عدلات فجاءت ملهوفة تتفحصنى بعينيها وتساعد أمى على تبديل ثيابى قبل أن تحملنى على صدرها الطرى، جعلت تلاعبنى وتداعبنى حتى جاءت العربة المخصوص وزمَّرت فلحقنا بأبى الجالس إلى جوار السائق مصطفى يستعجله الذهاب إلى عيادة الدكتور جمعة فى البندر قبل أن يتركها ويذهب لداره.

لم تكن تشغلنى مسألة اللَّحاق بالدكتور لأننى من داخلى لم أكن أشعر

بمرض، كنت أشعر بنوع من عدم الرغبة فى أى طعام أو مشروب وبرغبة فى استمرار مداعبات دليلة وتحسسها لجبهتى ورأسى، حتى عندما فحص الطبيب كل جسمى وغرس حقنته فى لحم مؤخرتى لم أصرخ أو أشعر بكل الوجع، ربما لأن دليلة كانت إلى جوارى تحوطنى بذراعيها وتدفن رأسى فى صدرها بينما تدارى مؤخرتى العريانة بثيابى وأمى تبتسم.

لا أدرى إن كانت دليلة قد أبقت نفسها تنفيذًا لرغبتى أو أنهم أبقوها بسبب مابدا لهم من شدة تعلقى بها وزوال السخونة التى أصابتنى وانفتاح شهيتى لكل الأطعمة والمشروبات التى كانت تأتى بها، وربما حيرنى فى تلك الأيام أن الطبيب المشهور صدَّق ما كنت أحسبه كذبة دبرتها لأغراض تخصنى، صدَّق مثلما صدَّق أبى وكتب لى شرابًا فى زجاجة اشتراه أبى وثلاث حقنات أخرى غرسها فى لحم مؤخرة فنحى المزين الساكن جنب دارنا، بعدها كنت أشعر أننى قادر على الرمح من باب دارنا ولغاية غيطان الكفور الجوانية، ومن جديد صرت أذهب إلى كتاب الشيخ درويش وأكيد يوسف بأن دليلة تسكن الآن فى دارنا وأنها لن تعود مرة أخرى إلى دار جدتى عدلات ويشاركنى فيها مثلما يشاركنى فى كل شىء، لكن الولد حاول أن يذكرنى بامتلاكه للصندل الأزرق بينما انقطع صندلى الأحمر، أشعر ببعض الحزن ثم أتذكر دليلة فأنسى حزنى وأتعجل الذهاب إلى دارنا فأجدها هناك مستعدة لتلبية كل طلباتى وجاهزة لملاعبتى ورواية الحكايات عن ست الحسن والجمال والشاطر حسن وعنتر وعبلة والولد الشجاع الذى ركب على ظهر الجنى الكبير وسافر به لآخر بلاد المسلمين.

* * *

قلت لكم أكثر من مرة أننى انخدعت وركبت حمار حياتى بالمقلوب، ولأن الدنيا انقلب ميزانها وتغيرت أحوالها بأسرع وأشد مما كنت أتصور فقد تاه العقل أو كاد، ولأنه كان من الصعب على رجل مثلى أن يقر ويعترف بما يجرى حوله بكل هذا القدر من السرعة فقد فكرت بعد انقطاعى فى اللجوء إليكم أستفتيكم فى أمرى وأستوضح منكم ما غمض على عقلى فى

نهايات العمر، وأنا يا ناس شفت ما شفت أيام القدرة وأيام الضعف، شفت الحق المخزى الخسران، والباطل العاطل الكسبان، شفت ابن الغسَّالة وابن الخبَّازة اللَّتاتة العجَّانة يرتفع نجمه ويزهزه ونجمى يخبو وينطفئ أو يكاد، من قلة حيلتى تشككت عشرات المرات فى أمر نفسى وقد خسرت فى نهاية المطاف كل شىء.

انخطفت فردوس وأنا فى مضيفة حضرة جناب العمدة الشلبى، وانخطف العيال، آه.. هل أحدثكم عن عيالى أو أدارى حكاياتهم، أخفيهم بالسكوت حيث يختفون بعيدًا عن بطش الباطشين ممن برعوا فى إبعادهم عنى وإبعادى عنكم حتى أصل إلى حالة من حالات التوحش والتوحد والتوجس وقد فارقتكم بعد أن فارقونى وإنحرمت منهم بأفكارهم التى هى ضد أفكاركم وأفكارى، لو بحت أكثر لا نكشفت هويتى وانزاح عنى كل ما يدارينى وقد اتفقنا على أن أتدثر ببعض الحذر حتى لا يعرف من يحاصروننى فى عقر دارى اسمى ورسمى، يضغطون على مناطق ضعفى ويزودون خوفى، يحكمون الحصار فيزيد وجعى وأنا أكتب سيرة عمدتنا الشلبى لأسرِّبها لكم قبل أن ينساها الناس فى كفرنا أو تختلط فى ذاكرتى أكثر مما هى مختلطة، أصبح مثل الذى انضرب فى السابق بالشوم على بطنه وهو مربوط ومعدوم الحيلة، انضرب وتوجع ثم أفاق ليشهد فى لحظات الإفاقة ناسه وهم يتعذبون ليتعذب أو يمارسون خيانته والشهادة ضده فى جرائم يثقون مثلما يثق أنه لم يرتكبها ولا خطرت فى خياله، لن أحكى لكم عن أخوتى الذين تفرقوا عنى خوفًا أو طمعًا فى حسابات عبيطة حول ميراث قديم، هى على أى الحالات بعض الاحتياطات المكشوفة لكننى أحوط بها نفسى لأقنع روحى بأننى فعلت ما كان من اللازم أن أفعله بعد رحيل عمدتنا الشلبى، أستميحكم كل الأعذار كى أخفى عنكم ما ظهر للبعض منكم من مصائر أخوتى وعيالى.

ربما لأن المسألة فى حالة وجود الشراودة والدكارنة داخل زمام كفرنا وخارجه صارت أخطر من عمدة شلبى انقتل واندفن فى جلبة وصخب

داخل محيط دائرة ضيقة لا يطلع من حدودها صوت مسموع ومؤثر، المسألة أخطر من رجل تاه أصله وفصله فى زمن توهان الأصول.

سامحونى لأننى لن أحدثكم عمن اعتزلنى وهو ساكن لدارى، أو الذى هجرنى دون أن ينبئنى عن مكانه خارج حدود كفرنا الكافر كما كان يهذر فى آخر مرة أراه فيها، أداويه بالوعى فلا يتداوى ويوشك أن يشهر فى وجهى سلاحه، تتوجَّع هى فأهدئها وأنا الذى يحتاج إلى التهدئة، يرحل ساخطًا ويتركنا فأتساند عليها وأجعلها تتساند علىَّ، تصبح هى ملاذى وملجأى وسكنى وأصير لها ملاذًا وملجأً وسكنًا، تتحول فردوس وقد شاب شعرها إلى بلسم لجراح عمرى، لولاها لأصابنى مزيد من الخبل إن كان قد أصابنى بحسب ما أشاعوا كثيرًا من الخبل، لكنها انخطفت فتوَّهت باختفائها ما تبقى من عقلى، ولا بد أننى انكمشت على روحى بوعى حتى أحمى الناس من توهان العقل وشططه الذى كنت أستشعره فى حدقات العيون فأشفق عليهم وعلى نفسى وأختار لروحى ذلك الاعتزال أو تلك العزلة أفرضها على نفسى بدلاً من أن يفرضها علىَّ فارض، ربما أكون قد تعللَّت لنفسى ببوادر ضعفى ووهن عزمى فأجرت الأرض لمن يزرعها ويقاسمنى المحصول، ويحق لمن عاش مثل حياتى وواجه ما واجهته أن يتشكك فى الدنيا وقد دارت ولفت حول نفسها وحول الشمس فارتجت مثل زجاجة دواء راكد وطرحت على سطحها مزيدًا من الأشواك والعصرم وأصابتنى بكل أنواع الشرور، وربما بعد ضياع فردوس صرت أنا فى نظر الناس ونظر نفسى مثل جمل أجرب يستحق كل أنواع العزل والعزلة، كأنهم وهم يبترون أطرافى ويمزقون أحشائى بتؤدة قطعوا لسانى أيضًا وأخرجوا لى ألسنة المعايرة، وجرؤ صلاح الشارد أن يكايدنى:

– العمدة يوسف يظهر باقى ع العشرة القديمة والقرابة، وأنا لو كنت مكانه كنت طلبت لك الخانكة من زمان.

كأنما اشتعل دماغى بنار فرن عالى من أفران الحديد والصلب، شعرت أن صلاح الشارد يستكثر علينا الهواء السارى فى الفراغ ويستعجل

الإجهاز على ما تبقى منا وهو الداخل كفرنا والساكن فيه والبانى على أرضه بسبب علاقته بأصيلة. كأن البلد التى هى بلد أجدادنا قد طابت لهم وصاروا يتحكمون فى مصائرنا من غير علم العمدة وإن تجاسر صلاح وتكلم بلسانه فلا بد من منعه، ولم أكن أملك المنع لكننى كنت أملك فى تلك اللحظات القدرة على الاحتجاج، كانت أمامى دواة حبر أسود مفتوحة فتناولتها ربما بنصف وعى وألقيت بها فى اتجاهه، تناثر حبرها وعاصنى قبل أن تتناثر بعض نقاطها على ظهر جلبابه وقد استدار فى محاولة للهرب، أمثال هؤلاء الناس يبرعون فى الهرب من وجه الخطر ويتهمون الناس بالخوف منهم، وعندما جذب باب المضيفة وراءه فصرت محبوسًا مرتين، مرة بالباب ومرة بقدرتهم على استثارتى فى أى وقت، وساد صمت خجلت فيه أن أقوم وأحاول فتح الباب المسكوك من الخارج، ربما طمأننى أننى فى مضيفة يوسف وبه أحتمى، لكننى سمعت الأصوات تدنو وتقترب ثم تتعالى، وصحوت من شبه غفوة عندما انفتح الباب ورأيتهم يقتربون وأتراجع حتى صدّنى الجدار ويتقدمون، أمسكونى من الذراعين والقدمين ورفعونى كذبيحة متجهين إلى خارج الدوّار وأنا أنادى يوسف فلا يرد ولا أراه، بعدها وجدت عند الباب جماعة منهم يتداولون الكلام بأصوات مرتفعة تعلو على احتجاجاتى واستغاثاتى:

- انهبل.. جاله لطف اللهم احفظنا.. ما عادش واعى لروحه خالص، ع الحمار.. ركبوه بالمقلوب واعدلوه.. زفوه ياعيال.. ياللاً يا إبن الكلب يا مدندش.. قول .. العبيط أهه.

كان الحمار يمشى وقد أركبونى بالمعكوس، أشهد ذيل الحمار وباب دوار العمدة الذى يتباعد، لم أكن بالقطع واعياً لروحى ولم أكن تائها تمامًا.. هل أسلمت نفسى للغياب وأنا أعبر الدرب الشلبى ثم أتباعد عنه وأراه وهو يتضاءل ويتضاءل ثم يختفى عند المنحنى وكأننى كنت أتنبأ بزوال الزمن الشلبى وطلوع الزمن الشارد؟ لكننى فى غمرة التوهان سمعت صوت يوسف آمرًا:

- ما يصحش كده يا صلاح نزل الراجل واخرس يا بن الكلب منك له.

وبدا لى يوسف متضخمًا وفى حجم الكرة الأرضية ذاتها، تلقانى فى حضنه وكأننى محبوس ظلم طالع من باب السجن ومرمى فى أول حضن يتلقاه، لعله كان يوسف الذى تحول إلى ملاذ وملجأ أو أنه الوهم الذى صوَّره على هذا النحو، ومن أدرانى أنها لم تكن حيلة رخيصة دبرها هو ليرانى ويتظاهر بإنقاذى من صلاح الشارد وناسه حتى تنضاف إلى صفاته الجديدة صفة الوفى لصلة الدم، وربما يكون على غير علم وأن الشراودة فعلوها فى غيابه فأحتج وأمرهم بهذه الحدة لينضاف إلى صفاته صفة القادر على حماية ناسه من الغرباء، يعلم الله وحده بما خفى عن علمى، ومن جديد دخلت الدرب الشلبى ماشيًا هذه المرة إلى جوار العمدة الشلبى الذى كان يربت على ظهرى وكأنه يصالحنى على الملأ وأنا ذاهل عن روحى والناس أمامى وإلى جوارى مثل خيالات أو أشباح بلا ملامح أو صفات، أصوات وعيون منطفئة البريق وألسنة تغمغم وتهمهم وتدمدم وتهدر وتهمس بوهن وشوارب مرتخية وأنوف محنية وذقون وجلابيب ولاسات وطواقى ومداسات، أول ما عرفت عرفت وجه دليلة الملتَّاعة التى تمسكها النسوة وهى محلولة الشعر حافية القدمين تهبد صدرها بحرقة أو تلطم إذا انفلت الساعد أو الساعدين كأنما كانت تندبنى قبل موتى أو أنها كانت تشعر بالفجيعة أكثر منى ومن كل الناس، وكانت تهدر مثل موجة صاخبة لا يقدر على إخفاء هديرها أحد:

– على عينى يا حبة عينى.. على عينى يا حبة عينى.

اقتادنى يوسف إلى الدكة وأجلسنى وكأننى تمثال متخشب ثم جلس إلى جوارى، بعدها صرخ فى دليلة بغضب:

– كفاية قواق يا أم قويق.. محصلش حاجة لده كله، والراجل قيمته محفوظة.. غورى من قصادى..

وغارت دليلة إلى وسط الدار لكنها لم تكف عن الهدير الصاخب أو الهمس المبحوح:

– على عينى يا حبة عينى.

وبمرور الوقت كنت أفيق على أصواتهم المتداخلة وكلامهم واكتشف كذبهم المحبوك الذى كان يسرح فى الدوَّار وكأنه الحقائق وصلاح الشارد واقف يستشهد بأعوانه وأعوان العمدة، فى الكذب أمسكت برقبة صلاح الشارد وكدت أقتله خنقاً، وفى الكذب خلصوه من قبضتى المستميتتين بكل العسر وهو بين الموت والحياة، وفى الكذب أسعفوه ببصلة مكسورة ونصف زير ماء صبوه على دماغه ليفيق، وفى الكذب شتمت العمدة يوسف وكل سلساله وشتمت مأمور المركز ومدير المديرية ومن عيَّنه مديراً، وفى الكذب تعرَّيت فى وسط الدوَّار وطرطرت على جلابيب بعض الحريم الجالسات فى حضرة الست «أصيلة» والست بنت بنت هارون، وفى الكذب فعلت الأفاعيل والأباطيل بأكثر من قدرتى على التذكر، لكننى باختصار أفسدت نظام الكون الهادئ المستتب، كانوا يقسمون بأغلظ الأيمانات إلى الحد الذى جعلنى أراجع نفسى وذاكرتى وأميل إلى تصديقهم، ربما كنت من داخلى أرغب فى فعل كل هذه الأفاعيل وأن أسبَّهم كل هذا السباب وأن أقتلهم كل هذا القتل وأن أتعرى أمام كل هذه النساء، وربما أكون قد فعلت فى الخيال أفظع من هذه الأفعال مجتمعة، لكننى فى الحقيقة كنت أحاول الإجابة عن سؤال حيَّرنى: متى رتبوا كل هذه الأكاذيب وكيف وزعوا الأدوار إلى الحد الذى يجعل العرض ناجحا كل هذا النجاح رغم التدنى والإسفاف؟

أشار العمدة إلى كتلة الكذب بأنه اكتفى وطالبهم بالانصراف وقال لصلاح الشارد متوهمًا أنه يرضينى:

- وأنت يا صلاح لى كلام تانى معاك.. كان لازم تشاورنى أو تستحمل علشان خاطرى.. اتفضل دلوقت وكلامى معاك بعدين.

ولم يبق فى المكان غيرى أنا وهو.. لا كنا صدقنا شهود الزور ولا كنا نحتاج لتكذيبهم، كان إلتقاء النظرات بيننا كفيلاً بكشف كل ما نسجوه ودبَّروه وعرضوه، تنهدت فتنهد يوسف، انتظرت أن يفاتحنى بالكلام وانتظر هو أن أفاتحه، ولما طال انتظارنا تنحنح واعتدل فأومأت له علامة

استعدادى للسماع فهمس ناصحًا:

- مش ناوى تهمد بقى وتكن؟
- رجعلى فردوس..
- فتشنى.. أنا ساكت عليك بمزاجى.. لو ركبتنى العفاريت ح أسيبك لكلاب السكك تاكلك..
- ليه كل ده يا يوسف..؟
- أنت عارف
- مش عارف
- لأ عارف..
- مش عارف
- لأ عارف..

كررناها بنفس الإيقاع والإصرار ربما عشر مرات ليتأكد لى أكثر من كل الأوقات السابقة أنه وراء اختفائها، لعله لو طلب منى فى تلك اللحظات أى شىء يخطر على خياله وفى استطاعتى عمله ما كنت ترددّت أبدًا، لكنه أشعل النار أكثر:

- اللى حصل النهارده لعب عيال، لكن لو ماهمدتش وبعَّدت عنى ح أخلّى الديابة تنهش لحمك وأنت حى.

انتهى فاصل الصلح الزائف الذى استمر زمنًا طال بطول عمرى وعمره، وانكشف المستور المخفى فى الأعماق وأطلّت الكراهية المدفونة من وراء الكلمات تنذرنى بأسوأ مصير، وكان من الممكن أن أفكر فى الفرار والهرب تاركًا ليوسف كفرنا ودكة العمادة يتهزهز فوق خشبها ومساندها ما تبقى له من عمر، لكننى استعدت شجاعتى القديمة وسكنت دارى أنتظر الرصاصة الغادرة تصيبنى من أى اتجاه، وربما طاف بخيالى إمكانية المواجهة وصرت أحلم بإزاحته فلعلنى إذا أزحته اكتشفت مكان فردوس، ربما فكرت أن خروجها من القمقم الذى انحبست فيه يتطلب دمه على وجه التحديد، لكن الولد إبراهيم ابن حسين البرادعى أخرجنى من

سجنى وحرّرنى من كوابيسى وأعفانى من تلويث أصابعى بالدم، وربما يكون الولد قد أراح يوسف نفسه من مداومة التظاهر بأنه قادر على تسيير أمور الناس فى كفرنا والتظاهر بأنه قادر على اقتناء ثلاث زوجات فى دوار واحد رغم الفضائح التى كانت تجرى بين الحيطان، أراحه وأراحنا لفترة قصيرة تولدت بعدها المشاكل والناس تسأل عن المرسى شلبى وقدراته على الوفاء بوعوده التى وعدها وأيماناته التى أقسمها إذا تولى عسادة الكفر أو حتى مشيخة البلد.

* * *

وأنا شفت الموت مرتين، واحدة كانت لعب والثانية كانت جد.نبدأ بحكاية الموت اللعب لأننى أحب اللعب مثلما تحبونه وربما أكثر، كانت رؤية الموت سوف تحدث بواسطة خالتى «كاف» التى لم أكن أطمئن إليها أو أشعر ناحيتها بأى ود وأى أمان، ربما كانت فى الخلايا نفسها مشاعر تدعونى لأن أنفر منها وأتباعد، أحذر منها وأخاف، لكنه كان يحدث أيضًا فى بعض الأحيان أن ألعب معها، أجدها أمامى تلاعبنى فألاعبها بحذر، لكن ما جرى فى تلك الظهيرة كان يختلف، كانت الدار خالية وكانت «كاف» قد جاءت تسأل عن أمى فلما لم تجدها حدثتنى بعقل عن الترعة التى فاضت منها المياه الحمراء وعن العيال الكثار الذين ذهبوا للاستحمام، ولا بد أنها نجحت فى إقناعى بصحبتها إلى الترعة. ومثلما كانت تفعل دليلة قبل تحميمى فعلت كاف، خلعت عنى قميصى الدمور الذى كنت ألبسه على اللحم ثم اقتادتنى فى اتجاه الشط بحذر، تقدمت هى إلى الوراء فتقدمت إلى الأمام، رشرشتنى بالماء فضحكت وفرحت ورحت أرشرشها بالماء فتضحك بفرح، ولا بد أننى شعرت ناحيتها بشىء من الاطمئنان الزائد دون أسباب، وربما كان ذلك بسبب سخونة الجو أو برودة الماء، كانت تدفعنى للأمام والخلف فأضحك وأتساند عليها، لكنها فاجأتنى وقد خلا المكان من الناس بأنها ركبتنى، لا أعرف متى وكيف طلعت إلى شط الترعة وكيف وضعت ساقيها على اكتافى ثم ركبتنى ركوبًا وقالت آمرة:

- حا.. حا يا حمار.. حا..

شعرت بنفسى أنزل وأنزل وهى تكرر أمرها للحمار المركوب، وكنت أنزلق وأنزل وعيناى مفتوحتان تريان الماء الذى كان أكثر حمرة، ولم أكن أتنفس بالطبع وثقلها يزهق بدنى، ولا بد أن الوقت طال وطال قبل أن أغيب تماما وأسلم نفسى لطلوع الروح بحسب ما كنت أتخيله، لكنه بين لحظة الاستسلام الخالص والتعلق برغبة الطلوع حدثت المعجزة بحسب ما قالوا وكرَّروا عن لحظة الانتشال والإخراج من بطن الترعة لينكتب لى عمر جديد على يد «البهنسى» كانت هناك أفاقة ضئيلة وخافتة سمعت فيها أصوات واندفس سيخ فى حدقتى العينين من شعاع الشمس الأحمر، ونهَّق حمار وتناثر على بدنى رماد ثم غطَّته عباءة ثقيلة سوداء تسمح لى بالتنفس وكانت هناك خبطات على الظهر والبطن ثم صراخ وإفاقة كاملة على صوت أمى التى كانت رغم نجاتى تولول وتشتم البنت العبيطة المهبولة المطلوقة على عيال الناس لأنه لا يحكمها حاكم أو يبعد عن الخلق أذاها، وكانوا يقدمون إلى «طاسة الخضة» فلا أشرب منها وأفضل سماع صوت أمى التى لعنت «كافف» وأباها وكل صنفها الشلبى ثم لم تنس جدتى التى هى أمها والتى من قلة تمييزها رضيت بعد معاشرة السبع المهاب أن تعاشر الكلب الجربان الحافى الذى لم يكن يساوى عبدًا من عبيده فى حياته، لكن جدتى كانت هناك أيضًا ترد لها الصاع صاعين، تسب أباها الفسدان الذى باع أرضه ومحتويات داره بما فيها عروق خشب السقف ليلعب بها القمار ويموت مديونًا ويندفن بالدين الذى حاولت أن تسدده هى من حر مالها، بعدها غفلت ولم أشعر بروحى إلاَّ بعد طلوع الفجر.

صحوت على هزة رقيقة من أصابع دليلة، فتحت عينىَّ فرأيتها تبتسم وتهمس:

- قوم استحمى.

كان طشت الحموم فى وسط القاعة وبداخله الكرسى الخشبى، وكانت حلة الماء الساخن يتصاعد منها البخار بينما تزوِّدها بالماء البارد، طالبتنى

بالنزول دون أن تلتفت ناحيتى فنزلت، طالبتنى وقد صرت واقفا على الكرسى الخشبى وسط الطشت بأن أخلع ثيابى فخلعت، صارت هى تدعك الصابونة فوق سطح اللوفة ثم تدعكها فى ظهرى وأكتافى والذراعين والصدر والفخدين ثم تملأ الكوز بالماء الدافئ وتصبه على جسمى، أشعر بالدفء وأنعم برائحة الصابونة وقد ناولتها لى أمسكها وأغسل بها شعرى وهى تتابع صب الماء فوق رأسى وكل جسمى، ولا بد أنها لمست أعضائى دون قصد فشعرت بوجودها بشكل مختلف لأول مرة فى حياتى، وعندما صبَّت كل الماء الدافئ فوق رأسى كدت أطلب منها أن تدعك جسمى مرة أخرى، لكنها جففتنى بالفوطة وتحسستنى من كل الأماكن قبل أن تلبسنى الجلباب وتحملنى حملاً على صدرها فأكتشف أننى صرت أطول مما كنت فى المرَّة السابقة، كدت أصير فى مثل طول دليلة، ومرة أخرى وجدتنى أتمدَّد على الفراش ودليلة تغطينى وتحادثنى بينما تحمل ماء الحموم الذى أفرغته فى الحلة الكبيرة لترميه فى وسط الدار وتركن الطشت واقفًا ومسنودًا إلى الجدار ثم تأتى لتسألنى عن الفرق بين الاستحمام فى الترعة والاستحمام فى الدار بالماء الساخن والصابون المعطر فأنظر إليها ولا أتمكن من الرد، أشعر أننى أحببتها فى تلك الساعة البدرية أكثر من أى وقت مضى، وعندما اقتربت منى همست بخجل طارئ:

- نامى جنبى واحكى لى حكاية.

كنت أطلب منها نفس الشىء بعد كل استحمام وتطاوعنى مثلما طاوعتنى هذه المرة أيضاً، لكننى فى هذه المرة كنت أقترب منها وأتظاهر بالارتعاش فتحوطنى بذراعيها وتحرك كفها المفرود على ظهرى لتشعرنى بالدفء، أقترب منها وأتشمم رائحة صدرها، وبينما كانت تحكى لى حكاية الدب والعنكبوت كنت أشعر بسخونة طارئة، ولا أعرف إن كان بسبب سخونتى أو دفئها الذى كنت أحسَّه، قامت فجأة وتركتنى أحضن الفراغ واقفة على الأرض تنظر ناحيتى بفزع وتحادث نفسها أكثر مما تحدثنى:

- لا.. ما أرقدش جنبك تانى أبدًا.. ولا أحمِّيك تانى أبدًا، ولا عدت أحكى لك حكايات.. يا حوستى..

قالت وتركت القاعة وسحبت وراءها الباب فاختفت تمامًا وإن كنت أتسمَّع أنفاسها البعيدة وأسمع صوتها وهى تحادث نفسها بكلام لا أفهمه مثلما هى عادتها إذا انشغلت بشىء أو زاد عليها شغل الدار.

لا بد أنه كان نهارًا خائنًا ذلك النهار الذى بدأ بالاستحمام، كان الكلام يدور همساً بين أمى ودليلة فلا أسمعه رغم محاولاتى للسمع، وكان يدور همساً بين أمى وأبى فلا أفهمه، خاننى ذكائى فلم أفهم سر هذا التبدُّل الذى أصابهم جميعًا تجاهى، كانوا ينظرون ناحيتى بارتياب وحذر ويسكِّتون بعضهم البعض فى وجودى، صحيح أننى لم أطلب أى شىء ولم أحصل عليه، حصلت على إفطارى وغدائى وشربت اللبن وأكلت البطيخ ولعبت فى الدرب بالكرة الشراب فشطّفتنى أمى وألبستنى جلبابًا أبيض جديداً وطاقية بيضاء جديدة وصلتها للتو من عند الخياطة وكان الوقت يقترب من ساعة الغروب، وجاءت فرحانة إلى دارنا وكثيرًا ما كانت فرحانة تأتى إلى دارنا، جلست إلى جوار أمى وتهامستا بودٍ على عكس ما اعتدناه منهما، شربت الشاى الذى أعدَّته دليلة ثم قامت لتخرج واكتفت بأن قالت لأمى:

- حصِّلينى.
- فى كعبك على طول.

وبعد صلاة العشاء أخذنى أبى إلى دار جدتى لأمى وأجلسنى إلى جواره، حسبته سوف يعاتبها بسبب ما جرى من خالتى «كاف» التى أوشكت أن تغرقنى فى ظهيرة اليوم الفائت لكنه لم يفعل، جاءت أمى مع دليلة وفرحانة مع حلاق الحمير ومعهما يوسف وقد لبس جلبابًا أبيض مثل جلبابى وطاقية بيضاء مثل طاقيتى، أجلسونا على الحصير معًا فى وسط القاعة ثم حملت فاطمة بنت السعيد الخروبى كلوباً يوشّ مثل وابور الجاز وينوِّر القاعة ووجوه الحاضرين فى شكل مربع ناقص ضلع، يتساندون على المساند المركونة على الجدران وأنا ويوسف فى المنتصف، شربنا شرابًا وردى اللون فى أكواب زجاجية وكأننا فى فرح، ثم جاء مصطفى المزيِّن ووسَّعوا له مكانًا بين أبى وحلاق الحمير، كانت فى حوزته شنطة

الحلاقة التى يدور بها على البيوت فحسبته جاء يحلق ذقن أبى النابتة فى ضوء الكلوب وقد أخرج الموس وراح يسنّه على المسن ويضحك لى وليوسف ولكل الحاضرين، وقبل أن أكتشف الفخ المنصوب كنت بين قبضات أبى وحلاق الحمير وحسنين المدندش الذى طلع من تحت الأرض أو دخل القاعة وأنا غفلان، خلعوا لباسى ورفعوا جلبابى وسمعته يأمر مصطفى:

- شد الغلفة كويس يا مصطفى.. اقطع مستنى إيه؟

وسال دمى من عضوى المجروح وهم يقهقهون وفاطمة تزغرد وأمى تضحك، أمرنى مصطفى بأن أطرطر ليخف الألم فطرطرت وشعرت باللّسعات تكوينى وكأننى جلست على كانون ملتهب تحرقنى ناره، ولولا أن يوسف إنمسك مثلما انمسكت وانقطعت «غلفته» مثلما انقطعت «غلفتى» ما كففت عن الصراخ، كانوا يأمرونه بأن يطرطر مثلى بعد أن ربط مصطفى المزين عضوه مثلما ربط عضوى بالشاش، يشجعونه ليطرطر فلا يطاوع وأنا أريده أن يفعل، أصرخ فيه من وجعى:

- طرطر يا بن الكلب يا يوسف طرطر.

فيضحكون بشكل جماعى وتزغرد فاطمة بنت السعيد الخروبى وتسرسع «كاف» فى محاولة فاشلة لزغردة فيضحكون عليها ويوسف يصرخ رغم أنه لم يكتو بالنار التى اكتويت بها عندما طاوعتهم، وعندما حملت فرحانة وفاطمة صينية العشاء النحاسية بعد مدة وعليها البط المحمَّر والحمام المحشى الذى يتصاعد منه الدخان فوق طواجن الأرز المعمَّر شعرت باللّسعات أكثر، طالبونى بأن آكل فلم أطاوعهم لكن يوسف كان يأكل مثل كلب مسعور فيتأكد لى أننى انخدعت وأنه كان نهاراً خائناً من بدايته، لعلنى كنت أشعر بالجوع أو بالغيظ من كل الأفواه التى تلتهم بنهم ولا تعيرنى ما أستحقه من اهتمام ورعاية، ولولا صدر دليلة التى حملتنى بحنو وحذر لظللت أصرخ وأبكى طوال الليل، لكنها هربت بى من وسطهم وأرقدتنى على فراشى وراحت تحكى لى حكاية الأميرة صاحبة البنورة

المسحورة التى كانت تسكن القصر العالى وكيف أنها شاورت للولد المؤدب وطالبته بأن يصعد لها فسألها عن باب القصر وجاوبته بأن القصر مسحور وليست له أبواب وأنه لا بد أن يذهب بنفسه إلى مدينة الحبال الطويلة ويشترى أطول حبل ثم يستخدمه فى الطلوع إلى شرفتها قبل أن يطلع النهار ويستيقظ الحراس، و...

وفى المنام رأيتنى أسعى للوصول إلى مدينة الحبال الطويلة وأشترى بجلبابى الأبيض وطاقيتى البيضاء أطول الحبال ثم أشترى بما تبقى من ثيابى سلماً من مدينة السلالم، أسنده على جدار القصر وأصعد وأصعد والنسيم يداعب جسمى العريان والأميرة تتناول طرف الحبل وتربطه فى عامود الشرفة فأتعلق به وأطلع دون أن يشعر بطلوعى الحراس، أصل إلى الأميرة فأرى فيها وجه دليلة وقد رجعت صبية فى مثل عمرى، تلاعبنى وتداعبنى وتداوى جرحى فأنساه، أشعر بكفها يتحسّس صدرى وظهرى بنعومة فأنتشى وإن كنت أشعر ببعض الألم وقد بدأ يزول إلى الحد الذى يجعله ألماً لذيذًا وناعمًا وقد طاب الجرح وتداوى بمساعدتها ولم يعد باقيا من آثاره غير قشرة الجرح الجافة الرقيقة تنتظر أصابعى لتشيلها، لكننى عندما أتجاسر وأفعل أشعر بلسعة مفاجئة وأصحو فتختفى الأميرة وأرى وجه دليلة التى تبكى من أجلى وتجفّف عرق جبهتى، أشعر بالسخونة من جديد وأرغب فى البكاء من أجل نفسى ومن أجل دليلة لأنها بكت من أجلى بينما كان الكل يضحكون، بعدها تداخلت فى ذاكرتى الصور والأصوات، ما عدت بقادر على التمييز بين صوت دليلة وصوت أمى أو صورة بنت سعيد الخروبى وصورة دليلة، كنت إذا أفقت أشعر بالصهد فى داخلى يغرقنى، أنازع وأتأوه ولا أستطيع الشكاية بالكلام المفهوم، كنت أكتفى بالإشارة فيعجزون عن تفسيرها إلاّ دليلة، تسقينى أو تحاول إطعامى حتى تتداخل الأصوات من جديد فلا أتمكن من التفريق بين نهيق الحمار أو نباح الكلب، وما كان يؤلمنى أكثر هى تلك الأوقات التى ينفك فيها رباط الجرح بكل العسر، أصرخ متألماً وألعن مصطفى المزين الذى يضع فى أصابعه الخشنة مسحوق الشطّة الحامية بحسب ما كنت أقول، أشعر فى كل مرة بسخونة

الجرح الذى ينزف ويختلط دمه بالماء الساخن الذى يتساقط بين الفخذين، كانت دليلة تتجلّى لى وتزيحهم عنى، يتباعدون خوفًا من شتائمها، تمسح عرق جبهتى بكفّها الناعم وتحكى لى نصف حكاية أحلم بنصفها الباقى، وما بين الحلم واليقظة أرى فرحانة وأمى وجدّتى لأبى ثم جدّتى لأمى وأرى يوسف وقد أعدوا له فراشًا مجاوراً لفراشى، ينادى دليلة هو الآخر فيأخذها منى فأناديها وتأتينى ثم يعاود هو نداءها فتتركنى وتذهب إليه، ولا بد أن زمناً طويلا قد انقضى تحوّل فيه اهتمام دليلة وتلبيتها للنداء إلى غرض فى حد ذاته، يحتال لتحقيقه فأحتال مثله، وربما كانت أول مرة يترك فيها الفراش قد تبدّت لى فى حلم سباق بينى وبينه حاولت فيه رغم لسعات الجرح الساكن ما بين الفخذين أن ألحق به، ومرة رأيته واقفاً وقد وسّع ما بين قدميه وقد أمسك بيديها وهى تدعوه لأن يخطو خطوة أخرى فيخطو، ناديتها فاستمهلتنى حتى أجلست يوسف على طرف فراشه وساعدته ليرقد ثم مدّت يديها ضاحكة لكى أتساند عليها وأقوم بحذر، أقف رغم الوجع لكننى أعجز عن تحريك قدمى بخطوة إلى الأمام، ربما أكون قد قاومت لسعات الجرح مرة بعد فك رباطه وتطهيره وإعادة ربطه بيد دليلة الناعمة، ساعتها سمعت أبى يتنهّد عند باب القاعة ويحمد الله على سلامتى.

كانت هذه هى المرة التى رأيت فيها الموت بجد، كنت أرانى فى الكوابيس راقداً والعيال يدوسون بأقدامهم فوق جرحى، أصرخ وأستجير ولا أسمع صوت صراخى أو إستجاراتى، أشعر أن صوتى مكتوم فى صدرى وأننى غارق حتى رأسى فى بحر من العرق اللّزج وأن حرارتى ترتفع وترتفع، أفيق لفترات قليلة من الكابوس ثم تغلبنى الغفلة وأدخل الكابوس الجديد، ومرّة صحوت فرأيت أبى يجلس على طرف فراشى ويبكى بدموع وقد أسند رأسه على كفه المفرود، ولا بد أنه قال كلامًا لم أتبينه قبل أن تأتى جدّتى لأمى وتحادثه بصوت مسموع واضح:

– قوم يا راجل بلاش ولوله جنب الولد، ما هو بقى زى الفل أهه، قوم شوف شغلك وسيبه لدليلة اللّى عارفه دواه.

ساعتها شعرت بضعفه وهو يقوم مستسلماً وقد انحنى ظهره ورأسه إلى الأمام، كرهت ضعفه فى تلك اللحظات وكدت أناديه وأطلب منه أن يحتمل وأعده بأن أحتمل لكننى لم أفعل، انخرست وتنبَّهت لأول مرة أننى مازلت موجودًا فى دار جدتى لأمى وأن يوسف غادر المكان، وعندما جاءت دليلة تبتسم فرحت لوجودها، حطّت على الفراش طعام الإفطار الذى أعدّته وبدأت فى إطعامى بيديها وتحدثنى عن يوسف الذى سبقنى وطاب جرحه فقام وراح يلعب فكدت أسألها عن الأسباب لكنها حدثتنى قبل أن أسأل عن اختلاف الناس واختلاف الجروح وأنه هناك دائمًا جرح أصعب من جرح وأبطأ فى الالتئام لكن كل الجروح تطيب مهما طال الوقت وتلتئم، ولا بد أن دليلة هى التى طيَّبت جرحى بصبرها وعطفها فى تلك الأيام، وأنها داوت قلبى فى زمن الصبا البدرى الحيران.

* * *

حبست نفسى فى دارى واعتزلت الناس، لم أكن أهرب من يوسف ورجاله الأراذل أو أفرّ منه ومنهم خوفاً من المواجهة وقد صارت العداوة معلنة على رؤوس الأشهاد، كان من المحسوب أن تصيبنى ضربة غادرة حتى ولو كنت فى دارى مسكوكة الأبواب والفتحات، وكان من المحسوب فى زمنه أن يحدث أى شىء، حرق أو خنق أو خطف وزرع رعب فى قلب القلب، أكذب عليكم وعلى روحى إذا قلت أننى فى تلك الأيام لم أكن أهتم أو أحرص على استمرار الحياة، ربما لو كان غيرى فى مكانى وفى مثل عمرى يقول لنفسه إنه شبع من الدنيا وعاشها بالطول والعرض، تزوّج وخلّف للدنيا نسلاً يحمل اسمه من البنين والبنات، ربّاهم وعلمهم حتى تكونت لكل واحد منهم شخصيته المعدودة المحسوب حسابها، صاروا آباء وأمهات وأعطوا للدنيا خلفة تحمل اسمى فى شهادات الميلاد، وربما.. أقول ربما يتهوّر ويرمى نفسه فى سكة الخطر بدلاً من أن يتحاشاه ويتباعد عنه، ربما ليثبت لنفسه والناس أنه جسور وقادر على المواجهة فى الوقت اللائق، ذلك أن الحياة نفسها تتطلب الجسارة والإقدام، لكن المسألة لم تكن

بمثل هذه البساطة، شجاعة أو جبن، خوف أو اندفاع، أبيض أو أسود، المسألة أنه لكل كائن حى تاريخ وطباع وفكرة ثابتة عن نفسه وعن الآخر، طيب نتكلم بوضوح أكثر، لو افترضنا أن فارسًا مغوارًا اختار أن يتعارك فهل يتعارك مع فارس يساويه أم يرمى نفسه وسط مجموعة من الكلاب المسعورة؟ أحسب أن المسألة اتضّحت أكثر، سوف يختار الفارس فارسا ليصارعه، يصرعه أو يسقط فى الساحة مهزومًا بشرف، ولا بد أنه سوف يرفض الدخول فى عراك مع الكلاب المسعورة، طيب.. نفرض أنه ليس هناك فى الساحة غير قطيع من كلاب أصابها السعار فماذا يفعل الفارس؟ يهرب أم يندفع مضحياً بعمره ويحصل على لقب فارس شجاع فى مواجهة قطيع من الكلاب المسعورة؟

أعتقد أننى أوضحت كل شىء، ويلزم أن أطمئن إلى وصول رسالتى إليكم على النحو الذى كنت أرجو لها الوصول، بقى أن أذكِّركم بالناس الشراودة الذين اندسُّوا فى أركان الكفر وصارت لهم أنياب ومخالب، دسُّوا عيونهم فى الأركان وباتوا مثل الهمِّ الثقيل على قلوب الناس، يوهمونه بأنهم حراسه ورجاله الأوفياء وما هم بأوفياء إلاَّ لذواتهم حتى وإن كانوا يحيطونه بكل هذه الهالة من التوقير الزائف لأغراض تخصهم، وقد يتبدَّى له أنه يكبر بهم ويعلو شأنه لكنه علو وارتفاع لحسابهم لأنه يتحول دون أن يدرى إلى ساتر أو ستار يحتمون وراءه ويمارسون الحياة من خلف البعبع المرسوم فى عقول الناس، يطلقون أياديهم فى أركان الكفر بكل ناسه وحيواناته وأرضه، وهو مثل خيال مآته زوج لواحدة منهم اسمها «أصيلة» وإن كانت فى الأصل بنت قاطع طريق أو شيخ منسر سابق، فهل كان من الحكمة أن أدفن نفسى وأنا حىٌّ أفكر وأحس وأشعر بالخطر الداهم الذى استتبَّ أو كاد أن يستتب - هل كان من الحكمة أن أدفن نفسى فى قبرهم الغويط حياً؟ أم كان من الأفضل أن أرتِّب نفسى وأن أستعد، أستعين بمن يعين من الأهل والأصحاب وأصحاب المصلحة فى بقائى لأشهد بما جرى وما كان من أمرهم وأمره؟ ولا بد أن الحياة نفسها تستحق من العقلاء بعض الانتظار والصبر قبل دخول مثل هذه المعارك المتداخلة والتى تختلط

فيها صفات من يخوضونها بالرغبة أو بالإكراه. وطبعا هناك فروق بين من يدخل معركته برغبته ومن يدخلها مكرهاً أو شبه مغصوب، لكنه هناك أيضًا أنواع أخرى من المعارك، غصب بالإرادة أو إكراه بالرغبة، مثلا، لو أن صبياً شاء أن يتعلّم العوم فى ترعة وتجاسر ورمى نفسه فى وسط الترعة مثلما كنا نفعل ونحن صغار. سيكون أمامه مهرب وحيد، أن يعوم لينجو من الغرق أو احتمالاته على الأقل، وفى مثل هذه الحالة يكون دخول معركة العوم فى الترعة إكراه بالرغبة أو غصب بالإرادة، طيب لو أن رجلا مثلى شاء أن يحسن الشهادة وتداخلت فى ذاكرته أشياء وتاهت أشياء وخلط هو بعض الأحداث بقصد كى لا يتوه القصد الأصلى من شهادته. وفى مثل هذه الحالة يحدث أن يتوه هو نفسه عن أغراضه البسيطة فى بعض الحالات، فلابد أنه فى مثل هذه الأحوال يكون قد دخل معركته الصحية غصبًا بالإرادة أو إكراهًا بالرغبة، طيب. وماذا عن مواطن من أوساط الناس يواجه عصابة من مشايخ المنسر استولوا على كفر كامل بعمدته الشلبى، هل يقتحم بكل التهور وينتهى أمره برصاصة فى الظهر أو فى الصدر ليلا فى قلب العتمة أو نهاراً وجهاراً فى عز ظهيرة يوم مشمس وهم جاهزون بشهود الزور الذين يعلقون التهم الشنيعة فى عنق المقتول، يهدر الأوغاد دمه مجاناً وعلى رؤوس الأشهاد وقد حملوا على أكتافهم سلاح الجريمة مثلما فعلوا عشرات المرات والناس ساكتة، والعمدة الشلبى فى حالة دروشة أو غياب غصب بالإرادة أو خاضع لحالة من حالات الإكراه بالرغبة المسبقة؟ قلت لروحى لأخلّص روحى من الهم الثقيل:

– «يا ولد.. لقد كان من صار اليوم عمدة كفرنا محسوباً على داركم سابقاً فلماذا لا تحاول أن تكون اليوم محسوباً على دوّاره؟ ولماذا تركته لهم كل الوقت ولم تلازمه فى الأوقات الحرجة لتحميه من قلة وعيه بهؤلاء الناس؟»

وقلت أيضًا:

– «لماذا لا تحاول فى الوقت الضائع أن تعيد الأشياء إلى أصولها

الأولى، ولماذا لا تعيد ترتيب الأحداث مرة أخرى بحسب ما تسعفك الذاكرة؟..

وجاوبت نفسى:

- «أعرف أن للعمدة الشلبى صلة قرابة من بعيد بناسنا، وأنه لا بد أن فرعاً من فروع الشجرة القديمة لأهلى كان قد التقى بفرع من فروع الناس الشلبى، وما دامت البداية كانت بآدم فلا بد أنه هناك التقاء بين كل البشر بنسب متفاوتة، ولا بد أن علاقتى بالعمدة أوضح وأقرب من علاقته هو نفسه بالناس الشراودة، ولا بد أن الدم سوف يحن يوماً حتى وإن طال الانتظار، وما دام هو قد طلع من فرع شجرة قديمة طلعت أنا من فرعها المجاور أو البعيد فلا بد من الغوص وراء الجذر المدفوس فى الأرض، صحيح أن الأكفان تقادمت وأن الأبدان تحللت وأن عظام الأموات تفكّكت، لكنه سبحانه واهب الذاكرة التى تعيد أسماء من رحلوا عن دنيانا بنفس قدرته على إحياء العظام وهى رميم».

فى حكايات جدتى لأبى حكاية عن أصل جدتى لأمى، كانت تقولها لنا ونحن صغار بينما تتلقت حواليها مخافة أن تسمعها أمى أو غيرها من أقارب جدتى لأمى، وربما بسبب ذلك الخوف نفسه كنا نحاول أن نصدقها ولا نستطيع، لكن تكرار الحكاية جعلنا نحفظها ونحتفظ بها دون أن يجرؤ أى واحد منا على البوح بها أو الاستفسار عن مصداقيتها من أحد، كانت حكاية مخبوءة وتوشك أن تكون مدفونة فى الوعى القديم القديم، لكنها فزَّت من ذاكرتى واستقامت بتفاصيلها الشاحبة بينما كنت أحاول أن أعيد الأشياء إلى أصولها القديمة، أحسبها حكاية عارضة وهامشية وبلا وزن إلاّ لكونها ممدودة فى الجذور القديمة التى اندفنت مثل أصحابها فى التراب، «كانت جَدَّة جدَّتى لأم قد ولدت سبع بنات سبحانه الواحد الوهَّاب مانح الجمال والأرزاق، أعطاهن من الجمال ما يفوق الوصف ويعجز عن وصفه اللّسان، لكنه ضَيَّق فى رزقهن فصرن فى الدرب مثل عرائس المولد النبوى وقد

غطّت حلاوتهن أسراب الذباب فتلوّث البياض بالفضلات المدوّرة التى يفرزها ويتركها دوائر سوداء متقاربة تعافها النفس رغم أنها فى الأصل حلوة».

ولا بد أن الفقر عاندهن فى صباهن مثلما عاندهن فى طفولتهن، كان شباب الكفر يتحدّث عن الواحدة منهن زمناً، يتمناها الواحد منهم لنفسه زوجةً وقد نضجت وزادت حلاوتها لكنه لا يفعل، ربما بحسب رأى البعض بسبب وضاعة الأصل أو الجهل به، وربما لأن الحسابات كانت تلعب دورها فى ذلك الزمن السهل أيضًا، وربما كان عبد الله الشوكى هو أول من امتلك الجسارة ليطلب أكبر البنات سناً ويقبل شروط أهلها بأن يأخذها بالجلباب الذى يسترها، أخذها وتوكل على المولى قائلاً إن رزقه ورزقها على الله، صحيح أن عبد الله الشوكى كان مجرد نفر «تملّى» فى دار مصطفى عوف وأنه كان يحصل على ثمانية عشر قيراطًا من أرض مصطفى عوف يزرعها لنفسه مقابل العمل طوال السنة فى أرض مصطفى عوف أو داره بحسب ما يشاء المالك، لكنه فى كفرنا قاعدة تقول إنه لا يموت فى البلد إنسان بالجوع، كل الناس كانت تتعشى، الغنى والفقير، المالك والمعدم، صاحب العيال الكثار والمقطوع، وربما كان عبد الله الشوكى هو فاتحة الخير على السبع بنات، ما إن تجرى على ألسنة الشباب حكايات عن واحدة منهن حتى يبعث الله إليها صاحب النصيب يطلبها لنفسه ويوافق على الشرط المعلن بأنه سوف يأخذها لداره بجلبابها الذى يسترها، بعضهم كان يتطوع بإلزام نفسه بالقبول سلفاً قبل أن تقول أم البنت أو يقول أبوها:

- موافق يا جماعة.. ح آخذها بالجلابية اللّى عليها.

وانسترت على هذا النحو ست بنات من السبع بنات وبقيت فى الدار أحلاهن وأصغرهن وأكثرهن جرأة، وكلّما دقّ الباب طالب قرب رفضت بعناد بغلة، كانت تعلن بجسارة أنها لن تسلّم شبابها وجمالها لفلاح جلف أو «تملّى» جربان أو نفر أجير، وعندما تسألها أمها عن مصيرها تجاوبها بجرأة:

- حاخد واحد أفندى بماهية، ويمكن واحد بيه.

تضرب أمها كفاً بكف وتتعجَّب، تجادلها وتذكِّرها باختها التى تزوجت عم جدِّى لأمى من دار الخروبى وكيف أنها مستورة ومالكة لدار وعندها خلفة فتعترض وترفض، تذكِّرها بعبد الله الشوكى نفسه الذى فتح الله عليه وامتلك الأرض التى كان يزرعها وزيادة، وإنه بعد العدم صار مالكًا لدار واسعة فلا تقتنع، ولا بد أنهم سكتوا على البنت لسببين: أولهما أنها كانت حلوة وشاطرة وقادرة على أن تسحر العابد إذا شاءت وأنها فى كل الحالات لن تبور أو تتعطَّل مركبتها فى مجارى الدنيا السائرة، وثانيهما أنها كانت أصغر البنات وأكثرهن تدليلاً وقدرة على الحصول على قبول أهلها وكل ناس كفرنا، تركوها تتمنى وتتمرَّد قائلين أن نصيبها الغلاَّب سوف يغلبها مهما طالت الأيام..

«أيامها كانت» الغزالة الشاردة قد جاءت إلى الكفر الجوَّانى بعد أن أقطعها السلطان جزءاً من زمام الناحية مقابل سنوات المعاشرة الطيبة وقد أعتقها بعد أن كانت جارية مجلوبة من البلاد البعيدة البعيدة، وقال الناس للناس أن طبع الجوارى غلاَّب، فما أن استقرَّت حتى فتحت مسكنها لأكابر الناحية، مدير المديرية وناظر الداخلية الذى كانت له عزبة مجاورة لأرض الكفر الجوَّانى، وقالوا فى سيرتها كلام يشيِّب - عند سماعه - شعر رأس الحريم الأحرار، كلام فى العهر والفجر وقلة الحياء، واتفق الناس مع الناس على تسمية الزمام الذى امتلكته «الأرض العريانة» ولا أحد كان فى أيامها يستطيع أن يفسر أسباب زيارات أكابر ضباط الاحتلال لسراية الست هانم جارية سلطان المسلمين وإن اتفقوا على فساد الأغراض، ناس لهم نفس الوجوه البيضاء بحمرة، والعيون الزرقاء بخضرة، والشعر الذهبى الناعم بصفرة، ولهم رطانة مشتركة لا يفهمها سكان العبِّ الجوَّانى كله، وفى سراية الست هانم جارية مولانا كانت تأتى الجميلات، كل أنواع وأشكال وألوان الجميلات، تبحث عنهن الغزالة الشاردة التى غزت التجاعيد وجهها ورقبتها وكفيها لكنها لم تفقد قدرتها على الحركة فى كافة أنحاء المديرية لتبسط هواة الانبساط من الأكابر سواء من أهل البلد أو الغرباء».

«وكانت قد سمعت عن السبع بنات وبعثت لأم جدتى لأم مرسالاً فجاءتها تسعى وملء قلبها الخوف، يقول الناس للناس أن اتفاقاً قد تم بالاختيار أو بالإجبار، وأن أحلى البنات من بين السبع بنات راحت فى سكة الذى يروح ولا يرجع، وظهرت علامات النعمة على الدار لكنها لم تدم كثيرًا، ذلك أن كلام الناس يساوى وسوسة الشيطان، كثر كلام الناس فى أذن الرجل الذى هو أب البنات فراح وهجم على بوابة سراية الست هانم جارية «مولانا» فكان نصيبه فى صباح اليوم التالى أن ربطه الأنفار إلى نخلة فى مدخل البلد وتناوب الأكابر من أهل البلد والغرباء ضربة بالكرباج حتى لفظ آخر أنفاسه، ولكن مصير البنت اختلف، وجدوها عريانة كما ولدتها أمها فى بطن المصرف فأخرجوها ولفوها بلحاف ساتان ملك الهانم وأحضروها ليدفنوها إلى جوار الرجل المجلود بالكرباج لتطمئن روحه ويهنأ بوجودها إلى جواره عذراء لم تمسسها يد فى رأى البعض، وضحية لغدر امرأة فاجرة ومدرَّبة على قلة الأدب وانعدام الحياء مثل كل نسلها الأجنبى الساكن مدخل الكفر الجوَّانى متباهيًا باسمها الأجنبى عسير النطق على ألسنة الناس فى كفرنا الغلبان وكل كفور العبِّ الجوَّانى الذى سماها «كعب الغزال».

«وأيضًا قالت جدتى لأبى بأن صلة قرابة حقيقية مؤكدة وثابتة بين الناس الشلبى ونسل الست هانم جارية مولانا سلطان المسلمين الذى سلم البلد للإنجليز والذى خان «عرابى» بمعاونة أتباعه فى النواحى الشرقية من المجاليب العبيد الذين تحوَّلوا إلى سادة وأصحاب معالى بدون أسباب ولا مقدمات فى زمن السلطة» وقالت إنه فى زمن السلطة أخذوا من الناس العوف رجالاً ما كان من الممكن أن تأخذهم غير سلطة غشيمة وغريبة، تربطهم فى الحبال وتسوقهم كما تسوق المواشى وهم أولاد الناس، يحفرون البحر البعيد ويموتون بالجوع أو بالكرباج ويرجعون فى أكفان رخيصة لتندفن جثثهم مع حقيقة أسباب موتهم، تنكسر شوكة الناس العوف ويظهر نجم الناس الشلبى وتبرز أنياب الناس الشاردة، يحملون السلاح ويقتلون بالرصاص حملة النبابيت والشماريخ مهما كانت قوة الأبدان».

«يتبدل حال العبّ الجوّانى وناسه ولا ينجو كفرنا الغطسان وسط غيطان الدلتا وترعها ومصارفها وتتراخى عزائم الرجال لولا صحوه أخيرة جاءت على يد عبد القادر عوف الكبير وعياله فأجّلت ضياع الهيبة والعزوة إلى زمن آخر ليس ببعيد يخسرون فيه على مشهد منّا سيادة الكفر لحساب الشراودة والناس الشلبى.

وفكرت هل أحمل فى داخلى بذرة الناس العوف من صلب أبى وخلايا الناس الشلبى من بطن أمى؟ وإلى أى حد أستطيع أن أتخلص من الخلايا وقد دخلتنى أو البذرة وقد كانت أساسًا لكيانى كله؟ وكيف ومتى انفصلت عن هذه الأصول الأولى لأكون فرعاً من الزرع النعناعى الذى يعيش فى المنطقة البين بين والذى يتعلم لبس البنطلون والقميص والسترة ويمسك بالقلم ليحسب ويكتب ويصير مستخدمًا على درجة ينتظر العلاوة والترقية ويرتكن إلى ضمان المعاش فى سن المعاش؟

وفكرت أيضًا.

أن الوظيفة استخدمتنى واستعبدتنى ومنعتنى من أن أكون حاكماً أو مساعداً لحاكم شأن يوسف ابن حلاق الحمير، أو أن أكون فلاحاً محكوماً شأن كافة أهالى كفرنا من العوف والساكت والبرعى والشوكى والخروبى والجمّال والبقرى والعريان والناصح وكافة الكافة من العائلات صغيرها وكبيرها، أصيلها وعويلها وخسيسها، وانطرح السؤال المخيف من دماغى يسألنى ولا أجيب، ويتكرّر السؤال فلا أجيب، وأسمع صوت فردوس نفسه يسألنى:

من تكون؟ من تكون؟ من تكون؟ لا حاكم ولا محكوم؟

* * *

لا أذكر على وجه التحديد متى تحوّلت دليلة إلى هدف أسعى إليه وأقترب منه، لكننى وجدتنى أفعل، أفتعل الأسباب وأذهب إلى حيث تتواجد، أتأملها وهى تعجن أو تخبز أو تحلب أو تفرش القمح المغسول على الحصائر فى شمس السطح، أو تنحنى على ذراع الطلمبة بذراعيها وتحركه

صعودًا وهبوطاً لتملأ حوض المواشي، كأنني في تلك الأيام كنت مسحوباً إليها بحبل طويل لا أراه أو يراه غيري لكنه موجود يسحبني وراءها كلما لاحت الفرصة، لكنني أتذكر على وجه الدقة يوم دخلت وراءها المتبن في ذلك النهار الصيفي الملتهب، كانت هي محنية تملأ الغربال بالتبن وأنا أقف خلفها أتابع اهتزازات جسدها في صمت، ولا بد أنها كانت تشعر بوجودي لأنها عندما استدارت تبسَّمت بسمة خفيفة ورائقة بعد أن سألتني:

- واقف ورايا كده ليه؟.

- واقف.

رددت عليها محاذرًا وأنا في نفس مكاني، لكنني عندما لمحت ابتسامتها الودودة ضاع نصف ارتباكي وتفكرت في الخطوة التالية، ولا بد أنها أحست وراحت تتحسَّس بكلتا يديها لحم صدرها نصف العريان وتتراجع إلى الوراء نصف خطوة فأتقدم خطوة حتى تلامسنا ولا بد أنني اندفعت ناحيتها نصف اندفاعة أو أنها ارتمت ساقطة على ظهرها فجأة مطمئنة إلى طراوة التبن ومتساندة باجتذابي المباغت لأسقط فوقها، كنت أرتكز على الركبتين الغائصتين في ليونة التبن وكان صدري فوق صدرها اللَّدن، كان المنديل الذي يربط شعرها قد انحلّ فرأيته متناثراً بسواده الداكن ونعومته على سطح التبن المعزول عن النخالة، أسبلت هي عينيها فاكتويت بالرغبة واستويت راكياً فوقها وكانت هي تلهث وألهث وشعرت بذراعيها تحيطاني وتجتذباني فأنجذب وأجذبها وتنجذب، تعتصرني وأعتصرها وتسألني بينما تلهث:

- عاوز إيه؟.. عاوز إيه؟

لم أكن أعرف، ولا بد أنني شعرت ناحيتها بمشاعر متداخلة، كنت أرغب في الكشف والاكتشاف وأحنو عليها باشتياق قلق وراغب في الالتصاق الكامل وتحسّس طراوة الأعضاء، أستشعر قوتها وضعفي ثم ضعفها وقوتي، مدفوعاً إليها وراغباً في التراجع، ولا بد أنني قبَّلتها وقبَّلتني على عجل، كان هناك في القلب لهب وشيء من غضب ثم انتشاء وسكون وبحر من عرق، ولا بد أن نسمة هواء طارئ لفحتني ولفحتها

فانتحينا واقفين وكل منا ينظر إلى الآخر وكأنه يراه لأول مرة، كان من العسير على أى منا أن يتهم الآخر بالغلط، وكان من الصعب أيضًا أن يشعر أى منا بتفسير لما حدث، قالت هى لائمة:

– كده تقلعنى منديلى؟

ثم انحنت وتناولته ولملمت خصلات شعرها وقد علقت به نخالة التبن وجزئياته، ربطت رأسها وأنا ساكت وواقف فى مكانى بينما تعاود هى ملء الغربال بالتبن كأنما لم يحدث شيء، وبصوتها المحايد قالت:

– قلة أدب.

ولأن دليلة كانت أكبر منى بسنوات وسنوات فقد كنت واثقًا من أنها تعرف أكثر مما أعرف عن الأدب وقلة الأدب، لم أدافع عن نفسى أو أتبعها وهى تخرج من باب المتبن وعلى رأسها غربال التبن المنخول، انكمشت على نفسى فى نفس مكانى، أتشمم رائحة المتبن العطنة وقد اختلطت برائحة العرق التى كانت تنفذ من طوق جلبابى، ربما أكون قد كرهت نفسى فى تلك الظهيرة لأنها كانت على وجه التحديد دليلة التى وسوس شيطانى الفاسق بأن أجرب معها ولأول مرة فى حياتى شيئًا من تلك الحكايات قليلة الأدب والحياء التى كنت أسمعها من يوسف والأولاد الأكبر منى، حكايات تحدث فى الزرائب مع العنزات والمواشى وبين الصبيان والبنات فى الغيطان وقاعات التبن وأسطح الدور فى عز الظهيرة أو أنصاف الليالى، ولا بد أنه يوسف الذى سألنى عما فعلته مع دليلة وهى الساكنة دارنا وقد دارت واستدارت وصارت مثل حقل عطشان شراقى يتشوق إلى قطرة ماء، كان يوسف فى تلك الظهيرة ماثلاً قبالتى يضحك مثل إبليس وقد أفلح فى أن يوقعنى فى المحظور، ولا بد أننى كنت أشعر بالهزيمة والعار رغم ما كدت أتصوره من قدرتى وانتصارى على بدنها الطرى الذى استجاب وطاوع.

هل كانت دليلة تتحاشانى خلال اليومين التاليين لموقعة المتبن أم أننى الذى حرصت على أن أتحاشاها؟ لعلنا اتفقنا دون كلام على أن يتباعد كل منا عن الآخر، لكن الفجيعة لم تكن فى زمن التباعد وإنما جاءت فى

قرار الابتعاد أو الإبعاد، ذلك أن دليلة جمعت كل ثيابها القديمة والجديدة وصرّتها فى صرّة حملتها فوق رأسها وسارت مع «كاف» فى اتجاه دار جدتى، كنت أريد أن تلتفت ناحيتى أو أن تحدثنى بأى كلام أو أن تدعونى لرؤيتها فى دار جدتى إذا شئت مثلما قالت للكل، لكنها لم تفعل، وكان من العسير أن أطالبهم بإبقائها مثلما كنت أفعل فى الماضى ويستجيبون، ولعل هواجس كثيرة ركبت دماغى بأن تكون دليلة قد باحت لأمى بما جرى أو أن تكون أمى قد شافت بنفسها أو أن أبى أكتشف ما أخفيته وأصدر قراره بإبعادها عنى وإبعادى عنها، كانت الهواجس تركبنى وتجعلنى أرتاب فى مبرراتهم التى قالوها بفرح عن خالتى «كاف» التى طلبها الشيخ الليثى شلبى خال يوسف لنفسه زوجة، كانت حكايات الليثى تصلنا من خلال فرحانة أخته عندما يصفو الجو بينها وبين أمى، أسمعها تتشكى لأمى أو لجدتى على عمره الذى راح منه وكيف أنه شاب دون أن يخلّف من صلبه ولداً أو بنتاً:

- دى داره عمرت وخربت ياختى تلات مرات ولافيش نصيب، داخ ع الحكما وصرف فلوس ماهيش فلوس، ياحسرة قلبى عليه.
- نصيبه بقى.

وإذا كانت جدتى موجودة فقد كانت تواسيها أكثر:

- مين عارف يا فرحانة يا بنتى.. يمكن تيجى على أهون سبب.
- إمتى بس يا خالة؟ دا عدى الخمسين ولا الستين أهه، دا لو كان له نصيب كان حصل من زمان، دول تلات جوازات.
- خلاص بقى يا فرحانة، إن حصل حصل وإن ماحصلش ربنا يخلّى يوسف.

كنت أسال يوسف عن خاله الليثى صاحب دكان البقالة فيقول إنه يستأهل ما جرى له لأنه نهب ميراث كل أخواته البنات وحطه فى بطنه وأن الله ينتقم منه فى حياته قبل أن يرميه فى جهنم بعد موته لأنه وسع تجارته بمال حرام، ولأنه يكره عيال الناس فقد حرمه الله من خلفة العيال، كان

يقول إن أمه فرحانة تكرهه رغم كلامها عنه لأنه أخذ أرضها بأبخس الأثمان وإنه لم يحدث أبدًا أن أعطى فرحانة أو يوسف قرشًا أو حتى مليماً أحمر فى أى مناسبة، حتى فى الأعياد كان يوسف يطلب منه أى شىء من بضاعة الدكان فلا يسلمها له إلاّ بعد أن يأخذ ثمنها مقدماً على رؤوس الأشهاد، يذكّرنى بمعارك فرحانة أمه مع الليثى خاله عند باب الدكان وكيف أنه رجل مفضوح وبخيل لحد الشح رغم أنه يمتلك الكثير، أرض ودار واسعة ومنحل ودكان، وكيف أنه رآه أكثر من مرة يستّف الجنيهات الجديدة ويرصّها على بعضها قبل أن يربطها بالأساتك ويداريها فى صندوق الكنبة التى يرقد عليها فى الدكان.

كان يوسف يتمنى موت خاله الليثى متوهماً أنه الوحيد الذى يعرف مكان الفلوس، وأنه ربما يكون الوحيد الذى يشترى من دكانه من بين كل أولاد خالاته الذين قاطعوه تنفيذًا لأوامر الأمهات بينما بقيت فرحانة أم يوسف قادرة على التعامل معه من بعيد لبعيد دون أن تخفى غرضها الحقيقى عند الحديث عنه مع جدّتى:

- دا إن مات فـ داره ح يعفن وريحته تفوح، هو حد بيرضى يطل عليه م البنات، أنا باروح له يا خالة وأطل عليه، يمكن يجرى له حاجة ويدخل عليه ولاد الحرام ياخدو اللّى وراه وإحنا مش داريين، داحنا، ماتعرفش حتى بيدفس فلوسه فين.
- شاطرة

تعلّق جدّتى باللفظ وتغيّر الموضوع فيتغيّر الكلام.

لكن مسألة زواج الليثى من خالتى «كاف» لم تكن تخطر على خيال، ولعلنى لم أصدقها بعد أن سمعتها عشرات المرات، كنت أحسبها حكاية ملفقة تهدف إلى تبرير إبعاد دليلة عن دارنا، لكن الليثى نفسه جاء إلى دارنا لأول مرة فى حياته ربما، جلس فى المندرة وكان إلى جواره أبو يوسف حلاق الحمير وإلى جواره من الناحية الأخرى أبى وقد لبس العباءة الجديدة ونادانى أنا ويوسف لنشاركهم لأننا صرنا بحسب كلامه رجلان ولنا

فى الموضوع رأى، تضاحك الكبار بينما جلسنا متجاورين محاذرين أن نغلط بكلمة لا تليق بالرجال، اتفقوا هم على ميعاد عقد القران والدخول وقال الليثى:

- نكتب وندخل ف نفس الليلة، أنا مش بتاع زفة وفرح وكلام فاضى من ده..

- إحنا كان غرضنا البنت تفرح يا شيخ ليثى.

بذلك تكلم حلاق الحمير فرد الآخر حاسماً رافضاً الفكرة من أساسها:

- فرحة العروسة ف دارها وحضن عريسها يابو يوسف.. عقبال يوسف والعريس اللّى قاعد جنبه..

اغتظت منه لأنه تجاهل اسمى وكدت أذكِّره بنفسى لكننى لم أفعل احتراماً لأبى، وفكرت أن أنسب شىء لرجل مثله هو الزواج من خالتى العبيطة «كاف» التى يقرف منها الكلب الجربان إذا شم رائحتها كما كانت أمى تقول ولا تدارى فتكيد جدّتى عدلات وتجلب لنفسها اللعنات دون أن تتعلم أو تتوب، كان فرح «كاف» والليثى أشبه بجنازة غريب لا أهل ولا عزوة، قطعت «كاف» المسافة من دار جدَّتى لدار الليثى وهى أشبه بعروس المولد ومحاطة بالبنات الصغار والصبيان المشاكسين، ولولا وجود دليلة وأمى وأم يوسف وجدَّتى ما وصلت لداره بسلام، فى الزقاق المدفوس فيه دار الليثى غنت بنات من فوق الأسطح:

- جوِّزوهاله.. مالها إلاّ له.. جوِّزوهاله.. مالها إلاّ له

غنوها ورموا على الداخلين من مدخل الزقاق عيدان حطب قطن وذرة وحصوات ورماد ناعم وكادت الزفة الساكتة أن تتحول إلى جرسة وفضيحة لولا جدَّتى عدلات التى شتمت الزقاق وسكان الزقاق من رجال ونساء وعيال ناقصة التربية لأنهم من نسل فسدان وخائب لا يعرف العيب ولا الأصول، هدَّدت ولعنت فاختفت البنات من فوق الأسطح ثم سمعنا صرخات متتابعة من أكثر من دار فهمنا أنها استغاثات بنات يضربهن

ويؤدبهن الآباء والأمهات لأنهن من فرط قلة الأدب جلبوا لأهاليهن اللعنات وأسمعوهن ما يكرهون، لكن الصبيان كانوا فى الزقاق والشارع وخارج حدود السيطرة فغنوا:

- البنت الهبلة.. جابولها الطبلة.. البنت الهبلة جابولها الطبلة

أتظاهر أنا ويوسف بالرمح وراءهم شاتمين بصوت عال ثم هامسين بأصوات خافتة كى نحرضهم على الاستمرار وعدم الكف عن الغناء، والزقاق يبدو طويلاً طويلاً وخطوات كاف تشبه خيال «مآته» لابس أبيض ومزوّق بكل الألوان، وعندما ظهر الليثى على عتبة داره ليخطو خطوتين فى اتجاه «كاف» صحنا وذكرنا العيال هامسين..

- سيب النعجة.. يا خروف

قالوها بأصوات عالية ولم يكفوا عن تكرارها ونحن نتظاهر بالرَّمح فى أعقابهم، يتباعدون ويضحكون ثم يعودون ليملأوا الزقاق جلبة حتى بعد أن إنسكّ الباب وعادت جدّتى وأمى وفرحانة وبنات الدرب الذى تسكنه جدّتى عدلات، كانت ليلة دخول «كاف» فى دار الليثى ليلة لعب وضحك وسخريات، وكانت نساء الزقاق تتفرّج على أبواب الدور، تتحاور عن قلة أدب الصبيان والبنات ثم تنطلق الضحكات الساخرة المشتركة، يتبادلن الغمزات بالعيون ويتلاعبن بالحواجب ويتصعَّبن على عريس الغفلة وعروسه المسخرة، يتهامسن بأنه سوف يتسبب فى موتها بالجوع وأنها سوف تتسبب فى تطيير البرج الوحيد الباقى فى دماغه وتسلمه للجنون، ليلتها انطردت أنا ويوسف من الزقاق باعتبارنا غريبين عن ناسه فانقطع حبل الفرجة وعدنا غاضبين.

لكن الأيام فاتت، لا ماتت «كاف» بالجوع بسبب بخل الليثى الذى يزيد عن بخل اليهود، ولا سمعنا عن طيران البرج الباقى من عقله أو مات بعد أن انهدت قواه وضاعت عافيته، بل إن الأخبار شاعت بأن كاف حملت وانقطعت عنها العادة، كانوا يحسبون الأيام وكل يوم يفوت يتأكد أنها حامل، وبعد شهرين من ليلة دخولها أعلنت جدّتى عدلات أن «كاف» ظهرت عليها

بالفعل علامات الحمل، وكان الليثى يتقافز بين الدور مثل أبى فصادة، يحط فى دارنا ثم يقفز إلى دار جدَّتى عدلات أو فرحانة أم يوسف أو أى دار أخرى ليعلن لكل من يستقبله فى داره أنه «صاغ» سليم مستشهدًا بحمل كاف:

- لجل ما تصدقونى وتتأكدوا أن العيب ما كانش منى، كنت ح أعمل ايه ف بختى، كل اللّى خدتهم ما كانوش بيخلّفوا، صحيح أن كل واحدة خلّفت من جوزها اللّى خدته بعدى.. بس ولا واحدة منهم كان لها فى الخلفة وهى على ذمتى.. ولا واحدة.

كانوا يهنئونه على حمل «كاف» التى عوضته عن كل ما فاته ويتمنّون له خلفة ترضيه وتسنده وتحافظ على اسمه فيبدو مزهوًا بنفسه ويرفع رأسه لأعلى وكأنه يتوهم أنه من الممكن أن ينضاف لطوله القصير طولاً جديداً، وكلما كبرت بطن «كاف» كثرت مطالبها، أول شىء اخترعته أنها طلبت من أمها أن تشترى للنونو سريراً هزازاً من سوق الخميس وتحاسب الليثى ففعلت وكاد الليثى أن يعترض على الدفع لولا أنه تذكر أن السرير سيكون سرير ابنه الذى طال اشتياقه لوصوله، بعدها أشارت عليها «النبوية» بنت المرسى أن تعد ظهيرة كل خميس «ختمة» من لحم وأرز وفتة يأكلها الفقهاء ممن يستدعونهم ليختموا القرآن كاملاً فى الدار لتحل فيها البركة وتطرد العكوسات وتبعد نظرة العين الحسَّادة، وبعسر العسر وافق الليثى على مسألة الختمة الأسبوعية التى وصفها بأنها تخرب البيوت العمرانة فطالبته جدَّتى بأن يستغفر ويحفظ لسانه من الزلل ويتوب، بعدها صار من المألوف أن يتجمع فقهاء الكفر كله عميان ومفتحون ويذهبون إلى دار الليثى والناس تتعجَّب وتضرب الكفوف وتقول إن «كاف» سرَّها «باتع»، وكانت هى من ناحيتها تطلب كل أنواع الفاكهة التى تسمع اسمها مجرد سماع أو أنواع «النُقل» والحلوى التى يجلبها الناس من طنطا أو دمياط، تطلب ويسعى الليثى لتلبية الطلب مهما كان غالياً أو بعيداً، يسكّ دكانه ويسافر ثم يجلب لها طلبها ويعود إلى الدار ليطعمها بيده حتى يكبر النونو فى بطنها، لا بد أن «كاف» أحسَّت بأهميتها وفرحت، لكنها لم تكتف

بذلك، فكرت أن تستثمر لهفة الليثى على الولد الساكن بطنها لصالحها، وربما وسوس لها شيطان أو وسوست لها النبوية بنت المرسى بأن تغضب أو تدّعى الغضب، ذلك أنها من غير أسباب ظاهرة أو لأسباب فعلية ومخفية تركت دار الليثى وراحت لدار أمها، فسعى الليثى وراءها وكأنه يسعى وراء ما تبقى من عمره ليحرسه ويعيده إلى حضنه، سألها عن السبب الذى جعلها تترك الدار وهو الذى لم يفرّط فى حق من حقوقها أو يتأخر عن تلبية مطلب من مطالبها مهما غلا ثمنه فردّت وسط المجلس المجموع فى مندرة دار جدتى عدلات وبصوت عال:

- عاوز تسقطنى ياليثى؟ تحط أيدك على بطنى وتدوس بيها على راس النونو، والنونو يعيط؟ عاوز تسقطنى ياليثى؟

ضحك كل من حضر، ضحكنا كلنا كبارًا وصغارًا، وتندَّر الكل وقالوا حكايات عن لهفة الآباء على العيال الساكنة فى بطون الأمهات، لكن الليثى خبط صدره بكفيه المفرودين فسمعنا رنين الخبطة ثم أنكر:

- أنا؟ أنا أسقّطك، دى تنشلّ إيدى لما أضيّع بإيدى العيل اللّى بستناه لجل يعوضنى عن شقا العمر كله. حد يصدق الكلام ده ياناس.. حد يصدّق.. ما حطّتش إيدى على بطنها أبدًا.. أبدًا..

بذل رجال المجلس وحريمه جهودًا كثيرة لإقناع كاف بأن تعود إلى داره بعد أن أخذوا منه كل التعهدات والأيمانات بألاّ تمتد يده ناحية بطنها أبدًا.. وقبلت الرجوع لدار الليثى، لكنها بعد أيام غضبت مرة أخرى وتجمع مجلس من الناس أكثر من المجلس السابق وجاء الليثى يتقافز ويقسم لكل واحد على حدة أنه لم يفعل معها أى شىء يؤدى إلى غضب بعد أيام من الصلح، وفى غمرة الحماس قال للناس فى المجلس إنه مستعد لو كان غلطانًا أن يكتب لها فدانًا باسمها وأنه سوف يبصم ويختم فى وجودهم ويشهدهم على عقد بيع وشراء رسمى، طالبهم بأن تأتى «كاف» وتقول لهم عن الغلط الذى ارتكبه، وجاءت «كاف» ببطنها الذى تكوّر وأوحى لكل من رآها بأنه من الممكن أن تلد بعد شهر أو أقل من شهر، وعندما طلب منها

الحاج مرسى أن ترتاح بالجلوس على الكنبة جلست، وعندما سألها عن سبب غضبها قالت ببراءة ظاهرة أضحكت كل الحاضرين وأخجلت الستات:

- هو فاكرنى حمارة يابا الحاج مرسى، يبقى النونو فى بطنى ويعملنى حمارة؟ يركبنى؟

وانحطت كل العيون الحاضرة على الليثى الذى دارى خجله بضحكة متقطعة تجاوبت معها ضحكاتنا ثم ابتلع ريقه عدة مرات قبل أن يقول لها لائمًا:

- يخيبك.. داحنا كنا بنلعب ويَّا بعض وحلوين.. يا بت مش أنتى اللّى..

وقطع الكلام..لا بد أنه تذكَّر أن القاعة مزحومة وأنه لا يصح أن يكشف عريه وعريها أكثر مما انكشف، وبعناد بغلة سمعناها تقول له مستوضحة:

- أنا اللى إيه؟ أنا اللّى إيه ياليثى؟ شوف.. عايز تصالح اكتبلى الفدان اللّى قلت عليه.. تكتبه ولاَ أسقَّط نفسى وأموِّت النونو؟.

كان الموقف بحسابات الكبار مسخرة فى مسخرة، لكنهم طاوعوها وضغطوا على الليثى ليوافق على كتابة فدان أرض من ملكه باسم «كاف» وهى على كل حال زوجته وأم ابنه والأرض لن تطير ياليثى وأنت راكبها راكبها سواء كانت باسمك أو باسم أم ابنك الآتى بعد شهر أو أقل من شهر، وانكتب فدان أرض من أملاك الليثى باسم خالتى العبيطة «كاف» وبدلال رجعت لدار الليثى ببطنها المنفوخ، لكن عيال دربنا شياطين، ولعله كان يوسف أو ابن النعناعية هو أول من غنى الغنوة فردَّدها بعده عيال الدرب ثم عيال الكفر كله، يغنونها على إيقاع الخطوات والتصفيقات أمام دكان الليثى إن كان مفتوحاً أو فى الزقاق المدفوسة فيه داره، يغنونها ويرمحون ثم يتجمعون رغم ما يسمعونه من شتائم وأوصاف مخجلة أقلّها انعدام التربية وقلة الأدب، ومن الناحية الأخرى ضحكات تأييد من النساء الضاحكات الغامزات بالشفاه والعيون لتستمر الغنوة وينكاد الليثى أكثر

وأكثر، يتهامسن ويحرضن العيال صبيان وبنات ليقولوها:

بقى يبقى النونو فى بطنى وعاملنى حمارة ياليثى؟
وكمان كنت بتخبطـــــنى بالكف عليها ياليثـــــى؟
واصرخ وأنت ماتسمعش
آه يا بطنى آه يا بطنـــى آه يا بطنى آه يا بطنى
دا النونو لسه ف بطنى النونو لســـه ف بطنى

لعله لم يحدث فى كفرنا إعلان عن حمل أكبر من الإعلان عن حمل «كاف» من الليثى، ولا بد أن الناس كلها كانت تنتظر المولود، يحسبون الأيام متطوعين باجتهادات مختلفة واعتمادًا على تقديرات النبوية بنت المرسى أو أم إبراهيم أو غيرهما من العارفات بمسائل الحمل والولادة، لكن الولد اختار يوم ولادته ونزل للدنيا فى الساعة التى تسبق الفجر من دون مولدة أو حتى زعقة طلق أو صرخة، قال الليثى إنها كانت راقدة إلى جواره ثم انسلتت خارجة، حسبها ذاهبة لبيت الأدب فتركها وغفلت عيناه فترة لم يحسبها ساعة أو عدة دقائق أو أكثر أو أقل وصحا لنفسه فلم يجدها إلى جواره، ناداها فلم ترد، قام وأطلّ فلم يسمع لها صوتاً، ظنها غضبت مثل المرّات السابقة لكنه سمع صوتاً مثل زقزقة عصفور ورأى خط ضوء نحيل نافذ من تحت عقب باب قاعة الخزين، وقال إنه خاف فى أول الأمر لكنه توكل على الله واقترب ودفع الباب بحذر ليراها وهى تحمل مولودها على كتفها عريانًا ومربوطة سرّته وخلاصه معزول والدم الذى نزل منها على أرضية القاعة محطوط عليه جلباب قديم وكل شىء تمام، كل ما طلبته أن يحضر لها ملابس النونو من الصندوق فأسرع يحضرها ويسألها إن كان المولود ولداً فتجاوبه بالإيجاب، يكاد أن يطير من الفرح ويرمح لينادى النبوية بنت المرسى وأم إبراهيم وجدّتى عدلات وكل نساء الزقاق ويسمع صوت المؤذن ينادى لصلاة الفجر فيؤجل الصلاة.

وزّع الليثى على عيال الكفر حبّات «الكراملة» مجاناً وفتح داره

للمشايخ يوم السبوع يأكلون من لحم الخروف الذى اشتراه، اشترى للنبوية جلبابين ملونين ولأم إبراهيم جلبابين أسمرين، وفى زيارتنا لداره لأول مرة أعطى ليوسف نصف ريال فضة وأعطانى مثله فرفضت بشدة لكن أمى وأم يوسف وجدّتى أمرننى بأن آخذه لأن ردَّ الهدية يوم السبوع عيب وحرام ولأن الطفل المولود لن يشعر بالفرح أو السعادة إذا رفضت أنا نصف الريال فأخذته، وفى طريق العودة قالت أمى لى وليوسف:

- أوعى حد منكم يصرف النص ريال بتاعه، إعملوه حرز وخلوه يجلب لكم السعد، دا قرش البخيل اللّى زيه يطوّل العمر كمان.

واتفقت مع يوسف على تخبيط النصف ريال فى كيس قماش، وكل واحد منا عمل نفس الشىء وأخفى نصف رياله، الفارق الوحيد أننى بعد مدة نسيت مكانه وتاه من ذاكرتى بينما كان يوسف يتحدث عن نصف رياله الذى أخفاه ويعرف مكانه وأنه سوف ينتظر اليوم الذى تتحقق فيه النبوءة التى قالتها أمى ويجلب له السعد.

لكن مساخر خالتى كاف لم تنته أبدًا، وقلت أنا ليوسف إن كاف عبطها عبط ناصحين فلم يفهمنى، كانت قد عملت لليثى «روشة» دائمة، أفقدته كل توازناته السابقة وجعلته يتصرف بمعكوس حساباته التى عاش يحسبها ويحرص على تنفيذها طوال عمره، لكن من كنّا نحسبها عبيطة استطاعت أن تسحبه إلى شط بحر التنازلات وأن تجتذبه وتشدَّه إلى المناطق الغويطة فيه فأغرقته مثلما كادت أن تغرقنى وأنا فى طفولتى المبكرة أخطو أول خطواتى - كادت أن تغرقنى فى بطن الترعة لولا مرور البهنسى صدفة، قالت «فرحانة» إن كاف سحرت الليثى وغيَّبت عقله فما عاد بقادر على أن يفصل الصح عن الغلط أو الوعى وانعدامه، وبعد أن كان حريصا على ماله إلى حد الشُّح على أقرب الناس له تعلم السخاء والإسراف فى العطاء ولكن «لكاف» وحدها، كل غضبة من غضباتها التى تتكرر كانت تعنى تنازلاً جديدًا عن شىء من أملاكه باسم «كاف» أو ابنها «كاف» بوصاية أمه «كاف» وكان الليثى يدافع عن تصرفاته بكلام مؤداه أنه ينقل

ما يملكه من جيبه اليمين إلى جيبه الشمال، وأنه عندما يكبر الولد الذى هو ابنه فإنه سوف يستعيد كل ما كتبه باسمه أو باسم «كاف» لعلَّ الليثى كان قد تعب من كثرة البخل والحرص الذى حوّله إلى حارس مسعور على كل قرش وكل مليم من ملاليمه، تعب وفكر أن يريح نفسه زاهدًا على نحو مفاجئ من الدنيا ومال الدنيا أو أنه كان يصدق نفسه وهو يقول عنها هبلة وأنه يريحها بكتابة الورق، لكن أصعب شىء واجهه الليثى بعد أن تنازل تقريبا عن كل شىء هو الفضائح التى كانت تسببها له «كاف» كل مرَّة تغضب ويجتمع مجلس صلح فى دار جدَّتى عدلات كانت «كاف» تأتى وتتكلم بكلام مكشوف وفاضح عن أمور تحتانية لا يصح مناقشتها أو حتى التَّفوه بها أمام غرباء أو صبية صغار من أمثالى أنا ويوسف، لكنها كانت تقول عن كل شىء يحدث بين جدران المقعد أو القاعة حيث فراش النوم ودون حذر أو احتشام، تتهم الليثى بأنه كذا أو كذا، أو أنه فاقد لكذا أو كذا، وكلام فارغ كثير لا تجسر على إعلانه إلاَّ زوجة عبيطة مثل «كاف».

وبعد أن كان الليثى بحسابات الناس فى كفرنا شخصًا كريهًا وعفنًا، تحوّل بفضل «كاف» إلى ضحية تستحق الإشفاق، ويوماً فى إثر يوم أصابه وسواس من كل الناس ومن كل شىء وتوهم أن الجميع يتآمرون عليه ليس من أجل ماله وأملاكه التى انكتبت باسم زوجته وابنه «كاف» وإنما من أجل قتله بالسلاح أو دس السم له أو لابنه فى أى طعام أو شراب، كان يأخذ الولد معه إلى أى مكان، يحوطه بالبشكير إذا نام ويحمله على صدره ويتشكى للناس من عبط أمه التى حاولت أن تحرقه بالماء المغلى النازل من فوق النار قائلة أنها سوف تعمل له حمامًا ينشطه ويزيل الوساخة عن جسده، أو أنها مرَّة بلَّعت الطفل ورك بطة مسلوقة قائلة أنها تغذيه ليكبر وتطلع له أسنان، ولابد أن الناس فى كفرنا صارت تنظر «لكاف» بارتياب لأنه فى حالة موت الولد فإن كل أملاك الليثى سوف تؤول إليها بحكم الأوراق المكتوبة والتى لا يعرف أى إنسان مكانها، حتى جدَّتى عدلات بدأت تشعر بخطر «كاف» وتتشكى منها وتتهمها بالعبط والجنون، تحتمل إتهامات فرحانة بأنها وراء كل ما جرى وتقسم لها إنها مظلومة وإن البنت

انفلت عيارها وربما ركبها جنّى من تحت الأرض يسيِّرها بحسب ما يشاء لأنها كانت تسمع منها كلاماً بأصوات رجالى، كلام قبيح لا تجرؤ على التفوه به لكنها كانت تسمعه، لكن فرحانة كانت تتشكك فى مثل هذا الكلام وترى أن الليثى انخطف ماله وأرضه بتدبير وترتيب، وربما قاطعت جدّتى فترة قبل أن يموت الليثى على باب دكانه المسكوك والطفل على صدره ملفوف بالبشكير يصرخ قبل خروج الناس لصلاة الفجر، وكثر الكلام وقالوا أن «كاف» دسّت له السم أو سلّطت عليه الجن الساكن تحت الأرض، أو أنه نال ما يستحقه، لكننى قلت ليوسف بعد أن دفنّا خاله الليثى إن كاف بنت عبيطة فعلاً لكن عبطها عبط ناصحين، وصدّقنى هذه المرة ثم سبَّ خاله الليثى وتوقّع له دخول النار حتفًا.

لكن دليلة راحت منى فى الزحمة وما عدت أراها إلا نادرًا فى دار جدّتى رغم وجودها الدائم فى الدار، كأنما خاصمتنى لأننى لم أطلب بقاءها فى دارنا ولم أعد أقترب منها أو أفتعل الأسباب للحديث معها، وكان يوسف يحدثنى عنها ويصف طراوة جسمها فأشعر بالغيظ منه وأطالبه بالكف عن قلة الأدب فيسألنى بوقاحة إن كنت قد اقتربت منها وتحسّستها من عدمه، لا أرد عليه وربما أوبخه أو أشتمه، يحدثنى عن زمن خصوبتها الذى أوشك على الانتهاء فأسكت بينما يتحوّل هو إلى ذبابة زنّانة مقلقة تذكرنى بموقعة المتبن وتجعلنى مسئولاً عنها بالتخلى وقد ربتنى وأطعمتنى وكانت ونسى وبلسم جرحى الذى طاب على يديها وما كان من الممكن أن يطيب لولاها.

الغريب أن دليلة كانت مثل شمعة يخبو شعاعها كل يوم أكثر من اليوم السابق، كان صدرها الرجراج يتضاءل ويتضاءل ويتضاءل، وكان لحم كتفيها وذراعيها وفخذيها يتناقص ويتناقص ويتناقص حتى بدت لى مرة مثل خيال مآته مستور بجلباب فضفاض، حتى شعرها الأسود غزته خصلات من الشعر الأبيض، ساعتها شعرت بالحزن من أجلها وكدت أن أبكى، لكنها عاتبتنى وكأنها قرأت أفكارى وقالت:

- وأنت ح تقهر روحك ليه؟ دا نصيبى وأنا راضية بيه، ما هو أنا لو

كان لى ضهر كنت انسترت ف دار وبقت لى خلفة من زمان.

وساعتها شعرت بالغضب من نفسى ومن أمى وجدَّتى وخالتى «كاف» وأم يوسف وأخاها الليثى ومن النصيب غير العادل الذى يتقسَّم على الناس دون أى مبررات، فها هى بنت بنوت فى عمر أمى وكانت ذات يوم جميلة ومرغوبة وكل ما كان ينقصها هو العزوة والناس المستعدة لتجهيزها وتشريفها فى دار العريس الذى لم يأت أبدًا، طلبوا كل البنات ما عدا دليلة، حتى العبيطة طلبها الليثى ربما طمعاً فى جهازها الذى كانت جدَّتى قد جهزتها به وفاق بما لا يقاس جهاز أمى، أو ذهبها الذى امتلكته وتباهت به رغم العبط قبل أن يأخذها الليثى، لكن دليلة المكسورة الجناح معدومة الأب والأم والتى لها علاقة قرابة بعيدة مع جدَّتى بقيت حتى جفّت وانطفأ سراجها ببطء، كنت أراها على فترات متباعدة فى دار جدَّتى ساكنة ومستسلمة وحزينة، لكنها كانت تثور أحيانًا ويفشل الكل فى تهدئتها فيتباعدون ويتركونها تأكل نفسها كما يتناصحون، حتى جدّتى كانت تفعل:

- سيبوها لوحدها لحد ما تروق.

ولا بد أن دليلة كانت تروق وتهدأ، لكنها ظلت مثل الجرح فى قلب القلب من تلك الدار التى تحكمها وتتحكّم فيها جدَّتى وتردد دائماً:

- واحنا ف إيدنا إيه؟ نصيبها مايل ومالهاش بخت، دى شاخت وفرَّغت زى الزرع لما يخوَّخ ويفضى لما يفوت الأوان.

* * *

واندفن حلاق الحمير أبو يوسف بعسر العسر فى ذلك النهار الذى غرقت فيه دروب الكفر بمياه الأمطار فأحالت السكك إلى برك ومسارب من الطين اللّزج الذى تنزلق من فوقه المداسات فى كل خطوة، من جنب الحيطان شالوا نعشه عدة خطوات ثم خلعوا مداساتهم وشالوه من وسط الدرب حتى طلعوا به من الكفر وركنوا الخشبة لأنهم لم يجدوا من يجيرهم أو يحمل عنهم، ولأن كرامة الميت فى كفرنا هى دفنه فقد أكرموه وحملوه

ثم دفنوه وعادوا بالخشبة الخالية حفاة الأقدام، وفى الليل كنت أتساند على حديد الشبابيك ونتوءات الجدران والأبواب حتى وصلت إلى مندرة الأهالى ووقفت مع يوسف الواقف وحده حتى وصل خاله وابن خاله وعدّة أنفار قلائل ثم جاء الشيخ حسنين مقرئ الرواتب وتلى ما تيسر من سورة «التحريم» بصوته الخشن الطالع بعسر من بين نحنحاته التى لا تنتهى وسعلاته التى لا تهدأ، وكان ضوء الكلوب يضئ بالكاد نصف المندرة الأيمن الذى تناثر فيه من جاءوا متثلى للعزاء، يتهامسون خطفاً بين كل آية وآية ويتخفّون فى سعلات الشيخ حسنين وتنفك عقدات ألسنتهم عن مشهده ويوم عزاءه الذى يشبه حياته نفسها، حتى يوسف نفسه لم يؤجل رأيه فى الرجل، كان يجلس إلى جوارى عندما همس بضيق:

– ارتاح ولا ريحناش أبدًا، لا فى حياته ولا مماته.

أبديت دهشتى فأكمل:

– بعدين ح أقولك.

مالت رتينة الكلوب للأمام فبدت مثل عجوز محنى يتساند على عكاز ضعيف، تناقص الضوء قبل أن تسقط الرتينة ولا يتبقى غير اللهب المندفع مثل وابور لحام لطفى سمكرى بوابير «الجاز»، وسمعنا أصوات متنافرة تسأل عن رتينة جديدة أو لمبة جاز.. حدث هرج وقلق فى ركن المندرة بينما الشيخ حسنين يختم ما تيسر من سورة التحريم، ثم أطلق سعلاته ونحنحاته بحرية لا يحدّها حد ولا يكتمها أو يداريها وقت تلاوة القرآن، وكنت فى الضوء الشحيح أرى بعض الأشباح تترك المكان خجلانة أو تدخل إليه كسلانة، الخارج أكثر من الداخل، وأحسست بغمزة يوسف فى زندى المجاور له وكأنه يشهدنى على ليلة أبيه ثم يقوم ويدعونى للقيام ويقول بصوت يائس لكنه واضح:

– خلاص بقى يا رجاله.. الليلة باينه من أولها.. أتفضلوا روّحوا.. ما نجيلكوش فى حاجة وحشة.

لا بد أن من تبقوا فى المكان كانوا ينتظرون عبارته فتحركت ظلالهم

فى نصف العتمة ونصف الظل بأقدامهم التى تتحسس الأرض بالخطوات حتى تصل إلينا، تمتد الأيادى الضريرة بحثًا عن الأيدى شبه الضريرة لتسلم وعبارات العزاء المألوفة تتردَّد ويرد عليها مثلما أرد، ربما لم يمض من الوقت أكثر من دقيقة عندما ساد صمت إلاَّ من سعلات الشيخ حسنين وبصقاته ولعناته التى يصبها على المعسل ومن أشار عليه بتدخين المعسل الذى يقطع الأنفاس ويكتم على الصدر أكثر من كوابيس الليل، وشعرنا به يقترب ويقول بصوت سالك:

- المرحوم الله يرحمه ويجعل متواه الجنة ميت ف يوم مبروك، ماهى النطره دى يا يوسف يابنى خير وبركة من عند ربنا، بس ماحدش ف الزمانده بيعرف قيمتها.. أنت ح تعوزنى دلوقت يايوسف ولاَّ أعدى عليك الصبح ف النور.. بقول النهار له عينين أحسن..
- إبقى فوت الصبح يا شيخ حسنين.. ربنا يسهل.

وعلى ضوء لمبة الجاز التى كانت فى يد صبية واقفة رأيت عين الشيخ حسنين الحولاء تنظر إلى يوسف والأخرى فى اتجاه باب المندرة بغير ود قبل أن ينفض بكفيه المفرودين فخذيه من ناحية السيالتين وكأنه يشهدنا على خلوهما حتى من قرص الرحمة وتمرها، كان يتحرك متباعداً عن المكان ببطء وهو يطلب لنفسه الستر ونور البصيرة ويطلب لأمواته وأموات المسلمين الرحمة والمغفرة.

كانت دارنا أقرب لمندرة الأهالى من دار يوسف، تساندنا على الحيطان والشبابيك وبقايا مطر خفيف يتساقط، وعندما أوقفته دون كلام عند باب الدار لم يتحرك، أزحت الباب الموارب واتجهت بيوسف إلى المندرة الشرقية، دعوته للجلوس فجلس، وعندما بدأت أواسيه فى مصابه بحسب قدرتى على المواساة أجهش فى البكاء، ذكرت له أن لكل أجل كتاب فقاطعنى وواجهنى:

- عارف.. بس أنا مش بعيَّط عليه، أنا بعيَّط على حالى.

لم أفهم مقصده بينما استمر هو بنفس الإيقاع:

- تقدر تقوللّى عملّى إيه؟ لا مال ولا علام ولا ورث، خيبنا وضيعنا وحط مناخيرنا فـ الأرض وهو حى، وفـ موته خدنا على خوانه وكشفنا أكتر ما أحنا مكشوفين.

حاولت قدر استطاعتى أن أهدئه وأخفّف غضبه من الرجل الذى مات وانتهى أجله وأن أطمئنه بأنه سوف يشق لنفسه طريقاً فى الحياة، ذكرت له بعض الأمثلة عمن كان يمتلك وباع أملاكه ومن كان خاليًا بلا علم ولا مهنة أو شهادات ثم انفتحت له أبواب الرزق من حيث لا يحتسب، كنت أستعين بحكايات أبى التى كان يرويها فى ساعات السمر ليزجى أوقات الفراغ، ولا بد أن كلامى أراحه وبثّ فى قلبه قدراً من الطمأنينة على نفسه ومصيره، وعندما دقت دليلة باب المندرة الموارب قمت لأفتحه على مصراعيه وأساعدها فى إنزال صينية العشاء، قالت هى فى أذنى توصينى:

- عشّيه.

أومأت لها أطمئنها فتبادلت هى معه عدة عبارات بعيدًا عن سيرة الموت وردّ عليها فبدا عليها أنها اطمأنت عليه قبل أن تخرج وتسحب بابى المندرة وراءها، دعوته لأن يشاركنى العشاء فابتلع ريقه وتذكر:

- ولو أنى على لحم بطنى.. بس ماليش نفس.

- ح نفتح نفس بعض.. أنا زيك برضه جعان وما أحبش آكل لوحدى، هو أنت غريب ح أعزم عليك؟ بسم الله..

بتردّد أزاح تردّده وأنا أذكّره بالقرابة والصداقة والجهد الذى بذله من أول النهار، كنت أشعر أكثر من كل الأوقات الماضية أنه ضحية ويستحق المساعدة والإشفاق، وتذكرت ما سمعته من أنه يتردّد على سوق السبت بحثًا عن مساحة بين أتباع السماسرة ليكفل لنفسه المعيشة فحدثنى عن السوق الذى هو مثل البحر الغويط تلتهم فيه الأسماك الكبيرة ما يعترض طريقها من أسماك أصغر أو أضعف وكيف أنه يفهم الملعوب لكنه مازال

تائهًا فى التفاصيل وأنه لو امتلك بعض المال لامتلك معه الجرأة على المغامرة بدلاً من الدوران حول السماسرة الكبار يسترضيهم ويساعدهم على الربح الكثير حتى من فلاحين كفرنا من أجل ما تجود به نفس السمار الكبير، وكلهم يتميزون بالشّح وكلهم غرباء.

هوّنت عليه الأمر قائلاً أن المال يمكن تدبيره فأطرق متفكرًا لحظة وهمس:

- ما هو مش بالكلام.. ولما تنقفل السكك ف وشّى ح أعمل أى حاجة. أتاجر ف مخدرات، أساعد عصابة من عصابات الشراودة أو غيرهم لجل أعيش.. كلام بينى وبينك المرحوم اللّى اندفن النهاردة كان بيزقنى أعمل كده.. الراجل ماكانش بيحب حد خالص، كان بيزرع ف قلبى الكره لكل الناس، مش إنتو ناس فى حالكم؟.. لا كان بيحبكم ولا كان عاوزنى أتصاحب عليك، ولما كانت تيجى سيرتك يقول إشمعنى الأهطل ده يتعلم ويروح الجامعة وحيبقى له مركز ووظيفة غير الورث اللّى ح يروثه كمان.. وكان يزن ف ودانى وودان أمى بكلام ما يتقالش على أبوك وأمك، ولما يشوف حد م اللى بيسبّهم يبقّى ما عندوش مانع يطاطى على إيده يحبها لجل ما ياخد منه سجارة فيها نفسين دخان، أمى كانت رامية طوبته من زمان، ما أنت عارف أن ستّك وستّى عدلات هى اللّى فاتحة الدار من زمان.. وح تدينى فلوس أنزل بيها السوق.. ح تدينى فلوس.

- وأنا كمان ح أساعدك يا يوسف.. ح أساعدك باللّى أقدر عليه.

قلتها مندفعاً فنظر ناحيتى باندهاش وكأنما ينكر علىّ حماسى المفاجئ مستبعداً أن أكون بالفعل قادراً على مساعدته، كدت من فرط حماسى أبوح له بالاتفاق الذى تم بينى وبين أبى والذى أوصانى بأن أخفيه على كل الناس حتى أمى وأخوتى، هو اتفاق يقضى بأن يدفع لى مصاريف الجامعة لأحتفظ بها لنفسى إذا حافظت على تفوقى وحصلت على المجانية أو أن أدفعها للجامعة إذا لم أحافظ على المجانية والتفوق، وكنت للعام الرابع

أضعها عشرات جنيهات جديدة في مصحف حصلت عليه هدية من مديرية التعليم مع مبلغ عشر جنيهات لأنني كنت من أوائل شهادة الثقافة، وبين صفحات هذا المصحف كنت أحتفظ بكنزى الذى يتنامى ويزيد ببركات المصحف، لكننى بينما أفكر فى إزاحة تلال المرارات التى كانت تغطيه لم أجد فى خيالى أفضل من هذه النقود التى اكتسبت البركة والتى هى حصيلة لجهد ومجاهدة، لعلنى كنت متهورًا فى إخلاصى ليوسف فى تلك اللحظات، لكننى فعلت ما ظننته إنقاذًا لروحه الحائرة وإسعادًا لقلبه المدفوسة فيه بذرة الكراهية لكل الناس، لعلنى كنت أتصور نفسى ساعتها قادرًا بمثل هذا السلوك على تعديل المسار وحماية يوسف من المشى فى سكة الأشرار، المهم أننى أخرجت المصحف من علبته الحمراء المكسوة بالقطيفة وطلبت من يوسف أن يضع يده على المصحف ويقسم:

- وحياتك يادى المصحف لأمشى فى سكة الخير وأبعد عن سكة الشر.. قول يا يوسف.. بس قول..

وقال يوسف وهو ينظر ناحيتى متأملاً ومتفحصًا وكأنما أصابنى مس من الجنون، لكن دهشته لم تطل عندما طلبت منه أن يفتح المصحف ويأخذ كل ما فيه مساعدة، جمع يوسف الأوراق المالية وقال لى حاصل الجمع، لم يكن مبلغًا هزيلاً لا يغير المسار، ولم يكن مبلغًا كبيرًا يسمح له بالمنافسة مع السماسرة الكبار، لكنه كان بين بين وكان بالإضافة لذلك كل ما أملك، وظل يوسف يعد النقود ويعيد ترتيبها ثم سألنى هامسًا:

- دى فلوس أبوك..؟

- لأ.. فلوسى.. خليهم معاك.. مش الأهالى بتساعد بعض.؟ المهم تكسب لقمتك بالحلال وتبعد عن سكة الشر..

ولا بد أنه فكر كثيرًا قبل أن يضع النقود فى سيالته وأعيد أنا المصحف الخالى إلى علبته المكسوة بالقطيفة الحمراء ثم أحمله إلى مكانه فى درج المكتب وأقفل عليه بالمفتاح.

بعدها انتقلنا أنا وهو إلى «الحاكورة» الصغيرة الملحقة بمندرة

الضيوف والمفروش فيها سرير كنت أستخدمه وحدى فشاركنى فيه يوسف، سمعته يتنهد بارتياح وقد تمدَّد إلى جوارى، تغطينا باللّحاف فشعرت بالدفء، لكنه بعد لحظات كان يتقلب حول نفسه ويسحب اللحاف يلف به نفسه ويوشك أن يعرينى فأستعين بعباءة أبى التى كانت مطوية على شباك السرير أغطى بها الأجزاء البردانة.

وفى المنام كان يوسف يطاردنى ويحاربنى وكان يتبدّل بحلاق الحمير يطاردنى ويلومنى وأقسم له أننى لست خصمه أو خصم ابنه يوسف فيصرخ يوسف:

- أنت دبَّانة وأنا عنكبوت.. أنت دبَّانة وأنا عنكبوت.

فأحلف له بالمصحف أننى إنسان طيب لا أضمر له الشر وأتمنى له الخير، لكن حلاق الحمير يطلع لى من الناحية الأخرى ويكايدنى بالنداء:

- يا أهطل.. يا أهطل.. أنت دبَّانة وأنا عنكبوت.

يختلط الصوتان ويختلط الوجهان وأصبح محاصرًا بين يوسف وحلاق الحمير، أرمح وحلقى جاف والحرب التى قامت بلا أسباب لا تنتهى أو تهدأ.. حتى بدا لى أننى سمعت ديك البرابر يؤذن فى وسط الدار فقمت أبحث عن القلة أروى بها عطشى ثم أعود وأتغطى بالعباءة تاركًا ليوسف اللحاف الذى لفَّة حول نفسه بإحكام، ولم أكن أدرى إن كان الفجر على وشك الطلوع أو أنه مازال فى الأفق البعيد، ولا بد أنها كانت نسمة هواء مفاجئة هى التى أطفأت سراج المصباح ويوسف يشخّر بصوت مسموع.

* * *

لكن الناس الدكارنة غير الناس الشراودة، الشراودة أصلهم من نسل عبيد مجاليب وليست لهم جذور ضاربة فى بطن الأرض شأن أولاد الأصول، فيهم رغم زيادة مالهم والأرض المملوكة جديد صفات العبيد القدامى والأسياد المحدثين، داخل نفوسهم وساوس ضد كل الناس وفى معاملاتهم بقايا خسَّة ودناءة تتخفّى بأغلفة شفافة من المراءاة المكشوفة فى ساعة المنح الشحيح ونادرًا ما يمنحون، ربما كانوا فى الأصل سماسرة

صغار أو مجرد وسطاء، وإذا اختار الواحد منهم بين المبادلة والاستلاب اختار أن يستلب أى شيء حتى ولو كان إحساسك بالأمان مع نفسك أو مع غيرك متوهماً أنه الكسبان، صحيح أنه كلام يتداوله الناس عنهم فى كل الناحية ولا يصح أن يكون قاعدة مؤكدة عن صنف بأسره تتفاوت فيه الصفات، لكن متى أخطأ الناس فى أحكامهم بشكل إجمالى عن صفات الناس؟

وقال واحد من وجهاء الناحية إنهم فى الأصل أولاد خدَّامات، غسَّالات ومرضعات وخبَّازات وطبَّاخات وكافة كافة أشغال السرايات الكبيرة ملك الأسياد الكبار، وربما بسبب ذلك الأصل الوضيع يتصفون بالوضاعة، ويقول أيضًا أن تبدل أحوالهم وربما وجودهم يرجع لأيام المماليك قبل دخول الإنجليز برَّ مصر والذين استخدموهم فى البلد جواسيسًا وأعواناً لهم ودسُّوهم فى العبِّ الجوانى وطاولوهم بالسلاح، ولأنهم فى الأصل غرباء عن أولاد البلد نفذوا المطلوب، زرعوا الرعب فى قلوب وما تردَّدوا فى القتل أو قطع الطريق على الضعفاء والمساكين، جلبوا السم من أرض الحجاز ودسُّوه لمن عرف أسرارهم وتاريخهم أو حاول أن يعرفهم ويكشفهم، من غيظ الوجيه منهم كان يسألنى بعد زواج يوسف من أصيلة:

– إيه أخبار ولاد الغسَّالة فى كفركم؟

كنت أجاوبه بالسين ويفهم عنى ولا يفهم من يكون فى المكان موجوداً أو ربما كان الواحد منهم يفهم المقصود ويبدى عدم فهم الكلام، نوع من التواطؤ بالسكوت أو علامة على التضامن من غير كلام.

وعندما فوجئت مع ناس كفرنا كلهم بدخول يوسف على ابنتهم أصيلة فهمت الملعوب وفهمه الناس، وقال البعض للبعض إنهم ركبوه وداسوا بنعالهم دروب الكفر يحملون السلاح على أكتافهم وعندما يتجاسر أى نفر من كفرنا ويسأل يوسف أو أى واحد من الناس الشراودة عن زياراتهم المتكررة لكفرنا الغلبان وما كان فى أى وقت يهمهم أو كان فى الحسبان؛ يجاوبه بأنهم يعرفون الأصول ولا يتأخَّرون عن تأدية الواجب نحو زوج

ابنتهم الذى صار منهم، والمناسبات أكثر من هم الشــراودة علــى قلــوب العوف.

لكن المسائل زادت عن حدّها المحسوب حتى ولو بإضافة بعض التجاوزات، لم يعد الموضوع مجرد بنت أسمها. «أصيلة» تزوجها نفر اسمه يوسف، ولا صار حكاية مواسم ومناسبات وأصول يؤديها أهل البنت لمن سترها ودارى لحمها وأخذ من أهلها أربعة وعشرين ضلعًا كما كان يحلو لهم أن يتشدَّقوا متباهين، لكن إذا كان من يتكلم فى كفرنا مجنونًا فلابد أن يكون للمستمع إليه عقلاً يزن به الكلام، سوف أعبر تلك المرحلة المكشوفة والتى بدا للبعض فيها أن الشراودة ركبوا يوسف وركبوا دروب الكفر أيضًا، بينما أكد البعض أن يوسف هو الذى ركبهم وتدلّت من على ظهورهم ساقاه، وأنا من ناحيتى ملت لهذا الرأى وتأكد بعد نظرى فى الموضوع، ماذا كان يملك يوسف ليعطيه مقابل حمايته وكثرة زيارته ودعمه بكل شىء.. كل شىء حتى يأتى اليوم غير المحسوب حسابه ويتمكن الشراودة من تنصيبه عمدة لكفرنا الموعود بكل الوعود؟

بحساباتى أنا إن يوسف والشراودة وجهان لعملة واحدة، يوسف ابن غسَّالة وعجَّانة وطبَّاخة وخبَّازة وكان من الممكن أن تكون مرضعة لأى عبد من عبيد قلاوون لكن لم يسعدها الحظ، ثم أن يوسف ابن رجل نطع تعلم على كبر سنه «الزيانة» فى رؤوس يتامى الكفر بالمعنى الحرفى لكلام، فبماذا كان يمكن أن يحلم؟ وإذا كان الشراودة كما اتفقنا غرباء عن الناحية أو على الأقل زرع على سطح الأرض معدوم الجذور وفى أحسن الأحوال هزيلها، فإن يوسف نفسه والناس الشلبى كلهم بشهادة كل من رأى وشهد مننسل مجاليب لا يعرف أى واحد منهم، أى واحد جده الخامس فى أحسن الحالات.

لو اتفقنا على البدايات فلن نختلف كثيرًا فى النهايات.

يوسف ركب أصيلة والناس الشراودة، امتلك ما لك يكن هو وكل ناسه يحلم مجرد حلم بامتلاكه بقوة سلاحهم وسوء سمعتهم فى الكفر

والناحية، وانتهى شوط فى مشواره أو مشوارهم بإزاحة الناس العوف من السكة وتنصيب يوسف عمدة على كفرنا، كنت استرجع صورة خليفة لواحدة من الطرق الصوفية وقد اركبوه حصانًا وساندوا وسنَّدوه من كل الجهات والرجل يتهزهز وكأنه نصف ميت نصف حٍّى أو مسطول غلأى حد العجز عن الإدراك لكنه مدعوم ومسنود ومقصود أن يكمل المشوار.. مشوار الزفة فى مولد البدوى.

على هذا النحو كنت أرى يوسف بعيون الناس، لكننى بينى وبينه وبينى وبين نفسى كنت أراه على نحو مغاير، بينى وبينه رجل غلبان لو أننى أستعرت تعبير أبى الذى كان يطلقه على كل الناس، الخصوم والسفلة والقتلة والأوغاد قبل الضحايا والأبرياء والمغدورين كانت حسابات أبى توشك أن يتساوى فيها الظالمون والظلمة، القاتلون والقتلة، الحاكمون والمحكومين، ولابد أن هذه الحسبة كانت ترضى يوسف وترضينى فى بعض الحالات، كان يبدونى فى بعض الحالات وأنا مسطول مع يوسف أن المسألة معجنة أنخلط فيها طمى النيل بالوساخة من كل شكل ولون، ومادام البنى آدم نزل من بطن أمه وعاش فهو غلبان كما قال أبى وكرر بأن التكرار يعلم الشطار.

وبينى وبين نفسى كنت أراه مثل فرد حمام مطلوق من «غيَّة»، فرد حمام مجهول حتى بالنسبة لصاحب «الغيَّة»، لكنه انطلق منها وحلَّق فى الفراغ واستطاع أن يتقدم السرب كله، فرد حمام غير محسوب حسابه ولا يعرف صاحبه سعرده على وجه التحديد أو التقريب لكنه عمل المفاجأة وقاد سرب الحمام الذى زاد عدده بانضمام بضع حمامات تائهة فى الفراغ ثم باستجلاب سرب آخر حيران كان يحومِّ فى السماء، وبصيده حطَّ على جدران «الغيَّة» ليشهد أتباعه وهم يسكنونها، وفى مثل هذه الحالات يفرح صاحب «الغيَّة» بفرد الحمام سواء كان محترفًا أو هاويًا لا يعرف قيمة الفرد الكسبان، وقد ينشغل به فترة ثم ينساه، لكن فرد الحمام فى كل الحالات سوف يبقى وينتظر لحظة الانطـلاق الجديد وانفتاح سقف «الغيَّة»

على الفراغ، وربما مرَّة أخرى أو عدَّة مرَّات يلفت إليه الأنظــار قبــل أن يختفى فى الفراغ ويتحوَّل الأمر بالنسبة له إلى مجرد طيران بــلا هــدف، مجرد طيران فى الفراغ سواء كان متبوعًا بأسراب الحمام أو تابعًــا لفــرد حمام قوَّاد يصعد به فى اتجاه الشمال أو ينزل به إلى الجنوب، وربما يطير وحده فى اتجاه الريح، إن كانت لناحية الشرق اتجه شرقا وإن كانت لناحية الغرب طاوعها وتغرَّب، وربما يتعلَّم وهو فى الفراغ قوانين البشر الأنصاف الذين يميلون بحسب الأحوال فى العواصف أو مع النسيم السارى بنعومــة ليضمنوا المكسب على طول الخط ولا يتعرض الواحد منهم لأى خسارة، ولا بد أن صاحبنا فرد الحمام الشارد لم يكــن مشــغولاً بصـــاحبه أو صـــاحب «الغيَّة» وهل يملك فرد حمام شارد طيَّار فى فراغ.. المقدرة على معرفــة «الغيَّة» التى أنطلق منها؟ والتى كان من الممكن أن تتحوَّل بالغريزة إلــى محطة وصول حتمى لو أنه فيها نشأ؟، هو مجرد فرد حمــام قــادر علــى النسيان وهجر المكان إذا طاب له المقام فى حيِّز جديد يتوفر فيــه الحَــب وقطرات المياه ناسيًا تلك المساحة التى تتشابه معها كل المســاحات مــن سطوح البيوت التى ابتنى كل مالك فيها على سطحه للحمام «غيَّة».

متى كانت بداية الهجر والنسيان «لأصيلة»؟، تلك التى سوَّدت أيامــه زمنًا وتحامل واحتمل، كان يتشكى من غلظة فى طباعهــا وشراســة فــى عينيها وقوة فى عباراتها، لا ليونة ولا طراوة ولا نعومة للبدن ولا حتــى على طرف اللسان، كان يسمى مشاجراتها ومشاحناتها فى أول الأمر دلــع عوانس، لكنه كان يحتمل، لكنْها بدأت تتطاول عليه، تسبُّه وتلعنه وتهــين ناسه ويحتمل، كانت فى رأسه بحسب ما قال فكرة مؤداها أنه مادام قد نزل البركة العطنة فلا بد أن يخرج وقد انعاص بفائدة، مكسب، أى مكسب، ولابد أنها كانت تراه عريانًا وتفهمه فتزيد من جرعات النكد ويبتسم، ولا بــد أن شحنة الشراسة والغلظة وزفارة اللسان تناقصت بقصد منها ربمــا لتــريح نفسها أو لعلها كانت قد اطمأنت إلى أنه قادر على احتمالها أكثر من قدرتها على عكننته وإثارة غضبه وتزويد الهموم على قلبه، لكنه تجاسر وطلقهــا

أول طلقة وكأن جرحه بعد العزل أنساه الحذر.

كانت أيامه تمضى متثاقلة وتوشك أن تصيب حركة أيامى بالعطب، كان الحال باقيًا على ما هو عليه، الصول عرفان لا بد مثل نمر شرس أو ثعلب مكار فى النقطة الثابتة، لكن بعض الأشقياء من الناس الشراودة ظلّوا يتوافدون ويتباطأون عند مدخل الكفر أو فى بعض دروبه، كأنهم خيالات هدفها التخويف أو بث الرعب فى قلب يوسف، ورجال الحكومة يتسكَّعون فى بيوت الناس، يطلبون أكواب الشاى بألسنتهم وأحيانًا يتجاسر الواحد منهم ويطلب لنفسه لقمة يسد بها جوعه لأنه جاع، لكن الحقيقة أن ناس كفرنا عملوا ما كان يليق بهم وأدوا واجب الضيافة وأكثر للعساكر والصول والمخبرين رغم أنها كانت ضيافة إجبارية، لكن الناس قالت لبعضها أن وجود رجال الحكومة فى الكفر يفرض الأمن ويحمى الأرواح، صحيح أن بعض الجرائم كانت ترتكب فى وجودهم لكنها بالقطع كانت أقل من أيام عمادة يوسف والقتل المتبادل بشكل علنى وفى وضح النهار، المهم أن رجال الحكومة حصلوا على مقابل وجودهم من بيوت الناس وخير بيوت الناس، بل أنهم كانوا يتمادون فى الأخذ أحياناً وهم راجعون لبيوتهم وأهاليهم فى أجازات قصيرة رتَّبوها مع الصول عرفان بشكل دورى، كل رجلين أو ثلاثة فى يوم، وكل واحد منهم يحمل سلّة مملوءة بالزبد والجبن والفطائر والأرز المدسوس والطيور المذبوحة والمحمَّرة على سطح الطاجن أو البرام، عسل نحل وكيزان ذرة مشوى وفريك قمح وبلح حَيَّانى وبصل وثوم، وكل واحد منهم وما يطلبه باللّسان أو يتصوَّر الناس أنه سوف يرضيه.

لكن اسم الدكارنة كان يتردَّد على لسان يوسف والناس الشلبى بكثرة، يمتدحونهم ويصوِّرنهم على هيئة فرسان قادرة على إنصاف المظلوم الذى هو يوسف من خلال علاقاتهم بالحكام الكبار وأعضاء البرلمان ومعرفتهم الأكثر قربًا بلواءات الداخلية ووزيرها الذى يعرف كل خطايا الشراودة، تحوَّل اسم الدكارنة إلى فزَّاعة لها صوت لكنها لا تصيب، والإشاعات تتوالد

وتتكاثر وكأنها بطون أرانب ساكنة فى جحر مفتوح من عدة جهات، قالوا أن الشراودة شغّالين فى الأصل عند الدكارنة ولحسابهم، وقالوا أبدًا لأن الدكارنة صنف طاهر أصيل ونبيل ومستحيل يتعاون مع قطّاعين طرق، وقال ناس إن الدكارنة أولاد ناس لكن على حساب ناس ولايستبعد أن يكون تدخلهم لصالح يوسف إذا حصل بمقابل حدّدوه لكن يوسف عاجز عن سداده، وقالوا أنهم لا طلبوا مال ولا هدايا لأنهم ناس مستورة وشبعانة وكل ما جعلهم يتراجعون عن إعادة يوسف لعمادة الكفر هو أنهم اكتشفوا أنه يلعب على الحبلين، حبلهم وحبل الشراودة أيضًا الذى يبعث مراسيله إليهم ويعدهم بإعادة أصيلة لداره إذا نجحوا فى إعادته كما سبق ونجحوا فى تعيينه، وقالوا أيضًا إن الباشا المأمور حلف بشرفه أن يوسف لن يرجع حتى إذا شاف حلمة أذنه اليمنى فى الصحو أو فى المنام، وإنه لو رجع بأمر ملكى فسوف يقدم استقالته من الداخلية، وقالوا إن أمر رجوعه انكتب فعلا وباق على توقيع مدير المديرية أو إنه وقع عليه وناقص ختم جلالة الملك وثمنه ليس باليسير، وكلام كثير قالوه وردّدوه وكأن يوسف إذا رجع فسوف يطلّع الإنجليز من بر مصر، حكايات أغلبها أكاذيب يؤلفها حشّاش محترف مقابل تعميرة من صنف مضمون، من كثرة ترديد الإشاعات وصل الأمر بالناس إلى حد الضحك عندما يفاتح الواحد منهم صاحبه أو قريبه فى آخر أخبار يوسف، صار الأمر مسخرة وكان من الممكن أن يخترع أى واحد فى أى وقت أى كلام عن يوسف فيضحك الناس، حتى حسنين المدندش الذى كان يطيب له أن يسرح بالطبّلة ومن خلفه عشرات العيال يغنى لهم ويردّدون وراءه:

- يا بوزعيزع قوم صلّى.. خلّلى مراتك تقللّى.

هل تحوّل يوسف إلى مسخة بدلاً من أن يتحوّل إلى بطل له سيرة واسم مثل عنترة وأبى زيد الهلالى سلامة أو أدهم الشرقاوى أو حتى حسن المغنواتى عاشق نعيمة؟ وهل كان من الممكن أن تصنع منه الأخبار الكاذبة المتتابعة شخصًا له قيمة ودور فى زمن انكمش فيه الرجال الكبار على

ذواتهم لأن العصر لم يكن يخصهم أو يشغلهم وقد ارتفع نجم يوسف ابن حلاّق الحمير بمعاونة ناس من العبِّ الجوّانى وانعزل أيضًا كما يؤكد الكل بواسطتهم تصفية لحساب أصيلة؟

لكن ناس كفرنا لا يتركون الأشياء تمر عليهم مرور الكرام دون أن يفسّروها ويقلّبوها فى عقولهم وعلى ألسنتهم كما يقلّبون أثواب القماش ويتحسّسونها على مهل قبل الشراء أو حتى فى حالة الفرجة المجّانى دون نية الشراء، قال الناس للناس: نفرض إن يوسف ليست له علاقة بالناس الدكارنة.. نفرض.. فهل كان من الممكن أن يعلن أنه احتمى بهم وأخذ منهم وعودًا ليعيش فى ظل اسمهم دون رضاهم؟ ومن يكون يوسف والناس مشهود لهم بشهادة كل الناس فى الناحية وخارج الناحية بأن جذورهم ضاربة فى الأرض من قديم الزمان شأنهم شأن الناس العوف وإن زادوا عنهم بأنهم أصحاب نفوذ ومعالى ورتب رسمى وأبعاديات وكراسى دائمة فى كل برلمان، ناس أصحاب سرايات فيها خدم وحراس بسلاح له تراخيص، ناس من ذلك النوع الذى تسمع عنه أكثر مما تراه، فمن فى كفرنا كله شاف الباشا صفوت الدكرونى الكبير؟ ومن منا دخل سراية ابنه حشمت بك الدكرونى؟ صحيح أن بعضنا شاف الباشا إسماعيل وأولاده إبراهيم وغالى وصفوت وسمير لكنها كانت أيام انتخابات، وأيام الانتخابات كفيلة بإنزال الشمس والقمر من مداراتهما ليكسبوا الأصوات، لا كانت لهم أملاك فى كفرنا ولا كان من بلدنا خولى أو حارس يشتغل فى سراية من سراياتهم، وطبعًا لم نسمع عن بنت بارت من بنات الدكارنة حتى يظن البعض أن فى الأمر زواج مصلحة بين البنت ويوسف الموعود بقحف النخل الممسوح صدره والذى خلص منه فى ساعة جسارة نادرًا ماتواتيه.

قال بعض الناس وهم يتضاحكون إن المسألة فيها سحر أو عمل مكتوب، وقال البعض الآخر إن المسألة وراءها سرٌّ وسوف يكتشفوه وإن طال المدى.

كانت أول مرة أعرف أو أسمع أن ليوسف علاقة بالدكارنة هو ذلك

المساء الذى زارنى فيه وجعل يتحدث ساخطًا على أصيلة وأهلها وهو ما كنت قد اعتدته منه فى السابق لأن اسم أصيلة على لسان يوسف إما مدعاة للسخط إلى أبعد حد أو سيرة للانبساط الزائد عن كل حد ولا وسط عنده إذا انفتحت سيرتها، كانت أصيلة فى ذلك الوقت مازالت غضبانة غضبتها الأخيرة قبل الطلاق، وكان هو يقسم بأغلظ الأيمان على عادته أنه لن يذهب إليها أبدًا ليصالحها حتى لو أنهدت الدنيا:

- أبدًا.. مش ح أصالحها ولا ح أعبَّرهم فى الجزمة القديمة، يعملوا بقى اللّى يقدروا عليه، بس المره دى مش ح يقدروا، وبكره تشوف.. أصل الدكارنة مش شويّة فى الناحية، دول لو حدّ منهم جه ناحيتى ح يقطّعوهم حتت ويرموهم للكلاب اللّى بتحرس السرايات.

كدت أسأله عن علاقته بالدكارنة وكيف يمكن أن يتعرضوا للشراودة أهل أصيلة من أجله وهو الذى لم يدخل معهم فى علاقة من أى نوع حسب معرفتى، لكننى انكسفت من السؤال الذى كان من الممكن أن يشعره بالحرج أو يوقف اندفاعه الزائد فى التشكى من أصيلة وناس أصيلة الذين اكتشف خسّتهم ووضاعة أغراضهم وهو الذى شالها على كفوف الراحة كل هذه السنوات فاكتشف أنه شال حَّية بنت ثعبان شراقى قرصته والقبر:

- دى بنت ستين فى سبعين.. أنا ماعدتش ح أقدر عليها، دى عايزة تور مطلوق ياصاحبى، دى مابتشبعش ولا بيبان عليها وبتاخد ولاتديش.. هى دى عمرها كان عندها حاجه تديها؟ دى قحف نخل مخوّخ وريحة بقها قبر.. ينذعقوا العيال.

بعدها يستعيد سيرة الناس الدكارنة وكأن النار التى كانت تتأجج فى داخله قد انطفأت أو هدأت لسعاتها إلى حين، يتباهى بأصلهم العريق وكأنه كان مسئولاً عن كشف شعاع نازل من قرص الشمس على مرمى البصر، وهل كان الدكارنة فى حاجة إلى شهادته؟ كانت أزمته ظاهرة ولا تحتاج لتفسير، الذى كان يحتاج لتفسير هو اكتشافه للناس الدكارنة الذى جاء

متأخرًا أكثر مما ينبغي، والذي كان يحتاج لتفسير أكثر هو انقلابــه علــى الشراودة من الذوبان عشقًا بحسب ادعاءاته في بعض الأحيان - لأصــيلة وأهل أصيلة - إلى الصخب والغل ورمى كل المسئوليات عليهم فى كل مــا أصابه ناسيًا أنه هو الذى فتح لهم بابه ودخل من أبوابهم باختياره وإرادته وفى السر وكأنه دخل الجنة وخاف على نفسه من الحسد، لا بد أنه نســى مسئولياته عن أمن الكفر فلما وقع المحظور حسب نفسه من المدلّلين عــن الحكومة، قاعد على حجرها الواسع ومحاط بصدرها الحنون، لعله كان يثق في قدرة أهل أصيلة على إعادته فلما خاب فيهم أمله بحث لنفسه عن أسياد غيرهم حتى ولو لم تكن بينه وبينهم صلة أو شبه مصلحة.

- طيب.. إيه اللى قوّم كلابها على ديابهــا اليــومين دول بالــذات؟ إشمعنى لمّا بقيت أنا عمدة؟ دانا ملحقتش أفرح يا راجل، وأراهــن إن ما كان الشراودة همَّا إلّلى نفخوا فى النار المطفية من ســنين وشعللوها تانى، إلّلى كنت فاكرهم ح يردموا ورايا لقيتهم هما إلّلى بيحفرولى.

وكان فى تلك الأيام يشبه مفراك «الخبيِّزة» يلف حول نفسه وحــول الناس مرَّات فى اتجاه اليمين ومرَّات فى اتجاه اليسار، كان قد تحوَّل إلــى نحلة زنانة لا تفرز عسلاً لكنها جاهزة للقرص فى مقتل، ولا بد أن كل واحد من خوفه على روحه كان يجاريه فى الكلام ويطاوعه فى الــرأى حتــى لا يكتسب عداوته وهو فى تلك الحال التى انعدم فيها توازنه وأوشك أن يفقــد عقله، ولعله عندما طلّق أصيلة طلاقًا إداريًا فى غيابها وغياب ناسها كــان قد جهَّز نفسه للدخول فى صراع معهم محميًا بوعد حصل عليه من النــاس الدكارنة أو أنه كان بالفعل فى حالة انعدام وزن أو انعدام توازن، لكنه فعلها دون أن يعرف أى واحد فى كفرنا أسباب هذه الجرأة المفاجئة التى جعلتــه يطلقها غيابيًا على هذا النحو الذى يسميه الناس فى كفرنا طلاق القادرين، فهل كان يوسف والناس الشلبى يقدرون بالفعل على مواجهة الشــراودة أم أنه استند إلى حماية حقيقية له ولناسه من شرور أعدائه الجدد الذين كانوا بالأمس أول الأعوان.

يوسف نفسه كان يقرّ ويعترف بفضل الشراودة عليه، لكنه في ذات الوقت كان يكشف أسرارهم المخفية، لعله ظن أن وجود الصول عرفان وعساكره ومخبرينه ومرشدينه في الكفر سوف يكون وسيلة لنقل أخبارهم للحكومة، والحكومة تقدر عليهم وعلى أكبر منهم، لعله كان يحاول أن يظهر نفسه في صورة الضحية فترضى عنه الحكومة وتعيده وتحميه، كلها احتمالات قابلة للتصديق والتكذيب، الدكارنة في ناحية والحكومة في ناحية وكلام الناس الذى لا يمنعه مانع، والناس الشلبى تترابط وتتوحّد ويدافع الواحد منهم عن الآخر ظالمًا أو مظلومًا، لعلها كلها كانت دروع حمايته. لكنه كان يتجاوز حدوده في بعض الحالات، يسعى في كلامه لكشف أسرارهم فيكشف نفسه في ذات الوقت.

- كنت عارف أنهم بيغشوا الصنف ويخلطوه وساكت عليهم، وكنت عارف أنهم بيعملوا عمايل ما يصحّش تنقال بقي وكاتم في نفسي، أقول أخوال عيالك برضه وربك حليم ستار.

أتذكّر كل التعميرات الفسدانة التي كان ينقلها لى وتتسبب في عكننتي وعكننته، وأقول إنه ساهم في إفساد تفكيرى في بعض الحالات وإنه توّهني في متاهات وخيالات كذّابة في بعضها الآخر، وأقول إن أحسن شيء عملته الحكومة هو عزله لأنه مادام يتواطأ ضد ناسه ويسكت عن كل هذه الأخطاء فإنه لا كان يصلح عمدة ولا شيخ بلد ولا حتى خفير. ومن يدرينا إن كان يوسف عرف أو لم يعرف بالمصائب التي حلّت بالناس وقيدتها الحكومة ضد مجهول وسألت نفسي كم مرة غشّني يوسف وجعلني أدفع ثمن الصداع الناتج عن الأصناف المضروبة بدل الزهزهة المطلوبة وحالة الانبساط، ولأنه ليس بعد الكفر ذنب فقد انكشف أمره وأمرهم للناس وللحكومة، ولأنه في هذا الزمان مثل كل الأزمنة لا يفلّ الحديد إلا الحديد فلابد أن نهاية يوسف سوف تأتي على يد الحكومة، تحبسه أو تصادر دوّاره أو تنصر عليه أعداءه، لكنها كانت مجرد أمنيات رجل مغشوش على امتداد سنوات العمر، مغشوش في مزاجه ومغشوش في الحكم والأمثال التي حفظها

وصدقها واكتشف أن نصفها على الأقل مدسوس، لا بد أن يواسف كثار مثل يوسف الذى عرفته اندس وسط الناس على امتداد الزمن البعيد البعيد، اندس أو اندسوا وضربوا الحكم والأمثال المضروبة فجرت على ألسنة الناس شأنها شأن كل شيء فسدان ورائج ببركة غفلة الأفهام.

طيب نفكر فى ادعاءات يوسف أن الدكارنة وعدوه بالحماية، نفرض مجرد فرض أن هذا الكلام لم يحدث وأنهم لا قابلوه ولا فاتحوه ولا وعدوه ولا كان يهمهم فى يوم أمره، أليس من الممكن أن تخوّف هذه الإشاعة قلوب أعدائه؟ ومن فى ناحيتنا الذى سوف يسعى لاكتشاف صدق مثل هذا الإدعاء من كذبه؟ حتى لو اكتشف مكتشف كذب ادعائه فهل يجرؤ على إشاعته؟ وإذا جرؤ وأشاعه وعرفوا الدكارنة أن واحد أسمه يوسف ابن حلاق حمير شلبى احتمى بهم كذبًا ليخوّف أعداءه فهل يغضبون والأمر من أوله لآخره ادعاء يطوّل الرقاب ويضيف لهيبتهم هيبة جديدة؟ ربما يتضاحكون زهوًا وقد صاروا على ألسنة ناس كفرنا مثل البعبع الذى يخوّفون به العيال الشراودة؟ وإذا كان الوعد صدقًا بعلم الدكارنة فما هو مصير من بحث ونقّب وشكّ فى إمكانية أن يستعين بهم يوسف وينصروه؟ قلت لنفسى: اسكت يا باحث فاشل فى تاريخ بلدك القديم، اسكت ولا تقترب من المناطق المزروعة بالألغام لأن ميزان الكفر المقلوب لن ينعدل على يديك وحدك، أترك يوسف صاحبك وقريبك من بعيد يطلع على أكتفاهم من الورطة التى إنحط فيها، أو أتركهم يطلعون درجة جديدة على أكتافهم وأكتاف ناس الكفر الكسلان عن السعى لمصلحة ناسه رغم النكبات التى يلطم فيها الخدود على رجاله وزهرة شبابه المغدورين فى وضح النهار، وهل يمكن لواحد مثلى أن ينسى ضرب البرادعى فى وسط غيطه وعلى مشهد من عياله وأنفار جمع القطن الأبيض الذى ارتمى فوقه فتلوّن بالأحمر القانى ولا عاد ينفع فيه بيع أو شراء، موت وخراب ديار فى زمن يوسف، هل يمكن أن أنسى ضرب تلامذة المدرسة بالكرابيج فى دوّار يوسف لأنهم اعترضوا على دخول أولاد عزّت الشارد كفرنا المفتوح بنفس هذه الكرابيج فما كان منه إلا أن جمعهم فى الدوّار وأمر بضربهم لأنهم اعترضوا طريق أهل أصيلة الودعاء حاملين الكرابيج بحسن نية وتلامذة

كفرنا أشرار، وهل أنسى أو ينسى ناس كفرنا تعرية الست هانم حرم حسن النعناعي أفندى على باب دوّاره وأمام خفراءه وبواسطة النسوان الشـلبى والشوكى وغربان المدافن ممن يمكن تأجير الواحدة منهن بنصف فرنـك، يخرجنها بالحيلة من دارها وهي الست المحجوبة ثم يسـتدرجنها بالحيلـة أيضًا حتى الجرن الكائن أمام دوّار يوسف ثم يتسابقن على إرقادهـا علـى الأرض فجأة وبدون إنذار، ويمزقن ثيابها مزقًا مزقًا حتى تتعـرى تمامًـا وتنكشف عوراتها على الملأ ويوسف الذى ظهر بعد اكتمال الفعلـة يراهـا ويتأملها بعينيه مدة قبل أن يخلع عباءته ويرميها فى اتجاه المرأة العريانة المنهارة لتتغطى بها وهى فى ربكة من أمرها كيف تقوم أو تزحف لتأخـذ العباءة الملقاة على مقربة منها وسط عيون الناس.. نوع من الإذلال لكـل الصنف، ومهما عمل النعناعية فى خصومهم فهل تبرد لهم نار، ويوسـف على ألسنة الناس هو الذى سترها بعباءته وإن كانت قد تعرّت أمـام دوّاره وعيون حراسه وزمنه إذا شئنا أن نفسر الأشياء والأحداث بالعقل السـليم بعيدًا عن المجاملات.

كأن يوسف نسى ما جرى فى زمن عمادته القصير للناس فى كفرنـا القادر على النسيان، وليس النسيان نعمة فى كل الحـالات، أحيانًـا يكـون النسيان خيبة وعى أو خوف وجبن أو قلة حيلة، يقول لك النفر من الأنفار نسيت، وأسأل نفسى كيف ينسى البنى آدم ثأره أو دم أبيه أو أخيـه وهـو العارف ملامح القاتل وسكنه، وكيف ينسى الإنسان أفعال عدوه فـى زمـن العداوة؟ حتى لو صالحه وقال له عفا الله عما سلف وهدأت النفوس فهـل يجوز له أن ينسى؟ العفو شىء ونسيان ما جرى فى الأزمنة القديمة شىء آخر، الذاكرة لها دور والنسيان يفسدها، يشـوّه صـفات النـاس ويتـوّه الحقائق، حقائق الأعداء القدامى وقد لبسوا أثواب الصحاب، ولا بأس مـن أن نبدأ دائمًا فى كفرنا صفحة جديدة كما يقولون لكـن دون نسـيان، هـل يجوز لمن لدغته الحية وتداوى من سمّها وعاش أن ينسى فتحة جحرهـا ويتمدّد فوقه؟ أنا نسيت نفسى معكم فى الكلام لكننى لم أنس وجوه أعدائى.

«موسى نبى.. عيسى نبى.. محمد نبى وكل من له نبى يصلى عليه»

قالها الحاوى أيام زمان وحفظناها عنه لكننا لم نكسب قدرته على ملاعبة الثعابين أو السيطرة عليها، وملاعبة الحيَّات والأفاعى والعقارب فن لا يقدر عليه غير الموعود، ولا بد أن ليوسف قدرة الحواة فى ملاعبة الأسياد القادرين، كان عندما انعزل يأتينى ويسرِّى بما يعنّ له من أفكار وكيف أنه يلاعبهم جميعًا لينفّذ هو أغراضه، يهمس بأن عمدة من عمد البر كله لم تعزله الحكومة ثم تعيده إلا إذا كان مسنودًا وبعد فترة تنسى فيها الناس أسباب عزله وتبرد النيران، ويضيف أن الدكارنة أكبر من أن يدخلوا فى صراع مع الشراودة وكيف أنهم شاوروه فى الأمر وأفادهم بأنه يعرف علو مقاماتهم وأنه لا يليق بالأسياد أن ينزلوا إلى أسفل من أجل مجموعة من قطّاع الطرق الذين يستطيع أن يقطع دابرهم من الناحية قطّاع طرق من أمثالهم، ولأن للناس الدكارنة أنصار فى كل مكان فإنهم يستطيعون أن يفعلوا الأفاعيل فى الشراودة دون أن يكلّف الواحد منهم عناء الصحو من رقاده قبل الضحى العالى كما اعتاد أو حتى الصحو قبل الميعاد بساعة أو حتى تأجيل عمل وليمة لمدير المديرية أو أحد الوزراء من أجل أمثال هؤلاء الناس، طمأننى أو طمأن نفسه بأن كل تأخيرة فيها خير له وللناس الكفر لأنه يوم أن يرجع سوف يفتح عينيه وعقله وقلبه ويحتاط من غدر القادرين وقد خلص منهم إذا شاء المولى جلّ فى سماه ونصره على الأعداء.

لكنه لا الدكارنة أولاد الناس وأصحاب السرايات والمقاعد الدائمة فى كل برلمان، ولا الشراودة قطّاعين الطرق جلاَّبين الصنف وغشّاشينه كانت لهم فى مسألة عمادة كفرنا دور، ذلك أن المرسى شلبى طلع من وسط الناس الشلبى على سلم العمادة وهو الرجل المعزول الذى كان فى حاله ومع عياله وأرضه، لا شارك فى مشاكل ولا انطلقت عليه إشاعات، صحيح أن المرسى كان من سلسال هارون وأنه كان مالك لحيازة تسمح له وأنه كان على الأقل فى الظاهر رجل معقول وعاقل ومشاكله مع الناس بسيطة، نزل المأمور بنفسه وتبعه الصول عرفان والعسكر وعدد من أفندية الإدارة ودخلوا دار المرسى شلبى ومعهم قرار تعيين موقّع ومختوم بخاتم صاحب

الجلالة الملك فاروق، وركبوا وسط الزغاريد عدة التليفون وأعادوا للكفر سلاحليك خفراؤه وصار المرسى شلبى بين يوم وليلة عمدة كفرنا، لكن يوسف قال إن المسألة عمرها أيام أو أسابيع فى أسوأ الأحوال لأن المرسى غلبان ولا يصلح لعمادة كفر ظالم وكافر مثل كفرنا الذى يحتاج لحكمة كف يد حديد، لكنها على كل حال كانت علامة لناس كفرنا وإشارة من الحكومة بأن العمادة صارت من نصيب الناس الشلبى بغض النظر عن الأفراد، وأن الناس العوف صاروا مثل البضاعة البائرة المركونة من سنوات على رفوف الشيخ محمد البقال فى البندر.

ولما فاتت أسابيع وشهور وصارت عمادة المرسى شلبى حقيقة فى عقل يوسف الذى كان آخر من سلم أمره لله فى كفرنا، لفّ يوسف على كعبه واستدار ليحدّث الناس عن شوقه للأولاد الذين أخذتهم أصيلة معها لدار أهلها، ربما يكون قد راجع نفسه بينه وبين نفسه واكتشف أنه لا خلاص له من غير أصيلة والناس الشراودة، كان يتحدث عن أشواقه للعيال وأمهم أصيلة، وعن أحلام يراها فيها ويفسرها بأنها مقدمات رجوع وردّ من يمين الطلاق الذى له ردّ والشرع يسمح

- برضه كانت بنت ناس ووقفت معايا من أول المشوار.

رجعت أصيلة لدار يوسف التى لم تعد دوّارًا كما كانت، لكن يوسف تعلم أن يمتدح كلا من الدكارنة والشراودة بنفس الحماس، لكنه كان رجوع ساكت أشبه بفرخة فطسانة فى يد من أراد أن يذبحها فلم يهنأ برفرفة ولا أنسمع لها صوت أو نزلت منها نقطة دم.

* * *

ربما يكون من المفيد أو يكون من غير المفيد على الإطلاق أن يكتشف البنى آدم عيوبه فى نهايات العمر أو آخر المشوار كما يقولون، المسألة تتوقف على الكيفية والحالة وأهمية النبى آدم نفسه الذى اكتشف وباح بالاكتشاف، ولأنه حدث بينى وبينكم نوع من التواطؤ الخفى مجهول

الأغراض فسوف أمدً حبل البوح على استقامته وأستمر فى كشف ما تبقى ليكتمل اكتشاف المكشوف الذى هو أنا بكل ما أملكه من جسارة وجبن ومن نبالة ونقص ورغبات مدفونة تحت الرماد وأخرى متفجِّرة علـى شـكل احتجاجات عبيطة أو ثورات صغيرة لا تغير أى شىء فى الحيِّز الضيِّق الذى تتفجَّر فيه، لعلها لا تغيِّر كرسيًا محطوطًا فى غير مكانه أو تهز شعرة فـى رأس مسئول عن مزرعة مواشى.

أعرف أن الاعتراف بالعيوب ثقيل على النفس، لكنه يبدو أيضًا أن فى الاعتراف شفاء لها فى بعض الحالات، وأنه برغم الدفاعات الشرسة عـن الذات لإخفاء الأخطاء أو العيوب الناتجة عنها هذه الأخطاء، فإنـه يطيب للإنسان فى بعض الحالات أن يحوم حـول أخطائـه أو خطايـاه بغـرض الاعتراف بها أو البوح بتفاصيلها إذا ضمن السلامة فى أغلب الحالات وما لم يضمنها فى حالات، هذه مجرد مقدمات غير لازمة للـبعض وضـرورية للبعض الآخر، وأخذًا بالأحوط ولحساب البعض الآخر ذكرناها.

كانت الدنيا من حولى تدور فى مداراتها ولا أشعر بالدوار، ربما لأننى جهَّزت نفسى للاحتمال أو لكل الاحتمالات، لكن الخطير الخطيـر أن تختـل الحسابات وأرانى واقفًا فى مكانى على هيئة تمثال جامد من الطوب اللَّـبن الذى هو طمى نيل مخلوط بنخالة تبن لفظته المواشى أو تأبت على التهامه فى زحمة الالتهام، لكن يوسف ابن حـلاق الحميـر التهمنـى وهضـمنى وأفرزنى نفاية مهملة بحساباته وحسابات بعض أنصاره، ناسيًا أن البدايات لا تنفصل عن النهايات تمامًا، وأنه لا بد من وجود خيط موصول بينهمـا، خيط نحيل لكنه قادر على التوصيل شأنه شأن التيَّار الكهربائى الذى لا يراه وإن كان من الممكن أن يصعقه إذا اعترض مسـاره مزهـوًا بطلوعـه أو محميًا بهؤلاء الأتباع الأنطاع الذين زينوا له التباعد عنى وأحاطوه ودسُّوا فى أذنيه الدسائس والنمائم والأكاذيب بينما كنت أنا مسنودًا على أوهـامى بأن العلاقة بينى وبينه ممتدة وأبدية لا تفصلها فواصل ولا يوقف مسـارها فيل، لأننى اكتشفت أن الأفيال تكسب فى نهاية المطاف حتى ولو كانت أفيالاً

من ورق مرسوم بألوان كذّابة فيمكن لملمتها ولفلفتها وصرّها فى منديل محلاوى على رأس فلاح ابن فلاح قرارى أصيل، لا بد أننى بحت الآن أو أوشكت على البوح بأخطر عيوبى وقد اكتشفتها بعد فوات الأوان.

كنت أظن ومازلت أصدق أن للبدايات أثرها الممتد إلى النهايات وما بعد النهايات وهذا عيب كبير، لعله من أهم عيوبى وأخطرها وبسببه خسرت الكثير، لكننى أشعر أن الخلاص منه مستحيل فى ذات الوقت، سوف أعتبرها لازمة من لوازمى وأتعامل معها على هذا النحو، البدايات تمتد إلى النهايات وما بعد النهايات.

هل خرج كفرنا من عبِّ الشراودة ودخل فى عبِّ الدكارنة كما يقولون ولا أصدق؟ أم أن كل شيء مازال كما هو، الشراودة وأصيلة ويوسف المحروس؟

بداياتى مع يوسف تقول لكل من شاف وعاشر واطّلع أننا كنّا صاحبان تربطهما علاقة دم، يختلفان فى أشياء ويتفقان لا يهم، لكنهما فى الحد الأدنى كانا صاحبان انكشف لكل منهما سر الآخر فأخفاه، وانكشف لكل منهما ظهر الآخر فما خانه ولا غدر به في أشد حالات الخلاف، لعلنا كنا فى نظر بعض الناس نبيلان يتعايشان ويتخاصمان بشرف، يتباعدان ويقتربان بحسب الأحوال، يتكارهان ويتوادّان دون أن تنقطع بينهما خيوط التواصل.

كانت الأشياء تتبدّل من حولى، وكانت الوجوه التى تحيطه تتغيّر، ولا بد أن الكلام الذى كان يسمعه عنّى لم يكن يختلف كثيرًا عن الكلام الذى أسمعه عنه من حيث أن مساحات الكراهية والحب فى قلوب الناس تتناقص أو تتزايد بحسب الأحوال أو المصالح، لكنه فى كل الحالات وربما منذ أيام الطفولة الأولى كان يوسف بالنسبة لى ضرورة ولا بد أننى كنت بالنسبة له ضرورة، أسبقه فى حفظ جزء من القرآن الكريم أو أتقدم عليه فى سنوات الدراسة الأولى أو يسبقنى إلى الدخول فى علاقات فسدانة مع البنات ويعلّمنى الجسارة أو أعلّمه التعقل، ثم تمضى سنوات العمر، أسبقه بخطوات أو يسبقنى بخطوات فى الحياة والمعرفة بخصال الناس وعاداتها، نختلف

فى الاختيار والذوق والفهم والأهداف لكننا نحافظ على استمرار العلاقة حتى فى أكثر الأوقات تباعدًا وخصامًا، لا بد أننى لعنته آلاف المرات ولعنت أمّه وأباه ولا بد أنه فعل نفس الشيء ولعننى ولعن امّى وأبى وكل صنفى، مارسنا كل ما يمكن أن يمارسه صديقان لدودان أو قريبان متنافسان أحدهما ابن حلاق حمير ترقّى أو توهم أنه ترقّى عندما تعلّم الزيانة فى رؤوس العيال اليتامى، والآخر ابن نصف أفندى فى مكتب الصحة ونصف فلاح فى كفر مات أبوه مسمومًا وما تجاسر يومًا على أن يفكر فى الثأر له أو حتى يحرّض عياله ضد من دسّ له السم فى كوب الشاى أو ضد نسله، كلانا حمل الحق فى الزهو أحيانًا وحمل عاره، صدنا العصافير بالفخاخ معًا وتسكعنا فى الغيطان نلملم البلح الساقط من النخل فى غفلة من العيال أولاد أصحاب النخل أو نهزهز فروع أشجار التوت ونلملم الثمار، ندسها فى جيوبنا ونفسد الجلابيب ونتعرض للعقاب دون أن نفكر فى الكفّ عن ارتكاب نفس الأخطاء، صدنا السمك بالسنارة وتجاسرنا فعملنا فى الترعة الصغيرة سدّين وصدنا القراميط الصغيرة بأيادينا، انضربنا معًا وما تأدبنا، صاحبنا دليلة وتنافسنا عليها، نلناها وتخلينا عنها، تسكعنا فى دار جدتى لأمى نبحث عن ثمار البرتقال والبلح وعناقيد العنب وكبيس العجوة، لاعبنا خالتى العبيطة «كاف» وضحكنا عليها وحرّضناها على سرقة ما كان يحلو فى عيوننا ولا نحصل عليه من جدتى برضاها فكانت هى تسلبه من أجلنا وتتحمل العقاب دون أن تعترف أبدًا، وفى مطالع الشباب حشّشنا معًا وحلمنا بالبنات والنساء والمال الكثير ووجاهة الوجهاء، حتى عندما كبرنا أكثر واختار كل واحد منا سكّته وتزوج على طريقته وخلّف ثم ربى عياله بحسب ما ارتأى وعرف، كنا نتلاقى بانتظام فى أوقات التقارب وعلى فترات متباعدة فى أزمنة الخصام، لكنه رغم طول الخصام وتكراره كان التقارب يحدث ولأسباب تافهة تتساوى مع تفاهة أسباب التباعد والجفاء الذى غالبًا ما كان يتحوّل إلى خصام معلن.

الغريب أن لحظات الصلح أو الاقتراب كانت تطرح سؤالها عن أسباب الابتعاد ويتوه من ذاكرتى الجواب، أنسى أو أكون بالفعل من قبل السؤال

الذى انطرح قد نسيت، كنت أفسّر الأمر على أنه بياض قلب من ناحيتى وربما من ناحيته أيضًا، وكنت أقول أن الدم الذى يجرى فى عروقنا يحَن لبعضه فيمسح من الذاكرة أسباب الخلافات، ولعله كان ذلك على وجه التحديد عيبى القاتل مع يوسف، كنت ولا شك أستند على البدايات أو المقدمات مطمئنًا إلى سلامتها بحساباتى لكى توصل إلى نهاية لا بأس بها فى آخر الأيام، ومهما قلت عن بياض القلب أو سواده أو قلت عن تلك الخصلة العبيطة التى حاولت أن أتخلص منها مرارًا وتكرارًا دون أن أنجح أبدًا – كنت دائمًا أستطيع النسيان – فيمكن أن يكون النسيان آفة ويمكن أن يكون نعمة، وفى حالتى كان النسيان نعمة أنعم بها رغم تحذيرات أمى فى البدايات وتنبيهات أبى الخاطفة فى بعضها الآخر لكن دون حماس، ربما لأنه هو نفسه كان يتمتع بنفس الخصلة أو يكابدها، لكن الأقارب والجيران والأصحاب كانوا يرددون نفس النصائح تقريبًا ويصفوننى بذات الأوصاف:

– إللّى يضحك فى وشه ياكل عقله.. وما بيتعلّمش أبدًا.. ينقرص كل قرصة وقرصة ومن نفس الجحر لكن يرجع تانى ويحوم حواليه، مفيش فايدة فيه.. الخلق تلطشها الحيطة تفوق ودا ولا هو هنا خالص.. مسيرها تنقطم رقبته على قناة صدره مادام مبيسمعش الكلام.. دا أحنا زى إللّى بندّن فى مالطة وهو زى الأطرش فى الزفة، ولا هو دريان.

ومثل هذا الكلام كثيرًا ما كان يقال على مسمع منى ولا أغضب، كأننى كنت أستمتع به وكأنه مديح أو تعبير عن إعجاب بمقدرتى على النسيان وبياض القلب أيضًا، لعلنى كنت على غير وعى منى أسعى لإثبات مثل هذه القدرة وبياض القلب لأحصل على أولوية ما مثل القدرة على احتمال الضرب التى يتمتع بها فؤاد الشوكى، أو القدرة على تدوير الطنبور أكثر من أى نفر فى الناحية التى يتمتع بها نوفل النعناعى، أو القدرة على تجميع الناس ونصب الجرسة التى لا يملكها غير حسنين المدندش، أو البراعة فى صياغة الشكاوى ضد الخصوم التى اشتهر بها صبحى النعسان، شىء من هذا القبيل أكون قد هيأت نفسى للوصول إليه دون وعى أو إرادة

أو حتى تفكير، ربما، ربما، وربما هو نوع من الاستعداد للموت مجانًا، أو جسارة كامنة فى داخلى تصل إلى حد الرعونة وترد على حذرى الموروث البادى فى كل معاملاتى، شىء أشبه بالرغبة فى الاستشهاد دون الحصول على وعد بالجنة، استشهاد مجانى لأننى لا أحارب اليهود أو الكفار دفاعًا عن الدين أو الوطن، بل إننى فى وسط الناس وأهلى أتحارب ولا أحارب، ربما ليس كل ما ذكرت ويكون الأمر خيبة بعيدًا عنكم وعن عيالكم.

كنا نتكلم عن إكتشاف العيوب فى نهايات العمر وهو اكتشاف متأخر ولا يفيد لأن المسار تحدَّد والمصير تحدَّد وما عاد هناك وقت للتراجع أو التعديل، ولعل هذا هو على وجه التحديد مادار فى خيال يوسف قبل أن يقدم على ما أقدم عليه ليخيِّب عشمى فيه ويثبت خطئى فى حساباتى عنه، يعلقنى فى فراغ مثل نفر بلا ناس ولا أهل ولا صاحب وقد ربطوه بالحبال وشنقوه على أعلى فرع فى جميزة الشرشابى التى هى أعلى جميزة فى كفرنا الشلبى، نفر غريب مشنوق ومعلَّق فى الفراغ لكنه لم يمت أو يفقد الشعور بالوجع والمهانة، لو مات يرتاح، لكنه لم يمت أو ينعدم فى خلاياه ووعيه الإحساس بالحياة، لكن النهاية رغم استمرار الحياة هى الموت، الموت المؤجل ولا يهم إن كانت فترة التأجيل ساعات أو أسابيع أو شهور أو حتى سنوات.

قلت لكم مرة أو لعلنى لم أقل لكم مرة واحدة بل عدة مرات أن يوسف كانت له حساباته عنى، كان يتباهى أمام الناس بأنه يملك مفتاحى ويحتفظ به، يعرف على وجه الدقة إلى أى حد كنت أحتمل ومتى ينفلت الزمام، ولا بد أنه كان فى هذا الأمر صادقًا مع نفسه ومع الناس:

- وإن زاد عليه الضغط تركبه العفاريت، يبقى زى التور الهايج ما تعرف لجامه فين، بس أنا عارف دواه.

لعله فى هذه المرة أخطأ بقصد مسنودًا على ما ظنه من أننى عجَّزت ولم أعد أشكّل أى خطر، وهى حسابات عمدة قليل الأدب جعلتنى اشتعل وأتأجج مثل نار فرن محمى يهبُّ لسان لهبه من فتحته العليا ويخرج ويمتد

ويمتد ليلتهم كل ما يصل إليه وقد وصل إلى قلب يوسف، سوف أشرح لكم أول قتلة انقتلها يوسف بيدى هاتين اللتين لم يلوثهما دم فرخة فى حياتى.

لم يكن حلمًا ولا كابوسًا ذلك الذى تبدَّى لى، كنت أنا هو أنا وقد خرجت من دارى متسللا أتوارى عن عيون الناس بتلك العباءة السوداء من قماش الجوخ التى لم أكن أملكها لكننى امتلكتها بعد أن فصَّلتها بنفسى وعلى نفسى مقاسى من ذلك القماش الذى كنت قد اشتريته فى زمن قديم ولم أستخدمه، كنت وحيدًا وفى القلب توحُّش، أنظر لنفسى فى المرآة فأرانى وقد طالت لحيتى وطال شاربى ومخالبى وشعر رأسى، كانت ملامحى قد تبدَّلت فى غفلة منى، بدَّلها الظلم الزائد عن حدِّ الاحتمال فما عادت التجاعيد التى تحيط بالعينين والجبهة هى نفس التجاعيد، حتى لون العينين الذى اعتدته وكنت أعرفهما به من بين كل العيون التى كنت أطالعها تغيَّر، وكان عودى قد انحنى على نحو مخالف لانحناءة الشيخوخة المبكرة التى تعرفونها، لعله كان انحناء الداخل وقد خرج وامتزج مع انحناءة الخارج فصيَّرنى محنيًا على نحو يجعلنى أقرب إلى شكل علامة الاستفهام أو شكل المنجل الذى نحشٌ به أعواد القمح فى مواسم الحصاد وقد طالت واصفَرت وحان أوان حشِّها، تشبهت بالموت أو كنت أشبه بالمنجل متواريًا داخل العباءة السوداء، تحوَّلت من بنى آدم حى إلى موت متحرك يقتاده شيطان ودود متعاطف مع حالتى، يدفعنى إذا تراخيت فى حركتى ويحمينى من احتمالات التراجع، يهمس فى أذنى بأنه سوف يساعدنى على إطفاء النار المتأججة فى القلب والدماغ والوعى والبدن والمشاعر شريطة أن أطاوع الموت وأشتغل مندوبًا عنه للحظة أو لحظات ينتهى فيها أجل يوسف وتندمل فى ذات الوقت جراحى وإلى الأبد، كنت فى أول الأمر أنتفض لكنه احتملنى حتى هدأت فأسلمنى السلاح المسنون المرهف وطالبنى بأن أنظر إلى صورتى المعكوسة على سطح المرآة، تأكدت أننى أشبه الموت من بعض الوجوه، تقافزت على سلم الدار وطلعت فوق السطح ثم تساندت على عزمى الذى فاض لأعبر من سطح إلى سطح وكأننى مازلت فى صباى وصدر شبابى، أذكر أننى وصلت إلى سطح داره والناس نيام وأنا الوحيد

الصاحى، كنت واعيًا ومتدفقًا بالرغبة ولم أكن شبحًا ولا خيالاً ولا وهمًا، وبالقطع لم أكن حلم يقظة، كنت قد تحولّت إلى موت حقيقى يرغب فى مداهمة الهدف دون عواطف معه أو ضده.

كنت فى غرفة نومه أرقبه عن قرب ولا يشعر بوجودى، وكانت العباءة السوداء تدارى سيفى البتار، كانت «أصيلة» تتمدَّد إلى جواره همدانة من أثر جهد بذلته فى الفراش قبل وصولى، عريانة وشعرها الأصفر يتناثر فى فوضى ولا يغطّيها كما كان يّدعى، وكان هو نفسه نصف غفلان نصف واع، من دهشتى أنه لم يشعر بوجودى أو يفزع كما كنت أتمنى، وكانت أصيلة تتقلّب فأراها مثل حزمة بوص خاوية جفّفتها شمس حامية وجعلتها أشبه بمجموعة خوازيق متجاورة على هيئة بنى آدم ممسوح الصدر، رفعت السيف عاليًا ثم نزلت به فى ضربة حاسمة وحيدة دقيقة التصويب لتفصل الرأس عن البدن، صرخت هى وحاولت أن تدارى عريها بالملاءة فتحركت الرأس وحدقت عيناه فى عينىَّ فى نظرة لائمة مكسورة مودّعة، وبدا لى أننى سمعته يسألنى:

- أنت؟.. أنت؟

كان الدم يتدفّق من مكان العنق الذى انقطع ويتناثر مثل سرسوب شاى نازل من «بزبوز» براد شاى فى آخر «الصبّة» والبقايا الساكنة فى الأركان وبين وريقات الشاى الدقيقة التى كابدت الغليان ثم سكنت عند مدخل «البزبوز» من الداخل غير المرئى، تتقاطر من داخله قطرات الدم وتتناثر، يتزايد تدفقها ويتناثر والأخرى ملمومة على روحها ولا هم لها إلاّ أن تتدارى، لعلنى قلت للوجه الذى ثبت وما عاد يتحرك كلامًا لا أذكره، لكننى أذكر أننى فكرت كيف كان يوسف يعاشر هذه المرأة التى تشبه الحنش؟

كنت أرمح فى دروب الكفر بلا غاية وقد بزغ شعاع الفجر الجديد ونوَّر الطرقات، وكان كل من يرانى يستوقفنى فلا أتوقف، يستمهلنى فلا أتمهّل، ينادينى فلا أراد، كنت وحيدًا وحائرًا وسؤال يوسف يطاردنى:

- أنت..؟ أنت؟

هل كنت أنا قاتله بالفعل أم أنهم هم الذين قتلوه وحمّلونى دمه ورأسه الملفوف فى طرف العباءة السوداء؟ شيطان بارع فى الوسوسة والتودُّد وإظهار التعاطف مع حالتى وملاك موت كسلان يوظف بنى آدم ويعلّق فى عنقه خطيئة إزهاق الروح، وناس من الكفر شاهدونى وأنا فى لحظات الانهيار أتهاوى وأسقط من فرط المهانة والإذلال وساعتها استنكروا ما جرى وهمست أصواتهم بأن يوسف هو الذى دبَّر كل شىء وكلّفهم بالتنفيذ ثم أظهر أسفه واستياؤه وكأنه لا كان عمدة للكفر ولا كانت هذه الناس الفسدانة من أتباعه تفعل فى الناس الأفاعيل بإشارة من يده أو عينيه أو إيماءة من رأسه لا يلحظها إلا المقربون، الناس شافتنى وقالت لبعضها البعض إن يوسف يخاف ولا يستحى، وإنه لو كان لى أهل ما كان تجاسر وأمر بضربى ثم تجريسى ثم الاعتذار الذى غطّى على الذنب، وقالوا إنه يستحق الضرب والطرد من كفرنا أو القتل بسكين بارد، صحيح أننى امتلكت القدرة على استخدام السيف البتَّار لكننى لا أعرف من أين حصلت عليه ولا كيف واتتنى الجسارة لاستخدامه ضد من كان شريكى فى مشوار العمر كله، لكنه لم يكن وقت الأسئلة بقدر ما كان وقت الاعتراف، كانت الناس تحوطنى فى دائرة وقد طلعت الشمس وزودّت نور النهار، وكنت أجلس على كتف الكوبرى المصبوب ساكتًا، لا أعتقد أننى أخفيت عنهم شيئًا رغم سكوتى، وهل يستطيع أى كلام أن يشرح ما جرى وأسباب ما جرى؟

أدهشنى أن تجاسر أحدهم وفتح العباءة ليشهدهم على مسئوليتى عن قطع رأس القتيل فما وجدنا رأس قتيل، كان مجرد رأس خروف أسود بقرنين ملفوفين ونقاط الدم وقد كفت عن السقوط، كانت ماتزال قادرة على تلويث الكفوف، هل سمعت ضحكاتهم أو أنه بدا لى أنهم كانوا يضحكون؟ هل استعادت ذاكرتى صورة العنق المحاط بصوف أسود وكيف كنت أتمنى لو جاء حلاق الحمير القديم ليقصّه كما كان يقص دائمًا خرفان الأضاحى والنعاج، وكيف اختلط علىَّ الأمر إلى هذا الحد وأنا أشهد قبالتى وجه

يوسف وهم يفسحون له حيزًا ليتقدم ناحيتي ويسألني نفس السؤال:

- أنت..؟ أنت؟

من عبطي استجبت لحضنه وهو يحتويني على مرآى من كل ناس الكفر ويصالحني فأنسى كل ما جرى منه وما كان وأفيق لأنسى من جديد.

* * *

لكن يوسف ستر نفسه، داوم على الذهاب إلى سوق البندر كل يوم خميس، كان يقف بدون تفويض بين من يشترى المواشى أو يبيعها، فى البداية تعرّض لمشاكل مع السماسرة الكبار لكنه استعان بالفراغ والحاجة والإلحاح وأحيانًا بطلب اللقمة الحلال التى تحميه من السرقة إذا جاع، ولابد أن السماسرة وجدوا فى استضعافه مبررًا ليفسحوا له حيّزًا ليتحوّل إلى صبى سمسار ينقل لبعضهم الأخبار ويجسّ النبض لحسابهم من بعيد لبعيد، وكانت معرفته بأحوال ناس الكفر هى زاده الأساسى ومبرر وجوده فى السوق، ولابد أنه كان يحصل على نصيبه القليل ويرضى به فى البداية حتى تبدّلت أحوال السوق وزاد رزقه، بعدها اشتغل لحساب نفسه وتقرّب من التجار الكبار والجزارين الكبار، ولم يكن من الغريب أن يطرق يوسف باب أى دار مصحوبًا بالتاجر الغريب ليفرّجه على البهائم الطالعة لسوق الخميس الآتى أو التى رجعت من الخميس الفائت، ولا بد أن البعض من أهالى الكفر كان يفضّل البيع فى الدار عن الذهاب للسوق وعرض المواشى أو الأغنام للبيع بحسب ما يعرضه عليهم التجار، ربما لأن البعض كان يرى أن السوق فخ منصوب يتحكم فيه السماسرة لحساب الجزارين وأكابر التجار، وأن الدار تحمى صاحبها وتستره وتدارى عليه، وأن الفيصل الأخير هو السعر المعروض الذى إذا وافق عليه فخير وبركة وإذا قلّ عن التقدير المحسوب فيفتح الله ويا دار ما دخلك شر، ولا بد أن يوسف نفسه كان يقول للناس مثل هذا الكلام ويعدهم فى ذات الوقت بإحضار التاجر المؤمن غير الطمعان الذى يكلّف نفسه مصاريف السفر ليشترى دون أن يكسّر المجاديف أو يبخس البهيمة قدرها مثلما يفعلون فى الأسواق بعد هذه

المشوار ولا بد أنه لم يمض وقت طويل قبل أن يصبح يوسف هو سمسار الكفر الوحيد الذى يطمئن إليه الأهالى ويطلبون منه جلب من يقدِّر أثمان أغنامهم ومواشيهم التى يفحصها بنفسه ويجس نبضهم بتقدير الأثمان اجتهادًا لا يلزمه أو يلزمهم بشىء، ولا بد أن ناس كفرنا الكسلان استراحت لهذه الطريقة السهلة، ولا بد أنهم هم أنفسهم الذين أشاعوا عنه أنه بارع فى تقدير الأثمان لأن ما كانوا يحصلون عليه لم يكن يزيد كثيرًا أو يقل عن السعر الذى قدَّره بينه وبينهم بعد الفحص السريع، وعلى هذا النحو فتح يوسف لنفسه سكة رزق معقول جعله يلبس الكشمير ويتلفّع بالعباءة الجوخ ويضع على رأسه لاسة المعلمين.

كانت فرحة جدتى بيوسف الذى أفلح فى أن يكسب من كدِّه وشطارته أكثر مما يكسب الأفندية المتعلمين فى المدارس والجامعة، ولا بد أنها كانت تقصدنى وتكيد أمى التى حرصت فى كل مرة تسمع فيها مثل هذا الكلام على السخرية من كلام أمها:

- إيش جاب لجاب يامَّه، ح تساوى إللّى اتعلم ونجح واتوظف بابن حلاق الحمير اللّى بيشتغل نصاب فى السوق وبيسمسر ع الفلاحين؟
- بيكسب ولاَّ ما بيكسبش؟
- وافرضى بيكسب.. ح يكسب إيه يعنى؟
- يكسب كتير.. دا السوق ياما رفّع ناس..
- أحنا ابننا معاه شهادة عالية
- وماله يختى.. بس إللّى جاى مش زمن شهادات.

يتحوَّل الجدل بينهما إلى حوار ممطوط لا ينتهى إلا إذا كح أبى ونادى على أمى ليلومها على مخالفة أمها فى كل شىء دون أن تراعى أنها كبرت فى السن ولن تتبدَّل مهما كانت الأسباب، لكنه فى بعض المرَّات كان يخرج إليهما بنفسه فى وسط الدار ويقتعد دكة النورج القديم ويقول لأمى:

- أمك معاها حق.. إللّى معاه قرش النهارده بيساوى قرش واللّى مامعاهوش مابيسواشى.

تفرح جدتى وتدعو له بحلاوة الريق الدائمة، كأنما تدعوه لأن يشاركهما القعود فى وسط الدار بدل الرقاد المتواصل فى المندرة، كان أبى فى تلك الأيام قد أحيل إلى المعاش وكفَّ تقريبًا عن كتابة اللافتات ومذكرات المحامين وخطوط أغلفة الكتب التى تطبعها مكتبة المستقبل فى المديرية، ذلك أن أبى كان قد أصيب بمواجع فى عموده الفقرى ومفاصله فصار قليل الحركة، قليل النوم، قليل الصبر والاحتمال، لكنه لم يفقد قدرته على السخرية من الزمن والناس، كان يبرع فى نسج الحكايات التى تليق بمناسبة الكلام، ولا بد أنه كان يريح جدتى عندما يحكى لها حكاية مرَّت به أيام الوظيفة تدعِّم فكرتها فتدعو له بالسلامة ودوام العقل والصحة وحلاوة اللسان، يحدثها:

- شوفى يا حماتى، واحد قابل واحد وسأله.. خطَّك أحسن من خطِّى؟.. رد عليه التانى وسأله.. حظَّك أحسن من حظِّى؟ سكت وقعد مكتوم كتمة المدمس.

- يا حلاوة كلامك يا جوز بنتى.. وبعدين؟

- كان معايا زميل ف مدرسة الخطوط، كنا بنتعلم خط، نسخ ورقعة وفارسى وكوفى وديوانى وثلث وكافة الأشكال، وأنا كنت شاطر عنه كتير، كنت أنا البريمو عليهم وهو كان ف صفّة الخايبين، طيب إيه رأيك بقى إنه بعد الدبلوم هو جرى واتنطط وسعى للأكابر وجاب وسايط عيّنوه خطاط ف الديوان الملكى نفسه.. شوفى أنتى بقى الديوان الملكى.

- كنت أعمل زيه وارمح رمحه ياجوز بنتى، أهو كان بقالنا واحد ف الديوان الملكى.

- أنا ما كانليش حد يا حماتى، وما كنتش أعرف أعمل ربع إللّى هو عمله، أنا كان كل مناى أشتغل ف البندر، عيّنونى كاتب ف الصحة

فرحت واتجوزت وخلّفت وعلّمت ووظفت واتحلت ع المعاش، وسمعت صوتك جيت، تحبى اكمل لك الحكاية؟

- سايقة عليك النبى تكملها قبل ما تقوم..

- صاحبى بتاع الديوان الملكى ده طبع كروت باسمه ووظيفته ف الديوان الملكى وكان بيبيع الكارت الواحد بميت جنيه ف عز الرخص بتاع زمان كانت تشترى خمس فدادين.

- بقى مية بحالها؟

- مية مجَمدة ورقة واحدة.. لو كانت فكة مايرضاش، شوفى أنتى بقى كارت مكتوب عليه فلان الفلانى وتحت منها الديوان الملكى، أبو مين يشتريه ويقضّى بيه مصالحه..

- يا خويا كنت هاتلنا منه كارتين تلاتة.. آمّال زمالة إيه؟

- وأدفع ميت جنيه ف كرت الخيبان.. ليه؟

- هو كان ح يدفّعك أنت كمان؟

- إللّى زى ده ما يعرفش زمالة ولا قرابة ولا حاجات من دى، كان ح يدفّعنى زى غيرى ويمكن أكتر كمان، المهم.. الراجل ده سنة والتانية بقى صاحب أملاك.. أملاك واسعة، ناس من زمايلنا قالوا إن عزبته فاقت عن الألفين فدان..

- ألفين..؟ بتقول ألفين؟

- وخد رتبة الباهوية رسمى كمان..

- كمان.. أمّال إنت فضلت خايب ونايب كده ليه؟

- انتى ح تغلطى فىَّ يا حماتى؟..

- يا خويا لو كنت عارفة الحكاية دى ما كنتش إديتلك البنت تخيِّب أملها كده.. وتطلع لها عيال متعلمة ومتوظفة وخيبانة. طب بكرة تشوفوا يوسف إللّى أنا مربياه، بكرة تبقى له عزبة تزيد عن الألفين فدان.

تثور أمى ولا تملك نفسها وتدفع أمها دفعًا متواصلاً:

- قومى ياولية.. قومى على حيلك.. قومى.. أنتى جاية تسبخَّينا ف دارنا كمان.. يوسف إيه يا بتاعة أم يوسف مرات حلاق الحمير؟ مش عاوزه أشوف وشك هنا تانى.

الغريب أن جدتى كان تضحك بينما تطاوع أمى وتقوم، تحتمل غضبها المفاجىء وتخرج من دارنا بالفعل وهى تدعو عليها بخفة العقل الزائدة وتظل تعايرها باسمها «الخروبى» وتهدِّدها بأن تكتب لها طلبًا لتروح الخانكة، ولولا ردود أمى التى تتوالى دفاعًا وسبابًا وملامة لفسرنا كل ما كانت تقوله جدتى لنسوان الدرب عن جنون أمى وقلة عقلها لصالحها. تشهِّدهم وكأنها بوجودها فى الدرب على مقربة من باب دارنا تكايد أمى وتعاندها بينما تتضاحك نسوة الكفر ويؤكدن لجدتى أن أمى لن تستغنى عنها وإنها هى نفسها لن تستغنى عن أمى مهما كانت الأحوال.

نتضاحك بعد ارتحال جدَّتى وهدوء أمى المؤقت قبل أن تعاتب أبى على سكوته عندما غلطت فيه أمها كل هذه الغلطات فيعاود تهدئتها ويذكرها بأن الموضوع من أوله ضحك فى ضحك وسرسبة كلام.

لكن يوسف كان يتبدَّى لى فأراه فى بعض الرَّحات مالكًا سطع نجمه وعلا صيته رغم وضاعة البدايات مستعيدًا إلى جواره صورة زميل أبى خطَّاط الديوان الملكى صاحب الأملاك.

* * *

كنت من أوائل القطر فى الشهادة التوجيهية فأسعدت أبى وأهلى، لابد أن أبى كان قد راهن على تفوقى وكسب الرهان، قبلونى بكلية الآداب جامعة الملك فؤاد وبالمجَّان، ويوم سافرت مع أبى لمصر المحروسة لم يكف عن إسداء النصائح لى، أوصانى بالتعقل وذكرَّنى بضرورة الانتباه لدراستى حتى أحافظ على تفوقى وأحتفظ بالمجَّانية، حذَّرنى من أصدقاء السوء أو المشى فى سكة الحرام والعيب، أجَّر لى سكنًا لائقًا بالقرب من

الجامعة واشترى الفرش الضرورى قبل أن يمنحنى أول مبلغ كبير أصرف منه على غذائى ومطالبى الأخرى، ذكّرنى بأننى أول من يدخل الجامعة فى أسرتنا متوسطة الحال التى ليس منها صاحب رتبة أو عزبة مملوكة، وعليه فيلزم أن أرفع رأسه ورأس أسرتنا والكفر كله، وعدته وأنا أودّعه على رصيف محطة القطار المسافر بتنفيذ وصاياه، سالت دموعى والقطار يتحرّك ويتباعد وهو يلوّح بيده وبدنه نصفه خارج من نافذة القطار، ورأسه العارى يطل ناحيتى وقد خلع الطربوش مخافة أن تطيّره الريح، لا بد أنه كان يتابع وصاياه رغم التباعد المتسارع للقطار الذى ظللت أنظر فى اتجاهه حتى اختفى ولم يعد هناك غير قضيبين متوازيين يشكلان ما يشبه السهم الذى يحدّد اتجاه الكفر والأهل والغيطان، عدت لأعيش أول أيام اغترابى متوحدًا ومحاذرًا من الخروج عن الخطوط التى رسمها لى قبل السفر، وفى الجامعة كنت أتباعد عن أولاد الأكابر وأصحاب النفوس الشريرة ممن لا يكف الواحد منهم عن الكلام الفارغ أو الدعوة لارتكاب المعاصى وقد ارتادوا البيوت السرية القريبة التى يتحوّل فيها جسد المرأة إلى سلعة يمكن تأجيرها مثل الدراجة المزوّقة والمعلقة على جدار مدخل دكان العجلاتى. كانت سكة الحرام فى المدينة تخوّفنى، لكن وسواسًا خناسًا كان يوسوس لى بأن أجرّب وقد صرت وحدى لا رقيب ولا محاسب، لكن الوسواس الخنّاس لم ينجح كثيرًا قبل أن أتسوب عن المعاصى وانتبه لدراستى.

لا أدرى كيف نجوت من المدينة أو كيف فاتت سنوات الدراسة دون أن أفقد تفوقى والمجّانية وثقة أبى وأهلى وزهو ناس الكفر بأدبى وحسن تربيتى، بينما كانت فضائح يوسف الذى ترك المدرسة تروى على الألسنة كنوادر لا تليق بواحد فشل فى الحصول على الابتدائية ورفض أن يتعلم صنعة أبيه أو يتطوع فى خدمة الجيش، كنت أتقابل معه على فترات متباعدة ربما حرصًا منى على أن تظل صورتى فى عقول الناس وأولهم أبى وأمى كما هى صورة بيضاء لم تفسدها المفاسد حتى ولو كانت لا تخصنى، صحيح أننى كنت خلال سنوات الدراسة منشغلاً بالدراسة لا أرجع

إلاّ فى أجازات الصيف، لكننى كنت ألتقى خلالها بالأقارب ورفـاق العمـر أحدثهم عن المدينة عالية البنايات وقاطرات الترام التى تسير فى الشـوارع إلى جوار الحناطير والدراجات والسيارات ذات الأبواق العاليـة، ينبهـرون ويسألون عن البنات السافرات اللابسات ثيابًا عريانة فلا أفيدهم بشيء، ولا بد أنهم تشككوا فى أمرى، وأنهم استدعوا يوسف ليكون معنـا فـى آخـر أجازة صيف، كان يأتى ويتحدَّث عن مغامراته مع البنات فى الكفر فيأسرهم ويأسرنى، أشعر أننى انعزلت عن الدنيا خلال فترة اغترابى والدراسة، لعله فهمنى أكثر مما فهمونى وتجاوب معى بما يليق فتحوَّل بعدها إلـى أنـيس وجليس، يسألنى ببعض الوعى فأسمى لـه الأبطـال والأحـداث والخونـة وشهداء الوطن، أصف له بحسب ما تسعفنى الذاكرة تلـك المعـارك التـى خسرناها وتلك التى كسبناها فيهز رأسه بدهشة، أحدثه عما خلَّفه الفـرس والرومان والأتراك والمماليك المجلوبين والخصيان من قلاع وقصور، أشعر فى بعض الأوقات أنه صار شريكى فى رحلة الكشف عن المخبوء فـأفرح، وأشعر أحيانًا أننى كنت احتاجه اكثر مما يحتاجنى لأنه بارع فى الاستماع، يسأل أو لا يسأل أولاً لكنه يحسن الاستماع، لعلّنى كنت أدرِّب نفسـى دون أن أقصد على مهنة المعلم، بل أنه هو الذى أوحى لى بذلك مرّة:

- دانت ح تبقى مدرس شاطر.

وكان يحق لى وقتها أن أزهو بنفسى، يسألنى، وأنا فى هذه الحالـة عن حلمى فى المستقبل فأجاوبه دون أدنى تردد بأننى أتمنـى لـو علّمـت تلاميذ المدرسة شيئًا نافعًا من تاريخ الدنيا وتاريخ الوطن، يسـألنى مـرَّة أخرى وكأنه يصحِّح السؤال السابق عن حلمى الأكبر فأحدثه عـن رغبـة أشعر بها داخلى للعطاء من أجل مستقبل الناس وعيال الوطن، يبدو حـائرًا فى أول الأمر ثم ما يلبث أن يبتسم قبل أن يحطَّ يده اليمنى على ظهـرى أو كتفى، يحركها بنعومة ثم يسحبها ويفرد الكفيَّن وكأنه يقرأ الفاتحة على قبر ميت ويقول نفس العبارة:

- ربنا يجعلنا من بركاتك يا سيدنا الشيخ.

أكتشف على امتداد الوقت أننا رغم الإئتلاف نختلف، لكنه كان خلافًا محتملاً، لعلّ بوسف فى تلك المرحلة وعّانى بأقصر الطرق لتحقيق الطلوع غير أنى لم أفهم أو أستجب، ولعلّنى برغم إرادتى زوّدت معرفته بما جرى فى الأزمنة السابقة فقدمت له دون قصد مفاتيح بعض الأبواب المسكوكة، يفتحها إذا شاء وقت أن يشاء، وربما كنت أنا فى ذلك الزمان كتابه المفتوح على الماضى وعينه المستكشفة، أو كنت درويشه الغطسان فى قراءة التمائم القديمة والأدعية وأوراد المشايخ، ولعلّه كان منبّهى ومحذّرى من الاسترسال فى الأحلام المستحيلة، أو الغرق فى دوّامات الطنطنة فى هامش الطنطنة، كان يفاجئنى دائمًا بسؤاله:

- ما فكرتش تعمل حاجة لنفسك فى المستقبل؟ لحسابك أنت؟

أتحيّر فى فهم مقصده لإصراره على تكرار السؤال رغم عجزى فى كل مرّة عن الرّد عليه، وهل كان لواحد مثلى أن يحلم بأكثر من وظيفة؟ وكان أبى يسعى ويسافر ويحصل على وعود بعدد المشاوير التى يقطعها، وعلى نصائح بأضعاف أضعاف الوعود تطلب منه أن يوطّن نفسه على الصبر حتى تتغيّر الحكومة، لكن الحكومات كانت تتغير بسرعة أو يقيلها الملك ولا تتحقق الوعود، يبقى لنا الصبر واحتمال الانتظار، ولعل إحالة أبى للمعاش زوّدت همّه وأحزنت قلبه، صار يتحدث عن مشوار عمره الطويل الذى قطعه ماشيًا على السراط المستقيم دون أن يتحقق له أو لنا ما كان ينتظره فى آخر المشوار، كانت الوساطات هى الوسيلة الوحيدة للحصول على عمل، لم يعد هناك أدنى خجل أن يأتى واحد من زملاء أبى القدامى ليعرض عليه توسيط فلان بك أو فلان باشا بمقابل يحدّده من غير مواربة، وكان أبى يشعر بالإهانة والغضب، يعتذر للرجل عن تدبير المطلوب، وعندما يخرج الرجل كان أبى ينصب فى الدار مندبة ويلعن الحكومة السابقة والحالية والتى سوف تأتى، يتوجّع من أنه جعلنى أرمح بكل عزمى وفى نهاية المشوار لم نحصل على شىء أكثر من شهادة على ورقة ليست لها شفاعة أو فائدة، وكانت الأسئلة المتكرّرة سواء بحسن نية أو سوء نيّة

تزوِّد فى قلوبنا الوجع وتؤكد عجز أبى عن الوصول إلى أى واحد من المسئولين الجدد بعد أن أحالوه إلى المعاش واقتعد الدار مثلى يندب الحظ المعاند ويتحسَّر على ما فات ويشكِّكنى فى سلامة الاختيار.

وكان يوسف فى نفس تلك الأيام يفتح لنفسه السكك ويتشدَّق بأسماء أكابر الناحية والعبِّ الجوَّانى من شراودة ودكارنة ونوَّاب برلمان أعيان يستطيع الواحد منهم أن يتولى تعيين الأفندية أمثالى فى الوظائف بشروط لأن لكل شىء فى بلدنا ثمنه، والشاطر الشاطر هو الذى يدفع ويستلم ويوسف يفتح الموضوع ويقفله فى نفس الوقت بنفس العبارة:

- بس أنتو بقى مش بتوع حاجات من دى.. براحتكم.. خليكم على راحتكم

ومن أول السطر كنت أشعر أنه يتعامل مع الدنيا بمنطق السمسار فى السوق الذى إنعجن فيه وفتح لروحه داخل دهاليزه أكثر من سكة، سمسرة وتجارة وتربية مواشى وتسمين عجول فى الزريبة الكبيرة التى كانت جزءًا من أرض الواطية، تجاسر يومًا وسوَّرها بالحطب ثم استبدل الحطب ببوص مدهوك بطمى مخلوط، ثم تجاسر أكثر وبناها بالطوب من داخل السور المعمول بالبوص ثم سقَّفها بالخشب وفتحها على خلفية دارهم، وبعدها انفتح الباب لغيره من أصحاب الدور التى تطل على الواطية من أى ناحية، كان كل من يطمع فى جزء من هذه الأرض التى كانت على المشاع يذهب إلى يوسف فيحدِّد المساحة التى يرغب فى ضمِّها ويدفع له الثمن الذى يحدِّده يوسف قبل أن يضع على أرضها طوبة واحدة لأن يوسف أشاع أنه اشتراها ودفع ثمنها دون أن يحدِّد اسم صاحب الواطية الأصلى أو الثمن الذى اندفع فيها، لكن ما كان يهم الناس الساكنين حول الواطية هو إمكانية ضم الأجزاء لمقدمات أو مؤخرات أو أجناب دورهم، ومن هذه المبالغ تكونت خميرة البداية ليوسف الذى كان أول من نهش أرض الواطية التى تحوَّلت إلى شبه فطيرة كبيرة انحطَّت وسط مجموعة فقهاء عميان فمزقوها وابتلعوها على عجل وبلا نظام أو رحمة حتى أنه لم يبق منها غير شرم

ضيّق ينفذ منها البنى آدم متوسط العود بجنبه ولا يسمح بمرور عيّل سمين بالعرض، قالوا إن يوسف نفذ موضوع الواطية بعد أن استأذن من أكابر الكفر وسمحوا له لأنه تشكىً لهم واستعطفهم فعطفوا عليه ووعدوه بعدم التعرض له ثم ندموا على ما فعلوا وإن كانوا لم يلحسوا كلامهم، وقالوا إن يوسف سأل وتأكد أن الأرض مشاع فعمل العملية شطارة وخفة حركة لأنها فى واقع الأمر اختفت مثلما يختفى المشمش فى كفرنا بعد ظهوره بأيام، أو حتى قبل أن يراه البعض أو يتذوقه العيال، بعدها استخدم يوسف بشهادة كل الناس خميرة البداية وتحوّل من سمسار صغير إلى سمسار وتاجر ومربّى عجول ومالك تحسب الناس حسابه وترد عليه السلام رغم إنه ابن حلاق حمير.

لكن وثبته الكبرى جاءت على يد جدّتى التى سألته ذات مساء وهو فى دارنا مع أمه فرحانة إن كان لم يفكر فى الزواج وقد تعدّلت أحواله فجاوبها:

- أنا عايز نسب يسندنى.. ناس تكون جامدة ولها هيبة.. إيه رأيك فى رأفت الشارد.. بيقولوا عنده بنت.. ما.. ما. جلهاش نصيب.

- أصيلة؟

صرخت أمى بالاسم فى فزع وهى تنظر ناحية جدَّتى المندهشة والتى لا بد أنها كانت قد ذكرت اسمها عدة مرات وهى تعيد على مسامعنا تلك الحكاية القديمة التى كان الناس يتداولونها عن قرابة الشراودة بالشلبى، كان اسم جعفر بك الشارد يتردَّد على لسانها فى تلك الأيام كملجأ يمكن أن نلجأ إليه إذا فشلنا فى الحصول على الوظيفة بطرقنا:

- وفيها إيه يا هبلة، أهو مشوار، وشوفى بنفسك الخير إللّى هما فيه.

تقولها جدّتى لأمى إذا اختلت بها وحدثتها عن جعفر الشارد وأخيه رأفت الشارد الذى عنده بنت بارت وفاتها قطار الزواج.

- خديها له يا هبلة، خديها له دى إللّى ح ترفع مقامه وتعمل له سعر

تصرخ أمي وتعاركها بكل عزمها وربما تطردها من الدار طردًا وتشيّعها بالسباب، والأخرى تضحك وكأنها بإثارة أمي حقّقت المراد من زيارتها، تشتم أمي وتذكّرها بأبيها الخائب الرجاء فتثيرها أكثر ولعلها لا تهدأ إلا إذا تدخّل أبي وقام ليذكّرها بهمنا الكابس على صدورنا.

- اهدى آمال.. هو إحنا ناقصين، بزيادة إللّي إحنا فيه.
- قال يا خويا عاوزاك تناسب رأفت الشارد.
- وبعدين بقى.. ماتقول إللّى هى عايزاه.. هو الكلام عليه جمرك؟
- حاجه تنقط.

على هذا النحو كانت الزوبعة تثور فى دارنا، مشروع زواج بالإكراه ترفضه أمي ولا يقبل أبى مناقشته ولا دخل لى فيه بأكثر من السماع، لكنه فى هذه المرة تحوّلت الدفة وانحرفت كل المجاديف لتجدّف فى بحر الشراودة وبنت رأفت الشارد لحساب يوسف، فجأة تحوّل يوسف إلى مشروع عريس بديل معلن فى دارنا وكأنه جاء خصيصًا مع أمه فرحانة وجدّتى لإبلاغنا بما لا يهمنا من ناحية الشكل لكنه يهمنا من ناحية المعنى، ما معنى الإلحاح السابق رغم الرفض ثم الحديث عن النسب الذى يسند والناس التى لها هيبة وضد من هذه الهيبة؟ على هذا النحو فكرت وأنا أنظر إلى يوسف وقد تحوّل إلى بديل لا أرضى أن يكون بديلى أو أكون بديله حتى ولو بالكلام، نظرت جدتى ناحية أبى وسألته:

- رأيك إيه يا جوز بنتى؟. يوسف مستعد أهه، أمشّى له السكة؟، واجب أشاورك.
- إحنا ما كانش بينا وبينهم كلام لجل تشاورينى.

سكتت هى وقام أبى تاركًا المكان وداخلاً إلى القاعة الجوّانية تتبعه بعينيها أمي وقد سكنت فى مكانها، متماسكة بعسر شديد حتى لاينفلت لسانها بالغلط، طال الوقت أو بدا لنا ويوسف قاعد فى نفس مكانه وقد طال عنقه وانمطّ فبدا على هذا النحو أطول من قامته الحقيقية وأعرض، وكانت أمه فرحانة تجلس إلى جوار أمي على أرضية المندرة بينما جدتى فى

الناحية الأخرى مشحونة بكلام ومتحفزة للنطق به عندما يحين الوقت اللائق، أو ينفتح باب الكلام المسكوك بكلمة أو إشارة أو حركة، لكن أمى أحكمت إغلاق الباب أكثر وكأنها سكّته بالضبة والمفتاح وهى تقول ليوسف بينما تقوم من مكانها وتتجه ناحية القاعة الجوّانية:

- مبروكة عليك يا يوسف، أنا داخلة أشوف الراجل رقد ولا إيه.

تململت جدتى بقلق، لعلها فتحت فمها ولم تعثر على الكلام اللائق فابتلعت الهواء وابتلعت معه ما كان على لسانها من ألفاظ، حركت نفسها بعسر ثم قامت فقامت فرحانة وقام يوسف وقمت أنا أتابعهم وهم يخرجون فى صمت، جدّتى أولاً وفى كعبها فرحانة ثم يوسف الذى كان يشير بيده عدة إشارات متتابعة لم أفهم معناها أو أسأله عن مغزاها خصوصًا وأنه كان يضع يده على فمه وكأنما يمنع نفسه من الكلام أو يمنعنى، وعندما انسكّ الباب تأكدت أنهم فى الشارع المفتوح لأى كلام.

وفى القاعة الجوّانية كان أبى يرتكن بكوعه على مسند الكنبة واضعًا رأسه المائل على راحته المفرودة لأعلى، وكانت أمى تجلس قبالته على نفس الكنبة، لا بد أنهما لم يشعرا بوجودى وأنا أدخل المكان لأنها كانت تحاوره بنفس النبرات:

- وهو ده يليق له جواز الوقت ده؟

- دول قطّاعين طرق وقتّالين قتله.. أنا خايف ع العيال.

- إحنا فى حالنا..

- ما هو المرحوم كان ف حاله.. لا اشتكى ولابلّغ ولا نطق.. يدوب فهم وبعبع بكلمتين ف الدار دارنا.. حطوا له السم ف كبايّة الشاى

- يعنى أنت كنت شفت؟ كلام الناس كتير ونصه كدب.

تنهد.. والتفت ناحيتى، أشار لها إشارة جعلتها تلتفت ناحيتى هى الأخرى، طالبتنى بالجلوس بدل الوقوف وسألتنى عن جدّتى وفرحانة ويوسف وكيف تركتهم فى المندرة فجاوبتها بأنهم خرجوا، هزت رأسها

وجعلت تربّت على كتف أبى فى حنو وكأنه طفل غضبان تصالحه أمه:

- قوم ما تقعدش كده.. هو حصل إيه؟

واستأذنت أنا خارجًا ومدعيًا أننى ذاهب لبيت الأدب، ولا أدرى كيف شعرت بثقل فى أسفل البطن جعلنى أتجه إلى بيت الأدب فعلاً رغم أننى كنت عندما استأذنت منهما لا أفكر بالفعل فى الذهاب إلى هناك، لعلنى كنت أعفيهما من وجودى فى نفس المكان ليكملا ما كان بينهما من كلام، وفى العتمة النسبية وأنا اقتعد القاعدة وأخلع بسرعة قبل أن يندفع من مؤخرتى إسهال له رائحة عفنة لم أعتد شمها قبل ذلك أبدًا، كنت أرغب فى الفرار من الرائحة وأشعر فى ذات الوقت بثقل شديد وامتلاء زائد وعسر فى الإخراج، هل طاف فى خيالى وأنا مزنوق طيف جدَّتى لأبى أو سمعت صوتها وهى تحكى بحسرة حكايتها المكرورة عن عمدة الكفر الجوّانى الذى دسَّ له السم فى كوب الشاى وهو فى شغله فى مكتب الصحة جنب مفتش الصحَّة فمات بحسب قولها قبل أن يفهم بقية الملعوب، مجرد أنه حاول أن يفهم، لا اشتكى ولا أبلغ ولا نطق بحرف للغرباء، بعبع فى داره بكلمتين فسمعتها الجدران ودفع ثمنهما حياته بيد الشواردة.

تباعدت جدَّتى عدلات عنا فى أعقاب ذلك اللقاء الفاتر فارتاحت أمى وشعر أبى بمزيد من القلق، كان ما يدور فى الدار مجرد تكرار تتعارض فيه آراء أمى مع مخاوف أبى، هى مطمئنة ومرتاحة وهو قلق وخائف، يتحدثان عن تاريخ الشواردة والشلبى وكيف استند على مكائد النساء وتدبيرات النساء، الغزالة الشاردة وفطوم وزاهية وأم هارون ومريم أم البنات، والآن جدَّتى عدلات التى ظلت تعلن وتؤكد أن الأفضلية عندها للناس الشلبى ومن يدورون فى مدارات الناس الشلبى أو يدور الناس الشلبى فى مداراتهم، فضلت فرحانة والعبيطة «كاف» على أمى العاقلة الكاملة بحسب وصفها هى نفسها والذى لم يكن له أى فائدة أو أثر، هو رأى لوجه الله تعلنه بمناسبة ومن دون مناسبة لكنها تتعامل بما يوحى بمعكوسه تمامًا وتبرر:

- انتى بتسلكى فى الحديد، لكن فرحانة الغلبانة المقطوعة «وكـــاف» الهبلة يحتاجوا إللّى يسندهم ويتسّندوا عليه.

وكانت أمى فى كل مرّة تثور محتجة وتتعارك وربما لا تهـدأ إلاّ إذا تدخل أبى وسألها إن كانت فى حاجة إلى أى شىء وتخجل أن تطلبه منــه وهو المسئول عنها فتنفى ذلك، يسألها كيف تسمح لنفسها بأن تظهر للناس وكأنها طمعانة فى أمها فتشعر بالخجل وربما تسكت قبل أن تعود فتتــذكر ميراثها من أبيها وتطلب منه أن يريحها ويطلبه من أمها، يؤكد لها إنـــه لا يصح أن يتدخل بين بنت وأمها من أجل ميراث هزيل وعلى المشاع لا هــو مكتوب ولا شهد عليه شهود.

لكنها كانت مناوشات لا ضرر ولا خطر بحسابات أبى، لكـــن الخطــر الحقيقى جاء مع عرض النسب والتزاوج من بنت رأفت الشارد التى بـــارت بشهادة الكل وفاتها زمن الزواج، هو نوع من الزواج بالغصب والتخويــف ورفضه خطر وقبوله خطر، كانت هذه هى خلاصة رأى أبى فى تلك الأيام، وكان يجرؤ فى بعض الأحيان على السخرية من العرض المتكرر:

- طيب، يوظفوه الأول وياخدوه، ولا هما على طول كده ياخدوا قبــل ما يدّوا واكتر بكتير؟ كسبانين كسبانين، يكونوش فـــاكرين إنهــم بيطيبوا خاطرى لجل ما أنسى إللى فات؟ يمكــن، طيـــب يطيبــوا خاطرى بعروسة تستاهل الولد المتعلم، مش بنت بايرة أكبر منـــه بعشرة اتناشر سنة ع الأقل.

تسكته أمى فيسكت ويتذكر أن الجدران لها آذان قادرة علـــى ســماع دبة النملة، يسكت بعد أن يبرر سكوته بالخوف على العيال، نخاف وننكمش على أرواحنا أكثر مما انكمشنا فى الأزمنة السابقة، أشعر أن لنا فى رقـــاب هؤلاء الناس دم، وأننا مطالبون بأخذه من أعمارهم بينما يسكننا الخــوف الذى زرعه أبى فى قلوبنا، أرغب فى أن أتجاسر مرّة وأتحرّر من خــوفى وخوفه، أن أمتلك جرأة أمى على المواجهة فأكاد أن أمتلك الشجاعة بالخيال وأن أتخطى كل الموانع وأنسف كل المعوقات ثم أصل إلى غايتى وأتحكم فى

مصيرى ومصائر أعدائى، أعفو عن البعض وأقتص من البعض قصاصًا عادلاً وأرفع هامة أبى المحنية دون مبرر، ثم أفيق لأجد الفاصل الجديد فى الحكاية القديمة وقد دخل يوسف إلى بؤرة الأحداث بديلا عنى يرتضى الدوران فى المدارات الأعلى كتابع مطاوع لهؤلاء الناس ذوى الهيبة والشوكة القديمة، مركوبا بحسابات أبى وأمى أو راكبا بحسابات جدتى عدلات، طالعا على أكتافهم أو نازلا تحت نعالهم من أجل أن يعمل لنفسه فى كفرنا مقامًا أعلى من مقامه الحقيقى، متغطيًا بهم بحسب ما قال لى لأن الناس الشلبى عرايا ومن يتغطى بهم فى كفرنا عريان.

كنا فى دارنا نتابع أخبار الزيارات المتبادلة وقد خفّت حركة جدتى عدلات من والى الكفر الجوّانى ودوّار رأفت الشارد، وخفت حركة بعض الناس الشراودة إلى دار جدتى وكأنها تبشر بفرح قادم لقلوب بعض الناس على حساب بعض الناس، أو أنها تبشر بطلوع ناس ونزول ناس، يكتمل اطمئنان ناس وخوف ناس.

* * *

وزهزهت ليوسف الأيام وقال الناس للناس أنه تاب عن كل شىء يغضب الرب أو عباده، وقالوا إنه صار من العباد الصالحين يصلى كل فرض فى أوانه حاضرًا وكل جمعه فى جامع كبير، يسافر بالمخصوص ليلة الخميس ويصلى فى مقام البدوى أو الحسين أو الدسوقى أو المرسى أو غيرهم من أولياء الله صلاة الجمعة جماعة، قلت خيرًا مادام قد زال شره عن عباد الله فهو خير، بينى وبينه وبين الناس اعتزلته وما عادت سيرته تشغلنى بعد ما كان منه، لا صلح وخصام، بينى وبينه حدّ الله ويوم الموقف العظيم يحاسبه على ما جناه، إن كان ظالمًا فلا فرار من الجزاء وإن كان مظلومًا عوّضه الحاكم العادل الذى لا يدانى عدله فى الدنيا عدل، حتى أشواقى أن أرى فيمن غدر بى وخان ساعة واحدة من ساعات الندم أو أن أسمع بآذانى اعترافه بأننى انظلمت ولو باللسان، حتى هذه الأشواق فترت وكادت أن تنمحى من كثرة العّد وفوات الأيام دون أن تظهر عليه بشائر

الضعف أو نقص القدرة على ممارسة الظلم، لا صلح ولا خصام، وهل كان من الممكن لرجل فى مثل حالتى وعمرى وجرح قلبى أن يصالح أو يخاصم؟، كنت قد تحولّت بفعل الغدر والخيانة لخبز العمر وملحه وعلاقة الدم البعيدة إلى خيال، مجرد خيال كاره حتى استمراره فى الحركة والتنفس وسماع صوت نفسه وقد انعزل وتقطّعت كل الخيوط التى كانت توصّله للحياة ونبضها الخلاب، زهرّهت ليوسف الأيام ولم أصدق أو حتى اكذّب أنه تاب، تاب أو زاد شرّه مهما زاد فهل يمكن أن يفيض على واحد مثلى أكثر مما افاض؟ زهزهت ليوسف الأيام لكننى لا كنت فى صفّه أتباهى به مثلما يفعل الناس الشلبى ولا كان فى صفى محسوب له أنه راعى عشرة السنوات وعظام المدافن، لكن لكل شىء فى كفرنا نهاية، ونهاية يوسف غير كل نهاية، ربما لأنها جاءته فى زمن الزهزهة والشبع الذى ما بعده شبع من كل شىء، مال وعزوة وخلفة وقدرة وهيبة وإمكانية حاضرة لتصفية الخصوم أو حتى من يتشكك فى ولائه، ولا بد أن يوسف شبع أيضًا من ممارسة الشر واطمأن باله أنه لن ترتفع فى مواجهته هامة أو يعترض على أى فعل من أفعاله معترض.

وفى كفرنا وكل بلدان الناحية مثل منطوق عمَّن خلّف من صلبه خلفة فلم يمت، خلفته هى امتداده وبقية عمره حتى لو انحشّ أجله بفعل فاعل أو مجموعة فعلة، استحضرنا المثل ورددّناه وتأكد لنا أنه مثل أصيل وحقيقى وغير مدسوس، طالع من نفس الأرض وشارب من ماء النهر مثلما كان إبراهيم ابن حسين البرادعى، حسين البرادعى الذى انضرب بالنار فى عز الظهيرة فارتمى على محصول قطن غيطه المجموع تحت الجميزة المائلة والتى كان يطيب له أن يقول عنها إنها مائلة مثل الزمن الشلبى أول ما تولى يوسف عمادة الكفر لأول مرة، حسين البرادعى الذى كان يستطيع إذا شاء أن يضحك طوب الأرض بسبب قدراته الفذّة على تشبيه الناس والأشياء بتشبيهات مضحكة، وكان ناس الكفر بأكابره وأصاغره يسمعون ويضحكون ويسامحون لأن عقل حسين البرادعى طاقق ولسانه مفلوت، تستهويه النكتة فيطلقها دون أن يحسب حسابها أو يقدر على تلجيمها

وكأنها ركوبة مفلوتة فى السكك والغيطان لا يعرف الناس مكان مربطها أو حبل لجامها، أيامها كان يوسف حديث عهد بالعمادة لأول مرة، وكان الشراودة أهل أصيلة يبحثون فى دروب الكفر عن المربوط ليضربوه حتى يخاف ويكشّ من سابب قيده وانفلت، ولعلهم وجدوا فى شخص حسين البرادعى غايتهم ومرادهم لأنه من صنف معدود ناسه على أصابع اليدين يسكنون فى زقاق ضيق مخنوق داخل درب الناس الشلبى بعد أن كان يتسمى درب النعناعية والشوكى ثم باسمهم غصبًا وعدوانًا، شخص ساكن دخنوق وله زوجة شابة وطفل صغير وليست له إخوة أو حتى أولاد عم معمول حسابهم بالإضافة إلى لسانه الذى تجاسر ووصف أصيلة بأنها بوصة أفرنجى ثم لم يكتف بل أضاف:

- ومخوّخة وسلتْ ملتْ خالص، مالهاش كسْم، بس يا سبحان الله، عمدتنا الجديد يوسف عملها قنطرة، واستحملت الدوس لجل مايعدّى ويفوت، حدش يا ولاد بلدنا شاف معدية معمولة من البوص الأفرنجى..؟ أنا شفت.

وفى عز عز ظهيرة يوم شمسه نار حامية على أبدان الناس فى الغيطان ووسط خطوط القطن المنوَّر تجمعه وتحلم بالكسوة انطلق عيار مزدوج وأصاب صدر حسين البرادعى الذى سقط على كوم قطن غيطه الصغير والذى كان يجمعه تحت الجميزة المائلة مثل الزمن الشلبى، ولأن نار الشراودة أحمى من وقدة الشمس فقد أنكر واستنكر كل من حضر أو شاف مصدر العيار المزدوج، لكن حسين البرادعى باح لأم الولد.

- دمى فى رقبة يوسف شلبى يا أم إبراهيم.

قالها وحاول أن يقبّل الطفل المحمول على صدرها وقد قرَّبته من حسين الذى بدا لها أنه كان يلعق خد الولد، لكنها كانت لحسة موت ارتمى بعدها فوق كوم القطن المخلوط بالدم.

كانت حكاية قديمة من عمر إبراهيم ابن حسين البرادعى، ولا بد أن

سنوات عمر إبراهيم إنضافت لعمرى وعمر يوسف وعمر كل ناس الكفر بالعدل المطلق باليوم والساعة والثانية، انضافت للغنى والفقير والصغير والكبير والحاكم والمحكوم، ربما لأنه فى حساب الزمن لا فرق ولا تمييز مثلما يحدث فى الأرزاق من تفاوت واختلافات، ولعل الناس تناست ما جرى لحسين وفوّتت عبر السنوات التى هى عمر إبراهيم تلك الكذبة التى ظهرت لها سيقان وراحت تسرح فى الدروب وتزعم أن العمدة يوسف حتى بعد أن عزلته الحكومة ظل وفيًا للعهد الذى قطعه على نفسه بأن يتولى تربية إبن المرحوم فى دوّاره التى صارت بعدها داره قبل أن تستعيد مجدها وتتحوّل إلى دوّاره للمرة الثانية وبنجاح كبير، أخذ يوسف إبراهيم وأم إبراهيم، إبراهيم ليكون عبدًا مجانيًا من بين الخدّامين الأتباع، يتعلم أول ما يستعلم النطق عبارة «سيدى يوسف وستى أصيلة» بينما تخدم أم إبراهيم فى الدار وتحتمل إهانات الست أصيلة التى لا حد لها ولا مانع، وربما كانت تكيدها وتزوّد غلّها تلك التقاطيع الباسمة رغم الحزن البادى وهذه التفاصيل البارزة بانتظام ظاهر على البدن والتى قيل من بين ما قيل أنها كانت سببًا فى إصرار يوسف على استخدامها فى خدمة داره بالنهار أمام أصيلة وكل الناس، ثم خدمة هواه ونزواته بالقهر والغصب فى الليل ومن وراء ظهر أصيلة وكل الناس، كلها أقاويل لكنها لا تخلو من احتمالات حدوث أو على الأقل محاولات فاشلة أو نصف فاشلة، لايهم، المهم النوايا، والنوايا كفيلة بكتابة الحسنات والسيئات فهل تفشل فى إظهار معادن الرجال؟

لعل ناس الكفر لم تحسب لإبراهيم أى حسابات، نفر خدّام بلقمته وكسوته إن كان ما كان يرتديه من ثياب مهلهلة فضفاضة يسمّى كسوة، وأمه تبتسم رغم الهمّ وتبرق عيناها ببريق غامض رغم الشحوب وبعض الضمور الذى لا يخفى ما كانت تتميّز به من طراوة البدن وبروز تفاصيله.

كنت ألتقى به مصادفة أو يأتينى مرسالاً من يوسف، يهمس فى أذنى بانكسار:

- سيدى يوسف عايز حضرتك الليلة بعد صلاة العشا.

أو أن يهمس بنفس الانكسار:

- سيدى يوسف ح يفوت على حضرتك بكره قبل صلاة الجمعة.

لعلنى كنت أراضيه أحيانًا بقرش أو بثمرة فاكهة فيفرح وهو يتناولها دون أن يعرف كيف يعبِّر عن فرحته بأكثر من قبلة يطبعها على خدِّى بعد أن اعترضت بشدَّة على تلك المحاولات المتكررة لكى يقبِّل ظهر يدى إمتنانًا أو عرفانًا بالنعمة، لكنه فى السنوات القليلة الأخيرة كان يقابلنى ويقبِّل خدى أو كتفى ثم يسألنى بخجل كثير:

- ماتدينى بريزة ولا اتنين لله يا سيدى الأستاذ.
- ح تجيب بيها إيه يا إبراهيم؟
- يمكن أجيب بيها حلاوة يا سيدى الأستاذ وأفرَّح أمى.

كنت أمنحه ما تجود به نفسى وقد صعب علىَّ حاله، أقول إن أمثاله أحلامهم صغيرة وأن أقل شىء يرضيه وأنه يستحق الحسنة لأنه يتيم وربما لضيق عالمه لا يعرف عدوه من حبيبه.

الغريب أن معظم أفندية الكفر ممن يعملون فى الكفر أو البندر كانوا يتعرَّضون لمثل ما أتعرَّض له مع إبراهيم، يلتقى بالواحد منهم وربما فى يوم قبض المرتب ويطلب منه وكأنه على موعد مع حالة الاستعداد للدفع التى تصاحب الموظف يوم القبض، أو أنه كان يلتقى بمن باع جاموسة أو بقرة أو حتى خروف أو حمار، يلتقى به ويسأله نفس السؤال:

- بريزة ولا بريزتين ينوبك ثواب يمكن أشترى بيهم حلاوة وافرَّح أمى.

صارت نغمة محفوظة عند أهل الكفر، وغالبًا غالبًا ما كان يحصل على طلبه، ربما لأنه كان يختار الوقت المناسب، وربما لأنه كان خفيف الظل رغم الانكسار، وربما أعطاه البعض طلبًا للمغفرة والسماح أو طمعًا فى الجنة، صار الواحد منهم على استعداد لتكملة اسطوانة إبراهيم البرادعى قبل أن يدفع له البريزة أو البريزتين ليشترى بها حلاوة ويفرَّح

أمّه، لكن أحدًا من أهل الكفر لم يشهده فى الكفر أو فى البندر أو حتى مولد البدوى يشترى الحلاوة أو حتى يأكلها.

لكنه من كان يصدق أن قروش الحلاوة المزعومة سوف تتحوّل إلى سلاح غشيم بروحين ومقبض ملوى وزناد من صلب لامع مغاير لحديد السلاح وبدنه المسنفر بسنفرة حَدادى لم تفلح فى إزالة كل صدأه، سلاح مثل كل الأسلحة المعمولة باليد والممكن الحصول عليها فى السر المعلن من عند أى واحد من صنّاع السلاح فى الناحية شريطة أن يخفى مصدر حصوله على السلاح أولاً، وأن يدفع ما يتم الإتفاق عليه ثانيًا، فرد يدوى بروحين ومعمول مخصوص لخطف روح واحدة وحشة أجل واحد اسمه يوسف.

- أنا حسين البرادعى رجعت آخد بالتار منك يا يوسف.

يقولون أن الولد إبراهيم قالها وقد ارتدى ثوب أبيه حسين وحط على رأسه طاقيته الصوف الكحلى فاتح وعلى عنقه تلفيحته القطن الزرقاء فبدا لكل من رآه على صورته وفى مثل طوله وعرضه وله نفس صوته الخشن فى آذان من عاش فى السابق وسمع الصوت، ولا بد أن يوسف ارتبك وكل من أحاطوه فى تلك اللحظات القصيرة التى تفصل ما بين عبارة إبراهيم البرادعى التى قالها بدلاً عن حسين ولحظة انطلاق الرصاصتين من الفوهتين المتجاورتين واللتين استقرتا على مساحتين متباعدتين نسبيًا فى بدن يوسف، واحدة للصدر والثانية تحت البطن أعلى المنطقة الحساسة بين الفخذين، ارتمى يوسف وهمس لروحه أو لواحد من رجاله بعسر:

- لسه فاكر يا حسين؟

قالها وتكوّم حول نفسه فى نفس مكانه والآخر رغم الفقر البادى على التقاطيع والثياب واقف بثبات فى نفس مكانه إلى جوار يوسف، وارتسمت فى أذهان الذين حضروا صورة تليق بفارس لا يخاف بل كانت هيئته قادرة على التخويف وقد شهر سلاحه بجرأة وشهامة فى وجه الجميع مهددًا من يتجاسر على الاقتراب منه:

- إلّى مستغنى عن عمره يقرَّب ناحيتى.. أنا اللّى قتلته وخدت تـــار أبويا وطالب الحكومة والنيابة أسلم لهم روحى.

لا بد أن الرجال راجعوا أنفسهم مئات المرات قبل أن يشـير أحـدهم على شيخ البلد الشلبى بإبلاغ المركز واستدعاء الحكومة والإسعاف أيضًـا فلربما.. لربما تكون فى البدن المتكوِّم روحًا يمكن إسعافها لترد له الحياة، ورغم إقتناع الكل بان السهم نفذ وإن العمر لن يتجدَّد كما بـدا لـى وقـد استدعونى وطاوعت لأشهد بنفسى كيف انتهى أجله بالفعل على هذا النحو الفاضح الهزيل، وكأن من زهزهت له الدنيا بلا أسباب لائقة مغشوشًا فـى مظاهرها الكذابة لا بد أن يلقى مصيرًا مثل مصيره حتى ولو كان وسط أهله وعزوته وناسه وقد ظهر لهم الفاعل بسلاحه فلم يتحرك منهم أحد، لعلـه نوع من الارتباك وقد أنخطف العمر فى لحظات، ولعله خـوف كـامن فـى النفوس يتصادف أن يظهر وينتشر ويسيطر على جماعة من الناس دون أن يستثنى منهم أحدًا، ولعلها يا سادة يا كرام طبيعة الأتباع الأبدية، يـدورون فى أفلاك المتبوعين حتى إذا سقط الواحد منهم أو اختفى تغيَّـر مسـارهم ومدارهم، كان الولد الواقف إلى جوار جثة يوسف ما يزال رافعًـا سـلاحه وكأنه لا يحمى نفسه بقدر ما كان يحمى القتيل أو يدافع عن صورته إلـى جواره لأطول مدة ممكنة يراه خلالها كل من عرفوه وعرفوا حكايـة أبيـه ونهايته التى اندفنت فى الذاكرة وشاء أن يعيدها على الألسنة وقد أضـاف إليها مشهده الأخير، كانوا قد استجابوا لمشـورة السـيد الجـزار بالفعـل وأحاطوا بالولد وجثّة المقتول على شكل نصف دائرة من البشـر يقطعهـا جدار الدوَّار من ناحية الجرن الخالى، ولعله لم يمض وقت طويل قبـل أن نسمع صوت نفير سيارة الإسعاف تتبعها سيارة المأمور المتبوعة بالبوكس الكبير الراكب فيه العساكر بنادقهم يتقافزون منها قبـل أن تتوقـف تمامًـا بأسلحتهم والمأمور المحمى بعشرات العساكر يصوِّب مسدسه ناحية الولـد إبراهيم ويصرخ ببسالة وهو ينظر ناحيته:

- ارمى سلاحك يا مجرم يا أضرب فى المليان.

وكأنما أفاق إبراهيم من حلمه أو بلغ غاية ما كان يتمناه، رمى سلاحه فوق جثة القتيل ورفع كلتا يديه إلى أعلى مقلدًا دون أدنى شك أبطال الأفلام الأفرنجى التى كان يراها فى التليفزيون، وكنت أرى على بطن ذراعه الأيمن صورة السبع المرسومة بالوشم الأخضر رافعًا بيمينه السيف فأسأل نفسى متى رسمها؟. لكن المأمور تقدم بقليل من الحذر وكثير من الاطمئنان فى اتجاه الولد يتبعه العساكر حتى وصل إليه فأحاطوه واقتادوه إلى البوكس الواقف على مقربة، صعد الولد إبراهيم طبعًا دون أدنى تردد وجلس محاطًا بالعسكر الذين ركبوا فاختفى وجه الولد عنا والسيارة تتحرك إلى البعيد.

أما رجال الإسعاف فقد هزوا رؤوسهم بعد الفحص السريع معبرين عن أسفهم ومستسلمين للموت الذى ليس بمقدور أى حى أن يوقف خطواته المتسارعة أو يعمل ضده أى شىء.

وشاف الناس فى كفرنا مجموعة من الإجراءات التى اعتادوا رؤيتها عندما يسقط من بين الأهالى قتيل، الفارق الوحيد أن القتيل لم يكن مجرد نفر من الأهالى ولا حتى من الأعيان، يوسف كان عمدة زهزهت له الأيام وكان بكل الحسابات تبع الحكومة ومحسوبًا عليها، وربما بسبب هذه التبعية قبضوا على كل الناس البرادعية وحجزوها فى المركز، سألوا واستفسروا عن كل شىء وكتبوا كلام إبراهيم واعترافاته وسألوه عمن حكى له حكاية أبيه ومن أين حصل على السلاح، لكن الولد باح بكل شىء إلا مصدر السلاح ومن روى له حكاية القتل من أهله وناسه أو ناس الكفر. قال إنه رأى بعينيه وسمع بأذنيه كل ما جرى، قالوا له فى النيابة إنه كان ما يزال طفلاً لا يدرك أو يفهم ما يدور حوله، حسبوا له عمره يوم قتل حسين البرادعى وكشفوا له أنه كان قد بلغ يومها من العمر عامًا واحداً وأربعة شهور فلم يعترض على حساباتهم وقدَّر أنه كان فى ذلك العمر واعيًا لكل ما كان يدور حوله وشاعرًا بكل الوجع وعاجزًا فقط عن الفعل المطلوب باعتباره ابنا لأب ينزف دم عمره:

- كنت فاهم وسامع المرحوم وهو بيقوللّي قبل ما يموت: خد بتارى يا إبراهيم وإوعاك تفرَّط فى دمك.. أمَّال هو كان حاطط بقه عند ودنى ليه؟ كان بيوشوشنى وخايف حد يسمع يقتلنى معاه.

لا بد أن المحقق احتار فى حالة الولد وأنه بحث عن تخريجات وتفسيرات لا تتعارض مع اعترافاته الصريحة بارتكاب الجريمة، ولا بد أنه عندما قرر الإفراج عن كل الناس البرادعية كان قد اقتنع بأن أيًا منهم لم تكن له يد فى الجريمة أو دور فى تحريض الولد، حتى أم إبراهيم عند سؤالها أيدت كلام الولد:

- كان يا بيه لسه صغير وبينطق الكلام مكسر ويصحى مفزوع من عز النوم ويقول أبويا وصَّانى ما أسيبش تاره، استحملى يا مَّه زى أنا مابستحمل لحد ما ييجى اليوم اللّى أرفع فيه راسك وأرميه قصاد الخلق رمية الكلاب.

وأنا بينى وبين نفسى لم أكذب الولد على طول الخط أو أصدقه على طول الخط، فمن يدرى، لعل حسين عندما قبَّله القبلة الأخيرة قبل طلوع الروح أودعه وصيَّته وسرَّه وحمَّله الأمانة التى نذره لها فشالها وأوفى بعهده، ولعله بينما كان يكبر وينمو كان حلمه فى تنفيذ الوعد يكبر، وأكون أنا قد فشلت طوال الوقت فى فهمه لأننى حسبته من البسطاء ذوى الأحلام الصغيرة بينما كانت أحلامه أكبر من عمره وقدرته على تنفيذها أجرأ من قدراتى المعطلة ذلك أن كلانا تمنى قتل يوسف، وبينما حملت أنا رأس الخروف المذبوح ورمحت فى منعطفات الكفر أبشِّرهم بقتله حتى كشف لى ولهم وجود يوسف فى المكان - بشحمه ولحمه - إننى كنت أحلم مجرد حلم دموى يستأهل منى أن أتداوى منه ومن كوابيس الليل أو أستسلم لدخول الخانكة، بينما جمع إبراهيم ثمن «القرد» بروحين من كل الجيوب القادرة على الدفع وكأنه يشركنا فى التخلص من يوسف والزمن السلبى، ولا بد أنه ضحك علينا أو داعبنا وهو يدعى استخدامها فى شراء الحلاوة يفرِّح بها قلب أمه، تظاهر باحتمال الذل وقبول الاستعباد وقبَّل الأيادى

والأكتاف والخدود وحوّل الناس كلها إلى أسياد بينما كان فى حقيقة الأمر مخلّصهم الذى فك قيودهم وعقدات ألسنتهم شأن السادة الأسياد.

وفى المنام شفت يوسف وبكيت بحرقة من أجله، كاذبًا فى المنام كنت أبكى بينما أسأله كيف قبل على روحه وهو فى زمن الزهزهة أن يقتله ولد بلا وزن ولا قيمة، وكيف رضى بأن يرتمى هكذا أمام دواره وناس الكفر مثل ذبيحة فطسانة؟ فابتسم، سألته متى يرجع فوعدنى بالرجوع مع أول خلفة تخرج من بطون النساء الشلبى، قال ثم استدار وطلب لى الخانكة فرحت أرمح وأرمح فى دروب الكفر مخافة أن يطولنى التومرجية والعساكر والمخبرين حتى جفّ حلقى وانهدّت قوتى وتقطّعت أنفاسى فانتفضت صاحيًا وطمأنت نفسى أنها كانت مجرد تهيؤات من بطن كابوس.

* * *

دخل كفرنا رجل مغربى بزعبوط، سرح فى دروب الكفر ينادى:

– نقرأ الكتاب.. ونكشف الحجاب.. نفتح الكتاب.. ونرد بالجواب.

كانت فى صوته بحّة مميّزة وفى عوده القصير المكتنز مهابة، وكانت عيناه تقتحمان الناس والبنايات بنظرات نفاذة توحى بقدرته على الكشف والتعرية مهما استترت الوجوه أو تستّرت، أدخله الناس بيوتهم ليكشف المخبوء ويقرأ الطالع، وقال الناس للناس أنه أظهر كرامات وعلامات على معرفة ما يختفى فى بعض الصدور من مساحات عتمة ونور، ولأنه رجل مبروك ومكشوف عنه الحجاب فقد رفض منذ البداية أن يحدّد أجرة فتح الكتاب أو قراءة الطالع، كان يطلب ممن يدخل داره أن يمنحه ما تجود به نفسه مهما قلّ أو زاد ثمنه، فقط ما تجود به النفس حتى ولو كان لقمة جافة أو بيضة أو كوز ذرة أو حفنة قمح، ومن فرط دهشة الناس أنه كان يوزع ما يحصل عليه غالبًا على فقراء الناس أو الأطفال الصغار الذين يلتقى بهم، ينادى على الأسماء فيلتفت الأطفال مندهشين لأنه عرفهم فيناولهم من جرابه أصابع العسلية الملفوفة فى الورق أو حبّات النعناع،

يكتفي وقت أن يجوع برغيف مخبوز يحصل عليه من أى دار فيها خبيز، بالإضافة إلى قطعة جبن أبيض يطلبها من أى دار ويجلس على أى «مسطبة» محاطًا بالأطفال الذين وزَّع عليهم حبّات النعناع أو أصابع العسلية الملفوفة بورق، يتغذى أو يتعشى ويقبل يده اليمنى ظهرًا وبطنًا ويحمد الله وقد بدا لأهل الكفر أنه قانع ونفسه شبعانة، وأن قراءته للطالع تحتاج بقاءه فى الكفر عدة أيام فأشار عليه الزيناتى ابن حميدة أن يرقد فى الدار الخالية المهجورة المجاورة لدار جدتى عدلات، ولم يعترض الرجل المغربى، دخل الدار وكنس ركنًا فرش فيه فرشًا كان فى الخرج الذى كان محمولاً على ظهره وتغطى بحرام صوف كان فى نفس الخرج، وقال الناس إن المغربى يستطيع أن يفك السحر المكتوب وأن يحلَّ الرجل المربوط لكنه يرفض أن يربط المحلول مهما انعرض عليه من مال، وقالوا إنه يسيطر على مجموعة من الجن الساكن سابع أرض، ينادى الواحد منهم باسمه فيرد عليه بصوت غليظ لا يشبه صوت البشر أو الحيوان أو الطير، وينادى الآخر فيرد عليه أيضًا بصوت رقيق رقيق لا يشبه صوت بشر أو حيوان أو طير، كان الرجل بالنسبة لناس كفرنا فرجة وونسًا وصاحب رأى يمكن أن يلجأ إليه أى رجل حيران أو امرأة تاه منها شيء أو حلمت فى المنام واحتاجت لتفسير.

ويومًا فى إثر يوم كانت تروى عنه حكايات جديدة تثبت لمن يسمع أن للرجل قدراته فى تشغيل الجن، قال البعض عنه أشياء شافوها شوف العين، ينقل جدارًا مبنيًا من مكانه إلى جوار جدار آخر ثم يعيده إلى مكانه. يحرق أوراق العملة من فئة الجنية ثم يعيدها سليمة بنفس أرقامها، يملأ جرَّة بالماء من فراغ الجو أو يقطع حبلاً ثم يعيد وصله كما كان دون أن تظهر فى أى جزء من أجزائه علامة القطع أو أثرًا للوصل، لكننا قلنا إنه شغل حواة مثل الذين نراهم فى مولد السيد البدوى أو إبراهيم الدسوقى، لكنه استدعانا نحن مجموعة الشباب المتعلم فأربكنا عندما رأيناه يخرج الدخان من أذنيه ويحرِّك قوالب الطوب ويدخلها فى معركة حقيقية يسيل فيها الدم وتتكسَّر أجزاء الطوب، ولم يكتف بذلك بل أنه حذَّرنا من

الاعتراض من غير معرفة واكّد لنا أن الإنسان لو اعتقد فى حجـر لنفعـه الحجر.

تواطأنا بالصمت وتظاهرنا بالتصديق خوفًا أو إراحة للنفس من عناء التفكير فى تفسير ما رأيناه أو الدخول مع الرجل فى جـدل بينمـا عينـاه تبرقان ببريق مخيف ومن بين شفتيه يتناثر اللعاب مثل الطلقات تصيب كل الوجوه، وقال يوسف

- إيش ياخد الريح م البلاط.. خايفين على إيه؟ خليه يلقّـط رزقـه، مش رزق الهبل ع المجانين برضه؟

لا بد أننا كنا نبحث عن سبب يخفّف من حماسنا السابق ضد الرجـل الغريب الذى لا نعرف أصله ولا بلده ولا تكشّفت لنا أغراضه، وربما أعفانا رأى يوسف من الاستمرار فى الاعتراض وتحمل المسئولية، فمـاذا بحـق يأخذ الريح المغربى من بلاط كفرنا البردان؟

كنا نراه أنا ويوسف كلما ذهبنا إلى دار جدّتى عدلات، نـراه جالسًـا على مسطبة الدار أو مفترشًا فروة خروف صوفها أسود فوق العتبة، نلقى عليه السلام فيرده بحماس ويدعونا لشرب الشاى لكننا لا نستجيب لأنه كان يعمله فى كوز صفيح كبير ويصبه فى كوز صفيح صـغير يعلـو سـطحه الصدأ، لكن عيال الدرب الصغار كانت تشرب شايه وتأكل أصابع العسـلية وأقراص النعناع التى يوزعها عليهم، وكان الولـد «كـاف» ابـن خـالتى العبيطة «كاف» دائمًا بجواره يشاركه الشراب والطعام وفـروة الخـروف، وكلما ذهبت «كاف» لأخذ الولد «كاف» من عند الرجل المغربى طلب منهـا أن تبقيه لأنه ولد مبروك وموعود بالسعد وأنه فى مستقبل الأيـام سـوف ينفتح على يديه كنز مرصود باسمه، تتركه أحيانًا وتأخذه أحيانًا لكن الولـد كان يرجع مرة أخرى حتى أنهم كانوا يتنّدرون عليه قائلين أن «كاف» ابن المغربى الذى فتح عينيه فرآه أكثر مما هو ابن المرحوم الليثـى الـذى لا صحا له ولا لعب معه ولا «ناغاه» وكان مـن المـألوف أن تمـلأ خـالتى «كاف» صحنًا من طبيخ أو زبد وجبن وبيض أو صحنًا من بلـح أو تـين

وتقول إنها سوف توصل الآكل للمغربى، تحوّل الأمر إلى عادة يومية يسرد عليها المغربى بمنديل أو شال أو طرحة حرير يمنحها لخالتى العبيطة «كاف» أو يهديها لجدتى عدلات، أما «كاف» الولد فقد كانت كسوته تقريبًا من عند الرجل المغربى، يوصى بشرائها أو يشتريها إذا سافر للبندر ونادرًا ما كان يسافر، لكن أن يتحوّل مثل هذا التبادل إلى مشروع زواج يجمع بين خالتى العبيطة «كاف» والرجل المغربى فهو مالم يكن يخطر على بال ناس كفرنا رغم أن الرجل كما هو واضح كان يعيش وحيدًا لاشريك ولا رفيق وأن «كاف» كانت أرملة منذ عامين أو يزيد، لكن من كان يتصوّر تجميع الشامى على المغربى على هذا النحو الذى تم؟ كيف اختار الرجل المغربى «كاف» على وجه التحديد لتكون له زوجة رغم ما كان يتميزّ به من وعى وقدرة وهيئة لائقة والذى لم يكن يعيبه سوى غربته التى انتفت بعد أن تعايش مع ناس الكفر كله وتآلف معهم وصار مثل الخيط داخل النسيج، لقد كانت «كاف» بحساباته دون أدنى شك عبيطة، ثم أنها لم تكن بأى قياسات جميلة أو حتى محتملة، لكنها راقت له أو سحرته وهو الذى يفك السحر ويكتبه، ولم يكن فى جعبته غير مطلب واحد وهو السكن فى دار الليثى التى هجرتها «كاف» رغم إنها كانت مكتوبة باسم «كاف» الطفل بوصاية «كاف» العبيطة، كان من الممكن أن يتقبّل الناس فكرة انفتاح الدار المسكوكة لتستقبل الزوجين الجديدين بدلاً من أن تسكنها الخفافيش والبوم والغربان، لكن فرحانة أخت الليثى الأب ركبتها كل العفاريت الزرق وظلت تشيع الشائعات التى كانت شائعة بالفعل عن عبط «كاف» والتى لم تكن شائعة مثل احتمال أنها قتلت المرحوم الليثى بالسم أو بالحسرة على الأقل ثم فكرت أن تربى ابنه فى رعاية غريب مغربى لا يعرف أحد من ناس الكفر أصله أو غرضه من سكنى هذه الدار التى هى ميراث مشترك بين الليثى وكل أخواته البنات.

لكن متى كانت مثل هذه الشائعات المعترضة قادرة على إيقاف المراكب السائرة فى كفرنا مادامت هناك عند الطرف الآخر أوراق بيع وشراء مكتوبة وعليها بصمات وأختام وشهادة شهود؟ دخل المغربى على

«كاف» فى دار الليثى رغم كيد الكيَّادين، ودخل الولد «كاف» معهما وانسكَّ الباب فاصلاً عن آذان سكانه كل عبارات السخط واللَّغط الصادر عن فرحانة وزوجها حلاق الحمير أو أغنيات يردِّدها العيال عن زواج المتعوس وخائبة الرجاء أو كلام قبيح تقوله فرحانة من نارها ويساعدها فيه حلاق الحمير، لكن جدَّتى عدلات كانت لها طاقة على الاحتمال إذا استنفذتها انفلت لسانها وعيارها فأصاب فى مقتل وأخرس الخصوم، ربما لأنها كانت رغم التعاطف مع فرحانة وزوجها تعرف مخازيها ومخازيه وتداريها حتى جاء الوقت الذى اختلفت فيه المصالح وصار الاعتداء على «كاف» وزوجها افتراء لا يجوز بحساباتها، فانفتح غطاء البئر المردوم على مصائب وخبايا لا كانت معروفة ولا خطرت على بال أقرب الأقارب ومنهم أمى التى فرحت بزيادة معرفتها عن تلك الأشياء المخفية لجذور النسل الشلبى، انكمشت فرحانة وزوجها وكفَّ يوسف عن تحريض العيال على «كاف» وزوجها المغربى الغطسان فى دار الليثى والذى يكفُّ عن قراءة الطالع أو فتح الكتاب أو كتابة الأحجبة وتلاوة التعاويذ وإطلاق البخور، وكلما سألوها عنه قالت إن الرجل فى خلوته لا يبرحها أبدًا إلا لقضاء الحاجة مرة واحدة فى اليوم أو اليومين، الوحيد الذى كان يظهر هو الولد «كاف» وقد تعلَّقت فى رقبته عشرات التمائم والأحجبة والكفوف المفرودة من الفضة أو المعدن والخرزات الزرقاء وبين كل تميمة وتميمة أو كفٍّ وكفٍّ وخرزة وخرزة قرش أبيض مخروم أو قرش صاغ.

يمشى الولد فتصدر عن عقود الدوبارة الملفوفة حول عنقه «شخللة» لها صوت ورأسه مغطى بطاقية مشبوك فيها أحجبة وكفوف وخرزات زرقاء بدبابيس مشبك، وكأن المغربى إختلى فى خلوته من أجل عمل كل هذه الأحراز والاحجبة للولد «كاف» دون أهل الكفر، وكانت «كاف» تقول لكل من يسألها عن هذه الأشياء أن زوجها المغربى تنبأ للولد بالعلو والعلو الزائد وأنه سوف يكون له فى المستقبل كرامات تزيد على كرامات الجن والإنس وأنه سوف ينكشف عنه الحجاب ويبوح بسر مدفون فى أرض أو جدار دار من شأنه أن يسعد ناس الكفر كله.

لكنه بعد أقل من سبعة أشهر رمحت أم إبراهيم والنبوية بنت المرسى تسبقهما جدَّتى إلى دار الليثى التى صارت دار «كاف» وراحت أمى فى نفس المساء ثم عادت لتحكى عن ولادة عجب ولدتها كاف التى لم تظهر عليها علامات حمل ظاهرة أو التى أخفتها اهتمامات الناس الزائدة بالولد «كاف» أو اختفاء المغربى فى خلوته المزعومة، لكنها ولدت ولدين توأمين أحدهما أسود البدن والبشرة وكأنه ابن بربرى من البرابرة راكبين الجمال الهجانة الذين كانت تسلطهم الحكومة وتطلقهم فى دروب الكفر بغرض ضرب الناس «بالكرابيج» السودانى وبغرض منعهم من مغادرة دورهم أثناء الليل إذا انقتل من أهالى الكفر قتيل أو فرَّ شاب من التجنيد الإجبارى أو قامت بين عائلتين من عائلاته عركة أو حدث بلاغ عن سرقة مواشى أو تقليع زرع، أما الآخر فكان بحسب ما وصفت أمى أبيض البدن والبشرة وكأنه من نسل خواجات إنجليز ممن كانت تراهم وهى طفلة فى البندر بقمصان قصيرة وبناطيل قصيرة وبنادق معلقة على الأكتاف والذين كانت لهم رطانة لا تفهمها ثم عرفت بعد ذلك إنها لغة الإنجليز التى نتعلمها فى المدارس.

وقالت أمى أيضًا أنها شافت المغربى وبدا لها أنه تبدّل، اتّسعت عيناه وطالت قامته وقلّ كلامه وصارت نظراته باعثة على الخوف وجالبة للقشعريرة، وأكدت لأبى أن الرجل جنّى طالع من تحت الأرض أو على الأقل خدَّام لجنّى يركبه وينطق بلسانه ويرى بعينيه، جادلها أبى بأن المسألة أوهام فى أوهام وأنه ليس من المستحيل أن تلد أى واحدة توأمين أحدهما أبيض البشرة والآخر أسمرها، وأن المغربى بنى آدم من دم ولحم وكل ما يشاع عنه مجرد تخاريف يبرع فى اختراعها ناس كفرنا وعلى وجه التحديد حريمة، لكن أمى اعترضت وأكدت مرة أخرى:

- بقولك شفت بعينى، واحد أسود غطيس زى الفحمة والتانى أبيض زى اللّبن الحليب، دى خلفة ناس مخاوية أسياد من تحت الأرض.

- ربنا أعلم بعبيده.

قالها أبى منهيًا الجدل حول «كاف» وخلفة «كاف» من المغربى أو من الليثى، لكن سيرة «كاف» وعيال «كاف» وزوج «كاف» لم تنقطع من دارنا، كانت أخبارهم تأتينا عن طريق النبوية بنت المرسى أو فرحانة نفسها التى كانت تتشكى من جدَّتى عدلات التى أهانتهم وفضحتهم من أجل العبيطة، تهدئها أمى ثم تسألها عن الأخبار فتحكى لها كيف أن أبواب السعد انفتحت «لكاف» من كل ناحية لأنها بعد أن ورثت الليثى وحصلت على كل ما يملك تزوجت المغربى وخلَّفت منه وتحولَّت إلى وسيط يقبض الثمن من كل واحدة تقصدها لتتوسط لها عند المغربى ليكتب لها حجابًا ليمنع عنها العكوسات أو يفتح لها سكة الخلفة بعد طول الصبر والانتظار أو يحلُّ رجلها الذى ربطه عمل مكتوب أو حتى يدلَّ من ضاع منها فردة حلق أو كردان ذهب أو حتى خلخال فضة على صفات السارق إذا فتح المندل، تأخذ «كاف» «الحلوان» الذى تحدِّده مقدمًا قبل أن تدخل على المغربى فى خلوته وتحصل منه على المطلوب لأنه ممنوع ممنوع دخول الخلوة إلا «لكاف» الأم أو «كاف» الأبن:

- والغريبة يا ختى إن فيه حاجات بتصادف وتنحل على إيديه، والخلق فى كفرنا بيولِّدوا البغلة.. أهو رزق الهبل ع المجانين، ح أقول إيه ما أنتى عارفة، طول عمرها أمك واخدة حقك وبتديها، أنا مش ح أبعبع وأقول ع إللِّى كنت باسمعه منهم.. هو أنا فتَّانة لا سمح الله ح افتن بينك وبين أمك واختك؟

تشتعل أمى بالغضب وتقرِّرها فلا تقرُّ أبدًا، يتجدَّد الكلام عن ميراث أمى من أبيها والذى هضمته جدَّتى وكيف أنها كانت طوال الوقت منحازة لخالتى العبيطة «كاف» لمجرد أنها من النسل الشلبى، تلعن الشلبى وسلسال الشلبى حتى ولو كانت فرحانة مازالت فى الدار.

وأشاع الشرشابى وهو الساكن جنب دار الليثى من الناحية الخلفية أن المسألة ليست خلوة اتخذها المغربى فى القاعة الجوَّانية المعتمة التى فصل نصفها الأمامى عن نصفها الخلفى بملاءة سرير محلاوى لا يرفعها

غير «كاف» الأم «وكاف» الطفل بل أن الأمر فيه سر لأنه طوال الليل يسمع إذا صحا فى أى وقت خبطات وضربات ودق وعزق فى الناحية الأخرى، ولا بد أنه حفر فى أرضية القاعة أو الجدار الفاصل بين الدارين أو الجدار القائم على الجدار الفاصل، لكن الدق والخبط حادث على أى حال وأن كوم الردم فى وسط دار الليثى يعلو ويعلو دون أن يلحظ ذلك أحد مع أن الدار ليس فيها مواشى ولا أغنام فمن أين زاد كوم الردم فى وسط الدار ما لم يكن نتيجة لحفر أو نقب الجدران بحثًا عن تحويشة عمر الليثى أو خبيئة من أيام كانت الدار من بين أملاك العمدة المغدور سيد عوف قبل أن يبيعها الورثة بتراب الفلوس للّيثى، واشتعلت النار فى قلب فرحانة واقتحمت الدار أكثر من مرة وعاركت «كاف» بغرض دخول الخلوة على المغربى واكتشاف السر، لكن «كاف» فى كل مرة كانت تمرمغها فى أرضية وسط الدار وتمزّق ثيابها وتقطّع خصلات من شعرها هذا بالإضافة للعضّات و«الخرابيش» التى تصيبها وتجعل الناس تلومها على تهورها إشفاقا عليها، لكن فرحانة لم تكف إلا بعد تلك المرة التى دخلت الدار مسرعة بينما كانت «كاف» مشغولة بإرضاع التوأمين فلما انتبهت كانت فرحانة فى وسط الدار تصوّت وتصوّت والمغربى واقف على باب القاعة عريانًا كما ولدته أمه والولد «كاف» إلى جواره وقد خلع كل ما يستره إلا الطاقية وخيطان الدوبارة الملضوم فيها الأحجبة والخرز الأزرق والكفوف المعدن والقروش الصاغ والتعريفات المخرومة، وتجمّع الناس داخلين من الباب المفتوح بغرض النجدة أو الاكتشاف فشاهدوا ما شاهدته أو آخر مشهد شهدته قبل أن يتراجع الرجل إلى الوراء وهو يسحب الولد «كاف» معه ويغطسان فى عتمة القاعة وينفذان من الحاجز الذى هو ملاءة سرير محلاوى، وعبثًا حاول الناس أن يعرفوا منها تفاصيل ما شافته وأفزعها إلى حد الصوات فلم تزد عن تكرار قولها:

- سايقة عليكو النبى تسيبونى ف حالى.. دانا انحش وسطى وانقطع خلفى.. قطيعة.. قطيعة.. قطيعة.

وكانت هذه الحادثة بالفعل قطيعة بينها وبين دار الليثى الذى كان

أخيها لأب، وانقطعت سيرة «كاف» وعيال كاف وزوجها المغربي على لسانها، وقد حاولت أمي أن تعرف منها أي شيء ممّا جرى في دار الليثي في تلك الظهيرة التي ظهر لها المغربي عريانًا على باب القاعة فكانت في كل مرَّة ترد عليها بنفس الكلام الذي قالته لكل الناس وتنهيه بإعلان القطيعة ثلاث مرات وتضيف أن يكون حد الله بينها وبينهم.

لكن الشرشابي كان يزِّن في أدمغة الناس قائلاً أن عرى المغربي في عزِّ البرد قلة أدب لا يصح السكوت عليه، فيردُّون عليه بأنه كان في خلوته داخل داره وأن فرحانة هي التي اقتحمت عليه الدار والخلوة بسرعة قبل أن تكتشف «كاف» دخولها فعملت لنفسها ولأهل الدار فضيحة من غير أسباب، يسألهم عن سبب وجوده عريانًا في الخلوة فيحيلون الأمر إلى علاقته بالجن وخدمة الأسياد الساكنين تحت الأرض، يوافقهم بحماس ويعيد على مسامعهم ما سبق أن قاله لهم عشرات المرَّات من أنه كان يسمع خبطًا متواصلاً طوال الليل، ينام ويصحو في أي وقت فيسمع صوت الدق والحفر في الناحية الأخرى ويسمع «ودودة» كلام متداخل بلغة تشبه تراتيل يوم الأحد التي ينطقها القسيس في كنيسة النصارى لكنها ليست تراتيل ولا الأصوات التي يسمعها أصوات بني آدم، يتدخل بطرس أفندي الصَّراف متعالمًا وقائلاً أن التراتيل الكنسية فيها الكثير من لغة أجدادنا الفراعنة التي هي رسوم وتصاوير محفورة على الحجر أو ورق البردي وربما كان اسمها الهيروغليفي أو الديموطيقي، يتسمَّعون باندهاش ويستعيدونه فيعيد دون أن يبدو عليهم الفهم لكنهم يهزُّون رؤوسهم علامة الاقتناع، لكن الشيخ درويش يستفسر من بطرس أفندي الصراف إن كان لهؤلاء الفراعنة علاقة بالنَّبي موسى أو النبِّي هارون وإن كانوا من نسل الفرعون الذي طغى وجاء ذكره في القرآن الكريم، فيجاوبه بطرس أفندي الصراف بأن كل ناس بلدنا من نسل فرعون، وأن واحدًا منهم فقط هو الذي طغى ولا يصح أن نحاسب كل الفراعنة بذنب الذي طغى، يبتلع الشيخ درويش ريقه ويحدِّث نفسه أو يحدِّثنا وهو ينظر إلى سقف المندرة:

- اللَّهم إني قد بلَّغت.. اللَّهم فاشهد.

ويسود صمت قبل أن يطرح أبى سؤاله وهو صاحب الدار التى انفتحت لاستقبالهم على غير العادة فى هذه الفترة، يسألهم ليعيدهم:

- مش يمكن يا جماعة فيه كنز من أيام الفراعنة ف دار الليثى؟

يهمهمون وتلتمع عيونهم ويتساءلون عن الأسباب التى دعته لكى يفكر على هذا النحو، فيحدثهم عن الدار الصغيرة التى كانت فى خلفية دار أبيه والتى اشتراها عزام عوف من جد بطرس أفندى الصرَّاف ليحولها إلى متبن، وكيف أنه بينما كان الرجال يهدمون أحد الجدران اكتشفوا صندوقًا صخريًا بغطاء صخرى رغم أن الجدار كان مبنيًا بالطوب القديم الأخضر وعندما رفعوه وفتحوه وجدوا مجموعة من اللفافات الورقية المكتوب عليها كتابات بحبر أحمر وأسود بالإضافة إلى مجموعة من اللُّعب الصغيرة على شكل تماثيل وتمائم وجعارين وبعض الحلى من الفضة أو الذهب، ولأنه لم يكن يعرف تفسيرًا للكتابات المكتوبة فقد استفتى خاله الشيخ برهان الشاذلى فأفتى بأنها سحر مكتوب لجلب الحظ أو تطويل الأعمار لأهل الدار، وأعجبته حلية فأخذها وعلقها فى مئذنة مسبحته «الكارم» لكن خاله رجع الكفر مضروبًا ومحروسًا بأورطة من عساكر السلطة يقودهم ضابط إنجليزى كبير وضابط مصرى صغير، نزلوا الكفر فأصابوا ناسه بالهلع ثم تبعتهم برابرة الهجانة راكبين الجمال وحاصروا درب الناس العوف ودفعوا الشيخ برهان الشاذلى وهو الرجل كبير السن وله احترامه بين الناس، دفعوه أمامهم ليدلهم على دار عزَّام عوف، سقطت عمامة الرجل عند باب دار عزام وسقطت هيبته بينما يدلهم على الصندوق الصخرى فى الدار الصغيرة، وعمدة الكفر من الناس العوف يرمح فى أعقابهم ويستفهم منهم عن العملة الكبيرة التى عملها الرجل واستحق عليها كل هذه المهانات فلا يردون عليه، ثم أنهم أخذوا الصندوق الصخرى بكل ما فيه واجتلبوا عمالاً للحفر من البندر حفروا أرضية الدار الصغيرة والدار الكبيرة وهدموا الجدران بحيث لم يتركوا طوبة على طوبة، خرَّبوا الدارين ولولا أنه كانت لعزام دارًا أخرى نقلوا إليها منقولاته ومواشيه وخزين بيته وطيوره لانفضح أكثر مما انفضح وانكشف أكثر مما انكشف.

وقال ناس الكفر أن الإنجليز وجدوا فى الدار الصغيرة كنزًا من ذهب وفضة وأحجار كريمة بالإضافة إلى لفافات ولفافات من ورق البردى المكتوب، تركوا الشيخ برهان الشاذلى وأخذوا عزام عوف للبندر حيث سألوه وقرّروه، ولولا أن الرجل لم يكن يعرف أهمية ما عثر عليه وأنه لم يتصرف فى شىء مما وجده أو احتفظ لنفسه أو لواحدة من بناته بقطعة حلى ماتركوه بعد عدة أيام، ولولا وجوده بين المركز وقشلاق الإنجليز ومكاتب المحققين الذين تعاطف أكثرهم مع حالته ما عرف سر الغارة التى قامت بها السلطة بحسب ما وصله من أخبار.

كانت أوراق البردى تحتوى على سيرة ملك من زمن الفراعنة قبل النبى موسى عليه السلام تميز بالشجاعة والعدل، وأودع بعض كنوزه لواحدة من بناته أوصاها أن تخفى سيرته المكتوبة فلم تجد أفضل من تلك الوسيلة بإخفائها فى صناديق صخرية مدفونة بين الجدران فى تلك الدار الصغيرة التى لن يطمع فيها الأعداء من عساكر الغرباء الذين دخلوا الكفر مرارًا ولم يلتفت أيهم لتلك الدار فبقيت فيها بعض الحلى والتمائم وأوراق البردى التى تحكى عن انتصارات الفرعون على أعدائه الغرباء الآتين من الشرق همجًا وبرابرة يبرعون فى الحرق والهدم ويعجزون عن البناء، بمثل هذا الكلام أنهى أبى حكايته لضيوفه وسكت فسألوه عن سر اعتزاله لهم وتباعده عنهم وفى عقله كل هذا العلم المفيد فأجابهم بتواضع إنه رجل بسيط عنده حفنة عيال يرغب فى تربيتهم ولا يريد أن يدخل فى صراع من أى نوع مع أى إنسان على أى شىء، قالها وتنهّد بأس ودارى عينيه بخفة فقال له الشيخ زغبى:

– الله يرحم والدك

لكن بطرس أفندى الصرّاف أعاد عليهم سؤال أبى:

– يا جماعة.. إفرضوا أن فيه كنز بصحيح ف دار الليثى، ح نسيبه للمغربى ولا نبلّغ الحكومة؟

– لأ.. إن لقينا كنز يبقى كنز الأهالى.. أهالى الكفر كله، نقسمه على بعض بالحق والمستحق.. حكومة إيه؟

بذلك رد الشرشابى متحمسًا، ولا بد أن رأيه صادف قبولاً من الأغلبية فأسكت الأقلية التى تخاف من الحكومة أو تعمل لحسابها فى الخفاء، ولأول مرة أشعر بالزهو لمشاركة أبى ناس الكفر بكل هذا الحماس الذى جعله يفتح داره ويشاورهم فى الأمر، ربما يكون الحلم قد انولد فى مندرتنا قبل أن يكبر ويسرح فى دروب الكفر، الحلم فى أن يعثر ناس كفرنا على كنز حقيقى فى دار الليثى يتوزَّع على الناس بعدل حقيقى فيخلص الفقراء من فقرهم ويشبِّع الأغنياء أكثر من شبعهم، لكنه يبدو أن الأحلام الكبيرة فى كفرنا عمرها قصير، شأنها شأن العدل الحقيقى نفسه والذى نادرًا ما يتحقق وإن تحقق فلوقت قصير بحسب ما قال أبى مرة لبطرس أفندى الصرّاف، ذلك أنه بعد عدّة جلسات استعادت بعض القلوب الحالمة رجفتها الأولى وشمَّت رائحة زوابع أمشير الترابية قبل أن تهب وتخطف فى دواماتها دفء القلوب الحالمة بالمستحيل.

استدعانى يوسف فذهبت إليه، فاتحنى فى أمر المغربى وكاف وما إذا كنت أوافق على رأى بطرس أفندى وأبى والشيخ زغبى، فقلت له إنهم كبار السن ويعرفون مصلحة الناس أكثر مما نعرف، اعترض بشدة وأتخذ سمت الكبار لأول مرة متطاولاً على ما أسماه بالكلام الفارغ عن تقسيم الكنز الموجود فى دار الليثى على ناس الكفر كله:

- ده فى الأصل مال خالى الليثى وإحنا أولى بيه، وبعدين إيه حكاية بطرس أفندى وأبوك.. فرعون إيه ولهو خفى إيه؟
- ما هو كلامهم مظبوط.. أصل فى التاريخ..

قاطعنى بحدة وانفعال زائدين:

- يا خويا بلا تاريخ بلا جغرافيا، خليكوا أنتو فى الكتبات وإللّى مكتوب فيها، وقول لأبوك يخليه ف حاله زى ما كان..
- قصدك إيه يا يوسف؟
- قصدى إنه مالوش دعوة بدار خالى وإللّى ف دار خالى، يا كش يكون ساكنها عفريت مسلسل، إحنا ح نطلّعه، أبوك يحشر نفسه

فى إللّى يخصنا ليه؟ طيب كان ياخد بتار أبوه إللّى مات مسموم..
هو إنت ما تعرفش إن جدك ميت مسموم؟

هل اكتشفت فى تلك اللحظات خشونة صوته وطبعه وجهامة ملامحه؟ وهل رأيته لأول مرة شابًا عفيًا نبت له شارب وصار من حقه أن يعترض ويهدّد ويعاير؟ ربما أكون منذ تلك اللحظة قد تعلّمت الحذر منه رغم أننى فى السابق كنت أتعامل معه على أساس أنه أقل منى فى كل شىء، لكن المسألة خرجت من دائرة المدرسة التى كان هو فيها بشهادة الكل تلميذًا خائبًا لم يحصل على الابتدائية بينما كنت أنا فى السنة التوجيهية، ولم يعد الأمر خاصًا بدارهم العريان نصفها ودارنا المستورة، أو أبيه حلاق الحمير وأبى الموظف ومالك الأرض أيضًا، ربما أشعرنى بالخجل من نفسى ومن أبى ومن يوسف أيضًا تلك الحقيقة التى كنت أشعر أنها رغم رائحتها التى تفوح على فترات متباعدة إلاّ أنها كانت الحقيقة الوحيدة التى ردمنا عليها بالسكوت عنها، استعدت وجه جدّتى لأبى ونبرات صوتها وهى تحكى عن جدّى الذى قتلوه بالسم فى مكتب الصحة جنب مفتش الصحة، وربما تكون الآية قد انقلبت بينى وبين يوسف منذ ذلك المساء، وربما أكون قد شعرت أننا صرنا رغم ادعاءات القرابة التى كان هو نفسه يحرص على تذكيرى بها ويتباهى، صرنا ننتمى لعالمين، عالم الأفندية المنشغلين بالكتب وما هو مكتوب بها وعالم الواقع المحسوس والمرئى وصفات فرسانه.

كانت أجازة صيف طويل، طوّلها تباعدى عن يوسف أو تباعده عنى، وطوّلها انتظار نتيجة الامتحانات، وطوّلها مارماه على دماغى من عبارات لايصح البوح بها لأحد ولايصح كتمانها، عبارات مثل قوالب طوب ودبش ساقط من جدار عريض وممتد بفعل فعلة يقصدون التدمير وإثارة الفزع أو قصّ الآجال، كنت أعايش الخوف على دارنا وناسها وأستشعر العار لأننى أنتمى لهؤلاء الناس العجزة عن أخذ الثأر والذين يتوارون وراء جدار من أوراق الشهادات والكتب ناسين أن كل الأوراق قابلة للتطاير فى الزوابع بمثل ما هى قابلة للاحتراق.

بعد أيام القلق شاع في الكفر أن الجدار الفاصل بين دار الشرشابي ودار الليثي قد تم نقبه في نفس المنطقة التي كان المغربي يتخذها لنفسه خلوة، ولولت «كاف» في دروب الكفر تسأل عن المغربي نفسه، تقول إن دارها انكشفت من الوراء وصارت مثل طفل عريان المؤخرة ومستباح، كانت تحمل التوأمين على الذراعين ومن ورائها يرمح الولد كاف وقد رفعت له قميصه بدبوس فانكشفت مؤخرته العريانة وصارت مثل الدار مستباحة، اهتم العمدة وجمع أهل الرأى والمشورة ثم أخذهم للمعاينة، شيخ الزاوية وشيخ الجامع وشيخ البلد وشيخ الخفراء والخفراء، لكنهم بعد الفحص الدقيق عجزوا عن تحديد الناحية التي بدأ منها نقب الجدار المشترك، تحوّل الأمر إلى لغز على ألسنة الناس مثل حكاية البيضة والكتكوت، زوّد اختفاء المغربي حيرة الناس، ناس قالت إن المغربي نفسه نقب الجدار من ناحية دار الليثي ليصل إلى الكنز المدفون ولا يدرى أحد أين كان مدفونًا وما إذا كان قد أفلح في نقبه والحفر تحته بجهده أو بمساعدة الجن الساكن سابع أرض والذين كانت له بهم علاقة، وناس قالت إنه انخطف تحت الأرض بواسطة الأسياد الساكنين تحت الأرض بعد أن عثر على الكنز، وإنه لا يعقل أن يفرّ ويترك ضناه الذين هم توأمين معجزتين عاجزتين عن الإدراك مع أم عبيطة مثل «كاف».

وناس قالت أن الشرشابي نقبها بمساعدة حلاّق الحمير وابنه يوسف وأمه فرحانة، وأنهم بالقطع كبسوا على المغربي وهو نائم فقتلوه ودفنوه وأخذوا الكنز الذي هو ميراث الليثي، وناس قالت إنها «كاف» التي فعلت كل شيء وحصلت على كل شيء لأنها الوحيدة التي كانت تثق وتعرف إن كان المغربي من سلالة الجن الأزرق أو إنه بني آدم من لحم ودم قابل للقتل والخنق وابتلاع السم مستعيدين حكايتها القريبة مع الليثي.

ولم يتبدّل شيء، لم تظهر علامات النعمة على الشرشابي أو حلاق الحمير أو حتى غيّرت فرحانة جلبابها، صحيح أن حلاق الحمير هجر مهنته وصار يطلب من كل من يطلب منه قص شعر حماره أن يبعث ابنه ليقص له

شعره بلا مقابل ويقسم أنه اشترى عدّة حلاقة جديدة تليـق بـذقن الباشـا ورأس ابن الباشا الكبير، لكنه من كان فى كفرنا يرضى بأن يقص شعر إبنه حلاق حمير أو يحلق ذقنه موس جديد فى يد كانت تقص شعر الحمير، صار حلاق الحمير مزيّنًا مع إيقاف التنفيذ وصارت «كاف» تسـرح فـى دروب الكفر تنادى على المغربى وعلى صدرها الولدين التـوأمين ومـن خلفهـا «كاف» الطفل وقد رفعت له أمه جلبابه أو قميصه مـن الخلـف فصـارت مؤخرته مثل دار الليثى عريانة إلى حين ومستباحة.

* * *

وعمادة الكفر غول خوَّاف ويخوِّف، يخوِّف المربوط ويخوِّف المفلوت المسلوت، ولأنه نادراً نادرًا ما عاد لعمادة كفرنا عمدة انعزل منهـا، فـإن عودة العمدة يوسف الشلبى للعمادة كانت نادرة تسـتلزم الحـذر، لكـنهم تسابقوا على داره التى صارت دوَّاره يباركون ويهنئون ويتباهون بعـودة الحق لأصحابه وخيبة الباطل مع أن المسألة لا كان فيها عـودة حـق ولا خيبة باطل، المسألة كانت ببساطة تكشـف أنهـم بـارعون فـى التملـق ومتسارعون فى إظهار أمارات الخضوع واختراع المدائح، لكنـه لا كـان يوسف ولا أكبر من يوسف بقادر على منع الهامات من الانحناء ولا منـع نفسه من تصديق تلك الأسطوانات التى انشرخت من كثرة التدوير والتقليب على الوجهين.

هل أقول إننى تباعدت عنه بقصد حتى لا أتوه فى الزفـة، أو إننـى اقتربت منه بقصد لأكون جليسه الذى يحميه من المفاسد التى أزاحته مـن العمادة فى أول مرة؟ لكنه لا التباعد عنه أفاده أو أفادنى ولا القـرب منـه أفادنى أو أفاده، ربما لأن عمادة الكفر غول خوّان يرفع صاحبه على الجناح الطالع للأعالى فيتحوّل الراكب إلى شهاب قابل لمزيد من الطلوع مثلما هو قابل للسقوط على الأرض بلا مقدمات أو بمقدمات، ومثلما هى غول خوّان لراكب الجناح فإنها بالقطع تفعل نفس الشىء للأتباع الدائرين فى المدار.

لا بد أنه كانت بينى وبينه خصومة حقيقية مخفية أكبر بكثير من تلك

الخلافات الظاهرة أو الاختلافات المعلنة، خصومة بحجم حجر طاحون مدفوس تحت سطح الأرض بمسافة يطولها سن المحراث فينكسر، أو تزيلها «رخة» مطر فتظهره على حقيقته وتكشف اتساعه وسمكه، وأخطر شيء فى مثل هذه العلاقات أن يكتشفها البنى آدم بعد فوات الأوان اللائق بأوان وأوان وأوان، يكتشفها بعد استحالة التراجع ويكتشف أنه عاش العمر كله بسذاجة أو حسن نية أو طيبة مفرطة، تختلف التسميات ويبقى فى القلب وجع من غير علاج، وكنت فى مثل هذه الحالات أتمنى لو أننى كنت نفراً مجهولاً لا أعلق بذاكرته أو ينشغل هو بأمره، نفر لا تقوم بينى وبينه علاقة من أى نوع، لا ينتظرنى ولا أنتظره، لكنهم ورّثونى علاقتى به بدعوى القرابة من بعيد وبدعوى المعاشرة على امتداد العمر، وبدعاوى أخرى مثل المشاركة فى المكان والناس والزمان.

فى السّابق واللاّحق كنا نختلف على أى شىء فأغضب وأتباعد عنه حتى يأتينى ويصالحنى، وفى كل مرة كان يوهمنى بأن قلبى أسود من قرون الخروب وأن قلبه أبيض من اللبن الحليب. لا أصدقه تمامًا وإن كنت أتشكك فى أمر قلبى وقلبه، ربما عرف هو نقطة ضعفى واستثمرها لصالحه وربما كنت أنا بالفعل عبيطًا وجاهزًا للتصديق رغم المقدمات التى توحى لى فى كل مرة أنه يتخابث بوعى، يخاصمنى فى ميدان ويصالحنى فى زقاق أو حارة، يغلط فىَّ على ملأ ويقبّل رأسى معتذرًا بينى وبينه فى دارى أو داره فأقبل الاعتذار وأسامح وأصالح.

وربما أتشكّك فى أمر نفسى ويصل الأمر أحيانًا إلى حد تأنيب الضمير مثلما حدث مرة فى ليلة معتمة من ليالى شتاء لم يظهر لها قمر ولا نجوم وامتلأت سماؤها بسحب داكنة وهواء ساكن وراكد لا يبشر بمطر ويوسف جالس قبالتى فى دارى يعاتبنى ويلومنى لأننى قليل الاحتمال وقابل للاستثارة لأقل الأسباب، وأننى مندفع فى غضبى وجاهز للتفريط فى صداقات العمر وقرابات الدم، وكيف أنه بسبب معرفته لطباعى يحتملنى بينما كان من اللائق أن أحتمله أنا أو على الأقل أتظاهر باحتماله أمام

الناس كى تتخلّق له فى عيون الناس هيبة ورهبة، وكيف أنه - لو كان فى مكانى وكنت فى مكانته - سوف يتصرف باتزان وعقل ويتحكّم فـــى ردود أفعاله على العكس منى تمامًا، ليلتها شعرت بالحرج من نفسى واعتذرت له عن عصبيتى الزائدة فقبل اعتذارى بدلع وتركنى مودعاً وقد أشفقت عليــه لأنه يلعب دوراً أكبر من حجمه ويلبس ثوبًا أوسع من قامته وأطــول، وأن أمثاله فى واقع الأمر مساكين بالمعنى الواسع لكلمة مساكين لأنهم يعايشون ازدواجا مضنيًا بين صورهم الحقيقية وبين ذواتهم وصورهم التى يرغبون فى طبعها فى عقول الناس، ليلتها قلت لنفس أننى أتشدّد أحيانا مع رجــل نصف جاهل لم يقرأ فى حياته كتاباً محترمًا فى التاريخ أو علم النفس، وأنه من الجائز أن يتشدّد الإنسان مع نفسه أو يطوّعها لتكون صفحته بيضــاء من غير سوء، بينما لا يجوز أن يفرض تصوراته على غيره ويطالبهم بأن يكونوا بنفس درجة الوعى والحساسية التى يريدها لهم ناسياً أنهم كائنــات أخرى قادرة على الطنطنة بالكلام الفارغ وسـط الكــلام المــألوف لأنهــم أنصاف، أنصاف أو أرباع وفرافيت بشر تعيبهم الرغبة فى الطلوع وإثبــات الوجود مثلما فعل يوسف وهو غير العارف مقدار جهله ولأنه بالكاد يفــك الخط، لكنه عندما سنحت الفرصة لم يدعها تفلت فارتفع شــأنه مــن ابــن حلاق حمير إلى نصف سمسار فى سوق المواشى ثم إلى زوج لعانس مــن نسل قطاعين طرق وأصحاب أملاك وهيبة وسمعة ترجف القلوب فهل كــان يترك العمادة للناس العوف وقد انطفأ شعاعهم وسكنت أبدانهم وصاروا مثل الجيفة يشمها الناس فينفرون بينما لا تشم الجيفة رائحة نفسها وهى مرمية تنوشها الحشرات ويلغ فى لحمها الدود والحيوانات الدنيئة والكلاب، ركسب يوسف الموجة وانقلب مركبه مرة، لكنه احتاط لنفسه وجهّز نفسه للرجوع أقوى مما كان وأوعى، استفاد دون أدنى شك من مدة العزل التــى طالــت وتعلم كيف يتراقص بحذر على كل الحبال ويصــبغ وجهــه بكــل الألــوان ويمارس الكذب ببراعة ويكذّب الصادقين، ويخزيهم ويوهمهم بأنهم علـــى امتداد العمر غلطوا فى حقه أو أنهم تخلوا عنه فــى أول منعطــف أو أول اختبار للصلابة، وفى حالتى كان يستدرجنى لحالة من حالات الشعور بالندم.

لكن المسألة مع يوسف كانت أخطر من رجعة عمدة كفر مرمى على شمال السماء كما يقولون، كفر تابع لمركز صغير فى محافظة متوسطة الأهمية فى بلد عتيق صنع أهم منجزاته فى الماضى البعيد ثم انحدر وانحدر حتى صار محسوبًا على البلدان الفقيرة والتى تدَّعى أنها نامية، لكنه نمو بكسل لا يليق بما كان أو يساعد التطلع لما هو آت فى أخيلة المهمومين بالمستقبل وسط الزحام والكذب المحبوك المطلى بكل الألوان.

قلت مرة أننى كنت أتمنى لو أننى كنت نفرًا مجهولاً ليوسف أو حتى معروفا من بعيد بحيث لا أعلق بذاكرته أو ينشغل بأمرى، لكن ما يتمناه الإنسان لا يدركه فى كل الأحوال، كنت أشعر بعد عودته للعمادة بأن حركاتى مرصودة ومحسوبة، حتى كلماتى وآرائى التى كنت أصرِّح بها فى أى أمر من أمور الحياة كانت تصل إليه مضبوطة أو بعد تحريفات وتعديلات وتفسيرات يتطوع بإجرائها أتباع يوسف، وللأتباع فى حياة يوسف حكايات وحكايات تنكتب فى الكتب والجرائد إذا وجدت من يلملمها ويحسن روايتها، ولأنه من المستبعد أن يلتفت كتبة الصحف والمجلات إلى كفرنا المنزوى فى ركن مركز قليل الأهمية؛ كلفت نفسى بنفسى للبوح لكم ببعض ما فعله الأعوان مع يوسف أو فعله يوسف بواسطة الأعوان الأتباع الذين هم أخطر الناس فى حياة أى عمدة فى كفرنا والكفور المجاورة، ومن العسير على المرء مهما أوتى من وعى وفطنة أن يعرف كل الأتباع ومن يدورون فى الفلك متطوعين أو مكلفين بنقل الأخبار.

أمثال هؤلاء يبدأون متطوعين ثم يحوزون الرضا والقبول ثم الثقة التى لا يحدَّها حد فيديرون القرى والنجوع والكفور على هواهم، يصفون حساباتهم مع الخصوم القدامى ويبرعون فى التخفى، يقابلك الواحد منهم بالأحضان ثم يستديرون ويطعنون فى الخفاء، شفتهم أو شفت بعضهم وهم يهلّلون مرحبين بالوافد إلى دوّار العمدة ويتسابقون فى تقديم التحية قبل وصول العمدة يوسف إلى المضيفة ليعاود طلب التحية من جديد لضيفه، وبعد أن يخرج أو يستدير يتهامسون بكلام ويهمسون فى أذن العمدة بكلام

ثم يبعبعون بكلام غير الكلام السابق وغالبًا غير الكلام المهموس في الآذان، كنت أرى هؤلاء وأتعجب من مقدرتهم على التلّون والمسايرة وإظهار معكوس ما يبطنون، أقول لنفسى أننى لو خرجت فسوف يتحدثون عنى بمعكوس كلامهم فى وجودى، وأقاوم رغبتى فى القيام مستأذناً من حضرة العمدة يوسف لعلنى أقلّل خطرهم الذى لا بد أنه يتوجه ناحيتى بدرجات متفاوتة وفى أوقات متباينة، وكلما همس تابع فى أذن العمدة بكلام تشكَّكت فى أنه من الممكن أن يكون لى منه نصيب، وعندما يتشكَّك المرء فى كل همسة مهموسة فى أذن فقل على الدنيا يا رحمن يا رحيم.

آخر مرة ذهبت فيها إلى دوَّار العمدة يوسف كان تلبية لطلبه حيث جاءنى الغباشى وهمس فى أذنى:

- حضرة العمدة عايز حضرتك ضرورى الليلة، وإن ماكانش يبقى بكره الصبح بالكتير.

وعدته بالذهاب فى الصباح فابتسم فى بلاهة ورفع حاجبيه ثم استدار ورحل، وفى الصباح حلقت ذقنى ولبست ثيابى وجاوبت على سؤال فردوس عن وجهتى ووعدتها بعدم الغياب، وعلى باب الدوَّار كان الغباشى يبتسم بنفس البلاهة ويرفع حاجبيه بنفس الطريقة ويستدير ليتقدمنى إلى المضيفة، يخبط على مسند الدكة عدة خبطات ويشير لى بالجلوس فأجلس، يستدير مرَّة أخرى بعد أن يبتسم ويرفع حاجبيه ويطمئننى:

- ح أبلغ حضرة العمدة حالاً إن حضرتك وصلت.

ومن مكانى رأيت دليلة تنخل الدقيق ورأيت التيس يطارد العنزة وقد احتشد وتعثَّر فى «غلق» الدقيق ليقلبه على الأرض ويتناثر بعضه على رأس التيس الذى اندفع إلى المضيفة وراء العنزة ودليلة وراءه تفلح فى إمساكه وسحبه من قرنه الملفوف محتجَّة وغاضبة:

- دى عُشر ياللّى تندبح.. عُشر.. بترمح وراها ليه.. آه يا نارى..

كانت تبدو شديدة النحول تائهة النظرات والتجاعيد المحفورة على

وجهها تعطيها ملامح الجدّات المسنّات، وكنت أشعر ناحيتها بالإشفاق أكثر مما أشفقت عليها فى سابق الأيام، ناديتها وهى تسحب التيس المعاند من قرنه:

- دليلة..
- مين.. يقطعنى.. هو أنت.. سامحنى ياسى الأستاذ.. ما هو العتب ع النظر..

قالت عباراتها بتباطؤ وهى تتأملنى وكأنها ترانى لأول مرَّة وتتأكد من شخصى مخافة أن تكون قد أخطات.. وفى وسط الكلام أفلتت قرن التيس من يدها بوعى أو بغير وعى ثم اقتعدت الأرض قبالتى، هرشت شعر رأسها المعصوب بعصابة حال لونها وبهتت الخيوط التى تتدلى منها حبات الخرز ودوائر الترتر، بانت خصلات الشعر وقد تزايد فيها الأبيض عن الأسود وكان صدرها الضامر يدعو للرثاء، لا بد أنها كانت تفكر وتستعيد بالهرش بداية الكلام:

- آه.. افتكرت، كان مستنيك تيجى بالليل.. تلاقيها بتليف له جتّته، كنت بأصحى لهم ف انصاص الليالى وأسمع دبدبتهم وهو بيرمح وراها.. دى غازية قادرة يا سيدنا الأفندى، ح تهد قواه، ما بيسمعش غير كلامك، شور عليه يصحى لروحه ويخاف على صحته، هو يوسف لسه صغير؟

سمعت نحنحاته قبل أن يدخل المضيفة ويتوجه ناحيتى بينما دليلة تقوم من جلستها وتقف وقد وضعت راحتيها على صدرها وأطرقت وهى تسمع توبيخاته:

- يا وليه مش ح تبطّلى زن؟ قاعدة تنعقى زى غراب البين ع الصبح ليه..؟ أنتى ح تشاركينى فى عيشتى أنتى راخرة؟
- خايفة على عمرك باللّى ما تمرتش فيك الربايه.
- مالكيش أنتى دعوة ياللّى ماحدش شم ريحتك وامش انجرى من قصادى أحسن أخلّى الغباشى يمسح بيكى البلاط.

مكسورة الخاطر خرجت دليلة فشعرت بالأسى من أجلها واستنكرت كلام يوسف الجارح وقبل أن أعاتبه بأى كلام أعلن اعتراضه:

- أوعاك تكلمنى عن دليلة، لو صعبان عليك حالها خدها دارك وريّحنى من وشها.. هيه ما جيتش ليلة إمبارح ليه؟ كنت عايزك ف حاجة مهمة.. يا غباشى.. أنت يازفت الطين يا غباشى.

ورأيتهم يتوافدون تباعاً وكان كلمة السر بينه وبينهم هى غباشى لأن الغباشى لم يكن معهم، وسألت نفسى أين كانوا بينما لم أسمع لأيهم أى صوت أو نحنحة أو حتى كحة تخرج غصباً رغم كثرتهم، هل كانوا تحت الأرض مثل الجان مع أنهم بشر من ناس الكفر أعرفهم واحداً فواحداً وأعرف آباءهم وأعمامهم وعيالهم، لكن كيف انحبست أنفاسهم كل هذا الوقت ثم ظهروا فجأة بإشارة هى نداء متفق عليه بينه وبينهم وكأنها حيلة لإثبات القدرة وتأكيد الهيبة أمامى، لكننى فكرت أيضاً أن إثبات الهيبة وزرع الرهبة لا يكون بمثل هذه الألعاب العبيطة.

كان يوسف على يمينى وكنت على يساره وكانوا هم يشكلون نصف دائرة تحوطنى وتحوطه، وبدا لى أننى صرت محاصرًا بهم وصار هو محميًا بهم فى ذات الوقت وبنفس الأشخاص، كانوا يرتشفون أكواب الشاى الساخن وتصدر عن رشفاتهم أصوات توحى بالتلذذ والدفء، وكان امتداح العمدة يوسف هو البداية، امتدحوا كرمه الزائد وسماحته وأصله العريق العريق الذى ينسف كل الأصول، وشجاعته التى لا تدانيها شجاعة، وبدا لى أنهم يكيدوننى بينما يصنعون بالكلام من الحبة قبّة ومن فسيخ كفرنا «الزفر» زجاجات عطر وشراب، قلت لنفسى: لجّم لسانك يا ولد وتصامم حتى ينفك عنك الحصار أو أفتح لنفسك ثغرة للفرار، لكنهم كانوا مثل كتل الصخر الثابت لا يتزحزحون، وقال البرادعى ابن بياع البرادع:

- طيب ناخد رأى الأستاذ فى حضرة جناب العمدة يوسف.

وقوبل اقتراحه بالتأييد الكامل، تململت ارتباكًا وأنا العاجز عن الكلام

عندما تنحط علىَّ ثمانية عيون فى أربع وجوه، لو زادت استحال علىَّ أن أنطق باتزان وإذا نطقت باتزان فلمدة دقيقة ثم يختل الميزان، وقلت لنفسى: أسكت أو اعتذر، كانت عينا يوسف تتفحصانى بدقة وتقاطيعه المحايدة لا تستعجلنى أو تدعونى للكلام ولا تحذرنى أو تشجعنى على السكوت، كانوا يتبادلون النظرات وكأنما نجحوا فى إسكاتى، ومرَّة أخرى قال ابن البرادعى:

- آنى عارف رأى الأستاذ فى حضرة جناب العمدة، بس حضرة العمدة يسمح لى وأنا أقول بدلاً عن الأستاذ..
- قول يا برادعى.

قالها العمدة يوسف فانفتح البرادعى «كالبرنج» يتحدث بدلاً عنى ويسند لى آراء ما فكرت فيها وصفات ما شفتها وكلها مديح وتملّق فج، لا كنت بقادر على تكذيبه ولا كنت مستعداً للموافقة عليه، ولا بد أن حماساً جماعياً أصابهم فتباروا على كيل المدائح الزائفة بلسانى وفى وجودى، وقلت لنفسى أن أمثالهم يتواجدون فى كل زمان ومكان، يطلعون من الشقوق مثل الحيَّات والعقارب، بارعون فى خلط الجد بالهزل واختراع الكلام الذى يحمل المعنى ومعكوسه، يتحسسون مناطق الخلاف بين الإنسان وصاحبه وبين الإنسان وأقرب أقاربه سواء كان أم أو أب أو أخ أو عم أو زوج أو ابن أو بنت، وبألسنتهم التى تشبه المطارق الثقيلة يوسّعون مناطق الخلاف ويحفرون بأسنان الإبر الدقيقة الممرات والأنفاق، وماذا كنت أملك غير الاعتراض على التمادى فى التبجيل والتوقير والتسيد على لسانى بدون مناسبة؟ اعترضت بأدب لأسكتهم:

- يا جماعة كتَّر ألف خيركم، بس أنا موجود وأعرف أقول رأيى وقت اللزوم.
- قول.. قول.. إحنا عايزين نسمع منك أنت.. قول.. ساكت ليه؟ ياسى الأستاذ.. رأيك إيه فـ حضرة العمدة؟

كانت أصواتهم تتداخل وتتشكل حالة من اللغط صعب الاحتمال،

يستنطقونى وبدا لى أننى مطارد بقطيع من الذئاب والكلاب والثعالب والأفاعى، مطارد وهارب ومسحوب لدائرة الاستغاثة أو البوح بالحقيقة، وبحثت عن مخرج:

- اللّى بينى وبينه هو عارفه يا ناس، مش كده يا عمدة؟
- الصراحة لأ.. والخلق دى لها حق، عايزة تتأكد بروحها.
- من إيه يا عمدة..؟

وتطوع ابن السعيد الشارد ففاجأنى وفاجأ العمدة:

- الصراحة كده.. أنت يا سيدنا الأفندى عليك كلام كتير.. سمعت ف المركز والله أعلم أنك كنت السبب ف عزل العمدة، كنت بتكتب شكاوى ضده، وفيه ناس شاهدة عليك، وكلنّا خايفين تكتب شكاوى تانى.
- أنا.. أنا..؟ أنا؟ أنا؟

كنت كمن لسعته حية غادرة، أتقافز دون وعى وأدور حول نفسى حائراً بأى شىء ادافع عن نفسى وكأننى بالفعل متهم مظلوم فى قفص حديد لا يملك الخروج منه ولا يعرف أساليب الدفاع، يهدئوننى فلا أهدأ ويجلسوننى فلا أجلس، تهمة عبيطة رماها على دماغى ابن السعيد الشارد ولم أكن أملك ردّها أو أعرف مصدرها، وربما لديه شهود زور ضدى يستطيع تدبيرهم، وربما لا يستطيع لكنه أربكنى وجعلنى هدفاً لنظرات استنكار من أتباع يوسف، لعلنى كنت أسأل نفسى إن كان من الممكن عزل عمدة كفر أو قرية فى ناحيتنا بسبب شكاوى مكتوبة أم أن المسألة لها أسبابها الأخطر من كتابة الشكاوى، ولو عزلت الحكومة كل عمدة تنكتب فيه شكاوى فربما لا يبقى عمدة واحد على كرسى العمادة شهراً أو شهرين، لا بد أن الحكومة أنصح من الناس، تأخذ الشكاوى وتبحثها ثم تعيد بحثها لتحفظها أو تعيد بحثها للتوصل إلى أسبابها، ليست عمادة الكفور مثل الوظائف التى من طبيعتها قبول الموظف تنفيذ قرارات النقل من بلد لبلد، أما العمادة فلم نسمع عن عمدة منقول من كفر لكفر أو من ناحية لناحية

أو من محافظة لمحافظة، العمادة مربوطة على المكان وربما بسبب ذلك يصعب عزل العمدة إلاَّ لأسباب فوق مستوى شكوى أو مجموعة شكاوى كيدية أو حتى حقيقية، كدت أقول مثل هذه الأفكار للعمدة وأعوانه لكن لسانى لم يطاوعنى، كانت العيون المصبوبة علىَّ تزيد عن العشرين، وأنا تربكنى النظرات المصبوبة تفحصنى وتتهمنى.

هل جلست بعد أن هدأنى يوسف وشخط فى ابن السعيد الشارد يطرده ويطيِّب خاطرى بما يفيد أنه لا يصدق مثل هذا الكلام الفارغ عنى حتى ولو حلفوا له على المصحف، أم أن شحنة الكهرباء التى صعقتنى زال تأثيرها؟ أم أننى تعبت فجلست؟ وجدتنى جالسًا على يسار يوسف مثلما كنت، يتضاحكون لإضحاكى فأرقبهم دون أن أشعر بالإفاقة، كأننى انسطلت بفعل مخدر لم أجربه أبدًا تسبب فى إجلاسى ساكنًا متأملاً متفكرا، هل دبر يوسف هذه اللعبة ليلاعبنى؟ طيب.. لماذا طرد ابن السعيد الشارد؟ طيب لماذا استمر فى السكوت وأنا الأستاذ الذى يجلجل صوته فى الفصل متحدثاً عن التاريخ وشارحاً لتلاميذى تفاصيله الدقيقة بينما أعجز عن مجرد محاولة توصيل أفكارى لهؤلاء الناس فى هذه المناسبة الصعبة؟ هل الكلام فى الفصل غير الكلام فى المضيفة أم أن الكلام للصبية والشباب أسهل وأفيد من الكلام لهؤلاء الأتباع الذين لوثتهم المنافع ولوث ألسنتهم وعقولهم المصالح؟ لا بد أنهم كانوا يدركون تفاصيل اللعبة قبل وصولى، ولا بد أنهم وقد تحولوا إلى مجموعة من الأراجوزات فى مولد البدوى يهدفون إلى إضحاك الطفل الوحيد الذى كنته بحساباتهم، ابن السرساوى يتحزم بالتلفيحة ويرقص وشيخ البلد يطبل على ظهر صينية الشاى والغالبية تصفق والشيخ تهامى يغنى ويردون عليه وكأنهم فى فرح:

– يطول بعدك وأعيش بعدك على شوقى وأشجانى.

حتى يوسف كان يرد على الشيخ تهامى ويهمس لى من آن لآخر أن أنسى ابن الكلب الخبَّاص الذى جاء من غير دعوة ليفسد علينا جلسة السود والمحبة:

- أنت ناسى أنى متجوز على بنت عمه لزم؟ الخلق دى مش عايزانى يبقى لى حبايب خالص.. كان لك حق تخوفنى منهم زمان، أصيله عاوزة توقع بينى وبينك.

أوشك أن أفيق وأبتسم نصف ابتسامة فيهلّلون وأشعر أنهم عملوا فى المضيفة فرحاً زائفاً لأستعيد نفسى وأبتسم ناسيًا أو متظاهراً بالنسيان، وكان كل واحد منهم يتوجه لى بعبارة مجاملة تفيد أن العمدة لا يثق فى غيرى أو لا يحب عياله الذين هم من صلبه أكثر منى، أو أنه يمتدحنى فى غيابى أكثر من حضورى، وكلام كثير جعلنى أتأرجح بين التصديق والتكذيب وأستعيد بعض توازنى، أتذكر وعدى لفردوس بعدم الغياب فأهمس فى أذن يوسف مستأذناً لكنه على غير عادته لا يطاوعنى ويحلف بأعلى صوت:

- لأ.. لأ.. لأ.. علىَّ الطلاق بالتلاتة لا يمكن.. إحنا ح نتغدى سوا.. لجل ما أتأكد أن قلبك ما اتغيَّرش من ناحيتى.

مغصوباً سكت ولم أعاود المحاولة، وقلت لنفسى لو فرضاً وقع يمين الطلاق فعلى أى الزوجات يقع؟ بنت الشراودة أم العيال الكبار وصاحبة الفضل عليه، أو بنت بنت هارون التى هى من سلساله وأهله، أم تلك الغازية التى اجتلبها من البندر لترقص له وترقِّصه وترجِّع له شبابه بحسب ما كان يسرٍّ لى بينى وبينه؟ راقبت نفسى وأنا أتحول من حالة الاستياء الكامل إلى الهدوء ثم قبول المسايرة مجاملة للسيرك المنصوب بهدف إضحاكى ثم إلى حالة من حالات المشاركة رغم بعض الأسى وبعض الزعل، وعندما جاءت دليلة بصينية العشاء الكبيرة وعليها الفطائر المشلتتة الساخنة وأطباق العسل الأبيض والعسل الأسود والجبن القديم والجبن الجديد صفق ابن البرادعى هاتفًا بفرح:

- كرمك زى موج البحر يا حضرة جناب العمدة.

وامتدت الأصابع تمزق أو تنتش أو تسحب بنعومة ويوسف ينظر ناحيتى وينتظر، يميل بكتفه فيلمس كتفى:

- بايدك.

مددت يدى وقاومت رغبتى فى الاعتذار وأنا أتذكر اليمين الذى رماه يوسف، كابدت وجع الابتلاع على مضض، وأدهشنى ذلك الاستسلام المغصوب على الأكل بلا رغبة تنفيذاً لرغبة يوسف، أهو عجز عن الإصرار على الرفض أو خجل مخجل موروث يركبنى فيخرسنى ويحولنى إلى مسخ ممسوخ ضد إرادتى وضد عقلى وضد نفسى؟ ومهما قلت عن المرارة التى تركبنى فى مثل هذه الحالات فلن أحسن توصيفها، فمن منطقة الخجل ولحظة الضعف عن الرفض الحاسم الذى أتصوره جارحاً بحساباتى إلى لحظات المكابدة من فعل الابتلاع إلى الحد الذى يحوّل الأمر فى داخلى إلى إحساس بالضآلة وبعض التدنى، تنز جبهتى بعرق المهانة لأننى استسلمت وأكلت أو شربت فى بيوت أصحاب النفوس الصغيرة أو العيون الفارغة من الوضعاء وعلى مرأى ومشهد من النفوس الأكثر صغراً و العيون الأكثر فراغاً والبشر الأكثر وضاعة من أولاد الخبازات العجّانات الطبّاخات الغسّالات فى بيوت الغرباء ممن وهبهم المولى فرصة الطلوع فطلعوا وعيونهم المكسورة لا تحس ولا ترى غير السيد الذى وهبوا أرواحهم للدوران فى فلكه طالما هو فى خانة الأسياد شأن العمدة يوسف الشلبى.

انقطع حبل أفكارى وأنا أسمع ويسمعون أصوات استغاثة نسائية تختلط بها أصوات مطاردة وسباب وردح حريمى من الأصلى الذى يصعب على أمثالى ذكره أو إعادته على المسامع، وكانت المرأة نصف العريانة بقميصها الممزق ولحمها الطرى يترجرج تحت طرحة دليلة وفى الناحية الأخرى كانت أصيلة أو ما تبقى منها منكوشة الشعر وبنت بنت هارون القادرة والمقتدرة تهجم على المرأة نصف العريانة وتجرها من شعرها وتسقطها على الأرض فتعرى ما كان مستورًا منها والنحيلة النحيلة التى كانت فى الأصل أسمها أصيلة تمسك بيمينها المداس وتنزل بكل عزمها على مكان العفة منها، وكانت على ملامح يوسف شبه ابتسامة ممرورة عاجزة رغم أمره المنطوق:

- سيبيها يا بنت المراكيب أنتى وهى، اللّى مش ح تبعد عنها دلوقت طالق بالثلاثة.

وتباعدت بنت بنت هارون التى كانت تبرك عليها بكل ثقلها أسرع من تباعد أصيلة التى كانت مرتكزة على ركبتيها لتأدية مهمتها بدقة أكثر، وانكشفت المرأة العريانة تماماً لنا جميعاً، لكن الأتباع تظاهروا بالإطراق خجلاً وإن كانوا يرقبون، وخلع يوسف عباءته واقترب من المرأة فغطاها وساعدها على القيام متجاهلاً فاصل الردح له ولها ولكل الغوازى معدومات الأهل والأصل بائعات الهوى لمن يدفع، والراقصات عرايا فى الموالد والخمارات الضاحكات على دقون الرجال التى شابت دون أن تؤثر فى فراغ العيون ودناءة النفوس، كانت أصيلة بالفعل أصيلة فى ردحها الموزون المتساوى، بينما كانت بنت بنت هارون مثل المصارع السمين الخارج من مباراة انتصر فيها على خصمه الهزيل، وعندما طال فاصل الردح عاود يوسف تهديده:

- طلاق بالتلاتة كلمة واحدة بعد كده ما تباتى ف الدوَّار يا بنت الشراودة.

- دوَّار أيه يابو دوَّارد؟ يا حبل مرخى.

وانهمكت فى الرقص فكان رقصها مسخرة أضحكتنا وأضحكت حتى سنية العريانة والملفوفة فى عباءة يوسف واللأبدة تحت إبطه غير مشغولة بما يتعرى منها فى كل حركة أو خطوة، وظل السامر منصوباً فغطى على طعم الفطير وأفسد الظهيرة، ولا أدرى كيف تسلل الرجال ذوى الشوارب من المكان لأبقى وحدى مع يوسف الذى عاد للمضيفة بعد أن أوصل سنية وأوصلت كل من أصيلة وبنت بنت هارون نفسها إلى مكانها فى عمق الدوَّار.

- شفت الحريم وهبل الحريم؟

ولم أرد.. فتابع هو..

- غيرانين من سنية ومسودين عيشتها ومستحملاهم علشان خاطرى.. أهو كل يوم من ده من يوم ما وصلت الدوَّار.

ولم أجد رداً لائقًا على كلامه فساد صمت اقترح هو بعده اقتراحًا:

- بقول نبعت للست فردوس تراضى سنية بكلمتين وتصالح الستات على بعض.. مش برضه فكرة؟
- معرفش..

وأنا قلت لنفسى مال فردوس بأصيلة وبنت بنت هارون وسنية التى أتى بها من مولد البدوى، لكن يوسف نادى على دليلة وطلب منها أن تذهب إلى دارى وتستدعى زوجتى لتصلح الحريم كما قال، الغريب أن الرجال الذين اختفوا عاد بعضهم وانضاف إليهم رجال جدد وجلسوا يرتشفون أكواب الشاى إنما دون كلام، لعل الوقت طال وانمطّ وصار مملاً حتى جاءت دليلة تنهج وتلتقط أنفاسها بعسر العسر وهى تعلن.

- الست فردوس مش ف الدار ولاف الدرب ولاحد شافها طالعة من باب الدار.

شعرت بدوران وأنا أستعيدها الكلام فتعيده وتضيف:

- وباب الدار موارب.

لا بد أننى انخرست لزمن لا أعرفه، أصدرت أصواتًا مفزوعة وهم يلتفون حولى ويتبادلون النظرات بتخابث مع يوسف الذى كان يدعونى للاطمئنان ويمنعنى من القيام لكى أتأكد من أنها بالفعل فى الدار أو أنها انخطفت، كان يؤكد أن دليلة أصابها عمى «حيسى» أو انهبلت ودخلت داراً غير الدار، وبعسر العسر استطعت أن أخرج من داره وحدى دون أن يتطوع بمرافقتى أحد، أصل إلى دارى فأراها مفتوحة وخالية ولا أدرى كيف اختفت فردوس وكل الجيران يتساءلون كيف اختفت وكأننى المسئول، كأنها إبرة تاهت فى كوم تبن وعلىَّ وحدى يقع عبء العثور عليها فوق الأرض وتحت الأرض فى كفر عسكر أو خارج كفر عسكر.

* * *

وهل تجوز عليك يا يوسف بعد ما جرى لك غير الرحمة؟ وكيف أصدق ما كنت أسمعه من أتباعك وأعوانك القدامى وهم يشيعون عنك كل

المفاسد وكأنك كنت وحدك الذى صنع الأكاذيب وخوَّف الخصوم وأرسل الكلاب المسعورة فى أعقاب الودعاء، يعلقون فى رقبتك وحدك كل الخطايا ويتحدثون عنك بنبرة التشفّى والشماتة، ويذكرون ناس الكفر بكل الظلم الذى وقع فى زمنك القصير وكأن العدل كان غايتهم ولولاك لشاع وتحقق، ناسين أن الناس فى كفرنا وكل كفور الناحية اعتادوا وقوع بعض الظلم أو كثيرًا من الظلم لأن الدنيا نفسها ظالمة وبنت كلب ولم يتحقق فيها كل العدل أبدًا وإذا تحقق فلفترات قصيرة وفى بعض المساحات الضيقة، وأنا قرأت فى كتب التاريخ وسرحت بخيالى فى كل الأزمنة واكتشفت أنك كنت تليق بكفرنا فى تلك الفترة التى عايشتنا خلالها طفلاً ثم صبياً من وضعاء الناس دون ذنب أو اختيار منك، ومن يا يوسف كان من الممكن أن يختار لنفسه أباً مثل أبيك حلاق الحمير الشلبى؟ ومن كان الممكن أن يختار أمك فرحانة لنفسه أماً، ومن كان من الممكن لو عاش مثل ظروفك يستطيع أن يحمى نفسه من السعى فى سوق المواشى بلا سند من مال أو خبرة بهدف الحصول على لقمة العيش؟ وكيف يتحدث الأتباع عنك اليوم وكأنك الوحيد الذى طلع من قاع القاع إلى سطح السطح بلا مبرر؟ ويتندرون عليك وكيف كنت لا تحسن وضع العباءة على كتفيك أو تليق فى مسكة العصا الأبنوس أو تجيد تناول وجبة فى دوَّارك من حرِّ مالك لبعض أكابر الناحية ممن يجيدون استخدام الشوك والسكاكين فى أكل اللحم الحلال المذبوح على الطريقة الإسلامية بعد أن امتلأت بطونهم باللحم الحرام وتمرسوا فى مص الدم البشرى وهضموا أموال اليتامى والأرامل العجزة وبعض الكتبة وذوى الضمائر ومن لا يحسنون الاعتراض بأدب فى دائرة البندر، وكنت أنت يا يوسف وسط هؤلاء تبدو ضئيلاً وصغيرًا إلى حد مؤسف لأنهم كانوا مردة وجن ساكن تحت الأرض وفوق الأرض، كنت أنت بكل الحسابات رغم الزهزهة مسخوطهم أو صعلوكهم أو فى أحسن الأحوال مملوكهم الذى زوَّدوا به هيبتهم ودفعوا الثمن.

عيبك مع الأتباع أنك لم تحسن الاختيار لأنهم باعوك وتبرأوا من كل أفعالك، أدانوك وداروا فى فلك من جاء بعدك حتى قبل أن يتأكد أنه جاء،

لعلهم هم أنفسهم الذين رسموا صورته فى عقول الناس ملاكاً طيبًا يليق بكفرنا الطيب، وأنا قلت لهم أنك سوف تعود من جديد، ربما تختلف بعض تقاطيعك وربما يختلف أسمك فلا يكون مثلما كان يوسف، لكنك سوف تعود وتتعلم كيف تضع العباءة على كتفيك باقتدار وتمسك العصا الأبنوس بشكل لائق وكأنك فرعون من نسل فراعنة حكام يمسك فى يمينه صولجان حكم كفرنا المحكوم من بعد الزمن الفرعونى بكل الأجناس، ترك وروم وفرس ويونان وفرنسيس وانكشارية وإنجليز وهكسوس ومماليك وخصيان وأعراب وأغراب من كل ملة ولون، حمر وسمر وسود وصفر وبرص وعميان ودجالون وسحرة وأتباع وذيول، لكنك أنت يا من كنت تسبح فى مياه ترعة كفرنا فرحاناً بالفيضان، ويا من تغذى على ثمار التوت وثمار الجميز وكافة الخضراوات المأخوذة من غيطان الخلق دون ثمن بحسب ما كان معتادًا فى ذلك الزمن البعيد الذى يسمح فيه لأى واحد من الأهالى أن يملأ بطنه إذا أراد فى أى غيط وأى ثمرة دون أن يحاسبه صاحب الغيط إلا إذا أخذ ما يزيد عن امتلاء البطن.

«املأ بطنك من حيث يحلو لك أن تملأه لكن لا تسرق بلحة أو كوز ذرة أو عنقود عنب»، كانت هذه هى تقاليد الزمن ولذلك أشاعوا فى كل الكفور وفى كل النواحى أنه فى بلادنا لا يبيت أى واحد وهو جوعان، ورغم الفقر والوحل وبعض الجهل كنت أنت ربيب الكفر، تسرح فى الغيطان وتصيد اليمام البرّى بالفخاخ وقراميط السمك من أعماق السواقى بالكفين، تشويها على الحطب وتأكلها بلا خبز وتشبع، شاركتك يا يوسف فى بعض الحالات وكدت أن أكون ظلك وأنت تنطلق وتتخطى حدود الكفور والقرى المجاورة بحثًا عن صيد تصطاده أو «مَداده» خيار تسد منها جوعك أو تكعيبة عنب تحصل منها على عنقودين لتحلى ريقك أو حتى كرم بلح تأخذ منه حفنة للأكل وتلعب بالنوى، كنت أنت فيما بدا لى ابنًا لهذه الأرض على كل الحالات ولابد أننا كنا نستحق فى زمنك أن تتولى عمادة كفرنا الغطسان وسط دلتا نهر عجوز وكهل محكومة فيضاناته بفتحات سد انبنى لينظم اندفاعاته ويمنعه من بعض الجنون الضرورى بدعوى أنه يحمينا من كل

احتمالات الجفاف في سنوات الجفاف، وهل كان في زمنك الذى هو في نفس الوقت زماننا غير الجفاف؟ كل ألوان الجفاف؟ جفاف الترع وجفاف المشاعر وجفاف الحلوق وجفاف الأدمغة، وفي كفرنا المردوم على خصوبة أرضه ببنايات من الطوب الأحمر والأسمنت وحديد التسليح على أجزاء الأرض التى جرّفوها وبوّروها بالقصد أو تلك التى نشعت أو طبلت من غير قصد، وكلها مصادفات يا يوسف.. ربما تكون هى الأخرى مدبرة أو غير مدبرة لكنها حصلت في زمنك الذى هو زماننا الذى سكنّا فيه أو قل تجمدنا. بينما يستتب لك الأمر مع الأعوان والأتباع.

وأنا سألت نفسى عشرات المرات إن كانوا هم مماليكك أو أنك أنت كنت في واقع الأمر مملوكهم الذى يحركونه بحسب هواهم لحساب السادة الكبار من وراء الستار، ولعلنى انحسبت عليك من الأعوان أو انحسبت أنت علىّ دون أن ندرى أو نحن ندرى لكن كل هذا لا يغيّر في الأمر أى شيء، أصدقك القول أننى بالفعل أحببتك زمناً ليس بالقصير، وسرحت معك بخيالى وأطلقت لسانى بلا حذر ولا تحفظات، كنت أبوح بالمخبوء المدفون في تلافيف الوعى واللاوعى، وعندما كبرنا وعبرنا زمن المراهقة عبرناه معًا ثم تخطيناه بخطاياها الصغيرة والكبيرة معا، وبدا لكلانا أحيانًا أن الدنيا بأسرها صارت بين أناملنا مجرد كرة نلعب بها ونلاعبها وهى التى تحتوينا في حضنها وقد أسلمنا لها الصدرين، وكان يبدو لى كثيرًا أنك تفهمنى بمثل ما أفهمك وتقرأنى بقدر ما أقرأك، أشعر أننا كنا في الخيال طائراً واحداً مشتركاً يحلق بجناحين، طائر مثل الرخ القديم وقد تجدد وصار كائناً متوحداً يقدر على الصعود والهبوط والتقدم والتراجع بقدر ما هو قادر على تخطى حدود الزمن، يتقافز بين الحدود ويتخطى المسافات أو يتعلق في الفراغ حيث لا سقف ولا أرض ولا حد لقدرته على التحليق، كائن واحد بروحين يتوهم من فرط غروره أنه قادر على إنزال المطر أو إثارة الزوابع أو تزويد سخونة الشمس، ولا بد أننى كنت معك في بعض الأحيان كيانًا واحداً بروحين، إحداهما تدعى أنها انخلقت لتزرع بذور الشر وتفسد الدنيا بأسرها والأخرى تتوهم أنها قادرة على تحقيق بعض العدل الذى لم يتحقق كاملاً

على سطح الأرض أبدا، ومثلما تلازم الخير والشر منذ بداية الخلق تلازمنا وإن لم نتفق على الحدود الفاصلة أو يفكر أى منا فى التقسيم، ربما من أجل هذا تداخلت الحدود وساحت الألوان وأصبح من العسير على الكائن الواحد أن يعرف مساحات الخير الداخلة فى خلايا الشر أو خلايا الشر الساكنة فى قلب الخير، لكنه لم يكن لصالحى بكل الحسابات هذا الخلط لأن مسارات الخيط الأسود النافذة فى البدن الأبيض كانت أخطر وأدعى للحذر، ربما لأنه لم يكن أنت وحدك يا يوسف الذى يتشابك معى ويلازمنى، ولكنهم هم الذين نجحوا فى تحويلك إلى مجرد تابع ينفذ رغباتهم من خلال ما بثوه فى عقلك وأنطقوا به لسانك وحركوك بخيوطهم غير المرئية إلى الحد الذى جعلنى أسأل مثلما سأل الناس أين على وجه التحديد ينتهى فيك الدم الشلبى والسلسال الشلبى المولود فى كفر عسكر وأين يبدأ السلسال الشارد الذى يقطع الطريق من أول العبِّ الجوَّانى ولغاية حدود البندر من الناحية المقابلة، بل أين ومتى يبدأ بك ومن خلالك الزمن الدكرونى؟

قلت لطيفك يا يوسف إن قتلك ضيعنى فلم يصدق، وقلت له أن الدم الذى سال منك عند مدخل الدوَّار كان فيه الكثير من دمى المهدر فلم يفهم، لكننى الآن وقد استعدتك لتؤنسنى سوف أحاول إفهامك بنفس طريقتك القديمة، طريقة السمسار الصغير الذى تنامى وكبر وعرف بخبرته التى اكتسبها أى الطرفين فى صفقة العمر خسر وأيهما كسب؟ لا بد أنك سوف توافقنى على حقيقة مكسبك وخسارتى على طول الخط، ربما من أول ما كنت تذهب إلى دار جدتى عدلات وتحصل منها على أى شيء بأكثر مما كنت أحصل على نفس الشيء.

لن أذكرك بصندلى الأحمر المقطوع أو صندلك الأزرق، ولن أذكرك بالغش فى المدرسة الذى كنت تجيده والتغشيش الذى كنت أخافه وأقوم به لصالحك نتيجة إلحاحك. هذه أمور صغيرة، لكن هل يجوز لك أن تنكر خير دارنا الذى انتقل إلى داركم من كل شكل ولون، بلح تمر وقمح وبيض وطواجن لبن حليب وحلبة وشعير وفول وكافة كافة ما كانت تنتجه الأرض

وتمنحكم منه أمى فى أوقات الصفاء ثم تبرر لأبى الذى لم يكن يسألها أبدًا أنها فعلت ذلك من أجل زكاة المال أو صدقة جارية لمن يستحقونها من الأهل الغرباء.

لكن عشرات الجنيهات التى أخذتها أنت من بين صفحات المصحف الشريف وطلبت منك أن تقسم على المشى فى سكة الخير والابتعاد عن سكة الشر فأقسمت قبل أن أطلب منك أن تفتحه وتتناولها بنفسك لتبدأ بها حياتك فى نفس الليلة الممطرة التى تخلَّى عنك أبوك حلاق الحمير الشلبى راحلاً وتاركًا داركم عريانة من كل ما يسترها وجيوبكم خاوية، هذه الجنيهات التى عرَّفتك بعدها أنها كانت حصيلة تفوقى وسهرى من أجل الحصول على مجانية التعليم بالإضافة إلى كل ما كنت أحصل عليه من جوائز، ثمرة تفوقى التى منحتها لك فى بداية مشوار المنح كلما تشكيت وتباكيت وطلبت فرققت قلبى وجعلتنى أمنح بلا حساب ولا أفكر فى أى مرة أننى سوف أستعيد منك ما أخذته، لكن الكرة الأرضية دارت دوراتها وانقلبت الموازين فصار الرزّاق يرزقك من حيث لا تدرى ويحجب رزقى لأسباب لا أفهمها، كنت تعيش فى بحبوبة زائدة ووسع بأكثر مما كنت تحلم وكانت الحياة تعاندنى ويضيق رزقى بأكثر مما أحتمل، وكنت ألمح فى عينيك شيئًا من بريق الشماتة يمنعنى من مجرد التفكير فى استعادة ما منحته لك، أتسامى وأتعفف وأنت تبرع فى التدنى، وأراك رغم العلو والثراء سمسارًا صغيرًا لم يشف غليله أبدًا أو يشبع، أتباعد عنك وأتخيلك بينما تتباهى بما حصلت عليه وامتلكته تستشعر نفس الجوع القديم الذى كان يسكنك فتسعى للخلاص منه فى بيوت الناس أو غيطانها، لكنه يا يوسف كان جوعًا محتملاً بالقياس لجوع هذا الزمان الذى يحول الإنسان إلى غول خوَّان والشقيق إلى كائن غدار والصديق إلى جلاد أو قاتل.

أتعجب لأنك مثل أعوانك من أولاد الغسالات الخبازات الطباخات العجانات المساحات لن تشبع أبدًا أو تشفى غليلك، يظل الجوع ساكنًا فى أحشائك مهما تعاليت أو تباهيت، مكشوفًا لى وأراك من الداخل الحقيقى

شخصًا شهوانًا جوعانًا ملهوفًا وضنينًا فى العطاء إذا تبدى لـك أنــه مــن اللازم أن تعطى لأنك سوف تسترد عطيتك أضعافاً مضاعفة بحسب قــانون السوق، لعلنى أكون قد كابرت على مرأى منك فى وجودك، ولا بـد أننــى سوف أكابر بعد رحيلك بنفس الدرجة، ولعلنى لم أفاتحك فــى الأمـر حيـاً لعاهة فى نفسى أو تعفف لا أملك التخلص منه، لكننــى أملـك الآن حـق استعادة ما هو مكتوب فى دفاتر الذاكرة ديونًا معدومة بانعـدامك وعجـزك عن رد دينك أو حتى القدرة على الوفاء بقسمك القديم.

هل كان يلذ لك بالفعل أن ترانى ممصوص الـدم ضـعيفًا لحسـابك وحسابهم، وهل كنت تحسب أنك تكسبنى أكثر وأنت تتظاهر بالتعاطف مـع حالتى:

- الراجل ده له أفضال عليا كتير، مديون له طول العمر وعمره مـا فكر أسدد له دين. نفسه قنعانة ويرضى بالقليل.
- شهيد يعنى؟

يسألونك فتجاوبهم بالإيجاب متباهيـا فـأتلقى مصمصـات الشـفاه ولا أعرف إن كانت سخرية منى أو أنها علامة التأسِّى على من استشـهد فى ساحتك وهو حى، أوشك أن ينفلت لسانى وأبوح بأن عيالى تشتتت فـى أطراف الدنيا ولم أستنجد بأحد، ثم انخطفت زوجتى أم عيالى ولـم أحصـل على دليل واحد بأنك كنت وراء اختطافها أو قتلها، ولا دليل عنـدى غيـر إحساسى الذى صرت أتشكك فيه وفيك فى ذات الوقت.

كنت أنا شهيدك يا يوسف، تناوشنى الأمراض وتلبد فـى أطرافـى، يضعف بصرى ويضعف سمعى وتتخلع أسنانى وأضراسى فاستخدم طاقمًـا صناعيًا وسماعة للسمع ومنظاراً لتوضيح الرؤيـة بينمـا أنـت تتصـابى يايوسف وتتغابى، تصبغ شاربك وشعر رأسك وسوالفك بالحناء الحجازيـة، ثم تتزوج فى شيخوختك بامرأتين غير أصيلة التى هى أم عيالك، بنت بنت هارون لتمنحك الدفء فى برودة الشتاء بسمنتها المفرطة، وراقصة البندر الغريبة عن كفرنا التى جلبتها من مولد البدوى كى ترقص لك بالصـاجات

«وتتشخلع» لك وتجبرك على الرمح وراءها فترمح، وكنت أقارن حالى بحالك بعد اختفاء فردوس فأتعجب، ليس لأننى كنت أتمنى أن يتشابه حالى مع حالك وإنما لأننى تعرَّيت كل العرى وانسترت أنت بحسابات الخلق كل الستر وزيادة. أعرف أنك سوف تعود يا يوسف وتجلس مرة أخرى على دكة العمادة أمثالك يتجددون ويتكاثرون لحساب الشراودة والدكارنة وكل من كانت لهم مصلحة فى وجودك، لعلهم يصنعون الآن شبيهك، لكن لو عدت أنت أنت يا يوسف فتذكر أنك عمدة كفر ضيق يتبع مركز صغير فى محافظة قليلة الأهمية ضمن حدود وطن ينتمى للماضى أكثر مما ينتمى للحاضر، وتذكر أن الناس تتعلم وتفهم وأن الأكاذيب القديمة لن تنطلى عليهم، ربما من أجل هذا كتبت سيرتك وأنا أودع الدنيا وأتباكى على ما انتهيت إليه بسببك وبسبب أعوانك أو أسيادك، ولربما احتوت سيرتك شيئًا من سيرتى، وتعجب لأنك رغم القتل مازلت تعيش فى ذاكرتى وأننى رغم الصحو ميت فى ذاكرتك، كأنما انكتب لك كل المكسب السهل والصعود السهل والرجوع السهل بينما انكتب لأمثالى المكسب الصعب والطلوع الصعب واستحالة التراجع عن المطالبة ببعض العدل، ولأن كفرنا فى أيامك انشطر إلى عشرات الأجزاء، ولأنه لا يحتمل مزيداً من الانشطارات فكل ما أرجوه وأتمناه أن يتعلم ناس كفرنا البسطاء شيئًا من زمن العمدة الشلبى وسيرته، فلعل غيابك يعيد للقلوب اطمئنانها القديم، وللعقول وعيها وللأمهات والأباء بعض عيالها الذين تاهوا أو فروا أو رحلوا، ولعلنى أشهد بعينى وجه فردوس الغائب عنى أو أسمع أصوات عيالى ولو مرة واحدة فأفرح وأرقص على حافة الترعة مثلما كنت أفعل فى الزمن القديم، وزمن القدرة على معاودة الطلوع يتبدى لى فى البعيد وعدًا قابلا للتحقق إذا صح عزم العيال.

* * *

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٢٤٥٧ / ٢٠٠٣

هـذا الـكـاتـب



أحمد الشيخ

- ليسانس آداب قسم تاريخ ١٩٦٧ آداب عين شمس.
- جائزة الدولة التشجيعية عن مجموعة "النبش فى الدماغ" ١٩٨٥ .
- عضو مؤسس وعضو مجلس إدارة اتحاد الكتاب، وعضو نادي القصة.
- عضو أتيليه القاهرة للفنانين والأدباء.
- سافر ضمن وفود الكتاب والأدباء لتمثيل مصر إلى كل من الصين/ السعودية/ العراق/ ليبيا.
- صدر للكاتب:

- دائرة الإنحناء مجموعة قصص ١٩٧٠ .
- الناس في كفر عسكر، رواية ١٩٧٩ .
- النبش في الدماغ، مجموعة قصص ١٩٨١ .
- مدينة الباب، مجموعة قصص ١٩٨٣ .
- كشف المستور، مجموعة قصص ١٩٨٤ .
- [illegible]، مجموعة قصص ١٩٨٧
- حكاية شوق، رواية ١٩٩١ .
- البحر الرمادي، مجموعة قصص [illegible]
- حكايات [illegible]، رواية ١٩٩٦ .
- نصف الساعة السعيدة، مجموعة ١٩٩٦ .
- [illegible]، مجموعة [illegible]
- [illegible] الأكابر، مجموعة قصص ٢٠٠١ .
- الأعمال الكاملة (ج١) ٢٠٠٠ .
- الأعمال الكاملة (ج٢) ٢٠٠١ .
- وله مجموعة متنوعة من قصص الأطفال.

أرغب فى البوح بشىء وأعترض على فكرة البوح فى ذات الوقت ، كنت قد أسلمت روحى للموت والشلل فى ذات الوقت ، مثل أرنب برى لا يملك القدرة على تخطى حاجز الهلع والخوف الكامن داخله من البنى آدم الذى كان فى ذلك النهار الأغبر مجرد عمدة مبتدئ فى كفرنا «العجورى» ، وعندما جاء وكيل النيابة قلت لن أقول ، هكذا فكرت ، لو قلت ، لو تجرأت ورحت وقلت هل كان يصدقنى ، وإذا صدقنى فمن أدرانى بحقيقة الفاعل ، قد لا تكون للعمدة الشلبى صلة من أصله بمن ضرب ، وربما كانت مجرد صلة تحريض ينحبس فيها عدة سنوات «وتبوش» التضية ، وإذا لم يصدقنى وكيل النيابة فهل يسكت العمدة ؟ أم أنه سوف يستف لى التهم ويأتى بشهود زور على جنونى وإجرامى وقلة أدبى ، شهود من كل أكابر الناحية على سرقاتى من غيطان الخلق ، وشهود على علاقاتى بأولاد الليل وقطاع الطرق ، وتهم كثيرة تلبسنى مثل ثياب تفصيل وبالمقاس ، دبرتها فى عقلى وباختيارى أطفأت نار قلبى بالخرس ، وتواطأت مع العمدة الذى قالت عيناه بدلاً من لسانه ، تتوعدان باقتدار وقدرة ، أنا لم أجرّب أن أعرف من هو أكثر منه قدرة على الفُجر فى كل من عرفتهم فى كل عمرى ، كان قادراً فاجراً بحق ، لا خجل ولا حياء ، والعينان الضيقتان تتسعان غضباً فى محاولة للتخويف ، قلت لنفسى أفوت عليه وعلىّ الفرصة ، ألعب دور الخواف الأرنب البرى الغريب الذى تخطى حدود المسموح ، كان الأمر قد انتهى وعمل الناس ما يلزم ، أخذوا تصريح الدفن وحافظوا على كرامة الميت .